



تاريخ مجيد وعهد جديد



أعمال ملتقى الجزائر الدولي الإمام محمد بن عبدالكريم المغيلي (909هـ)

«الحوكمة واستقرار المجتمعات الإفريقية ووحدتها»



أعمال مُحَكَّمَة ومُرَاجَعَة

الجزء الثاني

الإشراف والمتابعة العلمية لأعمال الملتقى:
الجامعة الإفريقية- أدرار- الجزائر.

قاعة المؤتمرات
عبد اللطيف رحال - الجزائر العاصمة
الأحد والإثنين (12-13 ديسمبر 2022)

المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية

02

أعمال ملتقى الجزائر الدولي
الإمام محمد بن عبد الكريم الطغيلي (909هـ)
"الحكمة واستقرار المجتمعات الإفريقية ووحدتها"

صدر هذا الكتاب بدعم من وزارة الثقافة والفنون

01 02 11/23

ردمك : 978-9931-16-079-3

الإيداع القانوني: ديسمبر 2023

أعمال ملتقى الجزائر الدولي
الإمام محمد بن عبد الكريم المغيلي (909هـ)
"الحكومة واستقرار المجتمعات الإفريقية ووحدها"
الجزائر العاصمة الأحد والإثنين (12-13 ديسمبر 2022)

الجزء الثاني

أعمال مُحكَّمة ومُراجَعة

الإشراف والمتابعة العلمية لأعمال الملتقى:
الجامعة الإفريقية- أدرار- الجزائر.

المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية

إدارة الملتقى

*/ الإشراف العام: الحاج محمد حسوني

*/ المنسق العام للملتقى: أمين بن مالك

*/ رئيس لجنة تنظيم الملتقى: ابراهيم صدوق

*/ رئيس اللجنة العلمية للملتقى: الأستاذ الدكتور أحمد جعفري

المشرفون على الملتقى

*/ وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

*/ وزارة الشؤون الدينية والأوقاف

بالتنسيق مع:

*/ المجلس الإسلامي الأعلى

*/ المعهد الوطني للدراسات الاستراتيجية الشاملة

*/ الوكالة الجزائرية للتعاون الدولي من أجل التضامن والتنمية

اللجنة العلمية للملتقى:

الرقم	الاسم واللقب	جهة الانتماء	الصفة
01	الأستاذ الدكتور أحمد جعفري	الجامعة الإفريقية أدرار الجزائر	رئيسا
02	الأستاذ الدكتور محمد لمين بن عمر	الجامعة الإفريقية أدرار الجزائر	عضوا
03	الأستاذ الدكتور صديق حاج أحمد	الجامعة الإفريقية أدرار الجزائر	عضوا
04	الدكتور عبد الله كروم	الجامعة الإفريقية أدرار الجزائر	عضوا
05	الأستاذ عبد الرحمن حمادواكتني	وزارة الشؤون الدينية	عضوا
06	الأستاذ الدكتور عبد الله حاج أحمد	الجامعة الإفريقية أدرار الجزائر	عضوا
07	الأستاذ الدكتور عبد المجيد قدي	جامعة الجزائر 3	عضوا
08	الأستاذ الدكتور نور الدين صدار	جامعة معسكر	عضوا
09	الأستاذ الدكتور منير بهادي	مدير المكتبة الوطنية الجزائر	عضوا
10	الأستاذ الدكتور العيد جلولي	جامعة ورقلة	عضوا
11	الأستاذ الدكتور شريف مربيبي	جامعة الجزائر 1	عضوا
12	الأستاذ الدكتور محمد بن منوفي	جامعة الجزائر 1	عضوا
13	الأستاذ الدكتور محمد الأمين بلغيث	جامعة الجزائر 1	عضوا
14	الدكتور الطاهر عبو	الجامعة الإفريقية أدرار الجزائر	عضوا
15	الدكتور عبد الكريم الغوط	الجامعة الإفريقية أدرار الجزائر	عضوا
16	الدكتور أحمد بن عبد الكريم	الجامعة الإفريقية أدرار الجزائر	عضوا
17	الأستاذ الدكتور لحسن زغبيدي	جامعة الجزائر 1	عضوا
18	الأستاذة الدكتورة بوبة مجاني	جامعة قسنطينة 2	عضوا
19	الأستاذ الدكتور بومدين بوزيد	المجلس الإسلامي الأعلى	عضوا
20	الأستاذ الدكتور مرسلي لعرج	وزارة التعليم العالي والبحث العلمي	عضوا
21	الأستاذ الدكتور جمال يحيواوي	وزارة الثقافة والفنون	عضوا

المراجعة والتدقيق اللغوي للمداخلات:

- الأستاذ الدكتور أحمد جعفري،
الجامعة الإفريقية أحمد درايعية أدرار/الجزائر
- الأستاذ الدكتور محمد بن عبو،
الجامعة الإفريقية أحمد درايعية أدرار/الجزائر
- الأستاذ الدكتور الطاهر عبو،
الجامعة الإفريقية أحمد درايعية أدرار/الجزائر
- الأستاذ الدكتور عبد الرحمن العربي،
الجامعة الإفريقية أحمد درايعية أدرار/الجزائر
- الأستاذ الدكتور إبراهيم بلبالي،
الجامعة الإفريقية أحمد درايعية أدرار/الجزائر

الإشراف التقني:

- أيوب عميري،
الجامعة الإفريقية أحمد درايعية أدرار/الجزائر

المواد المنشورة في هذا الكتاب لا تعبر إلا عن آراء أصحابها، ولا تمثل بالضرورة وجهة نظر القائمين على الملتقى، ولا تلزمهم بأي حال من الأحوال.

ديباجة | ملّقتى:

بالرعاية السامية للسيد رئيس الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
السيد عبد المجيد تبون

ملّقتى الجزائر الدولي

الإمام محمد بن عبد الكريم المغيلي (909هـ)

"الحوكمة واستقرار المجتمعات الإفريقية ووحدها"

المركز الدولي للمؤتمرات عبد اللطيف رحال / الجزائر العاصمة

الجزائر العاصمة الأحد والإثنين (12-13 ديسمبر 2022)

الديباجة:

في ظلّ معطى الراهن الجيوستراتيجي، إقليميا وعالميا، وأمام تحديات المرحلة ووعي القيادة السياسية للبلاد، بات من الضروري، التفكير في تفعيل المرجعيات التاريخية، التي حبا الله الجزائر بها، بغية إعمال هذا المشروع الحضاري، بما يخدم شعوب المنطقة، وييسّر لهم سُبُل العيش في أمن وسلام.

والإمام محمد بن عبد الكريم المغيلي (ت909هـ)، واحد من أولئك الذين يمكن للجزائر، أن تراهن عليهم، في استقطاب الجوار الإفريقي، ولها أن تعوّل على أطروحته الفكرية السياسية، ومشروعه الإصلاحي، لأنّ تلعب هذه الأخيرة دورا استراتيجيا، في الحوكمة واستقرار المجتمعات الإنسانية، بما في ذلك دول الساحل الإفريقي وغيرها، نظير ما قدّمه لتلك المجتمعات.

لا يعدم العظماء بفاء أجسادهم أبدا، إنّما تبقى أعمالهم وآثارهم حيّة شاهدة على بصماتهم، التي خلدوها، لتكون منارة هادية للأجيال من بعدهم، يستلهمون من قبساتها ما يضمن لهم سُبُل البقاء في الحياة أحرارا، ويعزّز لهم ما يكفل استقرارهم في أوطانهم بعزة وكرامة.

الإمام المغيلي (ت909هـ) واحد من أولئك العظماء الذين قضوا حياتهم في مجالات مختلفة، وانفتح على محيطه الداخلي والخارجي، ليسجل تاريخا

حافلا في وطنه الجزائر، بالنظر إلى ثراء التجربة، وقوة الجسارة، ومركزية العطاء، ليعمق حضورا ثقيلًا في الجوار الإفريقي بوصفه فاتحا ومعلما ومصالحا، وليُسهم في استقرار الممالك والأوطان، ويرسّخ معالم النسيج الموحد فيها على المستويين الاجتماعي والثقافي.

وتشهد المكتبة العربية للإمام المغيلي بغزارة إنتاجه في تأليف العشرات من الكتب والتصنيفات في حقول معرفية متنوعة كالتفسير والفقه واللغة والأدب والتصوف والسياسة الشرعية والفلسفة، ومؤلفاته المحققة وغير المحققة، التي لا تزال تذخر بها خزائن المخطوطات والمكتبات الخاصة والعامّة داخل الوطن وخارجه.

إنّ إفريقيا لتسجل بأحرف من نور تلك الإسهامات الجليلة للإمام المغيلي في تشكّل مشهدها الثقافي والفكري والإصلاحي، بما أبلّى فيه من أثر طيب؛ إذ ربط بلده بدول غرب إفريقيا، ليؤسس مرجعية علمية واجتماعية وثقافية على مستويات متعددة تؤسس مرجعية مشتركة تحقق الاستقرار الاجتماعي والأمن الفكري في إفريقيا.

لقد قاد الإمام المغيلي حركة إصلاحية تستهدف تحرير الإنسان أينما كان، من كل الولاءات التي تشكّل تهديدا على وجود النفس البشرية أولا، ومقومات الدولة ثانيا، ومستقبل الأمم والشعوب ثالثا، وربط ذلك كلّه بأواصر الإيمان، وعرى الوطنية، لحماية الأمة من التذويب والانمحاء.

ولتحقيق تلك الشخصية المستقلّة والمتوازنة والمحافظة على ذاتها الحضارية والواعية بسياقات المعرفة وتحولاتها المتجددة، فقد انفتح إمامنا على الفكر الخصب، الذي يتلقى الجديد تلقيا إيجابيا في صورة المنطق الأرسطي، حيث دافع على توظيفاته المجردة، كما ردّ على بعض الأصوات الناشزة في فكر الأمة، وردّها لصواب التفكير السوي، لتبقى صامدة لا تتزعزع، وحرّة لا تستقوي بالأعداء، ولا تتضعضع بالأهواء، أصلها ثابت في أعماق الأوطان، وفرعها باحث في سماء العرفان...

ومن هذا المنطلق، قد كان التفكير في عقد هذا اللقاء العلميّ الكبير، على مائدة الإمام محمّد بن عبد الكريم المغيلي، ليكون الرمز الموحّد، والملمه

المُرشد، والقاسم المشترك بين الجزائريين وإخوانهم من شعوب القارة الإفريقية، ومن سائر المعمورة؛ واختير له عنوان: ملتقى الجزائر الدّولي «الإمام مَحْمَد بن عبد الكريم المغيلي: الحوكمة واستقرار المجتمعات الإفريقية ووحدها». وذلك بغية تحقيق جملة من الأهداف الأساسية.

– أهداف الملتقى:

- ✿ توطيد أواصر المحبّة والتعايش السلمي بين أبناء الجزائر والقارة الإفريقية خصوصا والمعمورة عموما.
- ✿ مدّ جسور التواصل الثقافي؛ وتوثيق الصلات والروابط التاريخية، بين الجزائر ومحيطها الإفريقيّ والعالم.
- ✿ الاستثمار في الرّأسمال الرّمزي، في مواجهة التطرّف والعنف، وتسوية النزاعات والصراعات.
- ✿ التذكير بمبادئ الإسلام السّميحة، بالوقوف على جملة من القيم والمثل العليا التي طبعت حياة الإمام المغيلي ومعاملاته؛ ومكّنته من ولوج أبواب إفريقيا، وكسب قلوب الملايين من ساكنتها، وترك حميد الأثر فيها.
- ✿ الوقوف عند شخصية الإمام المغيلي، في أبعادها الإفريقية والكونية.
- ✿ التعريف بتراث الإمام محمد بن عبد الكريم المغيلي، وتسهيل مهمّة الوصول إليه، والإفادة منه، تحقيقا ودراسة ونشرا.
- ✿ التعريف بجهود علماء الجزائر، ودورهم في نقل العلوم والمعارف إلى بلدان القارة الإفريقية والعالم.

ولتحقيق هذه الأهداف فقد رسمت للملتقى خطوطاً ومجاور كبرى شاملة.

– محاور الملتقى:

- المحور الأول: الإمام المغيلي. السيرة والمسيرة.
- المحور الثاني: التراث العلميّ والمعرفي للإمام المغيلي، تحقيقا ودراسة.
- المحور الثالث: البعد الإصلاحي التحرّري، في فكر المغيلي، عربيًا وإفريقيًا وعالميًا.
- المحور الرابع: تجلّيات الوسطية والاعتدال، في المنهج الدعويّ والسلوكي للإمام المغيلي، عربيًا وإفريقيًا وعالميًا.
- المحور الخامس: الأطروحة السياسية ومشروع الدولة، في الفكر السياسيّ للإمام المغيليّ (سنغاي والهوسا نموذجًا).
- المحور السادس: الإمام المغيليّ ومدرسة التصوّف الجزائرية. الامتداد الإفريقيّ والعالميّ.
- المحور السابع: الحكم الراشد ودوره في استقرار الشعوب الإفريقية. عرض حال لرسائل الإمام المغيليّ، وإسقاطها على السياق التاريخيّ الظرفيّ الأنّيّ.
- المحور الثامن: الحوكمة السياسية، والرؤية الكونية للإمام المغيليّ، بين راهن المرحلة، واستشراف المستقبل.

وقد استقبلت اللجنة في كل هذا أزيد من 90 مشاركة من قارات إفريقيا وآسيا وأوروبا وأمريكا وبما يزيد عن أربعين دولة وتم توزيع هذا العدد على أربع ورشات كبرى بمعدل 20 بحثًا في كل ورشة إضافة إلى 05 ندوات مفتوحة في ذات المضامين المشتركة.

وبعد يومين من النقاش والحوار وبعد الاستماع الى تدخلات وتفاعلات الحضور الذي قارب الألف مشارك خلصت لجنة التوصيات الى اقتراح 10 (عشر) توصيات كبرى كخارطة طريق للطبعات القادمة من هذا الملتقى.

– توصيات الملتقى:

1. إنشاء مركز بحث باسم: «مركز الإمام المغيلي للبحوث والدراسات الإفريقية والعربية» ليكون رافداً للتنمية في إفريقيا والمنطقة العربية.
2. إنشاء مؤسسة الإمام المغيلي الإفريقية لتكون حاضنة ثقافية للعلماء والنخب وتكون مُعززة للفكر الوسطي المعتدل.
3. اعتماد اسبوع ثقافي إفريقي باسم «أدرار عاصمة الثقافة الإفريقية» تزامناً مع ذكرى الإمام المغيلي.
4. إنجاز فيلم مطول عن الإمام المغيلي يؤرخ لأمجاده ومآثره.
5. الاستفادة من فكر الإمام المغيلي لاستلهاام في المناهج التربوية والجامعية.
6. العمل على تقديم الإمام المغيلي كشخصية موسوعية والسعي إلى تصنيفه كتراث عالمي من طرف منظمة اليونسكو.
7. اعتماد جائزة الإمام المغيلي للدراسات التراثية والثقافية المشتركة.
8. تخصيص صرح علمي بجميع مرافقه يكون مخصصاً للإمام المغيلي.
9. العمل على تعزيز مكان الجزائر الدبلوماسية والروحية والدينية والثقافية واستثمارها.
10. العمل على مواصلة الملتقى في طبعاته سنوياً ونشر أعماله في جميع الوسائل والوسائط المتاحة.

ومن كرم رئيس الجمهورية، السيّد عبد المجيد تبون فقد تمت الموافقة على 50 (خمسين) بالمائة من توصيات الملتقى والحضور داخل القاعة، حيث وافق السيد الرئيس عبد المجيد تبون على التوصيات الآتية:

- ❖ إنشاء مركز بحث باسم: «مركز الإمام المغيلي للبحوث والدراسات الإفريقية والعربية» ليكون رافداً للتنمية في إفريقيا والمنطقة العربية.
- ❖ اعتماد أسبوع ثقافي إفريقي باسم: «أدرار عاصمة الثقافة الإفريقية» تزامناً مع ذكرى الإمام المغيلي.
- ❖ إنجاز فيلم مطول عن الإمام المغيلي يؤرخ لأمجاده ومآثره.
- ❖ اعتماد جائزة الإمام المغيلي للدراسات التراثية والثقافية المشتركة.
- ❖ العمل على مواصلة الملتقى في طبعاته سنوياً، ونشر أعماله في جميع الوسائل والوسائط المتاحة.
- ❖ على أن تبقى باقي التوصيات قيد البحث والدراسة.

الجهود الإصلاحية للإمام المغيلي من خلال رسائله

الدكتور عبد الكريم الغوط

باحث متخصص في الشريعة والقانون جامعة أحمد بن بلة -1- وهران

ملخص:

هذا البحث يسلط الضوء على جانب من جوانب شخصية الإمام المغيلي، والمتمثلة في الجهود التي بذلها من أجل إصلاح المجتمعات الإسلامية، ويعتبر من هذه الناحية من رواد الحركة الإصلاحية في توات وما جاورها من بلاد السودان والتكرور خلال القرن التاسع الهجري والخامس عشر الميلادي، وقد كانت له بصمات واضحة وإسهامات جلييلة في ميدان الإصلاح في عديد من المجالات منها الدينية والسياسية والاجتماعية وغيرها، ورغم كل البحوث والدراسات التي تناولت حياة الإمام المغيلي إلا أنه لازال بحاجة إلى مزيد منها، ويعتبر هذا البحث جهدا يضاف لما سبقه من جهود اهتمت بحياة الإمام المغيلي.

The Reformist Efforts of Imām al-Maghīlī through his Treaties

Abstract:

This research sheds light on an aspect of the personality of Imām al-Maghīlī, which is represented by the efforts he made to reform Islamic societies. From this perspective, he is considered one of the pioneers of the reform movement in Tat and its surrounding regions in Sudan and Takrur during the 9th Hijri century and the 15th AD century. He left clear marks and significant contributions in the field of reform in various areas, including religion, politics, and social affairs. Despite the numerous researches and studies that have covered the life of Imām al-Maghīlī, there is still a need for further exploration. This research is an additional effort that builds upon previous endeavors that focused on the life Imām al-Maghīlī.

Keywords:

Imām al-Maghīlī, Reformer, Efforts, Treaties

تمهيد:

يُعدُّ الإمام المغيلي- رحمة الله عليه- رائد الحركة الإصلاحية في توات خلال القرن التاسع الهجري والخامس عشر الميلادي، ومن العلماء القلائل الذين جمعوا بين العلم والعمل، وبين القول والفعل، وبين التنظير والتطبيق، والذي اتصف بالذكورة العلمية والغيرة الدينية، وقد كان له تأثير كبير على الساحة التواتية وما جاورها من بلاد السودان والتكرور.

وتظهر أهمية هذا البحث في إبراز الدور الذي قام به الإمام المغيلي في التغيير، والجهود التي بذلها في الإصلاح وذلك من خلال رسائله وكتاباتة، خاصة تلك التي أرسلها إلى الأمراء والملوك والسلطين، والتي برزت فيها بوضوح آرائه الإصلاحية، وعبر فيها عن مواقفه من التغيير بشجاعة منقطعة النظير، وكذا من خلال قيامه بالإصلاح بنفسه كما حدث في قضية اليهود.

وتجدر الإشارة أن هذا البحث ليس فريدا في بابه، ولا بدعا في عنوانه أو مضمونه، وإنما هو إضافة لما تقدم من بحوث كثيرة وكتب عديدة، والتي نذكر منها: الفقيه المصلح محمد بن عبد الكريم المغيلي لصاحبه الدكتور الحمدي أحمد، والإمام محمد بن عبد الكريم المغيلي ودوره في تأسيس الإمارة الإسلامية بأفريقيا الغربية للمؤلف الأستاذ مقدم مبروك، والشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي التلمساني المصلح الثائر وفكره الإصلاحي في توات والسودان الغربي للدكتور خير الدين شترة، وغيرها. إلا أن الجديد في البحث يظهر في طريقة التناول، وفي تغطية بعض المساحات التي لم تدرس بعد، وفي بعض الزوايا التي لم ينظر إليه من خلالها.

وينبغي التنويه هنا أن ما نقوم ببحثه ما هو إلا قليل من كثير، وغيض من فيض، وما هو إلا عينات من جهود الإمام المغيلي نقدمها على سبيل

الذكر لا الحصر، كانت عمدتنا في ذلك رسالتين من رسائله هما: أسئلة الأُسُقيا وأجوبة المغيلي، وتاج الدين فيما يجب على الملوك والسلطين.

ونهدف من هذه الدراسة إلى زيادة التعمق بحثا في شخصية الإمام المغيلي، وقوفا على جهوده في إصلاح المجتمعات الإسلامية، وصولا إلى استخراج درر آرائه في هذا المجال.

كما سنعالج ذلك كله من خلال طرح الإشكالات الآتية: ما الجهود الإصلاحية التي قام بها الإمام المغيلي؟ وما هي المجالات التي مستها هذه الجهود؟ وما هي المظاهر التي تجلت فيها هذه الإصلاحات؟.

وسنعمل على بحث هذه الإشكالات وفق المنهج الاستقرائي التحليلي مع الاستنباط والاستدلال وفق الخطة التالية:

مقدمة: وقد مرت بنا.

المطلب الأول: الإصلاح الديني.

المطلب الثاني: الإصلاح السياسي.

المطلب الثالث: الإصلاح الاجتماعي.

خاتمة: ويتم فيها عرض أهم النتائج والتوصيات.

المطلب الأول: الإصلاح الديني.

يأتي الإصلاح الديني عند الإمام المغيلي في قائمة أولوياته؛ إذ باستقامة الدين تستقيم الحياة والعكس صحيح، وما الخلل الذي أصاب المجتمعات الإسلامية والعطب الذي نراه في مختلف وجوه الحياة وجوانبها مرده في الأساس الابتعاد عن الدين الحق، ولهذا يقول الإمام مالك: «ولا يصلح آخر

هذه الأمة إلا بما أصحح به أولها»⁽¹⁾. يقول البشير الإبراهيمي معلقاً على هذه المقولة: «فالذي صلح به أول هذه الأمة حتى أصبح سلفاً صالحاً هو هذا القرآن الذي وصفه منزله بأنه إمام، وأنه موعظة وأنه نور، وأنه بينات، وأنه برهان، وأنه بيان...»⁽²⁾. ثم يقول: «فإن كانت الأمة شاعرة بسوء حالها، جادة في إصلاحه، فما عليها إلا أن تعود إلى كتاب ربها فتحكمه في نفسها وتحكم به، وتسير على ضوئه، وتعمل بمبادئه وأحكامه، والله يؤيدها ويأخذ بناصرتها وهو على كل شيء قدير»⁽³⁾.

فالإمام المغيلي كمصلح أدرك هذه الحقيقة، ولذلك كان منطلقه في الإصلاح هو إصلاح الدين بإرجاعه إلى المعين الصافي وتخليصه مما علق به من شوائب، وإرجاع عزة المسلمين بالرجوع للتمسك بكتاب ربهم وسنة نبيهم محمد صلى الله عليه وسلم الذي قال في الحديث: «تركت فيكم شيئين لن تضلوا بعدهما كتاب الله وسنتي»⁽⁴⁾. ونستطيع أن نلمس هذا المبدأ في الإصلاح عند الإمام المغيلي من خلال النقاط الآتية:

1- محاربة البدع والخرافات والانحراف عن الدين.

حيث نجد الإمام المغيلي يشدد على محاربة هذه المظاهر الماسية بالدين، ويحث على جهاد المتلبسين بالإسلام، بل ويعتبر جهادهم مقدم على جهاد

⁽¹⁾ عياض (أبو الفضل عياض بن موسى القاضي المالكي)، الشفا بتعريف حقوق المصطفى وحاشية الشمي، تحقيق: عبد السلام محمد أمين، (بيروت، دار الكتب العلمية، 2002)، ص56.

⁽²⁾ الإبراهيمي محمد البشير، آثار محمد البشير الإبراهيمي، (بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1977)، 3/94.

⁽³⁾ المصدر السابق، 3/95.

⁽⁴⁾ النيسابوري (أبو عبد الله محمد بن عبد الله المعروف بالحاكم النيسابوري)، المستدرک على الصحيحين، تحقيق: محمد مطرجي، (بيروت، دار الفكر، 2002)، 1/194.

الكفار، ويذهب به الأمر أبعد من ذلك لما يعدهم خارجين عن الملة مرتدين عنها، ونستشف هذا الأمر حين معرض إجابته على سؤال طرحه عليه الأسقيا محمد سلطان مملكة سنغاي مفاده: «...ثم سأله عن أحوال بعضهم وعن بلادهم، فإذا هم يشهدون ويقولون: لا إله إلا الله محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ويعتقدون مع ذلك أن هناك من ينفعهم ويضرهم غير الله عز وجل، ولهم أصنام... ويعظمون بعض الأشجار ويذبحون لها...»⁽⁵⁾. فكانت إجابة المغيلي كالآتي: «...وأما القوم الذين وصفت أحوالهم فهم مشركون بلا شك؛ لأن التكفير في ظاهر الحكم يكون بأقل من ذلك... فلا شك أن الجهاد فيهم أولى وأفضل من الكفار الذين لا يقولون: لا إله إلا الله محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم»⁽⁶⁾. ثم يعلل الإمام المغيلي سبب اعتبار الجهاد فيهم أفضل وأولى من الكفار فيقول: «...لأن هؤلاء الذين وصفت لبسوا الحق بالباطل، بحيث يضل بهم كثير من جهلة المسلمين حتى يكفر وهو لا يشعر، فهم أولى بالجهاد من الكفار الذين لا يقتدي بهم مسلم»⁽⁷⁾. ثم يستدل الإمام المغيلي على هذا الحكم بفعل خالد بن الوليد الذي حرق بعض المرتدين الذين منعوا إعطاء الزكاة بأمر من أبي بكر الصديق⁽⁸⁾.

2- موقفه من السحرة ومدعي الغيب.

ومن المسائل التي تدخل في الإصلاح الديني والعقدي والتي شغلت بال الإمام المغيلي السحرة ومدعي الغيب، خاصة أنها كانت ظاهرة جد منتشرة

⁽⁵⁾ المغيلي (أبو عبد الله محمد بن عبد الكريم)، أسئلة الأسقيا وأجوبة المغيلي، تحقيق:

عبد القادر زبدي (الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1974)، ص 43.

⁽⁶⁾ المصدر السابق، ص 46.

⁽⁷⁾ المصدر السابق، ص 46.

⁽⁸⁾ ابن أبي شيبعة (عبد الله بن محمد بن إبراهيم)، المصنف، تحقيق: سعد بن ناصر

الشثري، (الرياض، دار الكنوز إشبيليا، 2015)، 8/19.

في المجتمعات الإفريقية، فكان لابد من اتخاذ موقف حيالها، فكان سؤال سلطان سنغاي عن حكمها بمثابة الفرصة التي أعطيت للإمام المغيلي للتبيين والتوضيح والتوجيه، حيث سأله عن حكم من يزعم أنه يعلم شيئاً من الغيب بالخط في الرمل ونحوه أو بأحوال النجوم أو بأخبار الجن، أو بشيء من أصوات الطير وحركاتها⁽⁹⁾. فيجيبه الإمام المغيلي على النحو التالي: «إنّ كل ما ذكرتموه من بعض أهل تلك البلاد ضلال عظيم، فواجب على أمير المسلمين، وكل من له قدرة على المؤمنين أن يغير تلك المناكر كلها، أما من يزعم أنه يعلم علم الغيب بشيء من تلك الأمور أو غيرها فإنه كاذب ومن صدقه كفر، فواجب أن يوقفوا للتوبة تحت السيف، فمن تاب ترك، ومن أبى قتل بالسيف كفراً، فلا يغسل ولا يكفن ولا يدفن في مقابر المسلمين»⁽¹⁰⁾.

ويستدل الإمام المغيلي بقوله صلى الله عليه وسلّم: ﴿من صدق كاهنا فقد كفر بما أنزل الله على قلب محمد صلى الله عليه وسلّم﴾⁽¹¹⁾. وهذا الحكم هو نفسه حكم الساحر، وكل من يزعم أن عنده من الطلاسم والعزائم ونحوها، مما يجلب الرزق، أو يهزم العدو وغير ذلك⁽¹²⁾.

3- فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

يُعتبر مبعث هذه الفريضة هو الإيمان لقوله صلى الله عليه وسلّم: ﴿من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم

⁽⁹⁾ المغيلي، ص 62.

⁽¹⁰⁾ المصدر السابق، ص 64.

⁽¹¹⁾ أبو داود (سليمان بن الأشعث بن إسحاق الأزدي السجستاني)، سنن أبي داود، تحقيق: صدقي محمد جميل العطار (بيروت، دار الكتب العلمية، 1996)، 14/3.

⁽¹²⁾ المغيلي، ص 64.

يستطع فبقبله، وذلك أضعف الإيمان⁽¹³⁾. وهي التي تم على أساسها خيرية الأمة الإسلامية لقوله (ﷺ): ﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر﴾. (آل عمران، 110). فجعل الإمام المغيلي جميع تحركاته وفق هذه الفريضة وهو يقوم بعملية الإصلاح، ويعتبر ذلك من أفضل الجهاد فيقول: «...وأن يبادروا إلى تغيير ذلك وغيره من المناكر عاجلا، وواجب على والي الأمر أن يجتهد في ردّهم وردّهم وردع كل من في حكمهم، إلى العمل بشرائع الإسلام، فإن ذلك من أفضل الجهاد وأهمه، فليبادر لتغيير المنكرات كلها، بحسب ما أَرَادَهُ اللهُ لا بحسب هواه من الرأي السديد في تغيير المنكر»⁽¹⁴⁾.

4- الاستعانة بالعلماء الربانيين والتحذير من علماء السوء.

العلماء هم حراس الدين والمؤمنون على صيانة العقيدة، وحماية بيضة الإسلام، فمن يصلحهم إذا فسدوا؟ ولذا كان الإمام المغيلي حريصا على إيجاد العلماء الربانيين، والاستعانة بهم في أمور الحكم؛ لأنهم السند والمعتمد بعد الله سبحانه وتعالى في العملية الإصلاحية، كما يسميهم أهل الذكر أي أهل القرآن، ويعرف أهل الذكر أنهم من اجتمع فيهم شرطان اثنان هما: العلم والتقوى؛ لأن بالعلم يعرف الرشد من الغي، وبالتقوى يأمر بالرشد وينهى عن الغي، ويفرق بينهم وبين علماء السوء بالصفات الآتية:

- الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.
- إصلاح أمور الناس بالعدل.
- نصرة الحق على الباطل.
- نصرة المظلوم على الظالم.

⁽¹³⁾ مسلم (أبو الحسن مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري)، صحيح مسلم، تحقيق: صدقي جميل العطار، (القاهرة، دار الحديث، 2006)، ص 52.

⁽¹⁴⁾ المغيلي، ص 69.

- أن يكون غريباً بين علماء عصره.
- صفاء أحواله وقلة أمثاله⁽¹⁵⁾.

المطلب الثاني: الإصلاح السياسي.

يأتي الإصلاح السياسي بعد الإصلاح الديني، وبعد تخلص العقيدة من علائق الشوائب والانحرافات والبدع، وإرجاعها نقية صافية كما كانت في عهد السلف الصالح من أئمة الهدى، ويعتبر الإصلاح السياسي رأس كل إصلاح إذ أن الله يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن⁽¹⁶⁾، والإمام المغيلي انتبه إلى أهمية ذلك فكان اتصاله بالسلطين والتقرب منهم لا لينتفع منهم ولكن ليصلحهم، ويظهر ذلك جلياً في قوله لسلطان الدولة الوطاسية الشيخ بن أبي زكرياء الوطاسي ثم المريني لما وشى به فقهاؤه بأن هذا الرجل - أي المغيلي - إنما مراده الظهور والملك، وليس مراده الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: «والله ما هي عندي إلا هي والكنيف سيان» يقصد الإمارة⁽¹⁷⁾، ويؤكد الإمام المغيلي هذا المبدأ بقوله: «فيكن طمعك كله في الله، وخوفك كله من الله، وهمك كله في مصالح خلق الله، ما ولأك الله عليهم لتكون سيدهم ومولاهم، وإنما ولأك عليهم لتصلح لهم دينهم وديناهم»⁽¹⁸⁾.

⁽¹⁵⁾ المصدر السابق، ص 26.

⁽¹⁶⁾ ابن الأثير (أبو السعدات المبارك بن محمد بن محمد الشيباني)، جامع الأصول في أحاديث الرسول، تحقيق: عبد القادر الأرناؤوط (الرياض، مكتبة الحلواني، 1970)، 83/7.

⁽¹⁷⁾ ابن عسكر الشفشاوي (محمد بن عسكر الحسني)، دوحة الناشر من كان بالمغرب من مشائخ القرن العاشر، تحقيق: محمد حجي، (الرباط، دار المغرب، 1977)، ص 131.

⁽¹⁸⁾ المغيلي (أبو عبد الله محمد بن عبد الكريم)، تاج الدين فيما يجب على الملوك والسلطين، تحقيق: محمد خير رمضان يوسف، (بيروت، دار ابن حزم، 1994)، ص 18.

وقد كانت للإمام المغيلي اتصالات بعديد من سلاطين عصره منهم: سلطان تكدة و سلطان كنو، و سلطان كاغو⁽¹⁹⁾. ومن هذه الآراء الإصلاحية نجد:

1- تصحيح مفهوم الحكم واعتباره تكليفا لا تشريفا.

هذا المفهوم هو الذي ينبغي أن يتأسس عليه الحكم، فالحاكم هو خادم الأمة والقيّم عليها، والمسؤول عنها لقوله (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): ﴿كلكم راع، وكلكم مسؤول عن رعيته، فالإمام راع وهو مسؤول عن رعيته﴾⁽²⁰⁾. وتحقيقا لهذا المعنى يقول الإمام المغيلي: «وإنما أنت مملوك لا تملك شيئا وقد رفعتك مولاك على كثير من عباده لتصلح لهم دينهم ودنياهم لا لتكون سيدهم ومولاهم، وأنت في جميع مملكتك راع لا مالك، وكل راع مسؤول عن رعيته»⁽²¹⁾. ويستشهد بقوله (ﷺ): ﴿قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء﴾ (آل عمران: 26)، ثم يضيف الإمام المغيلي ضرورة القيام بواجب الخدمة تجاه الأمة، وتحقيق مبدأ العدل بين الرعية⁽²²⁾، ويستدل بقوله (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): «ما من أمير عشرة إلا يؤتي به مغلولا يوم القيامة حتى يفكه العدل أو يوبقه الجور»⁽²³⁾.

2- اختيار البطانة الصالحة:

يحث الإمام المغيلي السلطان أسقيا ومن خلاله كافة حكام المسلمين بضرورة اختيار الحاشية الصالحة المعينة على الخير الأمرة بالمعروف والناهية عن المنكر فيقول: «فإذا علمت ذلك أيها الأمير فعليك بأمرين:

⁽¹⁹⁾ السَّمَلَالِي (العباس بن إبراهيم)، الإعلام بمن حل مراكز وأغمات من الأعلام، (الرباط، المطبعة الملكية، 1993)، 107/5.

⁽²⁰⁾ البخاري (محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن بردزويه)، صحيح البخاري، تحقيق: محمود بن الجميل، (القاهرة، مكتبة صفا، 2003)، 525/1.

⁽²¹⁾ المغيلي، أسئلة الأسقيا، ص 23.

⁽²²⁾ المصدر السابق، ص 23.

⁽²³⁾ الدارمي (أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن)، مسند الإمام الدارمي، تحقيق: حسين سليم أسد الداراني، (السعودية، دار المغني، 2000)، 635/3.

الأول: أن تبعد عنك أهل الشر، وأن تقرب منك أهل الخير، لأن من الغالب على الإنسان التأنس بقريته، والميل إلى طبعه وتزينه»⁽²⁴⁾.

وفي ذلك ينشد الأبيات الآتية⁽²⁵⁾:

إذا قرب السلطان أشرار قومه * وأعرض عن أختيارهم فهو طالح
وإن قرب السلطان أختيار قومه * وأعرض عن أشرارهم فهو صالح
وكل امرئ ينبئك عن قريته * وذلك أمر في البرية واضح
فمن هاته الأبيات يضع الإمام المغيلي قاعدة يتحدد على ضوءها الحاكم الصالح من الطالح، وهي النظر إلى الأشخاص المحيطين به، فإن كانوا من أهل الصلاح فهو منهم، وإن كانوا من أهل الطلاح فهو منهم.

3- الحث على الحكم بما أنزل الله تعالى.

يحث الإمام المغيلي على وجوب الحكم بما أنزل الله عز وجل، ووجوب أن تكون تصرفات ولي الأمر وفق ما تقتضيه الشريعة الإسلامية، باعتبار أن الخلافة هي حراسة الدين وسياسة الدنيا به⁽²⁶⁾، وكما يعرفها هو نفسه بأنها: خلافة عن الله ونيابة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم -فضلها عظيم وحملها ثقل⁽²⁷⁾، فعلى السلطان أن يستجيب لقوله (ﷺ): ﴿وَأَنْ أَحْكَمَ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾ (المائدة: 51)، وقوله أيضا: ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ (المائدة: 49)، وفي هذا الشأن يقول الإمام المغيلي: «...الثاني: أن تسأل أهل الذكر عن كل ما لا

⁽²⁴⁾ المغيلي، ص 24.

⁽²⁵⁾ المصدر السابق، ص 25.

⁽²⁶⁾ الماوردي (أبو الحسين علي بن محمد ابن حبيب لبصري)، الأحكام السلطانية، أحمد جاد، (القاهرة، دار الحديث، 2006)، ص 15.

⁽²⁷⁾ المغيلي، تاج الدين، ص 15.

تعلم حكمه في تصرفاتك كلها لتحكم بما أنزل الله في كل ما حمّلك
منها...»⁽²⁸⁾.

4- إخلاص النية في الحكم.

يحث الإمام المغيلي الحاكم على ضرورة إخلاص النية في الإمارة، والنظر إليها على أنها ابتلاء بين الهوى والتقوى، وعلى العاقل الابتعاد عنها قدر الإمكان إلا من لزمته، فعن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه أنه قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم: «يا رسول الله ألا تستعملني - أي في منصب - قال: فضرب بيده على منكبي، ثم قال: ﴿يا أبا ذر إنك ضعيف وإنها أمانة وإنها يوم القيامة خزي وندامة إلا من أخذها بحقها وأدى الذي عليه فيها﴾⁽²⁹⁾.

ومن خلال حثه على وجوب الإخلاص في تولي الحكم، فهو يعدها من جملة العبادات، وأنها جزء لا يتجزأ من كل الإسلام، فعلى الحاكم أن يتوكل على الله ويستعين به في توليها لقوله صلى الله عليه وسلم: ﴿إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى﴾⁽³⁰⁾.

5- وجوب العدل بين الرعية.

يُعدُّ العدل أساس الملك، كما أن الظلم مؤذن بخراب العمران⁽³¹⁾، وما قامت السماوات والأرض إلا بالعدل، والعدل هو المبدأ الذي ينبغي أن يقام عليه الحكم، والإمام العادل يأتي في مقدمة السبعة الذين يظلمهم الله تحت ظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله⁽³²⁾، كما أن العدل قد حثت عليه نصوص

⁽²⁸⁾ المغيلي، أسئلة الأسقيا، ص 25.

⁽²⁹⁾ مسلم، ص 929.

⁽³⁰⁾ البخاري، 24/1.

⁽³¹⁾ ابن خلدون (عبد الرحمن أبو زيد ولي الدين)، مقدمة ابن خلدون، (بيروت، دار الفكر، 2004)، ص 272.

⁽³²⁾ البخاري، 313/1.

كثيرة متظافرة ومتواترة، منها ما هو من القرآن، ومنها ما هو من الأحاديث النبوية، من ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذَا حُكِمَ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعْمًا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾. (النساء: 57)، ومنها قوله صلى الله عليه وسلم: «إن المقسطين عند الله على منابر من نور، عن يمين الرحمن، وكلتا يديه يمين، الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما ولوا»⁽³³⁾.

وهذا فإن الإمام المغيلي يجعل للسلطة رجلين هما: العدل والإحسان ويعرفهما بقوله: «العدل أن يوفي كل ذي حق حقه من نفسه وغيره، أما الإحسان فهو أن يتفضل من نفسه لا من غيره»⁽³⁴⁾.

المطلب الثالث: الإصلاح الاجتماعي:

لا شك أن الإصلاح الاجتماعي هو الغاية من الإصلاح الديني والسياسي، إذ الهدف هو إيجاد الإنسان الصالح الذي يعبد الله ويقوم بأعباء الاستخلاف بإعمار الأرض قال: ﴿هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾. (هود: 61) وتحقيق الفوز في الدنيا والنجاة من النار في الآخرة، ولذا كان هدف الإمام المغيلي من الإصلاح الديني والسياسي هو الوصول إلى الإصلاح الاجتماعي، والذي كان مسعاه على الدوام، وكان يقوم به في حله وترحاله، بل ما ترك موطنه الأصلي ومسقط رأسه تلمسان إلا لسبب الفساد الذي كان يمخر جوانب الحياة فيها، وسيطرة اليهود على شؤونها وسلطة قرارها، وعثم فسادا فيها، ويعبر عن ذلك بإنشاده هذين البيتين⁽³⁵⁾:

⁽³³⁾ مسلم، ص 197.

⁽³⁴⁾ المغيلي، تاج الدين، ص 43.

⁽³⁵⁾ المغيلي (أبو عبد الله محمد بن عبد الكريم)، مصباح الأرواح في أصول الفلاح، تحقيق: عبد المجيد الخيالي، (الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1968)، ص 24.

تلمسان أرض لا تليق بحالنا * ولكن لطف الله نسأل في القضاء
وكيف يحب المرء أرضا يسوسها * يهود وفجار ومن ليس يُرتضى
1- تبين أحكام أهل الذمة.

لما حل الإمام المغيلي بديار توات العامر، وجد المجتمع التواتي غير متجانس دينيا، فهناك أغلبية مسلمة إلى جانبها أقلية دينية هم اليهود، وهذا ما يقتضي بموجب الشرع أن يكون لهم وضع خاص يسمى فقها «أهل الذمة»، غير أن اليهود وكما هو معروف عنهم يسعون دوما للسيطرة على المجتمعات، وتحكمهم في الرقاب مستعملين في ذلك المال لشراء الذمم والولاءات، هذا الوضع رفضه الإمام المغيلي واستدعى الأمر تبين الأحكام المنوطة بأهل الذمة من خلال رسالة تحت عنوان: «فيما يلزم أهل الذمة الكفار من الجزية والصغار»، ويرى من خلال هذه الرسالة أن الأصل في العلاقة بين المسلمين وغيرهم هو القتال ويستدل على ذلك بقوله: ﴿قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون﴾. (التوبة: 29). ولا يرفع عنهم السيف إلا بشرط إعطائهم الجزية وصغارهم فيقول في ذلك: «...فلا يحل أن يترك عدو من أعداء النبي المختار في شيء من القوى والأمصار وسائر البلد والأقطار إلا على الجزية والصغار»⁽³⁶⁾، ثم يحدد مقدار الجزية التي ينبغي عليهم دفعها حسب ما حدده أمير المؤمنين عمر بن الخطاب وهي ثمانية مثاقيل ذهبا للقادر عليها وأربعة مثاقيل لغير القادر.

وفي هذه الرسالة يبين كيفية استيفاء الجزية، ومن له الحق في أخذها وفيما تصرف⁽³⁷⁾ ثم يتحدث عن المقصود بالصغار وهو «أن يلزموا الذلة

⁽³⁶⁾ المغيلي، تاج الدين، ص 35.

⁽³⁷⁾ المصدر السابق، ص 36.

والمسكنة في أقوالهم وأفعالهم وجميع أحوالهم حتى يكونوا تحت قدم كل مسلم ومسلمة حر وحررة، عبد وأمة»⁽³⁸⁾.

كما يتطرق إلى حكم وجود كنائسهم حيث تبقى لهم كنائسهم التي بنوها قبل الإسلام، ولا يمكن لهم استحداث كنائس جديدة في بلاد الإسلام، وينقل الإمام المغيلي إجماع العلماء على ذلك⁽³⁹⁾، فإن بنيت فتهدم.

وتعد الشروط العمرية لأهل الذمة⁽⁴⁰⁾ هي المرجعية في تحديد العلاقة بين المسلمين وأهل الذمة الذين يسكنون معهم.

كما تجدر الإشارة هنا إلى أن للإمام المغيلي رسالة أخرى يبين فيها حكم العلاقة بين المسلمين وغيرهم جاءت بعنوان: "فيما يجب على المسلمين من اجتناب الكفار"، حيث يدعو فيها إلى مقاطعة الكفار وعدم استعمالهم، ويصف من يستعملهم بأنه لا دين ولا عقل ولا مروءة له، فيقول: «والحاصل أنه لا يقرب كافرا من نفسه أو عياله، أو يستعمله في أعماله، ويجعل بيده شيئا من ماله، إلا من لا دين له ولا عقل له، ولا مروءة له»⁽⁴¹⁾.

2- محاربة سيطرة اليهود على الحياة الاجتماعية.

لما هاجر الإمام المغيلي إلى توات وجد فيها ذات المشكل الذي تسبب في هجرته من تلمسان ألا وهو سيطرة اليهود على الحياة الاجتماعية، فلذا بدأ بإصلاح الوضع من خلال تحديد موقف الإسلام من أهل الذمة التي يمثلها

⁽³⁸⁾ المصدر السابق، ص 37.

⁽³⁹⁾ ابن القيم (أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب الدمشقي)، أحكام أهل الذمة، تحقيق: يوسف بن أحمد البكري وشاكرين توفيق العاروري، (السعودية، رمادي للنشر، 1997)، ص 1200.

⁽⁴⁰⁾ البيهقي (أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي)، السنن الكبرى، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي، (حيدر أباد الركن، الهند، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، 1356)، ص 202/9.

⁽⁴¹⁾ المغيلي، ص 23.

في هذه الحالة اليهود، وإسقاط هاته الأحكام على ممارستهم الواقعية وتحكمهم في مختلف نواحي الحياة الاجتماعية، وهو ما أظهر أن اليهود كأقلية دينية تعيش وسط أغلبية مسلمة لكنها متغلبة ومسيطرة وهذا ما يتنافى ووضعهم الذي ينبغي أن يكونوا عليه من نظرة شرعية، ولذا عزم على تصحيح الوضع وإصلاحه، ومحاربة فسادهم وسيطرتهم على المجتمع، وحتى يتأتى له ذلك ويطمئن إلى صوابية رأيه، راسل علماء المسلمين في فاس وتونس وتلمسان يستفتيهم ويشرح لهم الوضع في توات ومن هؤلاء: الحافظ التنسي، الإمام السنوسي، الرصاع مفتي تونس، أبو مهدي الماواسي مفتي فاس، ابن زكري مفتي تلمسان، القاضي أبو زكرياء يحيى ابن أبي البركات الغماري، وعبد الرحمن بن سبع التلمسانيان⁽⁴²⁾.

وقد كتب له في ذلك الحافظ التنسي كتابة مطولة وافقه عليها الإمام السنوسي ومما جاء فيها: «...فقد بلغني أمها السيد ما حملتكم عليه الغيرة الإيمانية والشجاعة العلمية من تغيير أحداث اليهود، أذلهم الله، كنيسة في بلاد الإسلام وحرصكم على هدمها، وتوقف أهل تمنطيطة فيه من جهة من عارضكم فيه من أهل الأهواء، فبعثتم إلينا مستنهضين همم العلماء فيه»⁽⁴³⁾. ثم يبصم على موافقة رأيه لرأي التنسي فيقول: «فلم أر من وفق لإجابة المقصد وبذل وسعه في تحقيق الحق وشفاء الغلة، ولم يلتفت لقوة إيمانية ونصوع إيقانه لما يشير إليه الوهم الشيطاني من مدهانة من يتقى شوكته سوى الشيخ الإمام القدوة الحافظ المحقق علم الأعلام أبي عبد الله محمد بن عبد الجليل التنسي أمتع الله به»⁽⁴⁴⁾.

(42) التنبكتي (أحمد بابا)، نيل الابتهاج بتطريز الديباج، (طرابلس، دار الكاتب، 2000)، ص576.

(43) المصدر السابق، ص576.

(44) المصدر السابق، ص576.

وقد شغلت المسألة اليهودية وما أحدثوه من مناكير في توات على جل تفكير وجهود الإمام المغيلي، ورأى أنها مسألة غير قابلة للإنظار، وفساد يتعين عليه إصلاحه، وعوج يجب تقويمه، وقد أُلّف في ذلك رسالة ذكر فيها الطغيان الذي عليه اليهود، وتسلطهم على رقاب الناس، ومداهنة الحكّام لهم وعنونها بـ "فيما عليه يهود هذا الزمان، في أكثر البلاد والأوطان، من الجرأة والطغيان، والتمرد على الأحكام الشرعية والأركان بتولية أرباب الشوكة وخدمة السلطان" ومما ذكره في هذه الرسالة التي يدل عنوانها على فحواها: «...ككيف يهود لم يأتوا ولو بواحدة - يقصد أحكام أهل الذمة - بل وتمردوا على الأحكام الشرعية بسكنى البلاد السائبة، والتعلق بأرباب الشوكة والتعصب بأموالهم على من يتسبب من العلماء في إذلالهم»⁽⁴⁵⁾. حتى إنه تبرأ من أتباعهم من المسلمين وأنشد في ذلك قصيدة يقول في مطلعها:

برئت للرب الودود * من قرب أنصار اليهود
قوم أهانوا دينهم * وأكرموا دين اليهود

لم يكذب يصل ردود العلماء على سؤاله حتى أعلن ثورته على اليهود، فهدم كنائسهم وقتل من عارضه، وحفز أتباعه على قتل اليهود عارضا في ذلك جائزة مالية لكل من قام بذلك فقال: «من قتل يهوديا فله علي سبعة مثاقيل، وجرى فيه أمور»⁽⁴⁶⁾، وقد كانت هذه الثورة عام 882هـ/1477م⁽⁴⁷⁾.

3- تطبيق نظام الحسبة.

ولتحقيق الإصلاح الاجتماعي فإن الإمام المغيلي ينتقل من التنظير إلى الدعوة للتطبيق، وحتى يعطي الإصلاح أكله فهو يدعو إلى تفعيل نظام

⁽⁴⁵⁾ المغيلي، مصباح الأرواح في أصول الفلاح، ص43.

⁽⁴⁶⁾ التنيكتي (أحمد بابا)، كفاية المحتاج لمعرفة من ليس في الديباج، تحقيق: محمد مطيع، (المغرب، طباعة وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية)، ص213.

⁽⁴⁷⁾ أحمد لحمدي، الفقيه المصلح محمد بن عبد الكريم المغيلي، (الجزائر، مكتبة الرشد، 2012)، ص125.

الحسبة. والحسبة في اللغة هي: مصدر الاحتساب، ومعناه طلب الأجر⁽⁴⁸⁾.
ويقال: احتسب فلان على فلان، أنكر عليه قبيح عمله، ومنه الْمُحْتَسِبُ⁽⁴⁹⁾.

اصطلاحاً: هي أمر بالمعروف إذا ظهر تركه ونهي عن المنكر إذا ظهر فعله⁽⁵⁰⁾.

يقول الإمام المغيلي: «فيما يجب على الأمير من ترتيب مملكته»: «فعلى كل أمير أن يرتب نظام مملكته لسكونه وحركته، على ما يتمكن به من صلاح رعيته فمن ذلك... محتسبون يكشفون ويصلحون»⁽⁵¹⁾.

فهو قد جعل الاحتساب من الأمور التي يجب على السلطان أن يرتب عليه مملكته، ومن الهيئات التي يستعين بها في إصلاح المجتمع، تماماً كما كان يفعل النبي صلى الله عليه وسلم: لما عين سعيداً بن العاص على سوق مكة كأول محتسب في الإسلام⁽⁵²⁾، وكما فعل عمر بن الخطاب لما عين الشفا بنت عبد الله العدوية رضي الله عنها محتسبة على السوق⁽⁵³⁾.

كما يحرض الإمام المغيلي الأسقيا على الاحتساب بقوله له: «...أعظم المنكرات ما ذكرتم من اختلاط الرجال والنساء وكشف العورات، فواجب

⁽⁴⁸⁾ ابن منظور (أبو الفضل محمد بن مكرم)، لسان العرب، (بيروت، دار الفكر، 1997)، 314/1.

⁽⁴⁹⁾ الفيروزآبادي (مجد الدين محمد بن يعقوب)، القاموس المحيط، تحقيق: محمد نعيم العرقسوسي، (بيروت، مؤسسة الرسالة، 2005)، ص 74.

⁽⁵⁰⁾ الماوردي، ص 349.

⁽⁵¹⁾ المغيلي، تاج الدين، ص 25.

⁽⁵²⁾ ابن عبد البر (أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد)، الاستيعاب في معرفة الأصحاب، تحقيق: محمد علي البجاوي، (بيروت، دار الجيل، 1992)، ص 21.

⁽⁵³⁾ ابن حجر العسقلاني (شهاب الدين أحمد بن علي)، الإصابة في تمييز الصحابة، تحقيق: صدقي جميل العطار، (بيروت، دار الفكر، 2001)، 162/7.

على أمير المؤمنين أن يجتهد في منع ذلك كله بما استطاع وأن يجعل أمناً، ويحتسبون على ذلك ليلاً ونهاراً سرا وجهاراً، وليس ذلك من باب التجسس على المسلمين، إنما ذلك حسن الرعي وردع المجرمين»⁽⁵⁴⁾.

ثم يضيف: «...فكل من رآه يتكلم مع أجنبية أو يدخل إليها أو ينظر إليها، فليأخذوه وليأتوا به إلى المتولي خطة الحسبة»⁽⁵⁵⁾.

ونلاحظ من خلال ما سبق كيف حرص الإمام المغيلي على تطبيق نظام الحسبة باعتباره وسيلة وقائية وردعية من تفشي الفساد داخل المجتمع، ووضع الآليات المعينة على تطبيق هذا النظام.

بل ويشدد على ضرورة القيام بأمر الاحتساب حتى وأن فقد الأمن؛ لأن ضرر ترك الحسبة على المجتمع أعظم من وجود الحسبة مع توليها غير الأمين، فالضرر الأكبر يدفع بالضرر الأخف⁽⁵⁶⁾.

كما بحث الحاكم على القيام بالاحتساب بنفسه خاصة العس ليلاً فيقول: «...بل من العوائد الجارية والسياسة السلطانية في كثير من البلاد الإسلامية، أن بعد صلاة العشاء بقليل يطوف الحاكم في البلد بأعوانه الليل كله، فكل من صادفوه في طريق رموه في السجن حتى ينظر غداً في أمره»⁽⁵⁷⁾.

وهذه سنة الرسول صلى الله عليه وسلم حيث كان يقوم بالاحتساب بنفسه، فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مر على صبرة طعام، فأدخل يده فيها فنالت أصابعه بللاً فقال: «ما هذا يا صاحب

⁽⁵⁴⁾ المغيلي، أسئلة الأسقيا، ص 67.

⁽⁵⁵⁾ المصدر السابق، ص 67.

⁽⁵⁶⁾ المصدر السابق، ص 68.

⁽⁵⁷⁾ المصدر السابق، ص 68.

الطعام؟». قال: أصابته السماء يا رسول الله قال: «أفلا جعلته فوق الطعام كي يراه الناس، من غش فليس مني»⁽⁵⁸⁾.

وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقوم بذلك بنفسه فعن عبد الله بن ساعدة الهذلي قال: «رأيت عمر بن الخطاب رضه عنه يضرب التجار بالدرّة إذا اجتمعوا على الطعام بالسوق حتى يدخلوا السكك ويقول لا تقطعوا علينا سابلتنا»⁽⁵⁹⁾.

كما كان يقوم بنفسه بالعسس، وكان يستصحب معه أسلم مولاه، وربما استصحب عبد الرحمن بن عوف⁽⁶⁰⁾.

4- محاربة الآفات الاجتماعية والغش التجاري.

أ- محاربة الآفات الاجتماعية.

كما دعا الإمام المغيلي إلى محاربة الآفات الاجتماعية خاصة السحر والشعوذة التي كانت منتشرة بكثرة في تلك البلاد الإفريقية، وذلك عن طريق تطبيق حكم الشرع فيهم وهو القتل تعزيراً⁽⁶¹⁾، فيقول: «...يوقف تحت السيف كل ساحر وساحرة، وكل من يزعم أن عنده من الطلاسم والعزائم ونحوها ما يجلب الرزق أو يهزم العدو أو نحو ذلك فمن تاب منهم ترك، ومن أبي قتل»⁽⁶²⁾.

⁽⁵⁸⁾ مسلم، ص 71.

⁽⁵⁹⁾ بن سعد (محمد بن سعد بن منيع الزهري)، الطبقات الكبرى، تحقيق: علي محمد عمر، (القاهرة، مكتبة الخانجي، 2001)، 63/3.

⁽⁶⁰⁾ المصدر السابق، 262/3.

⁽⁶¹⁾ الدسوقي (محمد عرفة)، حاشية الدسوقي على الشرح الكبير، (بيروت، دار الفكر)، 302/4.

⁽⁶²⁾ المغيلي، أسئلة الأسقيا، ص 64.

ب-مكافحة الغش التجاري.

يعد الغش التجاري من مظاهر الفساد التي قد تستشري في أي مجتمع، فينبغي حينها محاربتها، وإعادة إصلاح الوضع على ما كان عليه حفاظاً على أموال الناس حتى لا تؤكل بالباطل، ولما رأى الإمام المغيلي هذا الخلل عمد إلى إصلاحه من خلال حث سلطان سنغاي الأسقيا بجعل محتسب على السوق يحفظ على الناس أموالهم وأرزاقهم فقال: «وواجب على أمير المؤمنين أن يجعل أميراً على الأسواق وحفظ الأرزاق، فليصلح موازين كل بلد على نسبة واحدة»⁽⁶³⁾.

ولم يكتف الإمام المغيلي بهذا، وإنما حدد بدقة عمل المحتسب في السوق وما ينبغي عليه القيام به من ضبط الموازين، وإصلاح المكييل، وعرضها على المراقبة من وقت لآخر وكيفية الوزن، وطريقة وضع الميزان وغير ذلك.

ويدعو الأسقيا إلى معاقبة أهل الغش والخبديعة بأعظم عقاب، وهو مصادرة أموالهم التي يجمعونها عن طريق الغش والخداع⁽⁶⁴⁾.

خاتمة:

وبعد ما تقدم نصل إلى أهم النتائج والتوصيات.

1- يعد الإمام المغيلي أحد أهم رواد الإصلاح في توات وفي بلاد السودان والتكرور خلال القرن التاسع الهجري والخامس عشر الميلادي.

2- شملت جهود الإمام المغيلي الإصلاحية عديد المجالات منها: الدينية والسياسية والاجتماعية وغيرها.

⁽⁶³⁾ المصدر السابق، ص 64.

⁽⁶⁴⁾ المصدر السابق، ص 65.

3- من الإصلاحات التي قام بها في المجال الديني: محاربة البدع والخرافات والانحراف عن الدين، الدعوة إلى التصدي للسحرة ومدعي الغيب بتطبيق حكم الشرع فيهم، وجوب القيام بفريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وغير ذلك مما يخدم الأمة ويصلحها.

4- من الإصلاحات السياسية التي دعى إليها الإمام المغيلي: إخلاص النية في الحكم، تصحيح مفهوم الحكم، الحث على الحكم بما أنزل الله، وجوب العدل بين الرعية.

5- من الإصلاحات الاجتماعية التي خاضها المغيلي: محاربة سيطرة اليهود على الحياة الاجتماعية في توات، مكافحة الآفات الاجتماعية والغش التجاري، الدعوة إلى تطبيق نظام الحسبة.

6- كان التغيير والإصلاح هو الشغل الشاغل للإمام المغيلي في حله وترحاله.

7- يعتبر الإمام المغيلي من القلائل الذين جمعوا بين العلم والعمل والقول والفعل.

8- لم تقتصر الجهود الإصلاحية للإمام المغيلي على مجتمع معين وإنما كانت عابرة للحدود ممتدة لمجتمعات مختلفة.

9- لم تتجه جهود الإمام المغيلي الإصلاحية إلى عامة الناس في المجتمع فحسب بل شملت أيضا أصحاب القرار فيه من ملوك وأمراء وسلاطين.

أما أهم التوصيات فهي:

1- رغم كل الدراسات والبحوث التي تناولت حياة الإمام المغيلي إلا أن شخصيته لا تزال بحاجة إلى المزيد منها ولا زالت جوانب من حياته يكتنفها الغموض تحتاج من يكشف الستار عنها.

2- زيادة الاهتمام بالتراث العلمي للإمام المغيلي، والعمل على طبعه
قصد الحفاظ عليه والاستفادة منه.

3- توطيد العلاقات مع الدول التي نتقاسم معها نفس النظرة للإمام
المغيلي باعتباره إرث مشترك، والاستفادة من أحفاده المنتشرين في بعض
الدول الإفريقية لإيجاد امتدادات في هذه المجتمعات.

- دمج هذه الشخصية في المقررات المدرسية باعتبارها جزء لا يتجزأ من
التاريخ الوطني، ولإطلاع الأجيال المستقبلية عليها وتعريفهم بها.

المصادر والمراجع.

1. القرآن الكريم.
2. ابن أبي شيبة (عبد الله بن محمد بن إبراهيم)، المصنف، تحقيق: سعد بن ناصر الشثري، (الرياض، دار الكنوز إشبيلية، 2015).
3. ابن الأثير (أبو السعد المبارك بن محمد بن محمد الشيباني)، جامع الأصول في أحاديث الرسول، تحقيق: عبد القادر الأرنؤوط (الرياض، مكتبة الحلواني، 1970).
4. ابن القيم (أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب الدمشقي)، أحكام أهل الذمة، تحقيق: يوسف بن أحمد البكري وشاكرين توفيق العاروري، (السعودية، رمادي للنشر، 1997).
5. ابن حجر العسقلاني (شهاب الدين أحمد بن علي)، الإصابة في تمييز الصحابة، تحقيق: صديقي جميل العطار، (بيروت، دار الفكر، 2001).
6. ابن خلدون (عبد الرحمن أبو زيد ولي الدين)، مقدمة ابن خلدون، (بيروت، دار الفكر، 2004).
7. ابن عبد البر (أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد)، الاستيعاب في معرفة الأصحاب، تحقيق: محمد علي البجاوي، (بيروت، دار الجيل، 1992).

8. ابن عسکر الشفشاوي (محمد بن عسکر الحسني)، دوحة الناشر من كان بالمغرب من مشائخ القرن العاشر، تحقيق: محمد حجي، (الرباط، دار المغرب، 1977).
9. ابن منظور (أبو الفضل محمد بن مكرم)، لسان العرب، (بيروت، دار الفكر، 1997).
10. أبو داود (سليمان بن الأشعث بن إسحاق الأزدي السجستاني)، سنن أبي داود، تحقيق: صدقي محمد جميل العطار (بيروت، دار الكتب العلمية، 1996).
11. أحمد لحمدي، الفقيه المصلح محمد بن عبد الكريم المغيلي، (الجزائر، مكتبة الرشاد، 2012).
12. الإبراهيمي محمد البشير، آثار محمد البشير الإبراهيمي، (بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1977).
13. البخاري (محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن بردزويه)، صحيح البخاري، تحقيق: محمود بن الجميل، (القاهرة، مكتبة صفا، 2003).
14. البيهقي (أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي)، السنن الكبرى، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي، (حيدر آباد الركن، الهند، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، 1356).
15. التنبكي (أحمد بابا)، نيل الابتهاج بتطريز الديباج، (طرابلس، دار الكاتب، 2000).
16. التنبكي (أحمد بابا)، كفاية المحتاج لمعرفة من ليس في الديباج، تحقيق: محمد مطيع، (المغرب، طابعة وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية).
17. الدارمي (أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن)، مسند الإمام الدارمي، تحقيق: حسين سليم أسد الداراني، (السعودية، دار المغني، 2000).
18. الدسوقي (محمد عرفة)، حاشية الدسوقي على الشرح الكبير، (بيروت، دار الفكر).
19. العباس بن إبراهيم، الإعلام بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام، (الرباط، المطبعة الملكية، 1993).
20. الفيروزآبادي (مجد الدين محمد بن يعقوب)، القاموس المحيط، تحقيق: محمد نعيم العرقسوسي، (بيروت، مؤسسة الرسالة، 2005).

21. الماوردي (أبو الحسين علي بن محمد ابن حبيب البصري)، الأحكام السلطانية، أحمد جاد، (القاهرة، دار الحديث، 2006).
22. المغيلي (أبو عبد الله محمد بن عبد الكريم)، أسئلة الأسقيا وأجوبة المغيلي، تحقيق: عبد القادر زبادية (الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1974).
23. المغيلي (أبو عبد الله محمد بن عبد الكريم)، تاج الدين فيما يجب على الملوك والسلاطين، تحقيق: محمد خير رمضان يوسف، (بيروت، دار ابن حزم، 1994).
24. المغيلي (أبو عبد الله محمد بن عبد الكريم)، مصباح الأرواح في أصول الفلاح، تحقيق: عبد المجيد الخيالي، (الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1968).
25. النيسابوري (أبو عبد الله محمد بن عبد الله المعروف بالحاكم النيسابوري)، المستدرك على الصحيحين، تحقيق: محمد مطرجي، (بيروت، دار الفكر، 2002).
26. بن سعد (محمد بن سعد بن منيع الزهري)، الطبقات الكبرى، تحقيق: علي محمد عمر، (القاهرة، مكتبة الخانجي، 2001).
27. عياض (أبو الفضل عياض بن موسى القاضي المالكي)، الشفا بتعريف حقوق المصطفى وحاشية الشمي، تحقيق: عبد السلام محمد أمين، (بيروت، دار الكتب العلمية، 2002).
28. - مسلم (أبو الحسن مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري)، صحيح مسلم، تحقيق: صدقي جميل العطار، (القاهرة، دار الحديث، 2006).

قيم السلام والعيش المشترك مقاربات في فتاوي الإمام المغيلي ونوازل

الأستاذ الدكتور عبد القادر بخوش

رئيس قسم العقيدة والدعوة – كلية الشريعة والدراسات الإسلامية- جامعة قطر

ملخص:

تروم الدراسة للإجابة عن الأسئلة الآتية: كيف تناولت فتاوي ونوازل الشيخ المغيلي العلاقة مع غير المسلمين؟ ما طبيعة العلاقة بين المسلمين وغيرهم في مجتمع المغيلي؟ هل كانت هذه العلاقة مبنية على التعصب والقطيعة أم على الانفتاح والتعاون؟ إلى أي مدى أسهم الإمام المغيلي في تكريس قيم التعايش السلمي مع غير المسلمين؟ وهل وفق الإمام المغيلي في إنجاز هذا المشروع في الواقع؟ وما هي النجاحات والعثرات؟ وإذا كان للإمام المغيلي دور في تعزيز قيم التعايش، وهي بلا شك من القيم العظيمة والمعالم البارزة في الإسلام، فلماذا تعامل الإمام بهذه الطريقة مع نازلة اليهود بتوات؟ هل تنم فتواه عن تطرف عنيف وتهديد مباشر لهذه القيم؟ أم أن تغير الزمان بحد ذاته عامل في تغير الحكم؟

The Values of Peace and Coexistence Approaches in the Fatwas and Calamities of Imām al-Maghīlī

Abstract:

The study aims to answer the following questions: How did the *fatwas* and calamities of Imām al-Maghīlī address the relationship with non-Muslims? What is the nature of the relationship between Muslims and others in al-Maghīlī community? Was this relationship based on fanaticism and estrangement, or on openness and cooperation? To what extent did Imām al-Maghīlī contribute to perpetuating the values of peaceful coexistence with non-Muslims? And did Imām al-Maghīlī succeed in accomplishing this project in reality? What are the successes and pitfalls? And if Imām al-Maghīlī had a role in promoting the values of coexistence, which is undoubtedly one of the great values and prominent landmarks in Islam, then why did the imam deal in this way with the calamity of the Jews in Tuat? Does his *fatwa* indicate violent extremism and a direct threat to these values? Or is the change of time itself a factor in the change of judgment?

Keywords:

Imām al-Maghīlī, *Nazilet* the Jews of Tuat, Non-Muslims in Muslim Community

سطع في سماء القرن التاسع للهجرة نجمٌ علم من أعلام الجزائر الكبار وفلتةٌ من فلتات ذلك الزمان يشار إليه بالبنان ويفتخر به في الأنام، هو الإمام محمد بن عبد الكريم المغيلي التلمساني (791هـ-1388م إلى 962هـ-1554م)⁽¹⁾، فلم يبق علم ولا فن إلا وله فيه قدم راسخة. حُظي باحترام وتقدير واسعين من قبل المؤسسات الدينية والسياسية في الغرب الإسلامي في عصره، لقد كان لفتاويه ونوازل عصره وقضاياه المستجدة الأثر البارز في إثارة نقاش علمي وحوار فقهي، تبعه حراك سياسي شهده موطن المغيلي ومحيطه الإقليمي. ليس فقط في عصره، بل تجاوزه إلى يومنا هذا، وسمعت أصداؤه في جميع أنحاء العالم. ولا زالت نازلة يهود توات تثير النقاش والجدل الفقهي والديني والسياسي والحضاري، وموضوعها الرئيس هو فتوى الشيخ المغيلي بجواز هدم كنائس اليهود بتوات باعتبار وجودها مخالفة شرعية، ومنكرا تجب المبادرة إلى إزالته.

وللأمانة أن النازلة لم تلق بعدُ حَقَّها من الدرس والتمحيص؛ لما لها من علاقة بمعرفة الحكم الشرعي المحكوم بفهم الواقع الذي ينزل عليه الحكم الشرعي لإقرار أو رفض إحداث دور العبادة لغير المسلمين في العالم الإسلامي، وماله من تأثير على قيم السلام والعيش المشترك. وتأتي أهمية الدراسة في تحليل الحكم الفقهي العام لنازلة اليهود بتوات، وحيثياته، واستكمال الدراسة التحليلية للفتاوي والنوازل حول موضوع قيم السلم والتعايش.

⁽¹⁾ عبد القادر باجي، الإمام المغيلي عصره وحياته دراسة تاريخية، تحليلية وتوثيقية (منشورات وزارة الشؤون الدينية و الأوقاف تلمسان عاصمة الثقافة الإسلامية، 2011) ص27.

تروم الدراسة الإجابة عن الأسئلة الآتية: كيف تناولت فتاوي الشيخ المغيلي ونوازله العلاقة مع غير المسلمين؟ ما هي طبيعة العلاقة بين المسلمين وغيرهم في مجتمع المغيلي؟ هل كانت هذه العلاقة مبنية على التعصب والقطيعة أم على الانفتاح والتعاون؟ إلى أي مدى أسهم الإمام المغيلي في تكريس قيم التعايش السلمي مع غير المسلمين؟ وهل وفق الإمام المغيلي في إنجاز هذا المشروع في الواقع؟ وما هي النجاحات والعثرات؟ وإذا كان للإمام المغيلي دور في تعزيز قيم التعايش، وهي بلا شك من القيم العظيمة والمعالم البارزة في الإسلام، فلماذا تعامل الإمام بهذه الطريقة مع نازلة اليهود بتوات؟ هل تنم فتواه عن تطرف عنيف وتهديد مباشر لهذه القيم؟ أم أن تغير الزمان بحد ذاته عامل في تغير الحكم؟

كل هذه الأسئلة ستطرح على محك البحث والنقاش الهادئ لتحقيق الأهداف المرجوة من هذا البحث والمتمثلة فيما يأتي:

- 1- بيان موقف الإسلام من التعايش السلمي مع غير المسلمين.
- 2- الاستفادة من التراث الفقهي للنوازل في دحض بعض الشبه وكيل تهم جزافاً، التي تتهم فقه النوازل المالكي بالتعصب ضد أهل الذمة في مجتمع الغرب الإسلامي.
- 3- دحض لما أُلصق به من تطرف وعنف تجاه المخالفين للدين.
- 4- كشف النقاب عن قيم الحوار والتعارف والعيش المشترك في فتاويه ونوازل.

تنطلق الدراسة من فرضية أساسية هي: أن الشيخ المغيلي -ولعلو كعبه في العلوم الشرعية وتضلعه في الفقه المالكي- لا يمكن أن يعارض مبادئ الإسلام في إرساء قيم التعايش السلمي مع الآخر المخالف.

يعتمد البحث على المنهج الاستقرائي في تتبع كتب الفتاوي والنوازل لدى المغيلي، وسبر أغوار معاني قيم السلم والتعايش من خلال تتبع الأسئلة

وأجوبتها. واستعان البحث بالمنهج التحليلي النقدي لتحليل الأسئلة والفتاوي، وبيان علاقتها بموضوع السلم والتعايش.

خطة البحث: تتألف خطة البحث من مقدمة ومبحثين وخاتمة.

المقدمة: اشتملت على أهمية البحث، ومشكلته، وأهدافه، ومنهجه، وخطته.

المبحث الأول: قيم السلم والعيش المشترك في عصر المغيلي: مفهوم، وتأسيس، وحيثيات

المبحث الثاني: نوازل الإمام المغيلي وترسيخ قيم التعايش السلمي.

الخاتمة: وفيها أهم النتائج والتوصيات.

بعد هذه المقدمة لا بد من إرجاع الفضل لله سبحانه في تيسير هذا البحث ثم جزيل الشكر للقائمين على هذا المؤتمر العامر.

المبحث الأول: قيم السلام والعيش المشترك في عصر المغيلي: مفهوم وتأسيس وحيثيات.

المطلب الأول: مفهوم السلام والعيش المشترك:

درج الباحثون المعاصرون على استعمال السلام والعيش المشترك، ومقارباته ضمن مصطلحات عدة، مثل: التعايش، والتسامح، والتعاون، والحوار، والتقارب، والتعارف، مما أعطى أهمية اصطلاحية لثلاثة جوانب شائعة: الأول سياسي، والثاني اقتصادي، والثالث ديني وحضاري.

ومنه؛ فإن السلام والعيش المشترك، بالمعنى العام، يتضمن أنماطاً مختلفة من العلاقات، حيث لا يقتصر على من يختلفون دينياً وحضارياً فحسب، بل يشمل أيضاً بقية العلاقات الأخرى، مثل العلاقة بين المذاهب والنحل داخل الدين الواحد، وكذلك العلاقة بين مختلف الدول والشعوب

سياسياً وثقافياً وعقائدياً. وإن كان المفهوم السائد والغالب الآن هو التعايش الديني والحضاري، والذي يعني أن يحيا الأشخاص ذوي الأديان المختلفة مع بعضهم البعض على أساس الثقة والاحترام، وذلك من خلال نشر ثقافة السلم، بما يضمن الأمن والأمان للجميع. إنه المصطلح الأحدث والأكثر شيوعاً في العصر الحاضر، وهو ما نراه الأكثر اتساقاً مع مقاربتنا.

ارتبطت رسالة الإسلام منذ بزوغ فجره بالدعوة إلى قيم السلام والعيش المشترك واعتبار السلام أصل العلاقات بين الأفراد والجماعات والدول والحضارات والأديان، وهي قيم مستمدة من منظومة القيم الإسلامية المستوحاة من القرآن الكريم والسنة المطهرة وسيرة النبي صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين وتراث الأمة الناصع الأصيل.

أولى القرآن الكريم عناية فائقة بلفظ السلم ومشتقاته في آيات عديدة، حثَّ عليه، ورفع من شأنه؛ قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً﴾⁽²⁾، إن السلام اسم من أسماء الله تعالى، قال تعالى: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيَّمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾⁽³⁾.

وتحية الإسلام السلام، قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا﴾⁽⁴⁾، وكلمة الإسلام مأخوذة من مادة السلام، فكلاهما يشتركان في توفير الطمأنينة والأمن والسكينة، حتى في ساحات القتال، وميادين الحرب، يقول تعالى: ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا﴾⁽⁵⁾، فالآية تحث المسلمين على التجاوب مع الدعوة إلى السلام إذا طلبها الخصم.

⁽²⁾ سورة البقرة، آية 208.

⁽³⁾ سورة الحشر، آية 23.

⁽⁴⁾ سورة النساء، آية 94.

⁽⁵⁾ سورة الأنفال، آية 61.

ثم جاءت السنة النبوية لتؤكد مركزية السلم وقيمتها، فصدر من عاصمة دولة الإسلام الأولى أول دستور مدني يدعو إلى التعايش المشترك بين أهل الدين الواحد، والتعايش بين أهل الأديان الأخرى، فيما اشتهر بوثيقة المدينة، وتنطوي هذه الوثيقة على أهميّة تاريخية وقانونية تضمنت بنودها التكفل بالأمن الجماعي والتعايش السلمي بين جميع مواطني دولة المدينة المنورة بمختلف أجناسهم ودياناتهم⁽⁶⁾.

ولم تكتف الرسالة الإسلامية بالتنظير للسلم والتعايش، وبيان أهميته، بالتنصيص عليه في القرآن الكريم والسنة النبوية، بل تعدته إلى امثال الأمة له عبر تاريخها الزاهر، والذي يحفظ لنا صفحات مشرقة في هذا الجانب لا يتسع متن البحث لإيرادها. وقد نقتصر في هذا المقام على ذكر دور الفقه المالكي الثري في الدعوة إلى السلم والتعايش في المغرب العربي الكبير، هذا الفقه الذي من معينه نهل وارتوى الإمام المغيلي.

المطلب الثاني: الفقه المالكي بالمغرب العربي الكبير وقيم السلم والعيش المشترك.

مذهب الإمام مالك من المذاهب الفقهية الأربعة في الإسلام. إنه المذهب الفقهي السائد في شمال وغرب إفريقيا والأندلس، بدأ بالتشكل والتجذر منذ عصر الأدارسة (172 هـ)، والتزم به المغرب الإسلامي الكبير منذ ذلك الزمن إلى اليوم، وهذا ما صرح به ابن خلدون في مقدمته بقوله: «وأهل المغرب جميعاً مقلدون لمالك رحمه الله»⁽⁷⁾. هذه المنطقة التي ولد فيها الشيخ المغيلي ونشأ عليها وتربى وترعرع في ربوعها.

⁽⁶⁾ ابن هشام، السيرة النبوية، تحقيق عمر عبد السلام تدمري (بيروت: دار المعرفة، ط5، 1983م)، ج1 ص501-504.

⁽⁷⁾ ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون (بيروت: دار القلم، ط4، 1981م)، ص449.

وما من شك في أن فتاوي المغيلي لها جذور متجذرة آيلة إلى فقه المالكية. وإذ نتعرض للمذهب المالكي في المغرب في عصر المغيلي، فإنما لالتماس مدى تأثير المغيلي بتلك الآراء الفقهية وأثرها في إصدار فتاويه إذ ليس بالأمر الهين أن يجازف المغيلي بمعارضة ما هو مألوف من فتاوي المذهب.

انفتح المذهب المالكي على غيره من المذاهب الفقهية والشرائع السماوية السابقة واعترافه بالجميع واستعداده للتعایش معهم والاستفادة منهم؛ لقد اتخذ قاعدة «شرع من قبلنا» ما لم يرد ناسخ أصلا من أصوله، واعتمد المذهب المالكي بالعمل بالعرف والعادة وتطبيقه في القضاء، لقوله تعالى في قصة يوسف عليه السلام: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدًّا مِّن قَبْلِ فَصَدَقْتَ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ، وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدًّا مِّن دُبُرٍ فَكَذَبْتَ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾⁽⁸⁾.

وهي قاعدة تعزز التعایش بين المذاهب والطوائف المختلفة وتجنبها التعصب المذهبي والطائفي. وكان لهذه القاعدة وغيرها صداها في بلورة الفتاوي في المغرب كما أدت دورا في بث روح التسامح والعيش المشترك في المغرب، فحصل التعایش بين أصحاب المذاهب، تجسد هذا التعایش السائد بشكل مثير ولافت للانتباه كان يطبع العلاقة بين الفقهاء المالكية وغيرهم من أصحاب المذاهب الأخرى.

إن ما تعج به كتب الفتاوى والنوازل في هذا الباب لم يكن ترفا معرفيا ولا كان أمرا طارئاً يعبر عن مخالطة أهل الذمة للمسلمين بالغرب الإسلامي، بل مثل واقعا ملموسا، تجسدت فيه قيم السلم والتعايش السلمي لقرون عدة.

ومن أمثلة النوازل الفقهية التي ظهرت بالمغرب في هذا الباب، ما جاء في نوازل ابن الحاج قاضي الجماعة بقرطبة من أنه: «إذا اشترى رجل دارا بها

⁽⁸⁾ سورة يوسف، آية 26-27.

بئر مشتركة مع الدار التي تجاورها، ثم ألقى تلك الدار المجاورة ليهودي أو نصراني، فإنه ليس بعيب، لأن الله أباح لنا طعامهم»⁽⁹⁾.

وسئل الإمام السيوري في أمر "يهودي اشترى دارا في درب ليس فيه إلا مسلمون من أهل العافية والخير، فسكن اليهودي الدار، وأذى الجيران بشرب الخمر وفعل ما لا يجوز، وللدرب بئر بإزاء هذه الدار، فصار يملأ معهم بدلوه وحبله فهل يجوز إبقاؤه أم تباع عليه؟ وإذا بقي، هل يملأ معهم أم لا"؟

ولم تتضمن الفتوى ما يشير إلى ترحيل هذا اليهودي أو طرده من المجتمع الإسلامي، بل أكدت الفتوى على كف الأذى عن الجيران. فإذا أقلع عنه، فلا بأس ببقائه في المجتمع المسلم، ومخالطة المسلمين له، والاستقاء معهم⁽¹⁰⁾.

وثبت عن ابن رشد في إحدى فتاويه قوله: «معاملة المسلم للذمي جائزة فيما يجوز للمسلمين»⁽¹¹⁾ «وسئل القاضي ابن سراج الأندلسي عن: «الرجال من المسلمين ومن أهل الذمة، يتصدون لبيع السلع من النساء في الدور، أو لقضاء حوائجهن.» ولم يظهر من جوابه -رحمه الله- ما يفيد منع هؤلاء لبيع سلعهم بالدور، كل ما في الأمر أنه اشترط عدم الوقوع في المحذور وعدم تعاطي الأمور الموجبة لسوء الظن، ودلت النوازل أيضا على أن المسلمين كانوا يترددون على دور اليهود والنصارى ويدخلونها لقضاء بعض الحاجات والأغراض⁽¹¹⁾.

⁽⁹⁾ محمد الدرديري، «ملاحم التعايش السلمي مع غير المسلمين من خلال كتب الفتاوى لدى مالكية الغرب الإسلامي» مجلة المدونة، مج 5 ع 19-20 (الهند: مجمع الفقه الإسلامي، أبريل 2019)، ص 609-611.

⁽¹⁰⁾ النقيب فوانو، "وجدة والعمالة"، ترجمة: محمد الغرايب (وجدة: مطبعة شمس، 2003)، الجزء الأول، ص 181.

⁽¹¹⁾ محمد الدرديري، مرجع سابق، ص 611.

ما يُستشف من التراث النوازلي في المغرب العربي الكبير والأندلس، هو التأكيد على حق أهل الذمة في الاختلاط بالمسلمين والتعامل معهم في المعاملات التجارية والعقود المالية.

هذه بعض النماذج الحية من التعايش والعيش المشترك بين المسلمين وغيرهم من أهل الذمة كما نقلتها بعض النوازل الفقهية المالكية في بيئة وعصر المغيلي رحمه الله، وهي نماذج تعكس رؤيتها للتعايش السلمي وآليات ترسيخه.

يتضح مما سبق مدى انفتاح النوازل الفقهية المالكية بالمغرب العربي الكبير على أهل الذمة والبحث على التعايش معهم في سلام ووثام، وهي لا تخرج عن حدود ما جاء به القرآن والسنة. إذا كان هذا هو حال المناخ الفقهي السائد في عصر المغيلي، والذي لم يضق ذرعا بالتعايش مع أهل الكتاب ممثلاً لأحكام القرآن والسنة، ومجسداً للموقف الإسلامي الأصيل تجاه أهل الكتاب. فكيف كان الواقع السياسي وطبيعة العلاقات الإسلامية؟ كيف كان المناخ السياسي وطبيعة الموقف المسيحي واليهودي من التعايش مع المسلمين؟

المطلب الثالث: العلاقات الإسلامية المسيحية في المغرب العربي الكبير:

شهد عصر المغيلي أحداثاً تاريخية كبرى، كانت مفصلية في تاريخ الأمة بالكامل، كان أبرزها وأشدّها خطراً سقوط الحكم الإسلامي في الأندلس، بعد سقوط غرناطة المعقل الأخير بالأندلس سنة 1492م، الأمر الذي مهّد الطريق لنقل الصراع إلى بلاد المغرب العربي بتوجيه البابا، لتحقيق أهداف تنصيرية وتوسعية. تعد الحروب الإسبانية البابوية ضد مسلمي الأندلس امتداداً لسلسلة من الحروب الصليبية ضد الإسلام والمسلمين، وامتد هذا العدوان الصليبي الإسباني على دول شمال إفريقيا، مع نهاية القرن 13 الميلادي أي السابع الهجري، وانتهاء بالحملات الإسبانية ضد مدن بلاد

المغرب العربي الكبير طوال القرن السادس عشر الميلادي، فكانت بلاد إفريقيا الشمالية ساحة صراع جديدة لجريمة العدوان الإسبانية برعاية بابوية، لاعتبارات توسعية وصليبية.⁽¹²⁾

اكتست هذه الفترة التاريخية رمزية كبيرة في تاريخ الحملات الصليبية المتأخرة في الجناح الغربي من العالم الإسلامي، حيث مهدت الطريق للحملات الاستعمارية اللاحقة، والتي بفضلها تمت السيطرة على معظم أراضي بلاد المغرب الشمالية.

ووفقاً لهذه النزعة الصليبية الإسبانية المتفاقمة تجاه مسلمي الأندلس والمغرب العربي الكبير، إلى جانب دوافع تتعلق بالنفوذ الذي تحركه الأطماع السياسية والاقتصادية والانتقامية، وكذلك الحيلولة دون عودة المنفيين الأندلسيين المسلمين إلى بلادهم، ومنع إيصال إمدادات الإغاثة لمن بقي منهم في بلاد الأندلس⁽¹³⁾. وقد ساعدهم في تحقيق ذلك حالة الضعف التي أمت ببلاد المغرب الكبير عقب هزيمة الدولة الموحدية في معركة العقاب (2) عام 1212م/ 609هـ؛ ومع بعض مظاهر الازدهار التي شهدتها دول المغرب العربي الكبير في بداية نشأتها، إلا أنها بدأت أوضاعها تنهار مع القرن الخامس عشر الميلادي.⁽¹⁴⁾

إنه لا يمكن تجاهل حقيقة ثابتة شهد بها مؤرخو العصور الوسطى في تأليفهم، وهي أن النزعة الصليبية ظلت حاضرة في أذهان المفكرين، ورجال الدين الأوروبيين لقد اضطلعت المؤسسة البابوية بدورها الكبير في التعبئة

⁽¹²⁾ عامر أحمد قبيح، "السياسة الصليبية الإسبانية تجاه بلاد المغرب بعيد سقوط غرناطة (1492 - 1504 م / 897 - 910 هـ)" مجلة جامعة القدس المفتوحة للأبحاث والدراسات، ع38 (فلسطين: جامعة القدس المفتوحة عمادة البحث العلمي والدراسات العليا، 6\2016)، ص351-394.

⁽¹⁴⁾ المرجع نفسه والصفحات.

لهذا التوجه، وبخاصة من جانب البابا سيستو الرابع م1484-1477، الذي حفز الإسبان على تقديم سياسة استعمارية للسيطرة على ما تبقى من الأندلس، والانتقال للسيطرة على بلاد المغرب العربي الكبير، ومن أجل تحقيق ذلك عقد البابا اجتماعا برعايته ضم الإسبان والبرتغال من أجل توزيع نفوذ القوى الاستعمارية مناطق النفوذ، وتم إبرام معاهدة الكاكوفاس Tratado de Alcacovas، في الرابع من أيلول 1479م، أقرت أحد بنودها أحقية الإسبان في احتلال موطن الإمام المغيلي مملكة تلمسان (بلاد المغرب الأوسط) وفرض السيطرة عليها والأراضي الواقعة إلى الشرق منها، وتصبح بلاد المغرب الأقصى تحت سيادة البرتغال⁽¹⁵⁾.

في هذا الجو من الخطاب الديني الصليبي المتعصب، المدعوم بالعدوان المسيحي الغربي على بلاد المغرب عاش الإمام المغيلي، وبالمقابل فتور الهمة وضعف العزيمة في بلاد المغرب السياسية المترهلة والمستنزفة في الصراعات الداخلية على السلطة، في ظل انتشار الفوضى وانعدام الأمن، باتت بلاد المغرب العربي الكبير في ظل هذه الأوضاع البائسة تدفع ثمن الفرقة والتشرذم، حتى صدق عليه القول بأن بلاد المغرب تسلم نفسها لأعدائها⁽¹⁶⁾.

وبحسبما سبق؛ من الواضح أن قيم التعايش والسلام التي شكلت الفقه الإسلامي المالكي في بلدان المغرب العربي قوبلت على الجانب المسيحي بحملة صليبية حاكمة هددت هذه القيم وكانت سببا في انفجار موجة من التحفظات من قبل بعض الفقهاء المسلمين فيما يتعلق بأي اتصال ديني أو تعاون مع أهل الكتاب.

كل تلك الأحداث المضطربة والتعييسة ستمخض على ولادة مشروع جديد للتعايش وإعادة ترتيب العلاقة مع الآخر وفقا للمستجدات الراهنة

⁽¹⁵⁾ المرجع نفسه والصفحات.

⁽¹⁶⁾ محمد الشريف، ابن بطوطة وأزمة التجارة الصحراوية - كتاب المغرب الإسلامي نصوص دينية- (الدار البيضاء: ط2، الدار البيضاء، 1999م)، ص 115.

كتب له بعض النجاح في الصحراء وإفريقيا الغربية على يد المغيلي. فما هي أبرز هذه الملامح لهذا المشروع الجديد والذي يرافع عن الموقف الإسلامي الأصيل من الآخر أخذا رهانات الواقع الجديد؟

المبحث الثاني: نوازل الإمام المغيلي وترسيخ قيم التعايش السلمي.

المطلب الأول: تعريف النوازل:

شاع استعمال النازلة عند الفقهاء على الواقعة الجديدة التي لم يرد فيها نص وتقتضي اجتهادا وبيان حكم. وفي ذلك يقول الإمام مالك رحمه الله: «أدرکت هذا البلد وما عندهم غير الكتاب والسنة فإذا نزلت نازلة جمع الأمير لها من حضر من العلماء فما اتفقوا عليه أنفذه»⁽¹⁷⁾ ومنه فإن فقه النوازل هو:

(العلم الذي يعنى بالبحث والتنقيب عن الحلول والأجوبة الشرعية الملائمة للمستجدات والحوادث التي تنزل بالناس والتي لم يرد فيها نص أو سبق اجتهاد)⁽¹⁸⁾.

تعبر النوازل عن نوع جديد من المسائل لم يسبق حدوثها، وتكتسي أهميتها في حل المشكلات الطارئة في حياة الناس، لذلك تنطوي كتب النوازل على أهمية تاريخية، واجتماعية واقتصادية، وهي في جملة الوثائق التاريخية الهامة في معرفة نفسيات وطبائع المجتمعات.⁽¹⁹⁾

لا خلاف في أن هذا المصطلح غلب استعماله في الغرب الإسلامي ومع ما يقابله من مصطلحات شبيهة مثل الفتاوي والأسئلة والمسائل والأجوبة. ولا

⁽¹⁷⁾ أحمد أيت جلول، "فقه النوازل وأهميته عند الفقهاء المالكية المغاربة" مجلة المدونة، ع 4 (الهند: مجمع الفقه الإسلامي، عام 2018)، ص 132-172. نقلا عن لجامع

لأحكام القرآن، للقرطبي، 6/332.

⁽¹⁸⁾ المرجع نفسه والصفحات.

⁽¹⁹⁾ المرجع نفسه والصفحات.

يمكن ذكر أئمة هذا الفن وشيوخه إلا ويتربع الإمام المغيلي على عرش فقه النوازل وسدة القضاء في المذهب المالكي بالغرب الإسلامي، وليس أدل على ذلك من نازلة يهود توات التي ذاع صيتها وملأت الأفاق شهرتها. وهذا ليس بغريب على عالم موسوعي بلغ في الفقه والفتوى شأوا كبيرا، كان يجوب البلدان ويخالط الشعوب، لقد ازدانت المكتبة الإسلامية بما خلفه من كتب ومخطوطات في الفقه والتاريخ والأدب والفكر والسياسة لازالت شاهدة على تميزه وتفردته بين أقرانه.

المطلب الثاني: الحوار عند الإمام المغيلي ودوره في ترسيخ قيم التعايش:

أولا- الإمام المغيلي وشخصيته الحوارية:

أسهمت فتاوي الإمام المغيلي ونوازله في إبرازه كشخصية حوارية فريدة لم تضاهيها أية شخصية أخرى في عصره، وبرز مبدأ الحوار والاستشارة في تقديم الفتوى والرحلة في طلب المناظرة والنقاش مع الفقهاء ومقارعة الساسة بالحجج والبراهين علامة بارزة في شخصية المغيلي بلغت به منزلة رفيعة في عصره.

شهد له بالتفوق والعظمة في الحوار والمناظرة جمعٌ عظيم من كبار علماء عصره لما تفرد به من جرأة في التعبير عن رأيه وإفحام خصومه بالحجة والبرهان شعرا ونثرا. قال عنه صاحب البستان: «كان رحمه الله مقداما» على الأمور جسورا جرئ القلب فصيح اللسان، محبا في السنة، جدليا نظارا محققا له تأليف»⁽²⁰⁾. وقد وصفه التنبكتي بأنه كان: «مقداما على الأمور، جسورا، جريء القلب، فصيح اللسان، محبا في السنة، جدليا، نظارا، محققا»⁽²¹⁾. يعبر عن هذه النزعة الحوارية المتجدرة فيه

⁽²⁰⁾ خير الدين شترة، الشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي التلمساني، المصلح الثائر وفكره الإصلاحية في توات والسودان الغربي، (تلمسان: منشورات وزارة الشؤون الدينية والأوقاف، 2011)، ج 2 ص 389، نقلا عن ابن مريم، البستان، ص 250-251.

⁽²¹⁾ المرجع نفسه والصفحات.

الدكتور خير الدين شترة قائلاً: "لقد شكلت حياة الإمام محمد بن عبد الكريم المغيلي، نواة حركة حوارية واصطلاحية حقيقية في حياة كثير من الشعوب والأفراد، وامتد صداها داخل وخارج حدود وطنه تلمسان عربيا وإفريقيا وهو ما تحدثت عنه كثير من المصادر والمراجع الإسلامية، لقد استطاع الإمام بمنهجه في الحوار أن يعطي لنفسه مكانة عظيمة أصبح معها اسمه عند الأفارقة خصوصا مقرونا بلقب الإمام، وباتت كتبه مدرسة روحية تربي عليها العديد من علماء القارة فكان بذلك من أوائل الذين أخذوا المعارف الإسلامية في إفريقيا لمحك الحوار والنقاش"⁽²²⁾.

يمكننا القول إنّ الحوار والنقاش والتواصل كان على قدر كبير من الغنى والثراء عند الإمام، ولعل من المفيد أن نستشف من نوازله وفتاويه أسسه ومبادئه في الحوار.

ثانيا- أسس الحوار والتعايش عند الإمام المغيلي:

يكتسب الحوار والتعايش عند المغيلي أهميته في التعارف والتقريب بين الأطراف والآراء والمواقف والخيارات، ويمكن التركيز على أبرز هذه الأسس كما يلي:

1- الدعوة إلى التعارف والتواصل بين الناس: ويدل عليه قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾⁽²³⁾.

جسد هذه القيمة الإمام المغيلي في حله وترحاله، فقد تواصل مع كل أطراف المجتمع المختلفة من الأمراء والملوك والساسة والعلماء والفقهاء إلى عامة الناس، وكان له الأثر البارز في نشر قيم الألفة والتعايش. لقد تواصل الإمام المغيلي بالأمراء والحكام امتثالا لما أثر عن السلف وما نقله الإمام

⁽²²⁾ خير الدين شترة، المرجع السابق، ج 2، ص 340.

⁽²³⁾ سورة الحجرات، آية 13.

النووي -رحمه الله- في قوله : «أما النصيحة لأئمة المسلمين فمعاونتهم على الحق، وطاعتهم فيه، وأمرهم به، وتنبيههم وتذكيرهم برفق ولطف، وإعلامهم بما غفلوا عنه ولم يبلغهم من حقوق المسلمين، وترك الخروج عليهم، وتآلف قلوب الناس لطاعتهم»⁽²⁴⁾.

لقد استشعر الإمام المغيلي بحالة الفوضى والضعف والهوان التي يحياها العالم الإسلامي في الغرب بعد أن توالى عليه المحن وضعفت شوكته وتكالب عليه الأعداء الصليبيون، لقد أدرك الإمام الحاجة لإمارة إسلامية تقوي شوكة المسلمين للذب عن الإسلام في مواجهة العدوان. مسألة إقامة السلطة السياسية من الأساسيات الدينية التي لا خلاف حولها عند علماء الأمة حتى إن كثيرا منهم جعلها في صميم كتب العقائد⁽²⁵⁾، فمن الثابت أن المسلمين لا يستقيم أمرهم إلا بولاية تحقق فيهم مقاصد الدين.

كتب الإمام المغيلي مؤلفات عدة بسط فيها مناظراته وقناعاته السياسية، منها: أجوبة المغيلي عن أسئلة الأمير الحاج محمد الأسكيا، وتاج الدين فيما يجب على الملوك والسلطين".

وما تجدر الإشارة إليه إلى أن المغيلي على مدار كتاب تاج الدين يكرر عبارة "رأس كل بلية احتجاج السلطان عن الرعية". تختصر هذه العبارة مشروعه الحوارية الذي نذر نفسه له، وعكف على إنجازها، وتنم عن روح حوارية تواصلية يبثها الإمام باستمرار في أوساط الساسة والأمراء ويدعو بشكل صريح الأمراء وولاة الأمور للتواصل وسماع الشكاوى للمستضعفين من الناس مثل النساء والأطفال والأيتام.

⁽²⁴⁾ شرح صحيح مسلم 2/227.

⁽²⁵⁾ سعد الدين التفتازاني، شرح المقاصد في علم الكلام، (بيروت: عالم الكتب، ط1،

(1989)، ج 5، ص 253.

2- التكامل المعرفي:

أبانت ردود الإمام المغيلي على الأسئلة التي وردت إليه عن تكامل معرفي شامل، ينم عن رسوخ في الفقه وتضلع في العلوم العقلية، إلى جانب المعرفة المباشرة للواقع عن طريق ثقافة الرحلة والترحال والتي أكسبته رصيذا معرفيا موسوعيا.

لقد ألف الإمام المغيلي مؤلفات عدة في قضايا الدين وشؤون الرعية؛ من بينها مجموعة «في أمور الإمارة وسياسة الدولة» التي ألفها للأمير كانو. كما أرسل للأمير رمفا محمد بن يعقوب رسالة تتضمن وصية بما يجوز للحاكم من ردع الناس عن الحرام. ثم لبث مدة عند السلطان محمد بن أبي بكر الثوري وألف له أجوبة عن أسئلة كثيرة وجهها له، وهي المجموعة التي عرفت باسم «أسئلة الأسكيا وأجوبة المغيلي»، استند عليها الأسكيا في توطيد دعائم إمارته والتصدي لخصومه بالحجة الشرعية، كما خطت أنامله الشريفة سفر «الأرواح في ميزان الأرباح» أضاف إليه فيما بعد في السياق نفسه «رسالة حول" فيما يجب للحكام في ردع الناس عن الحرام » وهي تعنى بضبط العلاقة بين الحاكم والمحكوم⁽²⁶⁾.

جاب الإمام مدناً بعيدة وبلداناً عديدة في الفياقي والصحراء في كامل ربوع الغرب الإفريقي خلال رحلته في أفريقيا، تضمنت هذه الرحلة محاورة مع عدد من الأمراء والملوك وفي شتى العلوم والفنون خصوصاً مع الأميريين محمد بن يعقوب حاكم مملكة كنو، والأمير الحاج محمد أسكيا حاكم مملكة سنغاي⁽²⁷⁾.

⁽²⁶⁾ خير الدين شترة، مرجع سابق، ص 390-391

⁽²⁷⁾ خير الدين شترة، مرجع سابق، ج 2 ص 337، أحمد جعفري، «حوار الإمام محمد بن عبد الكريم المغيلي (909هـ) مع ملوك و أمراء غرب إفريقيا و أثره في حركة الفتح الإسلامي لإفريقيا» الفضاء المغربي، مج4، ع1 (تلمسان: جامعة أبي بكر بلقايد-كلية الآداب واللغات-، سبتمبر 2020)، ص5-18.

لقد حظي الإمام بترحيب الملوك والأمراء، وأنزلوه منزلة العلماء الأجلاء بحيث لم يحظ عالم بمثل هذا التكريم والإجلال في عصره. إلى جانب حوارهِ للأمرء والملوك ناقش العلماء والفقهاء وحاوهم في مسائل عديدة، لقد تواصل المغيلي مع علماء فاس وسلاطينها، وعلماء تونس، والحجاز، والأستانة طالبا الاستشارة على ما أصدره من فتاوى تخص نازلة كنائس وأديرة اليهود.

ويتضح تكامله المعرفي وإحاطته بشتى أنواع الفنون والعلوم جليا عند تبنيه النظر العقلي في ردوده على الأسئلة التي تطرح عليه، فظل يدعو إلى تهذيب الذهن بالمنطق، فالمنطق عنده علم التعبير عن الحق وتحقيقه، والاستدلال على الأفكار والبرهنة عليها. لقد برع في المناظرة والمحاورة، وأبان عن علم غزير وذكاء حاد وفطنة واسعة في مقارعة الحجة بالحجة⁽²⁸⁾. وفتواه ومحاورته وردت على الإمام جلال الدين السيوطي في نهيهِ عن الاشتغال بعلم المنطق، ومؤلفاته الفريدة شاهدةٌ بعلوِّ كعبه في المنطق والعلوم العقلية، من أشهرها كتاب: «منح الوهاب في رد الفكر إلى الصواب».

وفي ثنايا رده على الإمام جلال الدين السيوطي نستشف عن رؤية رحبة لعلم المنطق منفتحة على سائر العلوم العقلية، في قوله: «لكن من جهل شيئا عاداه». ويرى بأن التمكن من المنطق وامتلاك ناصيته ضرورة ملحة للبرهنة والحجة في الحوار، ويعول عليه لإقناع الخصم بإظهار البرهان والدليل، خاصة إذا كان من غير الملة الإسلامية الذي يقتضي الخوض معه المجادلة بالحسنى لقوله تعالى: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾⁽²⁹⁾، بينما في الموقف المقابل؛ يرى جلال الدين السيوطي تحريم علم المنطق والنهي عنه، وعدم التعامل به؛ لأنه من علوم الكفار. وقد انبرى الإمام المغيلي بالرد عليه، مدافعا ومنافحا عن رأيه بأن الحق هو المعيار

⁽²⁸⁾ خير الدين شترة، مرجع سابق، ص 547.

⁽²⁹⁾ سورة العنكبوت، آية 46.

وليس الرجال الذين يشتغلون به، وأنه يأخذ أصح العلوم ولو من كافر،
ونظم في ذلك نظماً قائلاً:

"هل المنطق المعني لإعارة عن * الحق أو حقيقة حين جهله
إلى أن يقول:

ودع عنك ما أبدى كفوروذمه * رجال وإن أثبت صحة نقله.
خذ الحق حتى من كفورولا تُقم * دليلاً على شخص بمذهب مثله.
عرفناهم بالحق لا العكس فاستبن * به لا بهم إذ هم هداة لأجله" (30)

ويتضح من رد الإمام المغيلي بأنه لا يرى مانعاً من دراسة علوم الكفار
بما فيها المنطق وعلوم الأديان والملل والتي خالفه فيها الإمام السيوطي؛ لذلك
كان للشيخ تأثير كبير في المدعوين فأسلم بتأثيره خلق كثير خصوصاً من
أفريقيا الوثنية⁽³¹⁾.

وانطلاقاً مما سبق، فإن الإمام المغيلي يدعو إلى إحياء علم له دوره في
الحوار والتعايش مع الآخر وهو علم الملل والنحل أو ما يعرف اليوم بعلم
مقارنة الأديان وهو علم إسلامي بدأ يختفي من ساحة العلوم الإسلامية
وكان قديماً من مفخرة الحضارة الإسلامية بتعبير المستشرقين أنفسهم.

3- معرفة حيثيات الواقع وتداعياته:

ليس الخبر كالعيان كما يقول البيروني في مقدمة كتابه النفيس حقيق
ما للهند من مقولة؛ لأنّ العيان هو إدراك عين الناظر عين المنظور إليه في

⁽³⁰⁾ الإمام محمد بن عبد الكريم المغيلي التلمساني مناقب وآثار، مدونة نازلة يهود توات،
تحقيق مقدم مبروك، (تلمسان: زارة الشؤون الدينية والأوقاف تلمسان عاصمة
الثقافة الإسلامية، 2011)، ص 105، نقلاً عن: مخطوطة فصل الخطاب في رد الفكر
للصواب، ص 2.

⁽³¹⁾ خير الدين شترة، مرجع سابق، 387

زمان وجوده وفي مكان حصوله، هذا ما طبقه الإمام المغيلي بعينه؛ فإلى جانب الاستشهاد بالأخبار والقصص الواعية، وإيراده لأخبار ومرويات كثيرة تمخضت في إصدار أحكام وفقه. ويمكن الاكتفاء بالتدليل بالعيان والمحاورة حين حلوله بإقليم توات أين أبصر اليهود حينها قد أحكموا سيطرتهم في كل شاردة وواردة من أمور حياة أهل توات، إلى جانب تمردهم على كثير من الأحكام الشرعية وهو مارأى فيه الإمام خروجهم عن صفة الذمي.

وتبين من خلال نوازله وفتاويه معرفته بأوضاع الغرب الإفريقي خاصة، واطلاعه الواسع بأحوال الناس وعاداتهم وتقاليدهم. وليس غريبا عليه ذلك، فقد ظل الإمام وخلال مسيرة حياته متنقلا بين ملوك الأمة وأمرائها ناصحا ومرشدا ومفتيا متخذا في ذلك المعاينة والتواصل المباشر مفتاحا أساسيا لباب دعوته.⁽³²⁾

يقول الأستاذ الدكتور أحمد جعفري: «وفي معرض رد الإمام على سؤال الأمير تتجلى لنا شخصية الإمام المغيلي الغيور على دينها من جهة والمراعية لأوضاع العصر والناس من جهة أخرى، آخذا بمبدأ قاعدة أخف الضررين، فهو وإن أفتى له بالجهاد نصرة لدين الله إلا أنه نهه إلى قضية جوهرية في علاقة الحاكم بالمحكوم حيث قال: «وإن لم تستطع أن تزيل ظلمه عن المسلمين إلا بمضرة عليهم، فقد تعارض هنا ضرران فاحذر تغيير منكر بمنكر مثله، أو أعظم منه فثبت هاهنا، وارتكب أخف الضررين لأن ارتكاب أخف الضررين قاعدة مشهورة وسنة مأثورة».⁽³³⁾

تضمنت رسائله ووصاياها للأمراء والسلطين دعوة صريحة لإصلاح الأوضاع الاجتماعية والسياسية وطبعها بالطابع الإسلامي إذ أوصى سلطان

⁽³²⁾ خير الدين شترة، مرجع سابق، ج2، ص 364-347

⁽³³⁾ أحمد جعفري، "حوار الإمام محمد بن عبد الكريم المغيلي (909هـ) مع ملوك و أمراء غرب إفريقيا و أثره في حركة الفتح الإسلامي لإفريقيا"، مرجع سابق، ص 11.

كانو قائلًا: «وامنع جميع أهل بلدك عن جميع أنواع الشرك وكشف العورات».⁽³⁴⁾

4- آداب الحوار والنقاش:

الإمام المغيلي عالم فذ ذو أدب جم ورجل إصلاح عارف بأمراض المجتمع الإسلامي وعلله، أوقف حياته على كشفها ومحاربة البدع وأوجه الفساد، يصدع بالحق ولا تأخذه في الله لومة لائم، يحركه إيمان راسخ وعلم موروث ونباهة متأصلة.

سلك في حواراته مسلك الأنبياء والمرسلين في الأخذ بالحكمة والموعظة الحسنة، ولشجاعته المطبوعة حُظي بترحاب بالغ من قبل الأهالي والحكام تقديرًا لعلمه والصدع بالحق وعدم المداهنة بالنصح، فألف رسائل متعددة في شؤون الدين وإصلاح الرعية؛ منها، مجموعة في أمور الإمارة وسياسة الدولة التي ألفها للأمير كانو.⁽³⁵⁾

لقد كان يستهل خطابه للأمرء بعبارات لطيفة تستهوي المخاطب وتستميله، يقول في إحدى خطابته للأمير من الأمرء: «فتوكل على الله واستعن في أمرك كله بالله، وليكن عملك كله لوجه الله فليكن طمعك كله في الله وخوفك كله من الله وهمك كله في مصالح خلق الله واشكر نعمة الله عليك وأحسن كما أحسن الله إليك ولا تقنط من رحمة الله»⁽³⁶⁾.

⁽³⁴⁾ الإمام محمد بن عبد الكريم المغيلي التلمساني، مدونة نازلة يهود توات، مرجع سابق، ص 250-251

⁽³⁵⁾ خير الدين شترة، مرجع سابق، ص 390.

⁽³⁶⁾ "رسالة المغيلي إلى سلطان كانو تاج الدين فيما يجب على الملوك و السلاطين تصنيف الإمام محمد بن عبد الكريم المغيلي التلمساني (ت 903 هـ-1503 م)"، تحقيق محمد فرقاني، مجلة عصور، ع2 (الجزائر: جامعة وهران، 2006م)، ص 189.

وكانت لغة الإمام المغيلي في التأليف والتدريس والمحاورة لغة سليمة، وأسلوبه من نوع السهل الممتنع، وأدبه متأثراً بالقرآن الكريم والسنة المطهرة وشعره لا تكلف فيه، وهو يقول الشعر بسليقته.⁽³⁷⁾ إن مظهر عبارات المغيلي تتغير بين الحين والآخر، فهي أحيانا جملة أخاذة أو نتف من خطبة موجزة، ولكنها على كل حال موافقة لمقتضى المقال.⁽³⁸⁾

يوضح الدكتور خير الدين شترة السياق اللغوي الذي أفرغ فيه الإمام أحكامه قائلا: "«يحاول تكثيف أفكاره في حكم وصيغ موجزة دون التضحية بالفكرة في سبيل المبنى فأسلوبه في حكمه وأمثاله أنيق وشيق، إذا تأمل الباحث ألفاظه، ألقاها جزلة قوية منتظمة في جمل متجانسة متألفة كقوله: (الكرم روح السلطنة والبخل نفس الشيطنة) وفي هاتين الجملتين تجد ثلاثة أنواع من المحسنات، أولها: لزوم ما لا يلزم ويتجلى في مقطع "نة" المكرر في آخر الفاصلتين، وثانيهما: المماثلة اللفظية بين لفظي السلطنة والشيطنة، وهما لفظان تقابلا في جملتين تشكلان روحا واحدا بهذا الأسلوب، وثالثهما: الجناس الناقص بين لفظي السلطنة والشيطنة»"⁽³⁹⁾.

وعندما تقرأ ما كتبه المغيلي تجد كلامه خالصا مما يشوبه من الزيادات والإطناب الممل، ففي المفرد تجد الحروف غير متنافرة متناسقة خالية من الغرابة ولا تجده يستعمل الكلمات المتناهية في الثقل على اللسان والعسيرة عند النطق بها، قال المغيلي: «لو أنك اطلعت على حبيب من أحبائك قد قرب عدوا من أعدائك لكرهت ذلك منه، ونفر قلبك عنه ولا تقبل منه عدرا حتى يبتعد عن أعدائك»⁽⁴⁰⁾.

⁽³⁷⁾ خير الدين شترة، مرجع سابق، ج2، ص 360

⁽³⁸⁾ المرجع نفسه، ص 393

⁽³⁹⁾ المرجع نفسه، ص 395

⁽⁴⁰⁾ الإمام محمد بن عبد الكريم المغيلي التلمساني مناقب وآثار، مدونة نازلة يهود

توات، مرجع سابق، ص 105، نقلا عن مصباح الأرواح، ص 31

ازدانت خطاباته بالحكم والقول البليغ الذي يشد القارئ والمستمع،
مثل مايقول في رده على سؤال فيما يجب على المسلمين من اجتناب الكفار:

وكل امرئ ينبغي عنه قرينه وذلك أمر في البرية واضح.⁽⁴¹⁾

المرء بأصغريه قلبه ولسانه.⁽⁴²⁾

لم يكتف الشيخ بالجوانب الأدبية واللغوية، بل كان بارعا أيضا في الاستدلال العقلي ويتخذ من اللغة المنطقية العقلية أساسا في موضوع الجدل والحجاج. ويستعين بالمنطق، ومن أمثلة ذلك في رده في بيان عدم الولاء للكفار كونه لا عقل له: فرده بأدلة عقلية وذلك في قوله: إن أول عقل المرء أن يقرب من أبواب منافعه ويبعد من أبواب مضاره⁽⁴³⁾. لقد أثار المغيلي مسألة منطقية كبرى صاغها الإمام في تبيان التديل بالعلوم العقلية لتكون ردوده في شكل قضايا بالكبرى والصغرى للبرهنة على المقاصد، وقد بدأ بالأدلة العقلية قبل النقلية.⁽⁴⁴⁾

بعد أن عرضنا الشواهد والدلائل على قيم الحوار والتعايش عند المغيلي، سنحاول أن نعالج في القادم من البحث مسألة نازلة يهود توات والتي فتحت المجال واسعا لكيل التهم على الإمام والافتراء عليه وأنه بفتواه الشهيرة في الدعوة إلى طرد اليهود في توات بأنه يحرض على العنف والكرهية تجاه المخالف في الدين.

المطلب الثاني: يهود توات:

أدرك الشيخ المغيلي واقع المجتمع الإسلامي في المغرب العربي الكبير وبقي منافحا عن الإسلام ثائرا ضد أعدائه؛ ومن منطلق المصلح المحلل رسم

⁽⁴¹⁾ مدونة نازلة يهود توات، مرجع سابق، ص 152.

⁽⁴²⁾ محمد فرقاني، مرجع سابق، ص 190.

⁽⁴³⁾ مدونة نازلة يهود توات، مرجع سابق، ص 162

⁽⁴⁴⁾ المرجع نفسه، ص 162

العلاقة بين المسلم والمخالف في الدين وبخاصة أهل الذمة الذين يعيشون في المجتمع الإسلامي، لقد ألف المغيلي جملة من الكتب في طبيعة العلاقات بين المسلم والمخالف في الدين منها: «ما يجب على المسلمين من اجتناب الكفار» و«عما يلزم أهل الذمة من الجزية والصغار» وكتاب «جزية أهل الذمة» وكتاب «رسالة إلى كل مسلم ومسلمة». وله في ذات السياق رسالة مطولة تدور حول الجزية وما يجب على المسلمين والكفار وهي في شكل فتوى تقدم بها الإمام لمن سألته بعنوان: «الإجابة عن سؤال حول قبائل في آخر الصحراء لا تنالهم أحكام الأمراء يتخذهم اليهود أخلاء ويلقبونهم بالغلائف».⁽⁴⁵⁾

وفي هذا المجال، تبقى نازلة يهود توات تشكل منعطفاً تاريخياً بارزاً على صعيد العلاقة مع أهل الكتاب في حياة الإمام المغيلي أثارت لغطاً وجدلاً وتأويلات وتباين آراء قديماً ولا تزال تشغل بال الكثير من الباحثين والمؤرخين اليوم لفهم حيثياتها، خاصة في شقها المرتبط بما يبدو مخالفة الإمام المغيلي للمتفق عليه بين الفقهاء المسلمين في ضبط العلاقة بين المسلمين وأهل الذمة، إلى حد ميل عديد من الآراء لكيل التهم له.

كيف يمكن التوفيق بين ما سبق أن توصلنا إليه، من أن الإمام المغيلي كان من دعاة الحوار والتعايش والتسامح، وما ثبت عنه في فتواه بوجوب طرد اليهود من توات وهدم معابدهم؟

ارتبطت النازلة بوضع سياسي واجتماعي خطير سبق وأن تم الحديث عنه وبخاصة في ظل تفتت العالم الإسلامي وعدم وجود إمارة إسلامية قوية من جهة ومن جهة أخرى خطر العدوان الصليبي والمتريص بالمغرب العربي الكبير.

⁽⁴⁵⁾ خير الدين شترة، مرجع سابق، ج 2 ص 391

في ظل هذه الظروف السياسية والاجتماعية العصبية التي يمر بها المجتمع الإسلامي بالمغرب العربي الكبير برز اليهود على مسرح الأحداث كقوة اقتصادية نامية تحكّموا في عصب المال ومردود التجارة القوافلية القادمة للمنطقة ومما زاد في قبضتهم الاقتصادية ما يأتي:

- سيطرتهم على التجارة العابرة للصحراء والقادمة للمنطقة.
- احتكار صياغة الذهب والفضة والصرافة النقدية والمالية.
- التدخل في الشؤون السياسية والتأثير على قرارات المشيخات المختلفة
- إبطال العقوبات المسلطة عليهم في حال ارتكاب للمخالفات.
- أضف إلى ذلك تلك المخالفات الشرعية التي انتهكوها وضاق بها المسلمون ذرعا، ومنها:

- طغيان اليهود وتعاليمهم على الأحكام الشرعية وخروجهم السافر عنها.

- امتناعهم عن دفع الجزية لبيت مال المسلمين.
- التعامل الربوي من قبل اليهود وإمساكهم بدواليب التجارة والأسواق مما أثقل كاهل المستضعفين من المسلمين.
- دخولهم وتغلغلهم في النسيج الإسلامي مما أصبح يهدد وحدته وتجانسه ولذلك فتوى المغيلي في الزواج من الكتابية لم يخالف فيها جمهور العلماء بإباحة الزواج من الكتابية، ولكنّه جعله بقيود متبعا نهج المالكية من قبله؛ حيث فرقوا بين الذمية، والحربية، فأباحوا الزواج من الأولى ومنعوه من الثانية، فمن أعطى الجزية حل للمسلمين نساؤه، ومن لم يعط الجزية لم يحل نساؤه. وهذا هو رأي المغيلي فيما دأب عليه السكان قبل مجيئه.⁽⁴⁶⁾

عبّر عن هذا الوضع المتأزم المستشري في منطقة توات وتحكم اليهود في قبضتها الأستاذ أبو القاسم سعد الله في قوله: «وجد اليهود صولتهم حينما

⁽⁴⁶⁾ المرجع نفسه، ص 54-55.

أحسوا بضعف الدولة السياسي داخليا وخارجيا فتواطؤوا مع بعض الأمراء على مدهم بالمال والدعاية لهم، بل وتوليتهم، بينما الأمراء يسمحون أو يتغاضون عن بناء اليهود بيعا لهم، وفتح المتاجر وتأسيس الشركات والاستلاء على طرق التجارة»⁽⁴⁷⁾.

كانت لهذه الأوضاع البئيسة والتي عاشها المسلمون في تلك البقاع في ظل تجاوز اليهود للحدود الشرعية والاستعلاء على المسلمين والتعدي والطغيان والتمرد على الأحكام أن تثير حفيظة الشيخ، فاعتبر ذلك إساءة لعموم المسلمين وأنها تفرض إسقاط الذممة عنهم، وهذا كله من أجل المحافظة على كيان الأمة من الزوال والانحيار.

كان لهذا الخوف الذي ملأ قلب الشيخ الإمام في محله، حيث كان صادقاً في تنبؤاته عندما كان المجتمع الإسلامي يعاني حالة من الضعف والتفكك، وتكالب الأعداء عليه، حتى احتل الأسبان المرسى الكبير بوهران سنة 914هـ/ 1508 م ليتبع ذلك سلسلة الحملات الاستعمارية الإسبانية والبرتغالية⁽⁴⁸⁾.

⁽⁴⁷⁾ أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، (بيروت: دار الغرب الإسلامي، ط1،

1998) ج1، ص 53.

⁽⁴⁸⁾ مدونة نازلة يهود توات، مرجع سابق، ص 62-63.

الخاتمة:

من خلال هذا الاستعراض الموجز لبعض نوازل الشيخ وفتاويه، يتضح بما لا يدع مجالاً للشك مدى النزعة الحوارية التي اتسم بها الإمام المغيلي ودعوته إلى السلم والعيش المشترك وفقاً للمبادئ الإسلامية الأصيلة وتماشياً مع الضوابط المحددة له، أخذاً في الاعتبار حيثيات الواقع الزمني والمكاني وتغيراته.

ويمكن القول بأن العالم الإسلامي في حاجة إلى إحياء مآثر عالم فذ وفقه نابغة ومصالح عظيم أوتي من العلم والخبرة ما يجعله في مصاف علماء ومفكري الأمة الكبار. حري بنا أن نستلهم تجاربه الرائدة في تأسيس الحوار والتعايش السلمي والتسامح المبني على أسس وقواعد الإسلام، مع الوعي بالمرحلة التاريخية التي دلت عليها تجربته، والتي توجب أيضاً قراءة هذه التجربة لاستلهام ما يحفظ للأمة هويتها منها وبخاصة في ظل أوجه الصراخ المختلفة. والاستفادة منها في واقعنا المعاصر خاصة في مجال فقه العلاقات الدولية وكيفية التعامل مع غير المسلمين من الأقليات والجاليات في المجتمعات الإسلامية إلى جانب الاستفادة منها في تحديد طبيعة التعامل مع الاحتلال الصهيوني للأرض المقدسة.

رحم الله الإمام المغيلي وأئمة وعلماء الجزائر وحياء الله أبطال الثورة الجزائرية الذين صدقوا ماعهدوا الله عليه من تحرير بلدهم من الاحتلال وساروا على درب القويم الذي سار عليه صلى الله عليه شفيح الخلق محمد بن عبد الله صلوات ربي وسلامه عليه.

مراجع البحث:

1. ابن هشام: السيرة النبوية تحقيق عمر عبد السلام تدمري، (بيروت: دار المعرفة، ط5، 1983م)
2. ابن خلدون، المقدمة، (بيروت: دار القلم، ط4، 1981م).
3. أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، (بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1998م).
4. الإمام محمد بن عبد الكريم المغيلي التلمساني مناقب وأثار، مدونة نازلة يهود توات، تحقيق مقدم مبروك، (تلمسان: وزارة الشؤون الدينية والأوقاف تلمسان عاصمة الثقافة الإسلامية، 2011م).
5. التفتازاني، سعد الدين، شرح المقاصد في علم الكلام، (بيروت: عالم الكتاب، ط1، 1998م).
6. الدرداري، محمد، «ملاحم التعايش السلمي مع غير المسلمين من خلال كتب الفتاوى لدى مالكية الغرب الإسلامي» مجلة المدونة، مج5 ع19-20 (الهند: مجمع الفقه الإسلامي، أبريل 2019)
7. الشريف، محمد، ابن بطوطة وأزمة التجارة الصحراوية – كتاب المغرب الإسلامي نصوص دينية-(الدار البيضاء: ط2، الدار البيضاء، 1999م).
8. النقيب فوانو «وجدة والعمالة»، ترجمة: محمد الغرايب، (وجدة: مطبعة شمس، ط1، وجدة، 2003م).
9. باجي، عبد القادر، الإمام المغيلي عصره وحياته دراسة تاريخية، تحليلية وتوثيقية (تلمسان: منشورات وزارة الشؤون الدينية والأوقاف تلمسان عاصمة الثقافة الإسلامية، 2011).
10. جعفري، أحمد، «حوار الإمام محمد بن عبد الكريم المغيلي (909هـ) مع ملوك وأمراء غرب إفريقيا وأثره في حركة الفتح الإسلامي لإفريقيا» الفضاء المغربي، مج4، ع1 (تلمسان: جامعة أبي بكر بلقايد -كلية الآداب واللغات-، سبتمبر 2020).
11. جلول، أحمد أيت. «فقه النوازل وأهميته عند الفقهاء المالكية المغربية» مجلة المدونة، العدد 4 (الهند: مجمع الفقه الإسلامي، عام 2018).

12.رسالة المغيلي إلى سلطان كانو تاج الدين فيما يجب على الملوك والسلاطين تصنيف الإمام محمد بن عبد الكريم المغيلي التلمساني (ت 903 هـ-1503 م)، تحقيق محمد فرقاني، مجلة عصور، ع2 (الجزائر: جامعة وهران، 2006م).

13.شتره، خير الدين، الشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي التلمساني، المصلح الثائر وفكره الإصلاحية في توات والسودان الغربي (تلمسان: منشورات وزارة الشؤون الدينية والأوقاف تلمسان عاصمة الثقافة الإسلامية، 2011م).

14.قبيح، عامر أحمد، «السياسة الصليبية الإسبانية تجاه بلاد المغرب بعيد سقوط غرناطة (1492 - 1504 م / 897 - 910 هـ)» مجلة جامعة القدس المفتوحة للأبحاث والدراسات، ع38 (فلسطين: جامعة القدس المفتوحة عمادة البحث العلمي والدراسات العليا، 6\2016).

وسطية الإمام المغيلي في التوحيد والسلوك

أ.د. محمد عبد الحليم بيشي

جامعة قطر

الملخص:

يعتبر محمد بن عبد الكريم المغيلي واحدا من أساطين العلم والتربية والدعوة والبلاغ والتفعيل في تلك الأزمنة التي بدأت فيها شمس دولة المسلمين بالتواري، وتتجلى ريادته في إحياء مفهوم العالم الرباني، وبراعته في إيصال الحقائق الإيمانية والأنوار الشرعية لمساحات عريضة في إفريقيا الغربية، حيث برع في التمكين للشريعة الإسلامية على مختلف الأصعدة الشعبية والرسمية، وجعل قدم الإسلام راسخة أمام موجات الوثنية والتخلف والبدائية التي كانت تخنق تلك الأصقاع.

والورقة تبحث عن أثر الوسطية في التوحيد والسلوك، وإشكالياتها قائمة في البحث عن حقيقة وجود المفهوم عند المغيلي، وتهدف إلى الكشف عن معالم الوسطية في الحقل العلمي للعقيدة الإسلامية تلقيا وتديسا وتمكينا في صدور العامة، وكذا البحث عن معالم تلك الوسطية في السلوك التربوي والتصوف الحقيقي، وأثرها في صناعة أجيال مسلمة معتزة بهويتها ومنتمية لأمتها الإسلامية، ومتواصلة مع غيرها من المخالفين.

والبحث لبنة واحدة في بناء مفكرة علمية عن إسهامات علماء الجزائر في مد إفريقيا بمدد علي ودعوي بسط صبغته على التدين والثقافة، وهو ما كان له أثره البين في ربط العلاقات بين الشمال وبين ساكنة الصحراء الكبرى وحوض النيجر وأعماق إفريقيا الوسطى، مما نتج عنه شبه وحدة ثقافية تأزرت في لاحق الأيام لتفتيت صخرة الاستعمار الفرنسي.

Moderation of Imām al-Maghīlī in Monotheism and Behaviour

Abstract

Imām Muḥammad b. ‘Abdul Karīm al-Maghīlī is considered one of the masters of science, education, advocacy, rhetoric, and activation in those times when the sun of the Muslim state began to disappear, and his leadership is evident in reviving the concept of the divine world, and his ingenuity in communicating faith truths and legal lights to large areas in West Africa, where he excelled in the empowerment of Islamic law at the various popular and official levels. He also managed in making the foot of Islam firm in the face of the waves of paganism, backwardness and primitiveness that were suffocating those regions.

This paper deals with the effect of moderation on monotheism and behaviour, and its problematic is based on the search for the truth of the existence in the concept al-Maghīlī, and aims at revealing the features of moderation in the scientific field of the Islamic faith in reception, teaching and empowerment in the output of the public. It also searches the features of that averageness in educational behaviour and real mysticism, and its impact on making Muslim generations proud of their identity and belonging to their Islamic nation, and communicating with other violators. The research is one brick in building a scientific notebook on the contributions of Algerian scholars in extending Africa with scientific and advocacy extensions that spread its dye on religiosity and culture, which had a clear impact in linking the relations between the north and the inhabitants of the Sub-Saharan states and kingdoms and the depths of Central Africa, which resulted in a semi-cultural unity later.

Keywords:

Imām al-Maghīlī, Moderation, Monotheism, Sub-Saharan States and Kingdoms

المقدمة:

يعتبر الإمام محمد بن عبد الكريم المغيلي الجزائري واحدا من أساطين العلم والتربية والدعوة والبلاغ والتحرك والتفعيل في تلك الأزمنة التي بدأت فيها شمس دولة المسلمين بالتوازي نتيجة معضلات سياسية وتربوية مختلفة، وتتجلى ريادة في إحياء مفهوم العالم الرباني والوارث المحمدي، وبراعته في إيصال الحقائق الإيمانية والأنوار الشرعية لمساحات عريضة في إفريقيا الغربية، حيث برع في التمكين للشريعة الإسلامية على مختلف الأصعدة الشعبية والرسمية، وجعل قدم الإسلام راسخة أمام موجات الوثنية والتخلف والبدائية التي كانت تخنق تلك الأصقاع.

والورقة المقدمة لهذا المؤتمر الميمون تتغيا إضافة علمية متعلقة بأثر الوسطية في التوحيد والسلوك عند الرجل، وإشكالياتها قائمة في البحث عن حقيقة وجود هذا المصطلح أو المفهوم أو مصاديقه وتجلياته عند المغيلي، الذي شاع عنه الأثر الجهادي في تحجيم الوجود اليهودي في بلاد توات مما كثر الكلام فيه واستطار، وتوالت عنه الدراسات، وهو ما عاد بالنقص على باقي الجوانب غير المدروسة من حياة الرجل، ومنها هذا الموضوع وغيره كثير.

وتهدف الورقة إلى الكشف عن حياة الرجل وعطاءاته العلمية، وأثره المكين في مريديه وخلفائه في البلدان التي وطأها قدمه، ثم الكشف عن معالم الوسطية في الحقل العلمي للعقيدة الإسلامية تلقيا وتدرسا وتمكينا في صدور العامة، وكذا البحث عن معالم تلك الوسطية في السلوك التربوي والتصوف الحقيقي، وأثرها في صناعة أجيال مسلمة معتزة بهويتها ومنتمة لأمتها الإسلامية، ومتواصلة مع غيرها من مخالفي الملل والنحل السماوية والوضعية.

وقد لاقى البحث صعوبات كثيرة، أكثرها حضورا غياب المادة العلمية المتعلقة بالموضوع نتيجة ضياع الكثير من مؤلفاته، ولأجل ذلك استعان

البحث بالموجود المطبوع منها مما له علاقة بالموضوع، وكذا ما رشح من كتب الطبقات والتراجم، أو كتب التاريخ، وخاصة ما كان عن إفريقيا الإسلامية.

والبحث قاصر عن استيفاء الجوانب كلها، ولكنه لبنة واحدة في بناء مفكرة علمية عن إسهامات علماء الجزائر ودورهم البالغ في مدّ إفريقيا بمدد علمي ودعوي ومنهجي بسط صبغته على التدين والتعليم والثقافة في تلك الأوصاف، وهو ما كان له أثره البين في ربط العلاقات الاقتصادية والاجتماعية بين الشمال والجنوب، وبين ساكنة الصحراء الكبرى وحوض النيجر وبلاد التكرور والفلان وأعماق إفريقيا الوسطى، مما نتج عنه شبه وحدة ثقافية تآزرت في لاحق الأيام لتفتتت صخرة الاستعمار الفرنسي، وهي ترنو لاحقا لاستثمار تلك العلائق في بناء وحدة اقتصادية وجدار سياسي يحيي القارة الإفريقية من موتها، ويرفعها للريادة تحت مظلة الإسلام، وما ذلك على الله بعزيز.

المبحث الأول: مفهوم الوسطية في التوحيد والسلوك.

مفهوم الوسطية مفهوم متداول حديثا في أدبيات الخطاب الإسلامي المعاصر⁽¹⁾، وقد نما واستطار في مواجهة جبهتين متضادتين، إحداهما خارجية، وهي الجبهة الغربية التي تهم الإسلام بالتعصب والتطرف ورفض الآخر، وبالتالي القول بتسويغ مفاهيم الإرهاب والجهاد، ومحاولة تخليص العالم من شرور الغرب وحضارته الغازية، والثانية داخلية، وهي جماعات الرفض التي تتخذ من العنف سبيلا أوحداً لإقامة الشريعة، وإعادة الناس إلى الهوية المفقودة.

⁽¹⁾ وفيه مؤلفات كثيرة مثل: الوسطية في ضوء القرآن الكريم المؤلف: ناصر بن سليمان العمر، والوسطية في الإسلام لعبد الرحمان حبنكة الميداني، والوسطية في القرآن الكريم لعلي محمد محمد، والوسطية في القرآن الكريم لعلي الصلابي، الوسطية في الإسلام لفريد محمد هادي. ووسطية الإسلام للشيخ محمد محمد المدني.

يركز الخطاب الإسلامي المعاصر على تلازم الإسلام والوسطية في كل الشؤون في التصورات والسلوكيات، ويعتبر الأمة الإسلامية منارة الوسطية في كل شؤونها، في مقابل الديانات والفلسفات الأخرى، وتزخر المكتبة الإسلامية بعدد المؤلفات الخادمة لهذا التوجه⁽²⁾، فضلا عن عديد المناشط التي عقدت في العقدين الماضيين بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر لترسيخ هذا المفهوم عند الناشئة، وإقناع الآخر به⁽³⁾. وهو ما ترسخ كمنظرة استراتيجية لدى العديد من الهيئات الدعوية بعد التشويه الذي طال الإسلام من الجماعات التكفيرية في مختلف البلدان الإسلامية.

والسؤال المطروح في الورقة متعلق بوجود هذا المفهوم من عدمه في كتابات المغيلي، والحق إنّ المفهوم موجود، وإن غاب المصطلح، باعتبار انتماء المغيلي للمدرسة المالكية التي جسدت المفهوم في مكتوباتها العقدية والفقهية والسلوكية، ويكفي مطالعة تلك الأدبيات في فتاوى الإمام مالك، وما كتبه أساطين المذهب في كتب الجوامع الملحقة بالمدونات الفقهية.

فمن مظاهر تلك الوسطية ما تعلق بالمنهج، حيث يحضر النقل في وسائل الاستنباط (الكتاب والسنة والإجماع، عمل أهل المدينة، شرع من قبلنا)، ويحضر العقل والاجتهاد في الوسائل الأخرى (القياس، المصالح، الاستصحاب، سد الذرائع، البراءة الأصلية)⁽⁴⁾. ويمكن إجمال ما سبق في الأصول النقلية، والأصول العقلية، والأصول المقاصدية.

(2) مثل كتابات الشيخ يوسف القرضاوي المختلفة، ومنها كتاب الوسطية الإسلامية ومعالمها.

(3) ومن ذلك إنشاء المنتدى العالمي للوسطية بالأردن، وهو منظمة إسلامية دولية لها فروع كثيرة، ويصدر مجلة الوسطية. والمنتدى عضو في منظمة التعاون الإسلامي،

وتأسس سنة 2002. انظر الموقع: <https://www.wasatyae.net/ar>

(4) انظر إبراهيم محمد علي، اصطلاح المذهب عند المالكية، (دبي: دار البحوث للدراسات الإسلامية، 2000)، ص 50.

ومن مظاهر الوسطية العقدية احتضان المالكية للأشعرية التي هي الوسط بين تيارَي المعتزلة والحنابلة، حيث يتزاح العقل والنقل في تقرير القضايا العقدية المختلفة. وفي هذا نستعيد قولَ السبكي: «وهؤلاء الحنفية والشافعية والمالكية وفضلاء الحنابلة -ولله الحمد- في العقائد يدُّ واحدة كلهم على رأي أهل السنة والجماعة، يدينون الله تعالى بطريق شيخ السنة أبي الحسن الأشعري رحمه الله، لا يحيد عنها إلا زَعاع من الحنفية والشافعية، لحقوا بأهل الاعتزال، ورعاع من الحنابلة لحقوا بأهل التجسيم، وبرأ الله المالكية فلم نرَ مالكيًّا إلا أشعريًّا عقيدة»⁽⁵⁾.

وفي السلوك تحضر الوسطية بقوة في مؤلفات التصوف المالكية، حيث سادت مدرسة الجنيد وما تفرع عنها من مشارب قادرية وشاذلية وتجانية، في حين يغيب التصوف الفلسفي والحلوي، بل ونجد المواقف المتشددة تجاهه، وتجاه الفلكور الملتصق بالتصوف كما هو الحال عند أكبر منافع عن التصوف السني، ألا وهو العلامة زروق البرنسي (899هـ) الملقب بمحتسب الصوفية⁽⁶⁾، والذي ترك آثاره الواضحة في الأخضرى صاحب القدسية، وابن الفكون صاحب منشور الهداية، ومن قبله مكتوبات الطرطوشي⁽⁷⁾ وابن العربي وابن الحاج المالكي (737هـ) في كتابه المدخل، والونشريسي في فتاوى جمعها في المعيار، والعقباني وغيرهم كثير.

ولأجل ذلك كان المغيلي وفيما لكل هذا التراث المالكي المحافظ على السنة، والمعتد بالعقل، والمهتم بالسلوك والتصوف الجاد، والمثمر للعمل الصالح كما سيأتي في الكلام عن معالم تلك الوسطية في التصوف.

⁽⁵⁾ السبكي تاج الدين، معيد النعم ومبيد النقم، (بيروت: مؤسسة الكتب الثقافية، ط1، 1986)، ص 62.

⁽⁶⁾ انظر زروق البرنسي، عدة المرید الصادق، (بيروت: دار ابن حزم، 2006)، ص 36.

⁽⁷⁾ انظر الطرطوشي، الحوادث والبدع، (الدمام: دار ابن الجوزي، ط 3، 1998)، ص

وفي الناحية العملية كان الاهتمام بالعمليات الواقعة دون المتوقعة، وفي هذا يظهر لدينا اهتمامه بفقهِ الحلال والحرام من البيوع في تأليفه المستقلة في شرح بيوع مختصر خليل، أو شرح بيوع الأجل من ابن الحاجب بما يظهر النزعة العملية عند المغيلي، واهتمامه بالناحية المعيشية الاقتصادية وإقامتها على قواعد الحلال.

وفي الإفتاء كان الاكتفاء عند المغيلي بالعتيق تأسيا بالإمام مالك رحمة الله عليه القائل: «لم يكن من أمر الناس ولا من مضى من سلفنا ولا أدركت أحدا أفتدي به يقول في شيء: هذا حلال وهذا حرام، ما كانوا يجترئون على ذلك، وإنما كانوا يقولون: نكره هذا، ونرى هذا حسنا، ونتقي هذا، ولا نرى هذا، الحلال: ما أحله الله ورسوله، والحرام: ما حرمه الله ورسوله»⁽⁸⁾.

إنّ تلك الوسطية والفهم الأعمق للدين وضروراته في تنظيم الحياة الاجتماعية قادت المغيلي إلى الانطلاق في الدعوة لتجسيد رؤاه في الإصلاح الاجتماعي، بمد الإسلام في المناطق الفارغة أو التي انسحب منها بفعل الضغط الوثني في إفريقيا، كما كان مشرعه في اكتشاف المجتمعات الإفريقية في رحلة طويلة دامت عشرين سنة (1480-1522م)⁽⁹⁾.

وسنجد آثار الوسطية في العقيدة والتصوف في سلوكات المجتمعات المسلمة في إفريقيا وراء الصحراء حيث كانت النماذج المتألقة في الأخلاق الإسلامية، وشيوع روح التعاون والاكتفاء بالحلال، مما جعل الإسلام يكتسب أراضيه واسعة في إفريقيا الغربية بمجرد سلوك المسلمين وخاصة التجار والدعاة من قوافل المتصوفة، فتلك الديار لم تطأها الجيوش ولم

⁽⁸⁾ ابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله، (الدمام: دار ابن الجوزي، ط 1، 1994)، ج 2 ص 1075.

⁽⁹⁾ مقالاتي عبد الله، الفكر العقدي للشيخ ابن عبد الكريم المغيلي، وامتداداته في إفريقيا الغربية، مجلة الدراسات العقدية ومقارنة الأديان، ع 7، (قسنطينة: جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، 2017)، ص 364.

تفتحها السيوف، والمستعرض لانتشار الدعوة في دول مثل نيجريا وبنين وغامبيا وبوركينا وساحل العاج يدرك ما قلناه سلفا من الأثر البالغ للمغيلي وورثته في تلك الديار.

المبحث الثاني: وسطية التوحيد عند المغيلي.

عاش المغيلي في وسط علمي مالكي أشعري ثوت فيه المعارف العقديّة المتداولة بعد استقرار الدرس المنهجي، وانصرام عصر الفرق المناوئة، وكان علم الكلام الذي «هو علم يتضمّن الحجاج عن العقائد الإيمانيّة بالأدلة العقلية والردّ على المبتدعة المنحرفين في الاعتقادات عن مذاهب السلف وأهل السنّة»⁽¹⁰⁾، عمدة الدرس المنهجي في الحلق العالية، وبرزت فيه مؤلفات جزائرية خالصة كعقائد السنوسي، وكتب ابن زكري التلمساني، وأبي عبد الله الزواوي، وتفاوتت التدريس البيداغوجي فيها حسب الطلب والحاجة.

لم يؤلف المغيلي كتبا خاصة متخصصة في العقيدة مكثفيا بعقائد السنوسي، وخاصة أم البراهين، وما بعدها كصغرى الصغرى والحفيدة والمفيدة وعقيدة النساء والولدان والعوام⁽¹¹⁾، ولكنه اشترك في النقاش العقدي بما يبرز لدينا معالم وسطية هادية تنم عن كدّ الفكر وهم التعليم ووكد التنزيل، ولا يمكن فهم أبعاد الفكر الوسطي في العقيدة عند المغيلي إلا من خلال النظر إلى مستويين:

أولا: نقد الدرس العقدي:

إنّ القضايا العقديّة المختلف فيها بين أشاعرة الغرب الإسلامي معدودة، ولم تؤثر على الدرس العقدي كثيرا، وإن ابتلي البعض بالجنوح

⁽¹⁰⁾ ابن خلدون، المقدمة، تاريخ ابن خلدون، (بيروت: دار الفكر، ط2، 1988)، ج 1 ص 580.

⁽¹¹⁾ بيثي محمد عبد الحليم، جهود علماء المغرب الأقصى في العناية بالعقائد السنوسية، مجلة رفوف، مج 8، عدد 2، (الجزائر، جامعة أدرار، 2020)، ص 70.

نحو بعض الآراء المنبوذة، كما هو توصيف ابن مرزوق الحفيد (ت 842):
«مذاهب الكفر التي سطرت في الكتب لا تحصى كثرة، لكن الله تولى حفظ دينه بما اجتبه من الطائفة السنية، وقد ابتلينا بهذا الصنف في هذا القطر خصوصاً، لكونهم لم يأخذوا العلم عن يمتدى به»⁽¹²⁾.

وفي الحقيقة فإن منزع علماء الجزائر هو المنزع الجامع بين العقل والنقل، والحفاظ على السمات الأشعري في التصنيف والتدريس، وقد تمايز في الكتابة اتجاهان، أحدهما كان وفيها للخط الأشعري الأول ممثلاً في أساطينه الكبار كالباقلاقي والجويني، حيث حظي كتاب هذا الأخير المعروف بالإرشاد بالعناية البالغة⁽¹³⁾، والخط الثاني الذي مال للتشقيق الكلامي والتدقيق الفلسفي ممثلاً بالغزالي والإمام الرازي والإيجي ومدرستهم، كما أرخ لذلك ابن خلدون: «فصارت هذه الطريقة في مصطلحهم مباينة للطريقة الأولى وتسمى طريقة المتأخرين وربما أدخلوا فيها الرد على الفلاسفة فيما خالفوا فيه من العقائد الإيمانية وجعلوهم من خصوم العقائد لتناسب الكثير من مذاهب المبتدعة ومذاهبهم. وأول من كتب في طريقة الكلام على هذا المنحى الغزالي رحمه الله وتبعه الإمام ابن الخطيب وجماعة قفوا أثرهم واعتمدوا تقليدهم ثم توغل المتأخرون من بعدهم في مخالطة كتب الفلسفة والتبس عليهم شأن الموضوع في العلمين فحسبوه فيهما واحداً من اشتباه المسائل فيهم»⁽¹⁴⁾.

⁽¹²⁾ الوئشريس، المعيار المعرب، (بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1981)، ج 12 ص 355.
⁽¹³⁾ كان كتاب الإرشاد مدار التدريس، وقد اهتم به العلامة أبو عبد الله بن الرمامة البجائي (517هـ)، ونظمه تلميذة السلالحي (574هـ) في البرهانية، التي شرحها سعيد العقباني (811هـ) "العقيدة البرهانية والفصول الإيمانية"، كما اهتم به الأبلي (757هـ) علامة المعقولات. انظر احتانة، تطور المذهب الأشعري في الغرب الإسلامي، (المغرب: منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، 2003)، ص 136.
⁽¹⁴⁾ تاريخ ابن خلدون، المقدمة، نفسه، ج 1 ص 589.

انعكس الأمر على بعض القضايا التي ثارت بين علماء العقائد في الجزائر، فظهرت قضايا الخلاف في علم الله الأزلي بين طلبة مازونة⁽¹⁵⁾، وخلافات ابن زكري مع السنوسي في رؤية المعدم⁽¹⁶⁾، والأسباب المؤثرة في الأفعال أيضا، وكانت المعركة الأشد هي معركة إيمان المقلدين، والتي تشدد فيها السنوسي في الكبرى، ثم توسط في الصغرى وشرحها، وخالفه ابن زكري فيها⁽¹⁷⁾، والتي كتب فيها شقرون أبو عبد الله محمد بن أحمد ابن بوجمعة المغرواي (929هـ) سفره المهم "الجيش الكمين لمن كفر عامة المسلمين"⁽¹⁸⁾. والظاهر أن المغيلي كان مع المعتدلين في هذا الموضوع الخطير، حسبما هو مستقرا من نَفَسِ مكتوباته الموجودة، وأنه اشترك في النقاش لمعاصرتة القضية وذيولها.

ومن ذلك مسألة تعلقات السمع والبصر التي رد فيها المغيلي على شيخه السنوسي، وهي من أهم القضايا الشاهدة لهذا المسلك النقدي الذي وجهه المغيلي لشيخه السنوسي - وهو من هو جلالة وعلما وزهدا- في التسور على المتفق عليه مما استقر عليه الأشاعرة، ورفضه تعمقات الاتجاه الفلسفي في المدرسة بعد إضافات الفخر الرازي ومن بعده، ويظهر هذا بجلاء في نقده لشيخه السنوسي في قضية تعلق السمع والبصر بكل الموجودات. وربما ثارت القضية بينها بعد استقرار السنوسي بتوات، وليس بغيرها حسب تقدير العلي⁽¹⁹⁾. وقد تناقلت مؤلفات العقيدة بعدهما هذا الجدل، وممن أثبتته

(15) الونشريسي، المعيار المعرب، نفسه، ج 12 ص 345.

(16) احنانة، تطور المذهب الأشعري، نفسه، ص 190.

(17) ابن زكري، محصل المقاصد، (الجزائر: دار المعرفة، 2011)، الأبيات (173-179)

(18) انظر ابن مريم التلمساني، البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، (الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية، 1985)، ص 146. سعد الله أبو القاسم، تاريخ الجزائر الثقافي، (بيروت: دار الغرب الإسلامي، ط1، 1998)، ج 2 ص 80.

(19) أحمد حمدان العلي، في تيار العقيدة السنية بالغرب الإسلامي، نص مراجعات كلامية بين السنوسي والمغيلي، مجلة كلية الآداب، ع 3 (المغرب: جامعة محمد بن عبد الله بفاس، 1988)، ص 185.

سعيد قدورة (1066هـ) في حاشيته على شرح ابن خدة الراشدي لأم
البراهين⁽²⁰⁾، وكذا يحيى الشاوي في توكيد العقد⁽²¹⁾، ومن المشاركة العلامة
العطار في حاشيته على الجلال في شرح جمع الجوامع⁽²²⁾، وأحمد بن إدريس
الوزان (1253هـ) في شرح توحيد ابن كيران⁽²³⁾.

حيث نعى المغيلي على شيخه تعمقه في تعلقات السمع والبصر بكل
موجود⁽²⁴⁾، وأن إثباتهما سمعي لا عقلي مكتفيا بقول الأشعري في هذا،
رافضا العدول عن تعلقهما بالمسموعات والمبصرات، أو كونهما ذات العلم،
أو صفتان زائدتان عنه، طالبا من شيخه العودة إلى مسلك السلف،
مستعيدا مقولة مالك بصياغته "السمع والبصر معلوم، والكيف غير
معقول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة"⁽²⁵⁾.

ومن المعروف أن السنوسي لم يكن بدعا في هذا بناء على رأيه في
إطلاقية العلم الإلهي، وإمكانية رؤية المعدوم، وهو رأي سبقه به
الشهرستاني والرازي. وكذلك فإن الأشاعرة يرون السمع والبصر والكلام من
الصفات التي يمكن الاستدلال لها بالعقل شأن باقي الصفات الأربع، أي

(20) حاشية سعيد قدورة على أم البراهين، مخطوط، ورقة 22 ب، ونحن نعمل على
إخراجها قريبا بحول الله.

(21) يحيى الشاوي، توكيد العقد فيما أخذ الله علينا من العهد، (الجزائر: منشورات وزارة
الشؤون الدينية والأوقاف، 2015)، ص 387، وفيه سماه عمر المغيلي، وهو وهم.

(22) العطار حاشية العطار على شرح المحلي على جمع الجوامع، (بيروت: دار الكتب
العلمية، د، ت)، ج 2 ص 458.

(23) الوزاني، النشر الطيب على شرح الشيخ الطيب، (القاهرة: المكتبة الأزهرية، ط 1،
1348هـ)، ج 1 ص 563. وأبو حفص الفاسي (1188) في حاشيته على الكبرى.

(24) السنوسي، شرح الصغرى (الجزائر: منشورات المجلس الإسلامي الأعلى، 2011)، ص
139.

(25) الشاوي، توكيد العقد، نفسه، ص 288. احنانة، تطور المذهب الأشعري، نفسه،
ص 191.

القدرة والإرادة والعلم والحياة، وفي هذا يقول الباقلاني: «فإن قال قائل فما الدليل على أنه سميع بصير متكلم، قيل له: الدليل على ذلك أنه قد ثبت أنه حي بما وصفناه والحي يصح أن يكون متكلماً سميعاً بصيراً، ومتى عري من هذه الأوصاف مع صحة وصفه بها، فلا بد من أن يكون موصوفاً بأضدادها من الخرس والسكوت والعمى والصمم وكل هذه الأمور آفات قد اتفق على أنها تدل على حدث الموصوف بها فلم يجز وصف القديم بشيء منها فوجب أن يكون سميعاً بصيراً متكلماً»⁽²⁶⁾.

والخلاصة أن المغيلي حاول مع شيخه أن ينأى عن التعمقات الكلامية، والوقوف عند اتفاقات الأشاعرة في الصفات، وعدم العدو على ما استقر عليه السلف، والنأي عن تمحلات المتأثرين بالفلسفة ومباحثها الوجودية.

ثانياً: نقد الانحرافات العقدية: مثل ردوده على المعتزلة، والذين وإن انقرضوا في زمنه ولم تبق لهم آثار علمية بعد الوجود الأول الذي كان في الغرب الإسلامي في القرون الثلاثة الأولى⁽²⁷⁾، إلا أن بعض الفرق الإسلامية كالإباضية كانت تنهج بعض آراءهم، والإشارة إليهم كما في مفتتح الرسالة إلى عزابة ميزاب⁽²⁸⁾، وهم الورثة الشرعيون المحافظون على التقليد المذهبي الإباضي في الجزائر، وليس في ذلك ما يشين، حيث اعتادت الأمة على الاعتراف بكل الفرق الإسلامية المعتمدة، وأنهم من أهل القبلة، ولكن المغيلي وفي سبيل تحصين الجهة من هذه الاختلافات والإبقاء على الوحدة المذهبية المالكية الأشعرية رام هذا المسلك من أجل تماسك الصف، وعدم

⁽²⁶⁾ الباقلاني، التمهيد، (لبنان: مؤسسة الكتب، 1987)، ص 46. وانظر الأشعري، اللمع، ص 11.

⁽²⁷⁾ محمد عبد الحليم بيثي، الاعتزال في الغرب الإسلامي، مجلة بحوث، ع 9 (الجزائر: جامعة الجزائر، 1، 2016)، ص 249.

⁽²⁸⁾ المغيلي محمد بن عبد الكريم، الرد على المعتزلة، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط 1، 2020)، ص 74.

إشغاله بقضايا نظرية لا تعود عليه بالنفع في واقعه المعيش، وصرف الجهود لمقاومة النفوذ اليهودي العارض في بلاد توات، أو التحدي القادم من البلاد الوثنية في أعماق إفريقيا. ولأجل ذلك شحن بعض رسائله السياسية بالاحتساب ضد مظاهر الوثنية وتقاليدها الاجتماعية التي تسربت إلى بلاد صنهاجة الجنوب.

ثالثا- مميزات المسلك العقدي: ويمكن إجمالها في الآتي:

1- البرهانية: وذلك في الدفاع عن المسالك الأشعرية المتأخرة في اعتماد المنطق، حيث ألف سبعة كتب في المنطق منها: منح الوهاب وفصل الخطاب في رد الفكر إلى الصواب، ومحاجته العالية للسيوطي، ونقده المبطن لابن تيمية الذي وصفه بالكفور، إذ كان هذا الأخير أحد المراجع المهمة للسيوطي في موقفه السلبي من المنطق على الرغم من أشعريته⁽²⁹⁾. فقد رأى المغيلي النكوص عن الميراث الاستدلالي المنطقي مدعاة لضعف الحجة أمام الخصوم، وأن محاولة ابن تيمية والسيوطي في التنقّص من المنطق لا تفيد الدرس العقدي بل تزري به، خاصة وأن المؤلفات المتأخرة اتخذته عمدتها في تقرير العقائد والاستدلال لها.

ومن مظاهر اعتداد المغيلي بالبرهان في الدرس العقدي نعيه على تقاصر العقول عن الاجتهاد والاستنباط والغور في الشريعة، والاستنكاف عن كد الفكر، قائلا: «وإنما خفي عن أكثر علماء هذا الزمان أن العلم نور في القلب لا لفظ باللسان،... وأنه هو الذي يقبض في آخر الزمان في غالب الأوطان، وأن ذلك قد كان، فأقبلوا على حفظ النصوص، وسردها والاعتماد عليها، على ظواهر لفظها في كل مكان، فعزت المدارك، وتعارضت المسالك، وتشتت الأقوال، واختلفت الأجوبة على النوازل حتى عظم الإشكال..»⁽³⁰⁾.

⁽²⁹⁾ ألف ابن تيمية كتبا في ذلك نحو كتابه الرد على المنطقيين أو نصيحة أهل الإيمان في الرد على منطق اليونان.

⁽³⁰⁾ العلي، نص مراجعات كلامية بين السنوسي والمغيلي، الرسالة الثالثة، ص 210.

2- تعاضد العقل والنقل: وهو المسلك السائد في المدرسة الأشعرية، والذي لا يرى تعارضاً بين الأصلين، أصل النقل والعقل، لأن العقل هو الذي شهد بصحة السمع، وفي هذا يقول المغيلي: « وطريقه الشرعي-أي الفقه في الدين- العالم والوحي، فالعالم معقول، والوحي منقول، وكل من

يؤكد المغيلي على التعاضد وعدم التصادم بينهما بقوله: «وكثيراً ما يكون بينهما تصادم في أول النظر وظاهر الفكر، فلا بد من طلب الجمع بينهما، إذ لا يصح تناقضهما، لأن العقل دليل صدق الشرع، والشرع على منهج العقل»⁽³¹⁾. وهو في هذا يستلهم مخلفات الردود على الفلاسفة المشائين الذي قالوا بالتعارض، وبالتالي الترجيح، والغالب عندهم هو للدليل العقلي، كما هو الأمر عند ابن رشد في «فصل المقال»، والذي يستبطن توازي الشريعة والحكمة أو تساويهما، مما يرفضه علماء الشرع مطلقاً إذ الأشياء في أصلها متساوية، والحاكم الذي هو مرجع التحسين والتقيح هو الله تبارك وتعالى.

3- الاكتفاء: اعتمد المغيلي طريقة الاكتفاء في تعليم العقيدة، وتقديمها في تلك البلاد البعيدة عن البيئة الفلسفية والمؤثرات الفرعية، فكان عمله مقتصرًا على الحد الأدنى من المعارف العقدية الكافية للجمهور متأسيًا في ذلك بمشروع الإمام الجويني في العقيدة النظامية التي حاول فيها جمع المتفق عليه من العقائد، وإن انتقد المغيلي بعض مسلكه الموهل في التأويل كما في كتاب الإرشاد حيث قال: «الإعراض عن التأويل حذراً من موقعة محذور في الاعتقاد يجر إلى اللبس والإبهام، واستئلال العوام، وتطرق الشبهات إلى أصول الدين، وتعريض لبعض من كتاب الله لرجم الظنون»⁽³²⁾، وساق من نصوص السلف ما يدعم منزعها في التفويض الذي كان عليه سلف

⁽³¹⁾ العلي، نفسه، الرسالة الأولى، ص 190.

⁽³²⁾ الجويني، الإرشاد، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط1، 1995)، ص 42.

الأشاعرة، كما تأسى أيضا بعمل شيخه السنوسي في العقائد الموجزة التي ألفها للعوام والنساء والولدان.

وكان المغيلي يترسّم خط ابن أبي زيد القيرواني في الاكتفاء بالنسبة للعوام بجمل الاعتقاد الواردة في صدر رسالته الفقهية، ولأجل ذلك كان يفتح رسائله ومكتوباته بدعوة ابن أبي زيد: «أعاننا الله وإياكم على رعاية ودائعه، وحفظ ما أودعنا من شرائعه».

ومن مظاهر الاكتفاء وعدم الإيغال في تطلّب الأمور الغيبية عند المغيلي استنكافه عن التأويل البعيد الذي ينبو عن الأفهام، ودعوته في التعامل مع المشكلات إلى التسليم والتفويض: «فالكف عن التأويل عند تعارض الاحتمالات دأب العلماء، فإن الحكم على مراد الله ومراد رسوله ﷺ بالظن والتخمين من مسالك خطوات الشيطان اللعين»⁽³³⁾.

وهو يميز بين الأصول أو ما يسميه بالعلوم الاعتقادية فهذه يجب فيها القطع، وبين الفروع والمشكلات التي يجوز فيها التفويض، إي إرجاع المراد منها للمشرع، والمكلف يقول هنا: «أعلم أن ظاهرها غير مراد وحملها على ظاهرها فيه تكذيب للعقل»⁽³⁴⁾.

4-السلفية: يعتبر أحمد حمدان العلمي المغيلي في صف رجال المالكية المحافظين على وعي الأقدمين في الوقوف بالعقل عند حدوده، ويمثل السنوسي جسارة العقل المتسنن⁽³⁵⁾، وليس بينهما كبير فرق إلا في نسبة إحصار العقل في المعالجة.

وتتجلى سلفيته ومحافظته في استرجاع النقد للمعتزلة مع انقراضهم في زمنه، مخافة عودة أفكارهم عند بعض مجايليه، أو في وجود مذاهب ترى

⁽³³⁾ العلمي، المراجعات، نفسه، الرسالة الأولى، ص 190.

⁽³⁴⁾ العلمي، المراجعات، نفسه، الرسالة الأولى، ص 191.

⁽³⁵⁾ العلمي، المراجعات الكلامية بين السنوسي والمغيلي، ص 170.

بعض آرائهم كما هو الشأن عند الإباضية، ومن القبيل الأول نقده للسنوسي في تعلقات السمع والبصر بكل الموجودات، ويلزم منه تعلقهما بالمعدوم، وهو ما لا يراه السنوسي ذاته في رؤية المعدوم إلا من حيث الإمكان العقلي⁽³⁶⁾. ولأجل ذلك رافع المغيلي على الاقتصار على المعروف، وطالب بحياطة العقيدة من التشقيقات المحدثثة: «فعليك يا أخي -السنوسي- في تقرير العقائد التوحيدية بالطريقة النبوية التي درج عليها السلف من صالح الأمة، فإنها أقرب ما يكون للأفهام، وأسلم من كل ظلم وظلام»⁽³⁷⁾. وأرجع المغيلي السبب في كثرة الأهواء الفرعية واختلاف المنازع: «بسبب زيغهم عن الآثار النبوية للآثار الفلسفية»⁽³⁸⁾.

وهو المنهج الذي كان عليه أوائل الأئمة، وإن خالفهم المتأخرون لضرورات الجدل مع المخالفين كما هو المعروف من تطور علم الكلام. ولأجل ذلك اعترف المغيلي بأن الخوض في الفلسفة كان ضرورة: «لعلماء السنّة من سد الذريعة عن إفساد الشريعة، فخاض معهم في الفلسفة بعض المتأخرين حتى تحققوا مقاصدهم وحققوها للناس»⁽³⁹⁾.

5-الفعالية: يؤكد المغيلي على عملية العقيدة وكون الإيمان دافعا للعمل الصالح، ولأجل ذلك اهتم اهتماما منقطع النظر بالعمليات، حيث تابع إمام المذهب الإمام مالك في عدم الخوض والتشقيق فيما ليس تحته عمل، ففي تعرضه للمشكلات العقدية-التي ظاهرها تناقض النقل والعقل- يرى بأن المخوف هو أن يُسأل العبد على جسارته على تعيين المراد، فيطالب

⁽³⁶⁾ السنوسي، شرح العقيدة الكبرى، (الكويت: دار القلم، 1982)، ص 238. احنانة، تطور المذهب الأشعري، ص 194.

⁽³⁷⁾ العلمي، نص مراجعات كلامية بين السنوسي والمغيلي، الرسالة الثانية، ص 239.

⁽³⁸⁾ المغيلي، الرد على المعتزلة، ص 86.

⁽³⁹⁾ المراجعات، الرسالة الثالثة، ص 233، وهو يشير إلى عمل الغزالي في مقاصد الفلاسفة وتهافت الفلاسفة.

بالدليل: «لم حكمت علينا بالظن والتخمين في تعيين مرادنا الخفي الغامض، الذي لم تؤمر فيه بالعمل، ولا عليك فيه من الإيمان إلا الإيمان المطلق، والتصديق المجمل»⁽⁴⁰⁾.

وفي التأكيد على فعالية الدرس العقدي في إقامة الحجج ودفع الشبه نبه إلى التفريق بين مكتوبات الأوائل والمتأخرين في علم العقيدة لغاية الفعالية: «فهذه الأوضاع التي وضعها المتأخرون في علم العقائد وسموها بعلم الكلام كالإرشاد والمصباح إنما المقصد منها في الأصل إبطال عقائد المبتدعة التي سلكوها من الفلسفة ونحوها لأن يكون ذلك أوضح في ردها وأنكى لأهلها، وليس المقصد منها إثبات عقائد أهل السنة وبيانها بالطرق الفلسفية ونحوها، لأن في كتاب الله غنى عن كل شيء»⁽⁴¹⁾.

وتظهر تلك الفعالية أيضا في تطبيقات العقيدة في مواجهة اليهود والانحرافات الفكرية التي تسببوا بها بما أوهن العظم الإسلامي أمامهم على الرغم من كونهم أهل ذمة محكومين بالسلطة الإسلامية، ولكن تقلّب الأوضاع السياسية جعلهم يهيمنون على مصائر الدول، حتى قال أحد الشعراء معرّضا بذلك الوضع السقيم في تلمسان مفضلا الهجرة عنها بقوله⁽⁴²⁾:

تلمسان أرض لا تليق بحالنا * ولكن لطف الله نسأل في القضا
وكيف يحب المرء أرضا يسوسها * يهود وفجار ومن ليس يرتضى

ولأجل ذلك كان مشروعه الرامي إلى تفعيل العقيدة واقعا، وإعادة العزة الإسلامية أمام هؤلاء الذين استمرؤا الظلم والحيث وعاثوا فسادا في

⁽⁴⁰⁾ العلي، نص مراجعات كلامية بين السنوسي والمغيلي، الرسالة الأولى، ص 191.

⁽⁴¹⁾ المغيلي، الرد على المعتزلة، ص 92. العلي، نص مراجعات كلامية بين السنوسي والمغيلي، الرسالة الثانية، ص 234.

⁽⁴²⁾ رابح بونار، مقدمة مصباح الأرواح للمغيلي، (الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1986)، ص 24.

الاقتصاد، مما أوجب في رأي المغيلي نقض ذمتهم، ووجوب إعادة الأمور إلى نصابها، وهو ما جسده في مشروعه الشهير في نازلة يهود توات⁽⁴³⁾.

وهذه الفعالية ملتزمة بالنصوص، وتنأى عن مظاهر التكفير والتبديع، ففي شرعنته لعمل الأسقيا ضد سلفه الحاكم " سني علي " (ت 898هـ)⁽⁴⁴⁾ رأى أن قتلهم هو من باب السياسة الشرعية لا غيرها، فهو ينأى عن النزعة الخارجية التكفيرية برفضه تكفير التاركين لحكم الشريعة إلا بشروط الاعتقاد أو الاستحلال، فلا يكفر أحد من أهل القبلة بذنب⁽⁴⁵⁾.

6- العمومية: ركز المغيلي على تيسير العقائد للعامة، مثلما فعل شيخه السنوسي في عقيدة العوام والنساء (الست والستين)⁽⁴⁶⁾، حيث نقلها إلى الأعماق الإفريقية، وصارت السنوسية الصغرى وما بعدها أي البنت والحفيدة والمفيدة محور المدارس في بلاد الفلان وحوض النيجر وبلاد التكرور والهوسا، وكثرا ما كرر العبارة " ولا سيما في تلقين العقائد العامة". وهو في هذا يؤكد على عمومية العقيدة، وأنها ميسرة للكافة، وأما علم العقيدة أو ما يصطلح عليه بعلم الكلام فهو ذو غاية وظيفية دفاعية كما قال: «أكثر مباحث المتكلمين لم تذكر للاعتقاد، وإنما ذكرت لردع الفساد»⁽⁴⁷⁾.

⁽⁴³⁾ انظر بيثي محمد عبد الحليم، قضية يهود توات في كتب النوازل الجزائرية، سجل ملتقى فقه النوازل في الغرب الإسلامي، (الجزائر: وزارة الشؤون الدينية والأوقاف، 2010)، ص 429.

⁽⁴⁴⁾ نظر نبيلة حسن محمد، في تاريخ إفريقيا الإسلامية، (الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية، 2009)، ص 273.

⁽⁴⁵⁾ المغيلي، أسئلة الأسقيا وأجوبة المغيلي، (الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1974)، ص 39. وص 52.

⁽⁴⁶⁾ محمد عبد الحليم بيثي، العقائد السنوسية الست، (تونس: الدار المالكية، ط 1، 2022)، ص 22.

⁽⁴⁷⁾ العلمي، المراجعات، نفسه، الرسالة الثانية، ص 217.

ومن القريب من هذا عدم تطويحه بأراء المخالفين، حتى إنه لا يقبل الإجماع الذي لا يقوم على اتفاق الكل، فهو على مذهب من يشترط العموم، بحيث لو خالف آخر من غير أهل السنة ممن لا يُكفّر ببدعته، مع كثرة المجمعين من أهل السنة لم يكن ذلك إجماعا حقيقيا، وهو اختيار بعض المالكية كابن الحاجب، ومن قبله إمام الحرمين⁽⁴⁸⁾. وفائدة هذا تقليل المختلف في العقيدة، لأن الأصول الكبرى لها حازت إجماع المسلمين على خلاف فروعها التي نالها بعض الاختلاف والتباعد في التصوير أو التدليل.

المبحث الثالث: وسطية السلوك عند المغيلي.

وعلى غرار مسلكيته الوسطية في العقيدة فقد استطرق ذات المسلك وبصورة أجلي في التصوف والسلوك، حيث كان على المشرب القادري الذي امتاز كصنوه الشاذلي بالاهتمام بالتربية الفردية والجماعية على السواء من حيث الاعتداد بالشريعة والدين كله إيمانا وإسلاما وإحسانا. ويمكن استجلاء إضافاته النوعية في التصوف عبر قراءة مسلكين هما:

أولا: نقد مسلكيات الانحرافات الظاهرة؛ والتي بدأت تنخر الجسد المسلم، فجلته طيعا للدخيل، نتيجة لتراكم الجهالة، وتباعد الخلق عن مراكز التعليم والتهذيب، فشاعت ظواهر ادعاء الولاية من بعض الدخلاء والمتكسبين، وفي نقد هؤلاء أَلّف كتابه "تنبيه الغافلين من مكر الملبسين بدعوى مقامات العارفين"، وعنوانه دال على حضور المشكلة وتقدمها في زمانه المبكر للتصوف المؤسسي.

والظاهر أن معضلة اتصال الفقه بالسلوك تشكلت مبكرا مع تراجع الحضور القوي للشيوخ الواصلين، وهو ما أشار إليه زروق (899هـ) في نقد البدع الشائعة: "تتبع الطرق الاصطلاحية الموجودة بأيدي الناس فلم أجد عند أهلها نفحة ولا نورا ولا حقيقة ولا علما ولا ذوقا ولا فهما جاريا على

⁽⁴⁸⁾ العلمي، المراجعات، نفسه، الرسالة الثانية، ص 216.

القياس الأول، إلا لذة نفسية غالبيتها من استشعار الرئاسة والالتذاذ بالامتياز والاختصاص بالنسبة"⁽⁴⁹⁾.

وهو نقد سيتجذر مع شيوع تلك الظواهر المشينة التي شوهدت صورة التصوف الأصيل فيما بعد مع عبد الرحمان الأخضرى (983هـ) في قصيدتيه القدسية واللامية⁽⁵⁰⁾، أو مع شيخ الإسلام المتأخر عبد الكريم الفكون (ت1073هـ) في كتابه العاصف "منشور الهداية في كشف حال من ادعى العلم والولاية".

وهكذا تظافر عمل المغيلي في الجنوب، والأخضري في الشمال لمحاصرة هذه الظواهر التي قلّ تأثيرها في المغرب الأوسط في تلك الفترة، فلم نجد ردودا على المنحرفين لقلّهم، أو عدم تأثيرهم على العكس مما حدث بعد ذلك بقرون، حيث هبّت الحركة الإصلاحية للكر على هؤلاء، محملة التصوف كله وزر هؤلاء الأتباع الذين لا يحسنون الأتباع.

ومن الظواهر التي انتقدتها المغيلي في مؤلفاته ادعاء الكشف والتطلع للغيب، وظواهر السحر والشعوذة في إفريقيا، حيث دعا إلى مجابهة السحرة والمفسدين، ومنع تقديسهم في وصاياهم التي كتبها لحكام الإمارات الإسلامية الناشئة في إفريقيا الغربية في بلاد الهوسا والتكرور. إضافة إلى دعوته للمراجعة الجذرية لأحوال المرأة في المجتمعات الصنهاجية والسودانية، والتي لم تنفصل كلياً عن أوضاع ما قبل الإسلام، مما أوجب على الفقهاء مزيداً من التركيز بالتعليم والتهديب والتحسين لها، وهو ما سيتأتى بعد حين في نشأة ظواهر المرجعيات النسائية الصوفية كما هو الحال عند عائلة البكائيين الشهيرة⁽⁵¹⁾.

⁽⁴⁹⁾ البوعبدلي، الأعمال الكاملة، التعريف بالكتب، (الجزائر: عالم المعرفة، 2013)، ص 57.

⁽⁵⁰⁾ المهدي البوعبدلي، عبد الرحمان الأخضرى وأطوار السلفية في الجزائر، مجلة

الأصالة، ع 53 (الجزائر، وزارة الشؤون الدينية والأوقاف، 1987)، ص 21.

⁽⁵¹⁾ محمد البكاي، كتاب "الطرائف والتلائد في كرامات الشيخين الوالدة والوالد". انظر

بول مارتى، كنتة الشرفيون، ص 39.

ثانيا-التأسيس للتصوف السني وتجزيره: فمن المعروف المتواتر أن انتشار التصوف السني ذي المشرب القادري كان على يد المغيلي الذي أخذه عن شيخه وصهره عبد الرحمان الثعالبي، ومن المتفق عليه أن المغيلي أدخل القادرية إلى حوض النيجر⁽⁵²⁾ ومنها امتدت إلى بلاد شنقيط غربا وبلاد الهوسا جنوبا حيث صهرت المجتمعات هناك بطابعها الخاص، وكانت لها مراكزها وجامعاتها ومؤسستها القائمة لحد الساعة.

ومن أهم الرجال الذين تركوا بصمتهم الظاهرة في سلوك قبائل الجنوب من العرب وصنهاجة والفلان العلامة المختر الكنتي الكبير صاحب المؤلفات العديدة في التصوف وغيره⁽⁵³⁾، وترك مدرسة مهمة أطرت التصوف، وقد ورثت الزاوية الكنتية ميراث المغيلي، وتميزت بخيامها المتحركة التي كانت مدارس علمية ومراكز تهذيبية ومحاكم قضائية في ذلك المجال الصحراوي الواسع حيث لا سلطة ضابطة للأمن، ولا رادع من الفتك أو الغزو، وإنما كان الفيصل هناك هو صوت الفقيه الصوفي الذي يخضع الناس لأحكامه ومهابون دعوته.

وهكذا انتشرت طريقة المغيلي في التصوف والسلوك، وساح مريدوها وتابعوها في البلدان والأقاصي الوثنية مبشرين بالإسلام الذي أعاد الكرامة للإنسان الإفريقي الذي كان مسحوقا داخل عزائم وتمائم السحرة، ودخلت قطاعات عريضة في دين الله أفواجا، واكتسب الإسلام أراضي جديدة من

(52) امباركي خديم، التصوف والطرق الصوفية في السنغال، (الدوحة: معهد الدراسات الإفريقية، 2002)، ص 30.

(53) منها الرسالة في التصوف، ألفية العربية، تفسير البسملة والفاتحة، فتح الودود شرح المقصور والممدود لابن مالك، هداية الطلاب في الفقه، نزهة الراوي وبغية الحادي، الشموس المحمدية في التوحيد، يتيمة اللآلي في الرد على علماء تيمبالي، الكوكب الوقاد في ذكر المشائخ وحقائق الأوراد، وديوان شعري، المنة في اعتقاد أهل السنة، انظر بول مارتى، كنتة الشريقيون، ص 39. أحمد بن الأمين الشنقيطي، الوسيط في تراجم أباء شنقيط، (القاهرة: الشركة الدولية للطباعة، ط5، 2002)، ص 361.

غير سيف، وهي سنة حميدة ابتدأها دعاة المرابطين، ثم أحيائها المغيلي، ومن بعده قوافل المتصوفة من القادريين والتجانيين، وفي هذا يقول بول مارتي: «ونحن نعلم أن الإسلام دخل إلى بلاد الجرما والبلدان المجاورة إلى تساوة وزندر بواسطة الشريف الكبير محمد بن عبد الكريم المغيلي أو بالأحرى بواسطة تلاميذه المباشرين في القرن الخامس عشر الميلادي»⁽⁵⁴⁾.

أما مناطق حوض النيجر وبلاد التكرور والهوسا فقد كان انتشار الإسلام فيها سلمياً، والمجموعات الإسلامية المتنامية كانت تجاور أخرى وثنية موغلة في البدائية⁽⁵⁵⁾.

والشاهد على تلك الحصيلة الإيجابية التي تظافر في صنع مجدها مختلف الإخوان القادريين والتجانيين من بعده ما قاله مؤلف حاضر العالم الإسلامي: «ولقد تبع الطريقة التجانية عدد كبير من أهل ماسينة في السودان، وأهالي فوتاتور وفوتاجالون، وصاروا من أشد أنصار الإسلام، وانضموا تحت راية الحاج عمر، فكانوا طيلة أربعين سنة هم سادة السودان من تنبكتو إلى الأقيانوس الأطلنطي»⁽⁵⁶⁾.

ثالثاً-معالم وسطية السلوك: ويمكن تلخيص مميزات الوسطية في السلوك والتصوف عند المغيلي في الآتي:

1-مركزية التزكية: ركز المغيلي على الجانب التزكوي في الحياة، فكان في ذاته مثال العالم الكامل المرابي الوارث للإرث المحمدي، متابعا ما خطه مؤسس الطريقة الإمام عبد القادر الجيلاني في جوهرية التصوف وحقيقته السنية: «الصوفي من كان صافياً من آفات النفس، خالياً من مذموماتها، سالماً لحميد مذاهبه، ملازماً للحقائق غير ساكن بقلبه إلى أحد من

⁽⁵⁴⁾ بول مارتي، كنتة الشرقيون، نفسه، ص 358.

⁽⁵⁵⁾ انظر الحسن الوزان، وصف إفريقيا، (بيروت: دار الغرب الإسلامي، ط 2، 1983)،

ج 2 ص 170.

⁽⁵⁶⁾ (لوتروبستودارد، حاضر العالم الإسلامي، (بيروت: دار الفكر، د، ت)، ج 2 ص 397.

الخلائق، وقيل: إن التصوف: الصدق مع الحق، وحسن الخلق مع الخلق، وأما الفرق بين المتصوف والصوفي: فالمتصوف المبتدي، والصوفي المنتهي، المتصوف الشارع في طريق الوصل، والصوفي من قطع الطريق ووصل إلى من إليه القطع والوصل»⁽⁵⁷⁾.

ولأجل ما سبق نعى المغيلي على بعض علماء الوقت إيغالهم في الظاهرية والمظهرية، معتبرا العلم العالي ما كان نورا واردا على القلب بمداومة الاتصال بالحضرة الإلهية قائلا: «وإنما خفي عن أكثر علماء هذا الزمان أن العلم نور في القلب لا لفظ باللسان،... وأنه هو الذي يقبض في آخر الزمان في غالب الأوطان، وأن ذلك قد كان»⁽⁵⁸⁾.

وتظهر تلك الإشارات التزكوية في تفسيره البديع لسورة الفاتحة، حيث قسم الخلق كلهم إلى خمسة أقسام: «قوم عبدوا الله تعالى بباعث المعرفة، وقوم عبدوه بباعث الرغبة، وقوم عبدوه بباعث الرهبة، فقدم ذكرهم على الترتيب في أول السورة، وقوم عصوا عنادا، وقوم جهلا، فأخر ذكرهما بالنفي، فلا خلاق لهما في الآخرة أصلا»⁽⁵⁹⁾. والنص يوضح علو مقامات العارفين بمقام الألوهية، وفضل منزعهم عن الباقين.

2-المرجعية والقُدوة الصالحة: وذلك في التأكيد على ما بثّه علماء السلوك من وجوب اتخاذ المرجع المرابي الهادي في الطريقتين الظاهري والباطني، أي في الشريعة والحقيقة، ولأجل ذلك انتقد المغيلي حال الطلبة المعرضين عن التلمذ على الشيوخ الواصلين، والمكتفين بالمرقوم والمكتوب قائلا: "حتى عظم الإشكال، لا سيما وقد صار العلم في الكتب، وعليه أقفال،

⁽⁵⁷⁾ الجيلاني عبد القادر، الغنية لطالبي الحق، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط 1، 1997)، ج 2 ص 272.

⁽⁵⁸⁾ العلمي، المراجعات، نفسه، الرسالة الثانية، ص 210.

⁽⁵⁹⁾ المغيلي، تفسير سورة الفاتحة، (الجزائر: مؤسسة البلاغ، 2013)، ص 73.

وما أدراك ما أقفال، وما أدراك ما تلك، أقفال على أقفال على أقفال من الألفاظ والمعاني والأحوال، ومفاتيح تلك الأقفال في صدور الرجال، وأي رجال⁽⁶⁰⁾.

كما تتجلى تلك القدوة المغيلية في إشاعة أنواره على من حوله من ذريته أو تلاميذه أو حتى مماليكه، ففي أخباره أنه كان له ستة من مماليك السودان يحفظون تهذيب البرادعي للمدونة عن ظهر قلب⁽⁶¹⁾، وهو ما يؤكد نجاحاته العلمية التدريسية، وكان بذاته رجل القدوة الكامل، فحيثما حلّ بإمارات إفريقيا الإسلامية وجد الترحيب والاتباع والانصياع، وتتجلى القدوة والقبول السياسي في مقترحاته لنواة الدساتير الإسلامية التي كتبها سواء لإمارة كانو، أو لإمارة تنبكتو.

3- هيمنة الشريعة: وذلك بحماية الجوانب الأخلاقية بالاحتساب المنظم من الدولة⁽⁶²⁾، ولأجل تدعيم الالتزام الأخلاقي والهيمنة القيمية الإسلامية شدّد المغيلي وأفتى بمنع الاختلاط الفاحش الموروث عن الوثنيين الذي وصفه ابن بطوطة في رحلته⁽⁶³⁾، وهو ما كان يضر بالتميز الإسلامي.

بل إنه وفي سبيل الحصانة الدينية سلك طريق الفقهاء في التنفير والتخويف من الكبائر بإطلاق لفظ الكفر لا تحقّقا، وإنما ترهيبا ووعيدا، فقال: « لا حرج في إطلاق الكفر على ذي الذنب أحاديث الوعيد على ظاهرها ردعا للمتسورين على حى الشريعة ورسومها الظاهرة، نحو قول النبي صلى الله عليه وسلم « العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة فمن تركها فقد كفر»⁽⁶⁴⁾، أو قوله: «لم يغفل المغيلي طوال مساره ورحلاته إحياء دور الفقيه الحقيقي المترسم

(60) المراجعات، الرسالة الثانية، ص 214.

(61) ابن عسكر، دوحه الناشر، ص 132.

(62) المغيلي، أسئلة الأسقيا، ص 67.

(63) ابن بطوطة، تحفة النظار في غرائب الأمصار، (بيروت: مؤسسة الرسالة، ط 4،

1985) ج 2 ص 122.

(64) الترمذي، سنن الترمذي، أبواب الإيمان، رقم (2621)

لحدود الشريعة والمحافظة على حيائها، فلم يكن العلم عنده رسوما ولا رقوما ولا محفوظا يترك عند أول مزلة قدم، وإنما هو المحافظ المداوم على حضورها وحكمها وقيوميتها على الجميع حاكمين ومحكومين، إذ الحاكم الأول هو الله تعالى، فهو صاحب الخلق والأمر والنهي، والتحسين والتقبيح، كما قال الشاطبي: «إذ الأشياء كلها بالنسبة إلى وضعها الأول متساوية لا قضاء للعقل فيها بحسن ولا قبح؛ فإذا كون المصلحة مصلحة هو من قبل الشارع بحيث يصدق العقل وتطمئن إليه النفس»⁽⁶⁵⁾.

4- الجانب الوجداني: وهو ما يظهر في جلّ مؤلفاته من التعبير عن الحب الفائق للجناب النبوي في مختلف القصائد البديعة التي خطها يراعه مبدعا، أو مترسما أساطين المديح النبوي كالبوصيري، مثل الميمية التي أنشأها في الحرم النبوي⁽⁶⁶⁾. وعلى ذلك أجمع مترجموه من كونه مالكيًا من السلف الأول في المتابعة "فهو متمكن المحبة في السنة وبغض أعدائها"⁽⁶⁷⁾. حيث اشتهر بكونه من المترسمين في تتبع السنّة، والمنافحة عنها، ولأجل ذلك رافع على مركزية السنّة ومتابعها والبعد عن البدعة قائلًا: «العامل على غير السنّة أخسر من البطال، إذ لا عمل إلا بنية، ولا عمل ولا نية إلا بموافقة السنّة»⁽⁶⁸⁾. وفي تقسيمه للمتابعين ثلاثة فرق أحسنها من اتخذ النبي صلى الله عليه وسلم أميرا في كل شيء، فهم: «قد انحازوا إلى فئة أميرهم خائفين، واحتفظوا بمتابعة أثره في كل حين، حتى خالصوا بغنائمهم من أرض أعدائهم سالمين»⁽⁶⁹⁾.

⁽⁶⁵⁾ الشاطبي، الموافقات في أصول الشريعة، (السعودية: دار ابن عفان، ط 1، 1997)، ج 2 ص 535.

⁽⁶⁶⁾ انظر التنبكي، كفاية المحتاج لمعرفة من ليس في الديباج، (القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية، ط 1، 2004)، ج 2 ص 219.

⁽⁶⁷⁾ الحفناوي، تعريف الخلف برجال السلف، (الجزائر: موفم للنشر، 1991) ج 1 ص 196.

⁽⁶⁸⁾ المراجعات بين السنوسي والمغيلي، الرسالة الثالثة، ص 228.

⁽⁶⁹⁾ المراجعات، الرسالة الثالثة، نفسه، ص 237.

وعلى هذا المسلك الوجداني في حمل العلم وتعليمه وتبليغه يميز المغيلي بين ثلاث مقامات أو مناهج ومسالك حسب أحوال المخاطبين:

الأول: مقام العلم والتعليم، ويقتصر فيه على المجمل والثابت بالكتاب والسنة، أو بالأحرى متابعة المنهج القرآني في عرض العقيدة واستعاد في هذا مقولة صاحب الرسالة القيرواني، وقال في هذا: « فمن خرج في تلقين العقائد الدينية عن تلك الطريق النبوية، فقد خرج من نور السنّة إلى مقام البدعة، وسقط في تلك الفتنة»⁽⁷⁰⁾.

الثاني: مقام دفع نزغات الشيطان، وهنا يظهر الأثر التزكوي عند المغيلي بالرجاء والضراعة لله في دفع وساوسه بالاستعاذة منه باعتباره العدو الأول والأخير للعبد بصرفه من الهدى وإدخاله في غمار الضلالات والشبهات.

الثالث: مقام ردع المبتدعة بدفع ضررهم بما تيسر من المناظرة، أو الضبط بما تمليه السياسة الشرعية، أو العزل الاجتماعي⁽⁷¹⁾. وربما تظهر هنا بعض الشدة في عرض المبتدعة على التوبة أو السيف كما هو رأيه⁽⁷²⁾ جريا على بعض تخريجات السياسة الشرعية عند بعض المالكية⁽⁷³⁾، وهو من باب ضبط المجتمعات حتى لا تنخرها الفتن الداخلية التي تذهب بريحها، وهو ما كانت تحتمله الروح العامة لتلك الأعصر السابقة.

5- الترابطية بين الإيمان والسلوك: كان الشيخ نزاعا للعملية والفعالية، ويرنو إلى إصلاح الدين والدنيا مترسما مشروع أبي حامد الغزالي،

⁽⁷⁰⁾ المراجعات، الرسالة الثالثة، ص 231.

⁽⁷¹⁾ المراجعات، الرسالة الثالثة، ص 232.

⁽⁷²⁾ المغيلي، الرد على المعتزلة، ص 75.

⁽⁷³⁾ انظر بيثي محمد عبد الحليم، المشروع السياسي عند الإمام المغيلي النظرية والتطبيق، مجلة رسالة المسجد، السنة 13، ع 3 (الجزائر: وزارة الشؤون الدينية والأوقاف، 2015)، ص 46.

ومسيرة حياته مصداقا لكل ما مرّ ذكره، وهو ما أجمع عليه مترجموه ومادحوه وناقلو مآثره، حيث لم يذكروا عنه ما يחדش المروءة أو يزري بالدين، بل كان الرجل مثال العالم الرباني والوارث للسر المحمدي، كيف لا وهو الذي أخذ التربية الصوفية عن أكابر مشايخه من الثعالبي والسنوسي، وجوهر التصوف هو تفعيل الإيمان وتحويله إلى سلوك وضاء في الحياة كلها، فعلى الرغم من جلالته وإمامته وتقديمه لدى سلاطين العصر إلا أنه حافظ على دور المرشد للجميع، وعندما نمت الإشاعات بكونه مريدا للسلطة، حيث قال له السلطان الشيخ محمد الوطاسي بعد انتهاء المناظرات في نازلة يهود توات: «إنما أنت تحاول على هذه الديار، يعني الملك، وليس لك قصد غيرها»، فقال المغيلي: «والله ما هي عندي إلا والكيف سيان»⁽⁷⁴⁾.

6- العناية بفقهِ الآداب الشرعية: وهو الفقه الذي توارى خلف الفقه المحض، وقام بإحيائه شراح الحديث والمتصوفة⁽⁷⁵⁾ باعتباره رديفاً للفقهِ الأول بل هو معاضد له، أو هو ثمرته حيث تتحلّى الأركان الظاهرة والمعاملات اليومية بهذه الآداب، وكتب في ذلك المغيلي رسائل مثل عمل اليوم والليلة متقنياً عمل الإمام محمد بن شعيب النسائي، كما نظم في ذلك أيضاً القصيدة الدالية في الوعظ والإرشاد⁽⁷⁶⁾.

ولأجل ذلك كرّ المغيلي على التطويح بالفقهين الأصلي والتبعي المتمثل في الآداب الشرعية، منتقداً مآلات بعض المدعين من المجترئين على الإفتاء ومن

⁽⁷⁴⁾ الشفشاوني، دوحه الناشر لمحاسن من كان بالمغرب من مشايخ القرن العاشر، (الدار البيضاء: مركز التراث الثقافي المغربي، ط 3، 2003)، ص 131. بونار رابح، مقدمة مصباح الأرواح، ص 17.

⁽⁷⁵⁾ ونماذج التأليف فيه عند المتصوفة كثيرة مثل كتاب إحياء علوم الدين، والجيلاني في الغنية، ج 1 ص 38.

⁽⁷⁶⁾ انظر ابن مريم، البستان، نفسه، ص 255. الحفناوي، تعريف الخلف، نفسه، ج 1 ص 196.

ثمّ الابتداع في الدين، وهو ما صوره في زمنه أبو عبد الله محمد العقباني (871هـ) في كتابه «تحفة الناظر» حيث يصف جرأة البعض من العوام على الإفتاء فيما لا يعلمون يقول: «فقد آلت الحال اليوم إلى أن ينظر أحد العوام في أوراق من الفقه والكلام ويقوم على الخوض فيما يهلكه، والمستمع منه أن يقف على مسائل من الخلاف، فيختار منها بحسب ما يوافقه من شتى المذاهب أو يعثر به سوء نظره وظنه الكاذب، ثم يتصدى للقول وتطلب الفتوى فيقول فيما ليس له به علم هذا حلال وهذا حرام ليفتري على الله الكذب»⁽⁷⁷⁾.

الخاتمة:

ليس من مكرور القول ولا من معاد الكلام زيادة الإمام محمد بن عبد الكريم في الدعوة الإسلامية في القرن التاسع والعاشر الهجريين، وفتحه العلمي وأثره التربوي، وبراعته السياسية في اكتساب أصقاع جديدة لدار الإسلام في بلاد إفريقيا، ولم تتأت تلك الفتوحات المختلفة إلا من فتوح ربانية لرجل زواج بين العلم والعمل، فكان مثال الوراثة المحمدي الحقيقي الذي تأسى بأفذاذ الصحابة الذين بلغوا الدين للبرية، حاملين أرواحهم على أكفهم جهادا ودعوة وتزكية واستنقاذا للعالمين.

وليس من الغريب إجماع المؤرخين على الريادة البارزة، والإشادة بالمكانة الدعوية للمغربي ونجاحاته الباهرة التي بلغت الآفاق، والتي جعلت إمام أهل السنة السنوسي يصفه بوصف بليغ مفرد غير متداول كثيرا وهو الذكورة العلمية: «إلى الأخ الحبيب في ذات الله تعالى القائم بما اندرس في فاسد الزمان من فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر التي القيام بها لا سيما في هذا الوقت علم على الاتسام بالذكورة العلمية والغيرة الإسلامية، وعمارة

⁽⁷⁷⁾ العقباني، تحفة الناظر وغنية الذاكر في حفظ الشعائر وتغيير المناكر، (دمشق: المعهد الثقافي الفرنسي، 1967)، ص 81.

القلب بشريف الإيمان»⁽⁷⁸⁾. وقول ابن مريم عنه: «القدوة الصالح الحبر، أحد أذكياء العالم وأفراد العلماء الذين أوتوا بسطة في العلم والتقدم»⁽⁷⁹⁾.

إنّ هذه الشهادات المنقبية الدالة على عمق المدى التغييري الذي أداه الرجل في زمن سكون العلماء وانكفائهم على الدرس والتدريس والتأليف فقط، فكان مداه التغييري بعيدا، ومما أسعفه على ذلك وضوح الأهداف، وسلامة الخطة، واستصحاب المعالم التي ذكرناه في وسطية التوحيد والسلوك، حيث فرق بين تعليم العقيدة، وفعاليتها في السلوك الإسلامي، ولأجل ذلك اكتفى بالقضايا الجمالية البيّنة، ولم يشغل تلامذته ولا القطاعات التي بلغها الإسلام بالمماحكات والتشقيقات، منافحا عن عقائد أهل السنة والجماعة، عاضا على ما استقر عليه الدرس العقدي، موجهها الجهد كله إلى صناعة مسلم زكي فاعل، متابع للسنة، مبتعد عن البدعة، متحلّ بالأداب الشرعية، منتظم في جماعة مسلمة متحاكمة للشريعة، متطلعة إلى العزة، راغبة في هداية الناس والعالمين.

⁽⁷⁸⁾ الونشريسي، المعيار المعرب، نفسه، ج 2 ص 252-253.

⁽⁷⁹⁾ ابن مريم، البستان في ذكر العلماء والأولياء بتلمسان، نفسه، ص 253.

المصادر والمراجع:

1. احسانة يوسف، تطور المذهب الأشعري في المغرب الإسلامي، (المغرب: منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، 2003).
2. الباقلاني، تمهيد الأوائل في تلخيص الدلائل، تحقيق عماد الدين حيدر، (لبنان: مؤسسة الكتب 1987)
3. -ابن بطوطة، رحلة ابن بطوطة، تحقيق علي المنتصر الكتاني، (بيروت: مؤسسة الرسالة، ط 4، 1985).
4. بل محمد، إنفاق الميسور في تاريخ بلاد التكرور، تحقيق عبد المنعم ضيفي، (مصر: الأزهرية للتراث، ط 1، 2011).
5. البوعبدلي المهدي، الأعمال الكاملة، جمع عبد الرحمان دويب، (الجزائر: عالم المعرفة، 2013).
6. بيثي محمد عبد الحليم، العقائد السنوسية الست، (تونس: الدار المالكية، ط 1، 2022).
7. التنبكي أحمد بابا، كفاية المحتاج لمعرفة من ليس في الديباج، (القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية، 2004).
8. الجويني، أبو المعالي، كتاب الإرشاد، تحقيق زكريا عميرات، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط 1، 1995).
9. -الجيلاني، عبد القادر، الغنية لطالبي طريق الحق عز وجل، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط 1، 1997).
10. -الحفناوي أبو القاسم، تعريف الخلف برجال السلف، (الجزائر: موفم للنشر، 1991).
11. خديما مباركي، التصوف والطرق الصوفية في السنغال، (الدوحة: معهد الدراسات الإفريقية، 2002).
12. ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، تحقيق خليل شحادة، (بيروت: دار الفكر، ط 2، 1988).
13. -ابن زكري التلمساني، محصل المقاصد مما به تعتبر العقائد، تحقيقي عبد الرزاق دحمون، (الجزائر: دار المعرفة، 2011).

- 14.- زروق البرنسي، عدة المريد الصادق، تحقيق الصادق الغرياني، (بيروت: دار ابن حزم، ط 1، 2006).
- 15.- السبكي تاج الدين، معيد النعم ومبيد النقم، (بيروت: مؤسسة الكتب الثقافية، ط 1، 1986).
- 16.- سعد الله أبو القاسم، تاريخ الجزائر الثقافي، (بيروت: دار الغرب الإسلامي، ط 1، 1998).
- 17.- السنوسي محمد بن يوسف، العقيدة الصغرى وشرحها، (الجزائر: المجلس الإسلامي الأعلى، 2011).
- 18.- السنوسي، محمد بن يوسف، عمدة أهل التوفيق والتسديد، تحقيق عبد الفتاح بركة، (الكويت: دار القلم، الكويت، ط 1، 1982).
- 19.- الشاطبي أبو إسحاق، الموافقات في أصول الشريعة، (السعودية: دار ابن عفان، ط 1، 1997).
- 20.- الشاوي يحيى، توكيد العقد فيما أخذ الله علينا من العهد، تحقيق عمار جيدل، (الجزائر: منشورات وزارة الشؤون الدينية، ط 1، 2015).
- 21.- الشفشاوني محمد بن عسكر، دوحة الناشر لمحاسن من كان بالمغرب من مشايخ القرن العاشر، تحقيق محمد حجي، (الدار البيضاء: منشورات مركز التراث الثقافي المغربي، ط 3، 2003).
- 22.- الشنقيطي أحمد بن الأمين، الوسيط في تراجم أدباء شنقيط، (القاهرة: الشركة الدولية للطباعة، 2002).
- 23.- الطرطوشي أبو بكر، الحوادث والبدع، تحقيق علي بن حسن الحلبي، (الدمام: دار ابن الجوزي، 1998).
- 24.- ابن عبد البر، جامع بيان العلم وفضله، تحقيق أبو الأشبال الزهيري (الدمام: دار ابن الجوزي، 1994).
- 25.- العطار حسن، حاشية العطار على شرح الجلال المحلي، (بيروت: دار الكتب العلمية، د، ت).
- 26.- العقباني أبو عبد الله محمد بن أحمد بن قاسم، تحفة الناظر وغنية الذاكر في حفظ الشعائر وتغيير المناكر، تحقيق عليالشنوفي، (دمشق: المعهد الثقافي الفرنسي، 1967).

27. علي محمد إبراهيم، اصطلاح المذهب عند المالكية، (دبي: دار البحوث للدراسات الإسلامية وإحياء التراث، ط 1، 2000).
28. قدورة سعيد، مخطوطة حاشية سعيد قدورة على أم البراهين، الرياض، دار الحديث الحسنية.
29. لوتروبستودارد، حاضر العالم الإسلامي، تعريب وتعليق أرسلان شكيب (بيروت: دار الفكر، د، ت).
30. مارتى بول، كنتة الشرقيون، تعريب وتعليق محمد محمود بن ودادي، (دمشق: مكتبة زيد بن ثابت، 1985).
31. محمد نبيلة حسن، في تاريخ إفريقيا الإسلامية، (الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية، 2009).
32. مخلوف محمد، شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، (بيروت: دار الفكر، د، ت).
33. ابن مريم، البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، (الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية، 1985).
34. المغيلي محمد بن عبد الكريم، أسئلة الأسقيا وأجوبة المغيلي، (الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1974).
35. المغيلي محمد بن عبد الكريم، تفسير سورة الفاتحة، تحقيق علال بوبريق، (الجزائر، دار البلاغ، 2013).
36. المغيلي محمد بن عبد الكريم، الرد على المعتزلة في اعتقاداتهم الفاسدة، تحقيق محمد سالم التواتي، (بيروت: دار الكتب العلمية، 2020).
37. المغيلي محمد بن عبد الكريم، مصباح الأرواح في أصول الفلاح، تحقيق رابع بونار، (الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1986).
38. الوزاني أحمد بن إدريس، النشر الطيب على شرح الشيخ الطيب، (القاهرة: المكتبة الأزهرية، 1348هـ).
39. الوزان حسن ليون الإفريقي، وصف إفريقيا، تحقيق محمد حجي ومحمد الأخضر، (بيروت: دار الغرب الإسلامي، ط 2، 1983).
40. الولاتي، فتح الشكور في معرفة أعيان علماء التكرور، تحقيق محمد الكتاني، ومحمد حجي، (ط 1، بيروت، دار الغرب الإسلامي، ط 1، 1981).

- 41.-الونشريسي، المعيار المغرب والجامع المغرب عن فتاوى علماء إفريقية والأندلس والمغرب، تحقيق محمد حجي، (بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1981).
42. المقالات:
43. البوعبدلي المهدي، عبد الرحمان الأخضرى وأطوار السلفية في الجزائر، مجلة الأصالة، العدد 53، (الجزائر، وزارة الشؤون الدينية، 1978).
44. بيثي محمد عبد الحلیم، قضية يهود توات في كتب النوازل الجزائرية، ضمن سجل ملتقى فقه النوازل في الغرب الإسلامي، (الجزائر: وزارة الشؤون الدينية والأوقاف، 2010).
45. بيثي محمد عبد الحلیم، المشروع السياسي عند الإمام المغيلي النظرية والتطبيق، مجلة رسالة المسجد، السنة 13، العدد 3 (الجزائر: وزارة الشؤون الدينية والأوقاف، 2015).
46. بيثي محمد عبد الحلیم، جهود علماء المغرب الأقصى في العناية بالعقائد السنوسية، دراسة بليوغرافية مجلة رفوف، مج 8، عدد 2، (الجزائر، جامعة أدرار، 2020).
47. العلمي أحمد حمدان، في تيارى العقيدة السنية بالغرب الإسلامي، نص مراجعات كلامية بين السنوسي والمغيلي، مجلة كلية الآداب، ع 3 (المغرب: جامعة محمد بن عبد الله بفاس، 1988).
- 48.-مقلاتي، الفكر العقدي عند الشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي وامتداداته في إفريقيا الغربية، مجلة الدراسات العقدية ومقارنة الأديان، ع 7، (قسنطينة: جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، 2017).

قيم الوسطية والاعتدال لدى الإمام المغيلي ومكتسباتها في تحقيق الوحدة عربيا وأفريقيا وعالميا . (قيم الوسطية)

أ.د/ عبد المهيمن محمد الأمين

مدير ومؤسس: جامعة المغيلي الأهلية الدولية بالنيجر - نيامي

ملخص:

يُعدّ الإمام محمد بن عبد الكريم المغيلي من أهم العلماء الذين أثروا في حياة الأفراد والمجتمعات عربيا وأفريقيا وعالميا؛ وهذا التأثير نتيجة تبنيه الوسطية والاعتدال؛ وهو ما أعان على تحقيق الوحدة للمجتمعات والدول. والمداخلة تسعى لتوضيح هذا الموضوع من خلال الإجابة عن سؤالين:
- ما هي أهم قيم الوسطية والاعتدال عند الإمام المغيلي؟
- ماهي مكتسبات الاعتدال والوسطية لدى الإمام المغيلي التي حققت الوحدة عربيا وأفريقيا وعالميا؟

الكلمات الافتتاحية:

المغيلي - القيم - المكتسبات - الوحدة - الوسطية والاعتدال

The values of Moderation and Balance at Imām al-Maghīlī in Achieving Unity at the Arabic African and International Levels

Abstract:

Imām Muḥammad b. ‘Abdul Karīm al-Maghīlī is considered one of the most important scholars who enriched the lives of individuals and communities in Arab, African, and global contexts. This influence is a result of his adoption of moderation and balance, which helped achieve unity among communities and nations.

This paper aims to clarify this topic by answering two questions: What are the most important values of moderation and balance according to Imām al-Maghīlī? And what are the gains of moderation and balance that Imām al-Maghīlī achieved, which brought about unity in Arab, African, and global contexts?

Keywords:

Imām al-Maghīlī, Values, Gains, Unity, Moderation, Balance

مقدمة تمهيدية:

والموضوع في غاية الأهمية لكونه يدور على الوحدة واستقرار المجتمعات، وتؤكد أهميته حينما ننظر إلى واقع المجتمعات في أفريقيا؛ وخاصة منطقة الساحل، حيث تنشط فيها حركات إرهابية، أصبحت تزهد الأرواح وتعتدي على الحرمات والمقدسات والكرامات، وتسلب الأموال وتغتصبها، وأحدثت فوضى كبرى في حياة الأفراد والشعوب، وعجزت الدول أمنيا على القضاء عليهما؛ بل أصبحت تزداد قوة وسيطرة وتحكما، فإرضة قوانينها على الشعوب المغلوبة على أمرها؛ وإذ هي تمارس كل تلك الفضائع تدعي أنها تقوم بعمل شرعي، وهو الجهاد في سبيل الله، واستغلت فقر وجهل شعوب المنطقة، وحماسها ورغبتها الشديدة في الإسلام، وداست على المرجعيات العلمية والدينية والسياسية الموروثة في المنطقة، واستوردت إليها فكرا وسلوكا غريبا عنها. ومع أن هذه الحركات وهذا التوجهات تستخدم العنف، ويتبادر إلى الذهن أن العلاج المناسب لها هو الحل الأمني ومواجهة القوة بالقوة؛ إلا أن العلاج الفكري وتصحيح المفاهيم الخاطئة؛ سيظل علاجاً ضرورياً وفعالاً من أجل استئصال هذا الفكر الضال من منابعه، وهو أمر يستوجب علينا الرجوع إلى دراسة مرجعياتنا الدينية والاجتماعية والسياسية، وفحص آثارها دراسة وتنقيبا؛ لنخرج منها برؤية واضحة ومتمسكات تقينا العواصف والزواج العاتية والمنحرفة عن النهج القويم لديننا الحنيف، القائم على الوسطية والاعتدال.

والإمام محمد بن عبد الكريم المغيلي؛ يعدّ أهم مرجعيات أفريقيا، وأكثرها أثرا على الحياة فيها دينيا وسياسيا واجتماعيا؛ والسبب في ذلك يعود إلى أنه قضى معظم حياته في بلاد السودان الغربي، مثل: تكده، وأقدس وكاشنة وكانو. (الإلوري، 2012، ص 16-17)، ويعد في طليعة العلماء الذين زاروا بلاد أفريقيا، وزيارته تعد «فاتحة خير مهدت لما بعدها من عشرات

الزيارات المغاربية، التي استمرت حتى العصر الحديث» (الدوري، 2021، ص 42)، وكذلك «رحل إلى بلاد التكرور فوصل إلى كاغو واجتمع بسلطانها أسكيا محمد الحاج» (التنبكتي، 2000، ص 577)، وكذلك ما خلفه من تصانيف ومؤلفات في الفقه والحديث والتفسير والتوحيد واللغة والأدب والبلاغة والتصوف والدعوة إلى الإصلاح والسياسية الشرعية وأنظمة الحكم (زبادية، 1974، ص 9، والودغيري، 2011، ص 82).

وهذه المصنفات تلقاها الناس بالقبول واعتمدوا عليها في أمور دينهم وديناهم، وأيضا ما يتمتع به من مكانة علمية سجلتها شهادات العلماء، وكافيك من يصفه أحمد بابا التنبكتي بأنه «خاتمة المحققين، الإمام العالم العلامة الفهامة القدوة الصالح السني أحد الأذكياء، ممن له بسطة في الفهم والتقدم متمكن المحبة في السنة وبغض أعداء الدين» (التنبكتي، 2000، ص 576)؛ ومن هنا أصبح واجبا دراسة جونب هذه الشخصية والاستفادة منها؛ لتحقيق الوحدة والاستقرار الاجتماعي.

ولعل أهم تلك الجوانب الوقوف على قيم الوسطية والاعتدال عند هذا الإمام العظيم؛ الذي خلف في المجتمعات التي عاش فيها سلوكيات وسطية اعتدالية، لازالت عالقة بالأذهان؛ بفضل الروايات الشفهية.

وقبل الشروع في الموضوع الأساس؛ ينبغي بيان المقصود بالوسطية، فالوسطية "هي العدل والخيار، وهي أفضل الأمور وأنفعها للناس، كما تعرّف على أنّها الاعتدال في كلّ أمور الحياة ومنهجها، ومواقفها، وتصرفاتها، فالوسطية ليست مجرد موقف بين التشديد والانحلال بل تعتبر موقفاً سلوكياً وأخلاقياً ومنهجاً فكرياً" (إبراهيم، 2013، ص 675)، وجاءت الوسطية في القرآن الكريم بمعنى التوسط والعدل والخيرية كما في قوله -عز وجل: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ (البقرة: 143).

أما الاعتدال «فهو الاستقامة، والتزكية والاستواء، والتوسط بين حالين، وهما مجاوزة الحدّ المطلوب والقصور عنه، كما يعرف الاعتدال على أنّه التوسط والاقتصاد في الأمور، وهو أفضل طريقة يتبعها المسلم من أجل تأدية واجباته تجاه ربّه ونفسه» (إبراهيم، 2013، ص 675).

الاعتدال والوسطية كمنهج حياة؛ تدخل في مجالات: العقيدة - السلوك - الفقه - الأصالة والحداثة في حياة الناس - السياسة والعلاقة بالحكام - العلم والعمل - العلاقات الدولية - الاقتصاد - الدعوة (موقع الشيخ محمد الحسن الددو الشنقيطي، الددو، 2015).

والوسطية والاعتدال؛ لا بد لهما من ضوابط حتى تحقق الوحدة والاستقرار، وأهم تلك الضوابط:

- 1- الملاءمة بين ثوابت الشرع ومتغيرات العصر؛
- 2- فهم النصوص الجزئية من القرآن والسنة في ضوء مقاصدها الكلية؛
- 3- التيسير في الفتوى والتيسير في الدعوة؛
- 4- التشديد في الأصول والكليات والتيسير في الفروع والجزئيات؛
- 5- الثبات في الأهداف والمرونة في الوسائل؛
- 6- الموازنة بين متطلبات الروح والبدن، والتوازن في التعامل مع متاع الدنيا؛
- 7- الوسطية والاعتدال في الاعتقاد (موقع موضوع، جحاجة، 2022).

وإذا أمعنا النظر في مسيرة حياة الإمام المغيلي؛ يتضح لنا سيره على الوسطية والاعتدال بمفهومها الصحيح وفي إطار مجالاتها، مع تقييد واضح بضوابطها وأسسها؛ وهو ما جعله مدرسة مثالية وقدوة للوسطية، حاربت الجهل والخرافات، ونشرت مفهوم العقيدة، وأسست لنظام إصلاح.

ومدرسة المغيلي قد تكون الرابط المشترك بين المدرسة السلفية والمدرسة الصوفية النقية، التي ترمز لصفاء الروح، وتهتم بالذكر.

ومن الطريف الناتج عن تميز الإمام المغيلي ووسطيته واعتداله أن كلا من الصوفية والمدرسة الإصلاحية يريدان في اتجاهه وينسبه إليه، ويرى أنه الأحق به؛ لدرجة أن لقب الإصلاحيون الإمام المغيلي بابن تيمية الجزائر (موقع منتديات الواحة، المطهري، 2011).

ولا نبالغ إذا قلنا بأن الإمام المغيلي نموذج فذّ للوسطية والاعتدال، ظهرت قيمها وآثارها ومكتسباتها في تحقيق الوحدة عربيا وأفريقيا وعالميا.

المبحث الأول: قيم الوسطية والاعتدال لدى الإمام المغيلي:

إنّ المتتبع والدارس لحياة الإمام المغيلي؛ سيتأكد لديه بشكل لا يرتقي إليه الشك، أنه كان ينطلق في جميع أموره من الوسطية والاعتدال كمنهج حياة سواء في تعامله مع الناس أو أثناء قيامه بالمهام العلمية من تدريس وتأليف، أو أثناء ممارسة مهامه السياسية وتوجيهاته واستشاراته، أو في مهامه القضائية.

ونحن هنا سنحاول رصد بعض قيم الاعتدال والوسطية لديه، معتمدين على أكثر إنتاجاته تأثيرا في حياة الأفارقة، وهي رسائله الثلاث التي ألفها لسلطاني كانو وسنغي؛ إضافة إلى رسالته التي كان قد ألفها في نازلة يهود توات (الودغيري، 2011، ص 82).

ومن المهم أن نحاول بيان الأسباب التي ساعدت الإمام المغيلي على تبني الوسطية والالتزام بها، والحصول على أهم مكتسباتها، والمنزلة والمكانة التي حظي بها؛ وخاصة في أفريقيا، والتي لم يرتق إليها عالم، ولعل أهم تلك الأسباب، هي:

1- حب السنة النبوية، وجعلها نبراسه، الذي يستضيء به في جميع أموره؛ إضافة إلى بغضه لأعداء الدين (التنبيكي، 2000، ص 576)، وهذا ما قاده إلى ثورة فقهية داعية إلى إصلاحات كبرى في تصحيح المفاهيم، وإحياء السنة وإماتة البدعة؛ وهذا ما يدعو إلى وصفه «بالإمام المجدد» في بداية العصور الحديثة (أحمد، 2005، ص 272)، وقد اشتهر بردوده على المعتزلة في اعتقاداتهم الفاسدة (مقدم، 2016، ص 80)؛

2- فهم روح الإسلام، والاعتماد على الكليات والمقاصد الكبرى للشريعة، وجعل المصدرين الأساسيين (القرآن والحديث) المسطرة للقبول والرفض؛

3- الانطلاق من منهج عقلي منطقي، يتدرج في تصنيف مدرجات العقول؛ حسب ما تحتمله شروط البيئة والزمان والمكان؛

4- تبني منهج تربوي، يقوم على فهم الطبيعة البشرية، واستمالتها بالتعامل بالحسنى، والبعد عن التشنج، وكل ما يمكن أن يفرق بين الناس، من غير تخل عن الحزم والأخذ بالقوة في موضعها؛

5- تجارب الحياة، فهو مع كونه صوفيا؛ لم ينعزل عن الحياة؛ بل عاشها، دون أن يقلل صخبها من عزمته وإيمانه وروحانيته (مقدم، 2006، ص 12، 13، 24)؛

6- كثرة السفر والزيارات لأماكن مختلفة كبلاد الهوسا والجزائر والمغرب الأقصى والقصور التواتية؛ وساعده على ذلك حرية التنقل والحركية في الرحلات (مقدم، 2016، ص 43)، وأيضا مما ساعده على ذلك موقعه الجغرافي؛ ليستفيد من استخدام أهم طرق القوافل من شمال الصحراء إلى جنوبها، وعلى رأسها طريق تلمسان، الذي يمر بغرداية وتوات وينتهي إلى تنبكتو (زيادية، 1989، ص 29)؛

7- تنوع محتويات الإنتاجات العلمية له، وتنوع مصادرها ومراجعتها، فهو قد أَلَف في السياسة، والاقتصاد المعاشي، والفقہ السلوكي وأصوله، والآداب وفنونه، والشعر وأغراضه، والمنطق، وفقه المعاملات، والتفسير والتصوف، والتجارة والمكاييل والموازين والقراطيس، والمائيات، وفي تنظيم الملك والإمارة (مقدم، 2016، ص 43)؛

8- التعاطي مع العلماء حوارا ومنازعة تصحيحا وتصويبا في قضايا الدين وإصلاح الرعية، ومساندة وجهة نظره بالاستشهاد بالقرآن والأحاديث النبوية، وأحيانا دعم آرائه بآراء الآخرين، وضرب الأمثلة والقصص أحيانا؛

9- اعتماد منهجية خاصة في البحث والمناظرة ذو طابع وعظي وإرشادي في العبارة والأسلوب، يتسم بالاختصار ووصف الحالة (مقدم، 2016، ص 79، 80).

إنّ اتباع الطريقة القادرية، المعروفة بوسطيتها في المنهج علميا وسلوكيا؛ والتقيد بالمذهب المالكي؛ يعد أهم روافد وسطية واعتدال الإمام المغيلي؛ الذي لا نبالغ لو وصفناه بأنه إمام في الوسطية والاعتدال.

أمّا عن قيم الوسطية والاعتدال لدى الإمام المغيلي؛ فهي كثيرة جدا، وسنحاول هنا رصد أبرزها وأهمها، وهي:

1- الإمام المغيلي لديه رؤية واضحة للاعتدال والوسطية، التي يقصد بها الصراط المستقيم، الذي يسأله المؤمنون في كل صلواتهم عند تلاوة فاتحة الكتاب، ولهذا نجده يهتم بتفسيرها، موضحا أحوال الناس حيالها "فالصراط المستقيم من حيث هو يختص بالمنعم عليهم، والمنعم عليهم من حيث هم، لا يختص بغير المغضوب عليهم والضالين، فخص كل منهما بالأخص منه مدحا له، ونفيا للوهم عنه. وبالجملة الفرق خمس: قوم عبدوا الله بباعث المعرفة، وقوم عبدوه بباعث الرغبة، وقوم عبدوه بباعث الرهبة، فقدم ذكرهم على الترتيب في أول السورة، وقوم عصوه عبادا، وقوم جهالا، ذكرهما بالنفي فلا خلاق لهما في الآخرة أصلا" (المغيلي، بدون تاريخ، ص 81 - 89)؛

2- عدم الاستبداد برأيه، والأخذ بالشورى، فقد جمع آثار الفقهاء المشهود لهم في زمانه، وفي محيطه؛ ليتقوى بها على طريقة الإجماع، فكتب إلى العلماء الأعلام في قضية يهود توات، فأجابوه بتأييد رأيه، وممن وافقه وسانده مفتي تونس أبو محمد الرصاع، ومفتي فاس أبو مهدي الماواسي، ومفتي تلمسان أحمد بن زكري، والحافظ التنسي، والإمام محمد بن يوسف السنوسي، صاحب العقائد الصغرى والكبرى.

والمغيلي حين يجمع آراء فقهاء عصره في بلده وغير بلده؛ يحقق بذلك سلوكيات وسطية اعتدالية، تركز التطبيق العملي لأصول الشريعة وقواعدها الكبرى، فهو سيعتد بالأرجح والأكثر، أو يحمل الأقل على اتباع الأكثر، فذلك هو الإجماع الصحيح، الذي يرتضيه كل فقيه، ولا يختلف فيه أحد من أصحاب المذاهب الفقهية (الإلوري، 2012، ص 14-16)؛ وهو بهذا السلوك الاستشاري أحياء قيمة شرعية (الإجماع) وهي قيمة لها آثار حميدة اجتماعيا وسياسيا؛

3- الوسطية والاعتدال في التعامل مع الحكام وبذل النصح لهم، وإعانتهم على مهام الحكم الرشيد، المحقق للعدل والرافع للظلم، وهو بذلك يحقق الوسطية والاعتدال في مذاهب العلماء تجاه الحكام، والتي تتأرجح بين التشدد بالمقاطعة، والتساهل بالمتابعة والموافقة الكلية لهم في كل ما يقولون ويفعلون؛ ومضمون رسائله لسلطين أفريقيا خير دليل على هذه الخاصية؛ وبسبب هذه الخاصية، وما اتصف به من صفات مميزة "نال الوجاهة عند أمراء السودان وملوكها، وكان مقداما على الأمور جسورا، فصيح اللسان، جدليا نظارا محققا مدققا" (الإلوري، 2012، ص 13).

والإمام المغيلي؛ كان يحرص كل الحرص على الأمر المعروف، والنهي عن المنكر، واتباع الشريعة (التنبكتي، 2000، ص 577)، كل ذلك في إطار من الوسطية والاعتدال؛

4- إعطاء قيمة تربوية للحوار، والأخذ ببعض العلوم لنفعها؛ ولو كانت في أصل موطنها من بلاد الكفار، وعارضها ورفضها بعض العلماء، وخير ما يجسد هذه القيمة الحوار الذي دار بين الإمام المغيلي وبين الإمام السيوطي، فكان السيوطي يحرم المنطق وما يتصل به من علوم فلسفية؛ بحجة أنه من علوم الكفار، التي تبعد عن الهداية والاستقامة؛ بينما يرى الإمام المغيلي أن دراسة المنطق ليس محرماً؛ فهو وإن كان علم الكفرة؛ إلا أنه فيه فوائد ويستفاد منه في حماية الفكر والتدليل العقلي لحماية المعتقدات من تشكيك الشاكين ودفع الشبهات (التنبيكي، 2000، ص 578-579، والإلوري، 2012، ص 22-26)؛

5- الوسطية والاعتدال مع السلوكيات والعادات المجتمعية؛ وذلك بقبول الحسن منها، المتوافق مع معايير الأخلاق، ومحاربة السيء منها، المتعارض مع الفطرة السليمة، والمسطرة الثابتة لذلك موافقتها للشرع أو عدم موافقتها. وخير ما يوضح موقف الإمام المغيلي في مثل هذه القضايا "فتواه في تكفير من صدر منه ما لا يصدر إلا من الكافر ولو لم يعتقد الكفر. وقد تأثر بهذا المنهج الشيخ البكري البرناوي، في تكفيره لبعض الفلانيين في عادة جاهلية يفعلونها في الصحراء" (الإلوري، 2012، ص 34)؛

6- تسمية الأشياء بدلالاتها قوة وضعفاً، والدعوة إلى اتباع السلوك المناسب مع الحالة؛ متأثراً في ذلك بروح الشرع. وخير شاهد لذلك قول الإمام المغيلي: «من أفتى بتحليل المطلقة ثلاثاً قبل الزوج؛ فهو جاهل دجال مضل، يجب على من له القدرة من المسلمين أن يزجره بما استطاع من الضرب الوجيع، والحبس الطويل، وكل ما أمكن من زجره» (الإلوري، 2012م، ص 35-36)؛

7- اعتماد أسلوب التدرج في سياق التصورات والأحكام، محدثاً سلماً ومنهجاً تطابقياً حسب استطاعة وقوة إدراك الإنسان في بلاد تعج بأنواع الديانات، التي تسيطر عليها الخرافات والعادات والتقاليد البالية؛

8- الالتزام بالوسطية والاعتدال في الأهداف والمقاصد والمضامين والوسائل في نشر الدعوة الإصلاحية، وتصحيح المسارات والقواعد الفقهية وتنقيتها من الشوائب التي التصقت بها؛

9- المزاوجة بين الإمامة والسياسة والأميرية، وبين الزهد ورعاية مصالح الناس، والقيام بمهام علمية، كالحلقات العلمية، التي يجتمع فيها الطلاب والعلماء والرواد والمؤيدون (مقدم، 2006، ص 12، 24، 30)؛

10- الوسطية والاعتدال بين صفتي الكرم والبخل للملوك والسلطين "فالكرم دوام الملك، والبخل والتبذير خرابه؛ فالكرم بذل ما يحتاج إليه عند الحاجة لمستحقه بقدر الطاقة، فمن خرج عن هذا الحد فقد تعدى وظلم، ولا حظ له من الكرم، وهو إما بخيل، أو مبذر في بيت المال، وكل منهما خراب للملكة على كل حال، فإن كان البخل أو التبذير من جبلة السلطان، فعليه أن يستنيب في عطايا مملكته من ثقة خاصة أهلا" (المغيلي، 1994، ص 54-55)، ومن هذا النوع الوسطية والاعتدال بين صفتي الحذر والأمان لمن يتولى السلطة، فلا بد من الثقة بأهل الثقة والأمان؛ لكن أيضا لا بد من الحذر؛ حتى لا يقع السلطان في مشكلات لا يستطيع دفعها "لأن الإمارة غرر جنتها الحذر" (المغيلي، 1994، ص 29)، ومنه أيضا وجوب التوسط بين صفتي العدل والإحسان للملوك في مجالس المتخاصمين «وليكن في جميع شأنه بمعزل عن ظهور الميل لأحدهما أو غيرهما من قبض ينفر، أو بسط يجسر» (المغيلي، 1994، ص 41)؛

11- تناول جوانب الموضوع والمسائل وتفريغها؛ حتى لا يحصل إجحاف باهتمام بجانب دون آخر، وخير ما يوضح هذه القيمة دعوة الإمام المغيلي لسلطان أسكيا محمد إلى تقريب العلماء العاملين، وإبعاد أهل الشر وعلماء السوء، وسؤال العلماء الثقات (المغيلي، 1974، ص 22-26)؛

12- الردع حسب الطاقة في المفسدات الدنيوية والشرعية، وحسب نوع الخطأ "تنفيذ أحكام القطع بالمفسد؛ لأنه ظالم والظالم أحق من يحمل عليه" (الإلوري، 2012، ص 45)؛

13- التفريق في الردع بين المخطئ الجاهل والمتعمد «ولا تصبر لمن تعمد ذلك ولم ينته عنه؛ لأن ردع ذلك ومثله حق الله تعالى ورسوله». (الإلوري، 2012، ص 44)؛

14- الوسطية في التعامل مع الكفار المواطنين، فلهم حقوق المواطنة، ولكن السلوكيات التي قد تؤدي إلى تغيير السلوكيات والمظاهر الإسلامية؛ ينبغي منعها من السلطان إذا كان ذلك يتوقع منه التأثير على العامة وصغار العقول (الإلوري، 2012، ص 45)؛

15- الوسطية في تقدير آثار العقوبات والأحكام، كقوله: «ولكن لا تفعل بالمفسد ما هو أشد من ردعه؛ إلا إذا رأيت أنه لا يرجع بغيره» (الإلوري، 2012، ص 45)؛

16- حماية الوسطية بقواعد شرعية "لأن مقصد الشارع في الروادع درء المفسد وجلب المصالح في كل زمان ومكان"، وكقوله: «وإن تعارض مفسدتان إحداها دينية والأخرى دنيوية؛ فدرء المفسدة الدينية أولى» (الإلوري، 2012، ص 46)؛

17- الوسطية في توقير العلماء الذين هو منهم، والنصح لهم وبقوة، وفضحهم حين يتكون الطريق السليم "وأهل الذكر من اجتمع فيه وصفان العلم والتقوى؛ لأن بالعلم يعرف الرشد من الغي، وبالتقوى يأمر بالرشد وينهى عن الغي، فلا تقيد في دينك إلا من ثبت أنه عالم تقي... إن كثيرا من علماء هذه الأمة وعبادها يأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله؛ وبسبب هؤلاء العلماء والعباد شاع الفساد في جميع البلاد، فالجهاد فيهم وفي أنصارهم أفضل من كل جهاد (المغيلي، 1974، ص 26، 27)؛

18- الوسطية في التعامل مع أنواع العلماء والأساليب المناسبة لكل نوع "فاعلم أن القراء ثلاثة أنواع: النوع الأول من تبين لك بلا شك أنه عالم تقي. الثاني من تبين لك أنه ليس بعالم أو أنه ليس بتقي. الثالث من شككت فيه فلم تعلم هل هو عالم تقي أم لا؟ فمن تبين لك أنه عالم تقي فهو من أهل الذكر فاسأله عن دينك وقلده ينجيك ويكفيك، كما أنه خبير وتبين بلا شك أنه عارف أمين. ومن تبين لك أنه ليس بعالم وأنه ليس بتقي فليس من أهل الذكر فلا تقلده في شيء من دينك ولا تسأله عنه... ومن لم يتبين لك حاله فلم تعلم هل هو عالم تقي أم لا فقفْ عنه أيضا، ولا تقلده في شيء من دينك" (المغيلي، 1974، 31-32)؛

19- الوسطية والاعتدال في منهج التعامل مع الأعمال والمسؤوليات، وتحديد الضوابط الحامي لدين الإنسان وعرضه "ثم اعلم أن تأخيرك النظر في الأمور حتى تستفتي من بعد عنك من أهل الذكر تضييعٌ لكثير من الأمور التي تعين عليك إصلاحها عاجلا فبادر للنظر في جميع الأمور التي تعين عليك إصلاحها عاجلا، فعليك بهذه القاعدة (المغيلي، 1974، ص 32)؛

20- الوسطية في تحمل المسؤولية؛ حيث يوضح الإمام أن فعل الناس لأمر لا يبرئ مسؤولية الإنسان تجاه ذلك الفعل في حال تقليدهم؛ ولهذا يجب العمل بما هو الصحيح والأصلح "ولا تقل في باطل قدرت اليوم على إزالته هذا لا يلزمني لأنني ما فعلته إنما فعله غيري، فكل ما فعله غيرك ثم صار إليك إن كان خيرا فائتبه وإن كان شرا فأزله ولو طال زمانه؛ لأن الملك لله والحكم لله وأنت عبد الله، واجب عليك أن تصلح كل ما وصل إليك" (المغيلي، 1974، ص 43)؛

21- الوسطية في تغيير الحاكم الظالم، وتغيير الأنظمة الإدارية والانقلاب عليها، وهو أمر حساس يتعلق بأمن وسلامة المجتمع، لهذا يحتاج إلى اتخاذ قرار حكيم يراعي المصالح والمفاسد المترتبة على القرار، ونجد أن

الإمام المغيلي يتبنى الوسطية والاعتدال كعادته في هذا الأمر مفصلا وموضحا "فإن استطعت أن تزيل ظلمه عن المسلمين من غير مضرة عليهم؛ حتى تقيم أميرا عادلا فافعل وإن أدى ذلك إلى القتل وقتل كثير من أعوانك لأن من قتل منهم شر قتيل ومن قتل منكم خير شهيد... وإن لم تستطع أن تزيل ظلمه عن المسلمين إلا بمضرة عليهم؛ فقد تعارض هنا ضرران، فاحذر تغيير منكر بمنكر مثله أو أعظم منه، فتثبت هنا وارتكب أخف الضررين؛ قاعدة مشهورة وسنة مأثورة" (المغيلي، 1974، ص 51)؛

22- اعتماد الوسطية والاعتدال كمسطرة في التعامل مع علماء السوء، بما لا يحميمهم من العقوبة والمعاملة التي يستحقونها "وأما علماء السوء وصفتهم بإعانة ذلك الظالم؛ فهم أشر منه جريمة، وعلمهم من العقوبة ما يردع أمثالهم بحسب اجتهاد الحاكم" (المغيلي، 1974، ص 52)؛

23- اعتماد الورع كقيمة من قيم الوسطية والاعتدال للفرد وللجماعة وللدولة؛ وخاصة للمسؤولين الكبار، الذين يتصدرون المجتمع سياسيا ودينيا واجتماعيا واقتصاديا، وفي هذا الصدد يقول الإمام المغيلي: «فاحذر أيها الأمير أن يضللك بعض علماء السوء بتزيين الطمع حتى تنسى الورع؛ فإن ملاك الدين الورع، وفساد الدين والدنيا الطمع، والورع أن تترك ما لا بأس به خوفا من الوقوع فيما به بأس، فعليك به في جميع الأمور» (المغيلي، 1974، ص 56-57)؛

24- من أهم قيم الوسطية والاعتدال تبني معيار محاربة السلوكيات الضالة والمنحرفة والمخالفة للشرع، والتي تهدف إلى خداع الناس واستغلال ضعف النفوس والعقول؛ كصنيع المشعوذين والدجالين وأدعياء الغيب «أمّا من يزعم أنه يعلم علم الغيب بشيء من تلك الأمور أو غيرها؛ فإنه كاذب ومن صدّقه كفر، فواجب أن يوقفوا للتوبة تحت السيف، فمن تاب ترك ومن أبى قتل بالسيف كفرا... وكل من يزعم أن عنده الطلاسم والعزائم

ونحوها ما يجلب الرزق أو يهزم العدو أو نحو ذلك، فمن تاب منهم ترك ومن أبى قتل، وكل من يزعم أن ما يكتب لذلك من كتاب الله أو من الكلام الطيب فلا تصدقوه إنما هو كاذب، فالواجب زجره وإن لم يرجع فلينكل على ذلك سدا للذريعة وحفظا للشريعة والاعتقاد». (المغيلي، 1974، ص 63-64)؛

25- اتباع أسلوب الوسطية والاعتدال في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وعدم خلطها بالتجسس "ومن أعظم المنكرات ما ذكرتم من اختلاط الرجال بالنساء وكشف العورات؛ فواجب على أمير المؤمنين أن يجتهد في ذلك كله بما استطاع وأن يجعل أمنا ويحتسبون على ذلك ليلا ونهارا سرا وجهارا؛ وليس ذلك من باب التجسس على المسلمين إنما ذلك حسن الرعي وردع المجرمين لا سيما إذا شاع الفساد في البلاد كما في تمبكتو وجني ونحوها" (المغيلي، 1974، ص 66-67).

المبحث الثاني: مكتسبات قيم الوسطية والاعتدال لدى الإمام المغيلي في تحقيق الوحدة عربيا و أفريقيا وعالميا.

لقد أدى تمسك الإمام المغيلي والتزامه بقيم الوسطية والاعتدال إلى تحقيق الوحدة عربيا و أفريقيا وعالميا، وهو ما يمكن أن نسجله في النقاط الآتية:

1- ثقة المجتمع الإفريقي بشخصية الإمام المغيلي، الأمر الذي مكّنه من أن يصبح مستشارا سياسيا وفقهيا لأسكيا، وألّف له تأليفا حول بعض الأمور الفقهية. وهذا ما مكّنه من القيام بعدة أعمال مهمة تتعلق بالسياسة وإصلاح الحكم، حيث كان مهتما اهتماما خاصا بالمسائل المتعلقة بإصلاح المؤسسات ومعالجة موضوعات صحة الإيمان والعقيدة، ومناهضة الديانات المناهضة للإسلام. وقد استغل الإمام المغيلي ثقة أسكيا به، فنصح به بإصلاح الأحوال الثقافية في البلاد، والاهتمام بالعلماء وتقريبهم؛

لأن المجتمع لا يصلح إلا بصلاهم ويفسد بفسادهم (أحمد، 2005، ص 269، 271، 272)؛

2- لقد أثرت أفكار المغيلي الدعوية والإصلاحية وجهوده في أفكار قادة حركة التجديد والإصلاح واليقظة الإسلامية واتجاهاتها، الذين فجروا وقادوا حركة اليقظة الإسلامية في غرب أفريقيا في القرن الثالث عشر الهجري/التاسع عشر الميلادي، وأجوبة المغيلي لأسكيا تؤكد هذا التأثير (أحمد، 2005، ص 272)، وهذا التأثير لأفكار الإمام المغيلي الدعوية والإصلاحية في أفريقيا؛ لم يقتصر عليها وإنما نجد له حضورا قويا عربيا وعالميا، حيث وجدت الحركات الإسلامية الإصلاحية، التي نشأت زمن الاستعمار أو في فترات الاستقلال وبناء الدول الإسلامية المستقلة؛

3- تكوين مجموعة كبيرة من التلاميذ الذين كانوا يدرسون عند الإمام المغيلي ويدينون له بالولاء الفكري والأدبي، ويعترفون بفضائله على مجتمعاتهم السودانية الإسلامية (مقدم، 2006، ص 31)؛ ولم يقتصر هذا التكوين على الطلاب والعلماء الذين اجتمعوا بالإمام المغيلي وأخذوا عنه؛ وإنما شمل تلاميذ تلاميذ الإمام المغيلي، والذين تميزوا في تكوينهم وفي خصائصهم العلمية، وهذا ما جعل بعض الباحثين يميزون عصرهم وعهدهم بالعصر المغيلي. ولقد احتفظ هؤلاء الطلاب والعلماء برسائل الإمام المغيلي وفتاواه ومؤلفاته، وحفظوها في صدورهم وخزونها في مكباتهم؛ حتى توارثها خلفهم عن سلفهم (الإلوري، 2012، ص 34)؛

4- تأثير أفكار الإمام المغيلي في إقامة الدول عربيا وإفريقيا وعالميا، وإحياء منهج تغيير المنكر وفق المراتب التي حددها النبي صلى الله عليه وسلم، ومن أبرز الأدلة على هذا الجانب من التأثير "اعتماد عثمان بن فودي على فتاواه ورسائله" ويتصل بهذا النوع من التأثير ما تركه الإمام المغيلي من سلوكيات اجتماعية وإدارية في المجتمعات التي أقام بها، وهي سلوكيات ظلت الأجيال

تتناقلها عبر الروايات الشفهية، وبمجرد زيارة أي مكان زاره الإمام المغيلي تجد المجتمع يحدثك عن تلك السلوكيات، ولا تخطئ عينك ملاحظتها في سلوك الناس أفرادا وجماعات ومسؤولين وقيادات (الإلوري، 2012، ص35)؛

5- تأثير أسلوبه على أساليب الكتاب عربيا وأفريقيا وعالميا، واعتماد الوسطية في الأسلوب الفني والسجع من غير تكلف؛ مع الحفاظ على ميزة العالم والأديب في آن واحد (الإلوري، 2012، ص 42)؛

6- نشر الطريقة القادرية؛ حيث يرى بعض الباحثين أنه أول من نشر هذه الطريقة بالسودان الغربي، أو هو الناشر الحقيقي لها في أقل الأحوال (الإلوري، 2012، ص 13، ومارتي، بدون تاريخ، ص 33، والودغيري، 2011، ص 79). ولا شك أن الطريقة القادرية بسبب وسطيتها سلوكا ومعتقدا قامت بدور كبير في تحقيق الوحدة والاستقرار عربيا وأفريقيا وعالميا، ولا تزال هذه الطريقة تحقق هذا الدور عن طريق قياداتها ومرجعياتها الدينية، والتي تحظى بتقدير وثقة المجتمع والسلطات، وهذا ما يجعل توجهاتها وإرشاداتها وتدخلاتها مسموعة لدى الجميع. ولعل الإمام المغيلي من أكثر علماء القادرية توظيفا لهذا الجانب الاجتماعي والسياسي لصالح الطريقة، والإمام المغيلي "كان له تأثير قوي وملمووس جدا ظل صداه يتردد بعده قرونا طويلة" (الودغيري، 2011، ص 80). وهذا ما يؤكد الشيخ الأمين محمد عوض الله "ونستطيع أن نؤكد أن الدور الذي قام به العالم الجليل المغيلي لا يدانيه أي دور قام به عالم مغربي في السودان الغربي. فقد ترك أثرا إسلاميا كبيرا، وقام بتصحيح مفاهيم كثيرة مغلوطة في أذهان العامة والسلطين (عوض الله، 1979، ص 192)؛

7- أثرت أفكار المغيلي الوسطية والاعتدالية التي ظلت محفوظة في ذاكرة الأجيال من أبناء السودان الغربي عموما ونيجيريا على الخصوص، وظلت أعماله وآثاره المكتوبة والروايات الشفهية المنقولة عنه يحفظها

العلماء ويتداولها أهل الإصلاح والسياسة ورجال الدعوة جيلا بعد آخر، إلى أن وصلت مرحلة قيام الحركة التي قادها عثمان بن فودي فاستثمرتها أحسن استثمار واعتمدت عليها أشد الاعتماد؛ حتى إننا لا نكاد نجد مؤلفا من مؤلفات الشيخ عثمان أو غيره من منظري حركته والقائمين بدعوته والمؤرخين لها، يخلو من الإشارة للمغيلي والنقل عنه والرجوع إلى وصاياه وفتاواه ورسائله، والاحتجاج بأقواله وآراءه في تدعيم دعوتهم وإسناد الأفكار التي تضمنتها حركتهم الجهادية والإصلاحية والدعوية ولا سيما أن هذه الحركة قد واجهت كثيرا من الخصوم لا من العوام فقط؛ ولكن من بعض العلماء والأمرء أيضا، وقامت في وجهها حملات من التشكيك والتشويش في العديد من القضايا الدينية والدينيوية. فكانت فتاوى المغيلي وكتاباتة -بما لها في نفوس الجميع من الإجلال والإكبار- هي الحجة الدامغة من بين الحجج التي اتكأ عليه ابن فودي وأنصاره، وهي المرجعية الأولى لحركتهم في كل الأمور الدينية والإصلاحية والسياسية، وفي كل السجلات التي خاضوها مع خصومهم (الودغيري، 2011، ص 81-82)؛

8- لقد كانت آثار وسطية الإمام المغيلي سببا في تغيير معالم بعض المدن بدخولها في الإسلام كلية، وتبني منهج الوسطية وتوحيد الكلمة حول الإسلام الوسطي، وهذا ساعد أن يصل هذا التأثير حتى إلى المدن التي لم يزرها الإمام المغيلي، وزيارته لمدينة كانو خير نموذج لذلك حيث "تركت نتائج عظيمة وأثرا واضحا لا في كانو فحسب، ولكن في ولايات الهوسا جميعا؛ لأن انتشار الإسلام في كانو أدى إلى انتشاره في الولايات الأخرى من نيجيريا. ومن ذلك الوقت نستطيع أن نقول: إن ولاية كانو أصبحت ولاية إسلامية حقا، وبدأت بعدئذ تلعب دورا هائلا في خدمة الثقافة الإسلامية في الولايات الأخرى" (غلاذنشي، 1993، ص 42). وحيث انتشر الإسلام ووصلت دعوة الإمام المغيلي الوسطية الاعتدالية عربيا وأفريقيا وعالميا؛ نلاحظ أن وحدة الكلمة والصف والاستقرار الاجتماعي؛ تصبح سمة تسيطر على حياة

الناس، وتتأسس المدن والقرى والبوادي على دساتير من الوسطية تنظم كل دقيقة من دقائق حياة الناس؛

9- لقد أصبحت شخصية الإمام المغيلي شخصية محورية عربيا وأفريقيا وإقليميا، ولا نبالغ إذا قلنا إنها دستور وسطي يقدم القوانين والإرشادات التي تهتم كل عامل في مجالات الحياة المختلفة؛ ولذلك نجد التأثير الكبير بهذه الشخصية في المجال العلمي بالنقل من مؤلفاته ورسائله، ويتجاوز هذا التأثير مجرد النقل ليصبح قدوة في السلوك، وخير ما يجسد هذا كنموذج حي تأثر عثمان بن فودي بالمغيلي وجعله قدوة له في سيرته وطريقته في رد البدع ومنهجه في الدعوة، وفي العمل بأرائه وأفكاره واستعمالها في تدعيم مواقفه. وكثير من الفصول والرسائل التي كتبها الشيخ عثمان ما هو إلا تكرار أو شرح أو تلخيص أو تعليق أو إعادة إنتاج لأفكار المغيلي وكتابات وترداد لمقولاته وأرائه" (الودغيري، 2011، ص 86). والشيخ عبد الله بن فودي العالم الكبير باللغة العربية وآدابها والذي يلقب بـ"عربي الهوسا" لم يكن أقل تأثرا من أخيه عثمان بالإمام المغيلي وكتابات وأرائه؛ ولم يكن أقل منه اهتماما بترائه وحفظا لأثاره (الودغيري، 2011، ص 87)؛

10- توحيد كلمة العلماء حول اتخاذ موقف موحد من بعض المذاهب الضالة كالمعتزلة، وقد ألف المغيلي رسالة في الرد عليهم وهي « رسالة مخطوطة توجد نسخة منها بمتحف زاوية الشيخ المغيلي بتوات، هاته الرسالة ردّ فيها على آراء المعتزلة الكلامية، وألف هاته الرسالة بطلب من بعض زملائه العلماء في بلاد المغرب لمناصرة أهل السنة، وفي هاته المخطوطة نلاحظ أن المغيلي لا يرد على عقائد المعتزلة الفاسدة ردا مباشرا بقدر ما يركز على توضيح رأي أهل السنة حول فكرة الاشتغال بعلم الكلام. وهذا يدل على تواجد المذهب الاعتزالي في تلك الفترة بالمغرب الإسلامي» (نور الدين، 2011، ص 69). وفي هذه الرسالة يتطرق الإمام إلى اشتغال المعتزلة

بعلم الكلام وترك أثر النبي صلى الله عليه وسلم ويحذر من اتباع فكر ومنهج المعتزلة سدا للذريعة، ويرد عليهم أيضا في استعمال العقل في كل الأشياء دون الرجوع إلى الوحي، ويرد عليهم في بعض المسائل ذات الصلة بالصفات؛

11- وضع منهجية وسطية للتعامل مع العقل ووضع آليات ومعايير لاستخدامه استخداما صحيحا، وفق ما يتفق مع قدرة الإنسان على الإدراك الكامل للحقيقة دون عناء ودون انحراف عن الحق ودون التعارض بين العقل والنقل؛ مع إنزال الوحي ونصوصه الشرعية منزلتها الحقيقية. وهذا المنهج السليم في الجمع بين النقل والعقل اتحدت الرؤية حولها بين المشتغلين في المجال الديني والعلمي والدعوي، بسبب جهود الإمام المغيلي ومن يماثله من العلماء المحققين الوسطيين؛

12- من مكتسبات قيم الوسطية والاعتدال عند المغيلي عربيا وأفريقيا وعالميا؛ أنها حققت الوحدة عبر قنوات أهمها:

أ- العدل في الحكم

ب- المساواة بين الناس في الحقوق والواجبات؛

ت- تكريم المرأة وإعطاءها حقوقها؛

ث- التدرج في تطبيق الأحكام الشرعية؛

ج- المجادلة والمحادثة والتي هي أحسن؛

ح- اعتماد الوسطية في كل الأمور (مقدم، 2006، ص 55)؛

13- ترك الاعتدال والوسطية لدى الإمام المغيلي بصمات قوية في مناحي حياة المجتمعات عربيا وأفريقيا وعالميا في النواحي الروحية بالاندماج في التعاليم الإسلامية السمحاء، وفي النواحي الاجتماعية بالابتعاد عن العادات القديمة والرجوع للأخلاق الإسلامية، وفي النواحي الاقتصادية بالاندماج في الدورة الاقتصادية العالمية، وفي النواحي الهيكلية والتنظيمية

بتطبيق القواعد النظامية للحياة الإدارية والاقتصادية والسياسية، القائمة على نظام الشورى (مقدم، 2006، ص 61)؛

14- إنّ الوسطية والاعتدال لدى الإمام المغيلي تنطلق من الواقعية والمعرفة الصحيحة بالمكان والزمان والإنسان، ولهذا طبقها الناس عربيا وأفريقيا وعالميا "لارتباطها الديني والعقائدي بحياة السكان، ولارتباطها لثقافي والحضاري بالمجتمعات، ولارتباطها التصوفي بما يحاول المجتمع الوصول إليه" (مقدم، 2006، ص 78)؛

15- تضافر الجهود عربيا وأفريقيا وعالميا على أهمية نشر تراث الإمام المغيلي وجمع أفكاره، وإعداد دراسات أكاديمية حولها واستغلال نظرياته وأفكاره الوسطية في تنظيم الحكم وترسيخ نظريته وتطبيقها على المجتمعات وفقا للشريعة الإسلامية، وتدوين حياته الاجتماعية وبيان ما يمكن أن يستفاد منها في إطار إبراز قيم الوسطية والاعتدال؛

16- لقد خلّفت المدرسة المغيلية الوسطية مكتسبا مهما يتمثل في فكر متميز ومتناظر ومتناسق ومترابط مع الأحداث والصور التي تعاش في الدول والمجتمعات، وهذا ما أكسب هذا النوع من الفكر الشمولية والتعميم (مقدم، 2016، ص 43)؛

17- من أهم مكتسبات الوسطية والاعتدال لدى الإمام المغيلي عربيا وأفريقيا وعالميا؛ ما يلاحظ من سيادة الأمن وعدم الظلم والمواظبة على أوامر الشرع، وإظهار أكبر المظاهر الإسلامية؛ والتي هي المواظبة على الصلوات الجماعية، وصلاة الجمعة؛

18- نتيجة للوسطية والاعتدال لدى الإمام المغيلي؛ نلاحظ التمازج العرقي بين مختلف شرائح المجتمع، بغض النظر عن أي اعتبار ما عدا اعتبار الدين، وهذا ساعد على وحدة المجتمعات وتلاحمها واستقرارها وتوحيد مصيرها، وهو ما انعكس بشكل إيجابي على مختلف مجالات الحياة.

الخاتمة:

أولاً: نتائج البحث:

لقد توصل الباحث في مداخلته إلى نتائج، قررهما في أماكنها من المداخلة؛ وهذه أهم تلك النتائج:

1- ضرورة تبني العلاج الفكري للغلو والتطرف والإرهاب، إلى جانب الحل الأمني، وتوظيف كل وسائل التوعية في هذا الجانب، وأهمها تصحيح المفاهيم الخاطئة، ودفع الشبهات؛

2- يعدّ الإمام محمد بن عبد الكريم المغيلي من أهم العلماء والمرجعيات في الوسطية والاعتدال، وإنتاجاته العلمية وسلوكياته؛ خير محور يمكن أن يبني عليه منهجية سليمة في هذا المجال؛

3- الوسطية والاعتدال، منهج حياة، تشمل جميع مجالات حياة الناس؛ ولهذا لا بد من ضبطها بمعايير وأسس واضحة؛

4- ثمة أسباب عملت على تكوين قيم الوسطية لدى الإمام المغيلي؛ من حب للسنة، وفهم لروح الإسلام، والاعتماد على الكليات والمقاصد، واعتماد منهج عقلي متدرج في التعامل مع النصوص والطبيعة البشرية؛ إضافة إلى تجارب الحياة والخبرة فيها؛ نتيجة السفريات والزيارات والتنوع في الإنتاج العلمي، والتحاور مع العلماء؛

5- قيم الوسطية والاعتدال كثيرة لدى الإمام المغيلي، تقوم على فهم صحيح للصراط المستقيم، وتأكيد لمبدأ الشورى، ووضع مسطرة للتعامل مع الحكام، وللحوار والسلوكيات والعادات، والأخذ بالتدرج في الأهداف والمقاصد والوسائل، والاعتدال في الصفات والسلوكيات، ووضع منهجية سليمة لتناول الموضوعات والردع، وأساليب التعامل مع المواطنين، وتقدير العقوبات والأحكام وما يترتب عليها. ولا تقف قيم الاعتدال هنا؛ بل تشمل

ضوابط توقير العلماء، وأسلوب التعامل مع مختلف أطيا فهم، وكذلك في الأعمال والمسؤوليات، وضبط المسؤولية والقاعدة السليمة في تغيير الحاكم الظالم، وعلماء السوء، والورع قيمة مهمة للفرد وللجماعة وللدولة، والأخذ بالعزم في محاربة السلوكيات الشاذة في ضوء مسطرة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وعدم خلطها بالتجسس؛

6- إنَّ تمسك والتزام الإمام المغيلي بالوسطية والاعتدال؛ نتج عنه مكتسبات مهمة في تحقيق الوحدة عربيا وأفريقيا وعالميا؛ وأهم تلك المكتسبات؛ ثقة الأمة بالإمام المغيلي، وتنزله المنزلة التي يستحقها؛ ليلبغ رسالته في الوسطية والاعتدال؛ فأثرت أفكاره في الحركات التحررية، وإقامة الدول، فانتشر فكره عبر تلاميذه وتلاميذ تلاميذه، وعبر مؤلفاته، وأحيا سنة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتأثر بأسلوبه الكتاب والخطباء، ونشر الطريقة القادرية، التي ساعدت على تحقيق الوحدة والاستقرار عربيا وأفريقيا وعالميا. ومن أهم مكتسبات الوسطية والاعتدال لدى الإمام المغيلي استثمار أفكاره لدى عثمان بن فودي وأخوه عبد الله وأعوانهما، وتغيير معالم مدن وإكسابها هوية جديدة؛ كل هذا أكسب شخصية الإمام المغيلي المحورية والمركزية في الوسطية والاعتدال، وأعانته على توحيد مواقف العلماء ضد الفرق الضالة وأعداء الدين، وتوظيف بعض القنوات لتحقيق الوحدة، وترك بصمات قوية على مناحي الحياة المختلفة؛ انطلاقا من الواقعية والمعرفة بالمكان والزمان والإنسان، ولقيمة تراثه تضافت الجهود على نشره؛ لأنه يكون فكرا منظما ومتناسقا، ويسهم في الأمن ورفع الظلم، ويساعد على التمازج العرقي بين مختلف شرائح المجتمع.

ثانيا: التوصيات:

انطلاقا من نتائج المداخلة؛ يوصي الباحث بما يلي:

- 1- تضمين قيم الوسطية والاعتدال لدى الإمام المغيلي في المناهج التعليمية لمختلف المراحل؛
- 2- توجيه الدارسين في الجامعات ومراكز الدراسات عربيا وأفريقيا وعالميا؛ إلى دراسة تراث الإمام المغيلي، والكشف عما يمكن أن يقدمه في مجال الأمن الفكري وتوحيد واستقرار المجتمعات؛
- 3- القيام بدراسات مقارنة لتراث الإمام المغيلي في مجالات: التربية – الدعوة والإصلاح والتطوير – العلاقات العامة – الإدارة والدسترة؛
- 4- إعادة الاعتبار للإمام المغيلي عربيا وأفريقيا وعالميا؛ بالتعريف به وبآثاره عبر القنوات الإعلامية والاتصالية المختلفة؛
- 5- تقديم نصائح وتوجيهات لمختلف السلطات عربيا وأفريقيا وعالميا؛ مستمدة من الرؤية المغيلية الوسطية الاعتدالية.

ثالثا: المقترحات:

- 1- إنشاء مركز الإمام المغيلي للدراسات الاستراتيجية في إحدى دول غرب أفريقيا؛
- 2- تصميم موقع للإمام المغيلي، وتنشيطه بكل ما يتصل بالإمام وتراثه؛
- 3- إنشاء كرسي الإمام المغيلي للدراسات الشرعية واللغوية والسياسية؛
- 4- تكوين جمعية عالمية لمحبي الإمام المغيلي.

المراجع:

المؤلفات:

1. إبراهيم، محمد يسري، 2013، فقه النوازل للأقليات المسلمة تأصيلاً وتطبيقاً، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، قطر؛
2. أحمد، مطر سعد غيث، 2005، الثقافة العربية الإسلامية وأثرها في مجتمع السودان الغربي، دار المدار الإسلامي، بيروت، لبنان؛
3. الإلوري، آدم عبد الله، 2012، الإمام المغيلي وأثره في الحكومة الإسلامية في القرون الوسطى في نيجيريا، مكتبة وهبة، القاهرة، مصر؛
4. التنبكي، أحمد بابا، 2000، نيل الابتهاج بتطريز الديباج، عناية وتقديم: عبد الحميد عبد الله الهرامة، دار الكاتب، طرابلس، ليبيا؛
5. الدوري، شعيب مختار شعيب، 2021، ثقافة الردود العلمية عند علماء كنع وأثرها في إثراء المكتبة الإسلامية، دار الميسون للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر؛
6. زبادية، عبد القادر، 1989، الحضارة العربية والتأثير الأروبي في أفريقيا الغربية جنوب الصحراء، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر؛
7. عوض الله، الشيخ محمد الأمين، 1979، العلاقات بين المغرب الأقصى والسودان العربي في عهد السلطتين الإسلاميتين مالي وسنغي، دار المجمع العلمي، جدة؛
8. غلادنشي، شيخ أحمد سعيد، 1993، حركة اللغة العربية وأدائها بنيجيريا، الرياض؛
9. مارتى، بول، بدون تاريخ، كنتة الشرقيون، تعريب وتعليق: محمد محمود ولد ودادي، مطبعة زيد بن ثابت، دمشق، سوريا؛
10. المغيلي، محمد بن عبد الكريم، 1974، أسئلة الأسقيا وأجوبة المغيلي، تحقيق: عبد القادر زبادية، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر؛
11. المغيلي، محمد بن عبد الكريم، 1994، تاج الدين فيما يجب على الملوك والسلطين، تحقيق: محمد خير رمضان يوسف، دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت-لبنان؛

12. المغيلي، محمد بن عبد الكريم، بدون تاريخ، تفسير فاتحة الكتاب، تحقيق: المغيلي خدير، مراجعة: نور الدين كنتاوي وعبد الله كروم، مطبعة منصور الوادي، الجزائر؛

13. مقدم، مبروك، 2006، الإمام محمد بن عبد الكريم المغيلي التلمساني ودوره في تأسيس الإمارة الإسلامية بأفريقيا الغربية، دار الغرب للنشر والتوزيع، وهران، الجزائر؛

14. مقدم، مبروك، 2016، تقديم وإخراج رسالة في الغلائف للإمام محمد بن عبد الكريم المغيلي التلمساني، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر؛

15. الودغيري، عبد العلي، 2011، اللغة العربية والثقافة الإسلامية بالغرب الأفريقي وملاحم من التأثير المغربي، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، المغرب؛

الأطروحة:

16. نور الدين، حاج أحمد، 2011، المنهج الدعوي للإمام المغيلي من خلال الرسائل التي بعثها للملوك والأمراء والعلماء (بحث ماجستير غير منشور)، قسم أصول الدين، كلية العلوم الاجتماعية والعلوم الإسلامية، جامعة الحاج لخضر - باتنة، الجزائر؛

مواقع الإنترنت:

17. ججاجحة، جيهان عادل، 2022، مفهوم الوسطية والاعتدال في الإسلام، <https://mawdoo3.com>

18. الددو، محمد الحسن، 2015، أسس الوسطية ومظاهر تطبيقها، <https://www.dedewnet.com>

19. المطهري، أبو صلاح، 2011، الشيخ المغيلي التلمساني المدرسة الوسطية الجهادية منسي أم متآمر عليه؟ <http://www.alwahatech.net>

تأثيرات الفكر السياسي والإصلاحي للإمام المغيلي في إلممالك الإسلامية بجنوب الصحراء خلافة سو كوتو الإسلامية في بلاد إهوسا نموذجاً

الدكتور سعيد أكنبي عالمي

الأمين العام للمركز النيجيري للبحوث العربية، وأستاذ مساعد بمركز التأهيل للدراسات الجامعية
جامعة ولاية أوسن، الجمهورية النيجيرية الاتحادية

ملخص:

يهدف هذا البحث إلى استظهار دور الحركة الإصلاحية التي قام بها الإمام محمد بن عبد الكريم المغيلي في حياة شعوب السودان الغربي، واستكشاف مدى تأثير الشيخ عثمان بن فودي بتلك الحركة، واستضاءة أثره على الحياة السياسية والاجتماعية والثقافية للإمارة الإسلامية التي أسسها بشمال نيجيريا في مطلع القرن التاسع عشر الميلادي.

المفاتيح:

الثقافة العربية والإسلامية - الحركة الإصلاحية - الإمارة الإسلامية- السياسة الشرعية.

The Effects of the Political and Reformist Thought of Imām al-Maghīlī in the Islamic kingdoms in the South of the Sahara: Sokoto Islamic Caliphate in Hausa as a Case Study

Abstract

This research aims to examine the role of the reform movement carried out by Imām Muḥammad b. ‘Abdul Karīm al-Maghīlī in the lives of the peoples of Western Sudan, and exploring the extent to which that movement impacted on Shaykh Othman bin Fodī’s activities, and the illumination of its reflections on the political, social and cultural life of the Islamic Emirate, which he founded in northern Nigeria at the beginning of the nineteenth century AD.

Keywords:

Arabic and Islamic Culture, Reform Movement, Islamic Emirate, Legal Policy

أتى على ديارنا النيجيرية في السودان الغربي زمان -وفي القرن الثالث عشر الهجري الموافق التاسع عشر الميلادي على وجه التحديد - شهدت فيه الثقافة العربية الإسلامية أوج مجدها وذروة ازدهارها. وقد أتى هذا وذلك أكله في تأسيس دولة إسلامية تقوم على تطبيق الشريعة الإسلامية. وقد دامت تلك الدولة مدة قرنٍ بتمامه أو كادت (1804-1903 م).

وأما رافع قواعد هذه الدولة وحامل لوائها فهو الشيخ المجدد عثمان بن محمد فودي (1168-1232هـ) الموافق (1754-1817م)، ذلك علامة السودان الذي أهلته فقاهته في الدين وتشبّعه بالثقافة العربية والإسلامية الواسعة ليكون قائداً لحركة إصلاحية دينية وثورة اجتماعية وسياسية غيرت مجرى الحياة على مختلف الأصعدة في بلاد الهوسا شمال نيجيريا.

والمعلوم من حقائق التاريخ أنّ الإمام محمد بن عبد الكريم المغيلي من أبرز العلماء المغاربة الذين وقفوا على ثغور غرس بذرة الثقافة العربية الإسلامية ونشرها في السودان الغربي إن لم يكن أبرزهم على الإطلاق. ومن ثم تتجه هذه الدراسة إلى استكشاف مدى تأثر الشيخ عثمان بن محمد فودي بهذا الإمام في الحركة الإصلاحية الدينية التي نهض بها، واستظهار دور هذا التأثير، وما ينطوي عليه من استثمار التراث العلمي والثقافي الذي خلفه الإمام المغيلي بالسودان الغربي في إدارة شؤون الإمارة الإسلامية التي أنشأها الشيخ ابن فودي في شمال نيجيريا.

ولتحقيق الغاية المبتغاة من هذه الدراسة تنتظم متواليات هذه الورقة البحثية - بعد الفاتحة- ثلاثة مطالب وخاتمة يجري نسقها على النحو الآتي :-

- سيرة ثقافية للشيخين المغيلي وابن فودي.

- الشيخ عثمان بن فوديو وتأسيس إمارة سوكوتو الإسلامية في شمال نيجيريا.

- معالم تأثر الشيخ عثمان بن فودي بالإمام المغيلي.

- خاتمة وتوصيات.

المطلب الأول : سيرة ثقافية للشيخين المغيلي وابن فودي.

أ- الإمام محمد بن عبد الكريم المغيلي.

ولد الإمام المغيلي لأسرة بربرية من قبيلة المغيلة بتلمسان، وتباينت الآراء حول تاريخ ولادته غير أنّ بعضها يرجّح أن تكون ولادته في عام 831هـ/1427م⁽¹⁾. وفي بيئة علمية حافلة بالنشاط المعرفي ترعرع الإمام، فأخذ يرتاد مواطن الدرس، ويتنقل في حواضر بلاد المغرب من تلمسان وبجاية والجزائر العاصمة طلباً للعلم، وقد ساعدته حدة ذكائه وعلو همته لأن يصبح عالماً متبحراً في فنون العلم والمعرفة. اشتهر الإمام المغيلي بمواقفه السياسية الصارمة، ونشاطه الإصلاحى المجدد، وغيرته على الإسلام، وحرصه الشديد على تطبيق أحكام الشريعة. يقول عنه أحمد بابا: «التلمساني خاتمة المحققين الإمام العالم العلامة الفهامة القدوة الصالح السني أحد الأذكياء ممن له البسطة في الفهم والتقدم متمكّن المحبّة في السنّة وبغض أعداء الدين، وقع له بسبب ذلك أمور مع فقهاء وقته حين قام على يهود توات وألزمهم الذلّ، بل قتلهم وهدم كنائسهم ونازعه في ذلك الفقيه عبد الله العصنوني قاضي توات، وراسلوا في ذلك علماء فاس وتونس وتلمسان»⁽²⁾. فالإمام المغيلي عالم فقيه، وداعية مصلح، وثورى مجدّد، وقانونى سياسى، ذو فكر مستنير ورؤية استباقية منفتحة على الآفاق

(1) انظر : مبروك مقدّم، الإمام محمد بن عبد الكريم المغيلي التلمساني ودوره في تأسيس الإمارة الإسلامية بأفريقيا الغربية، وهران، دار الغرب للنشر والتوزيع، 2006، ص27.

(2) أحمد بابا التنبكتي، نيل الابتهاج بتطريز الديباج، طرابلس، دار الكاتب، الطبعة الثانية، 2000م، ص576.

البعيدة فضلاً عن القريبة، واعية للواقع، ونافذة على المستقبل بتوقعاته الفريدة والصائبة، وبها تجاوز عصره.

والإجماع منعقد عند المؤرخين والدارسين بأن الإمام المغيلي من أبرز الشخصيات العلمية والدعوية في القرن التاسع وبداية العاشر الهجري، وبأنه أكبر داعية إسلامي عرفه السودان الغربي في هذه الفترة؛ وذلك لما انطوت عليه حركته الإصلاحية من ثورة فكرية أثرت تأثيراً إيجابياً ملموساً في جميع ميادين الحياة. فقد غادر تلمسان وانتقل إلى توات لنشر العلم والدعوة إلى الله، وبنى فيها زاويته، واستنكر ظواهر البدع والشبهات المنتشرة فيها، وانتقد ادعاءات المبطلين، وادعاء العلم والتصوّف، وآراء الفرقة المنحرفة، وألف مصنفات كثيرة في التنبيه عن مخاطر الممارسات المخالفة للعقيدة الصحيحة، كما قام بمحاربة اليهود الذين استكبروا واستبدّوا واستولوا على الموارد الاقتصادية في توات. وعلى تباين آراء علماء عصره بشأن مسألة اليهود، ومعارضة قاضي توات عبد الله العصنوني لموقف المغيلي، قاد المغيلي أنصاره عام 1442م لحملة جهادية ضد اليهود في توات، فخرّبوا بيعة تمنطيط وهدموها عن آخرها كما هدموا البيع الموجودة في الواحات الأخرى⁽³⁾.

وفي عام 1480م ارتحل إلى بلاد السودان لنشر الإسلام والقضاء على البدع والخرافات والوثنية، ومكث بها عشرين عامًا. نزل أول أمره بمدينة «أكدز» وبنى فيها مسجد الكرامة، ثم غادرها إلى «تكدة» داعياً ومدرساً، وأخذ عنه علماؤها، ثم انتقل إلى شمال نيجيريا فزار مدينة «كاشنة» واجتمع بسلطانها وانتفع به أهلها؛ إذ جمع فيها بين القضاء والتدريس، ثم توجه إلى إمارة «كانو» سنة 897هـ/1492م، فقرّبه إليه سلطانها محمد

⁽³⁾ انظر: يحيى بوعزيز، أعلام الفكر والثقافة في الجزائر المحروسة، بيروت، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى، 1995، ج2، ص148-150

يعقوب رمفا، وعيَّنه مستشارًا ووزيرًا يعينه على إدارة شؤون مملكته، وتولَّى القضاء والإفتاء بها، وأخذ عنه علماءها، وكتب لأمرها رسالته المشهورة في أحكام السياسة الشرعية والتي طبعت باسم «تاج الدين فيما يجب على الملوك والسلاطين». ويرجِّح أحمد جعفري أن تكون هذه الرسالة وتلك الوصية التي كتبها لهذا الأمير والموسومة بـ «في ما يجوز للحكّام من ردع الناس عن الحرام» يرجِّح أن تكون كلتاها حاصل الأسئلة والأجوبة التي دارت بينه وبين الأمير من جهة، وحواراته مع عموم شعب الإمارة من جهة أخرى.⁽⁴⁾ وبعد طول الإقامة في «كاشنة وكانو» وسنوات طوال من العمل السياسي والإداري والإشراف القضائي فيهما، وفي عام 1502م على وجه التعيين انتقل المغيلي إلى مدينة «غاو» عاصمة مملكة سنغاي، فنزل ضيفًا على أسكيا محمد، فأكرم ضيافته واستشاره في شؤون إدارة مملكته وفقا للأحكام الشرعية الإسلامية، وكتب له فتاوى دينية ووصايا سياسية⁽⁵⁾.

وحاصل القول إنّ أهل السودان الغربي قد تقبّلوا الإمام المغيلي قبولاً حسنًا، واستجابوا لدعوته، وكتب الله له تمكينًا عند حكام تلك الديار؛ إذ وجدوه بطانة خير، فاتخذوه مستشارًا وقاضيا شرعيًا يعينهم على إدارة شؤون ممالكهم السياسية والاجتماعية والدينية. بله إنّ آثاره العلمية وتصانيفه قد غدت مرجعًا أساسيًا لحلّ ما يكتنف شؤون إماراتهم من مشكلات. فضلًا عن كونها على كثرتها وتنوعها- تراثًا علميًا ثريًا يتداوله العلماء ورجال الدعوة والإصلاح، ويعتمدون عليه في نشر علوم الدين

⁽⁴⁾ انظر: أحمد جعفري، حوارات الإمام عبد الكريم المغيلي (909هـ) مع ملوك وأمراء غرب إفريقيا وأثره في حركة الفتح الإسلامي لإفريقيا، الفضاء المغربي، العدد الأول، 2020، ص9.

⁽⁵⁾ انظر: آدم عبد الله الإلوري، الإسلام في نيجيريا والشيخ عثمان بن فوديو الفلاني، القاهرة، مكتبة الإسكندرية، الطبعة الأولى، 2014، ص126. وزيادية عبد القادر، الحضارة العربية والتأثير الأوروبي في أفريقيا الغربية جنوب الصحراء، الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1989، ص154)

والثقافة العربية تعليماً وتعلّماً، وبترسّون هديه في حركاتهم الدعوية والإصلاحية جيلاً بعد جيل⁽⁶⁾. ويقول غلادني في أثر زيارة الإمام المغيلي لبلاد هوسا: «ولقد كان لهذه الزيارة التي قام بها المغيلي إلى «كانو» صدًى كبير، ونتائج عظيمة تركت أثراً واضحاً لا في «كانو» فحسب، ولكن في ولايات الهوسا جميعاً؛ لأنّ انتشار الإسلام في «كانو» أدّى إلى انتشاره في الولايات الأخرى. ومن ذلك الوقت نستطيع أن نقول إنّ ولاية «كانو» أصبحت ولاية إسلامية حقاً، وبدأت بعدئذ تلعب دوراً هائلاً في خدمة الثقافة الإسلامية في الولايات الأخرى...»⁽⁷⁾

ب- الشيخ عثمان بن فودي.

يقول الشيخ آدم الإلوري في نسبه هو: «عثمان بن محمد فودي بن عثمان بن صالح بن هارون بن محمد غورطو بن جبو بن محمد ثنبو بن أيوب بن ماسران بن أيوب بن بابا بن موسى جكولو الذي هاجر بجماعته من بلاد فوتاتور على قصد الهجرة إلى الحجاز وتآخّر مع طائفته في بلاد هوسا واختلطوا بأهلها حتى وُلد فيهم باعث دولتهم فيها «عثمان بن فودي»⁽⁸⁾. وينحدر أصولها -على ما استظهره هذا النسب- من قبيلة فولانية. ويرجّح بعض الدارسين أن يكون تاريخ ميلاده يوم الأحد 29 صفر 1168 هـ الموافق 17 نوفمبر 1754 م في قرية «مارثا» الواقعة بمنطقة «جالمي» التابعة لإمارة غوبير ببلاد هوسا، وهي تتبع حالياً لإدارة ولاية سوكوتو شمال نيجيريا⁽⁹⁾.

⁽⁶⁾ انظر: مبروك مقدّم، الإمام محمد بن عبد الكريم المغيلي التلمساني ودوره في تأسيس الإمارة الإسلامية بأفريقيا الغربية، ص28

⁽⁷⁾ شيخو أحمد سعيد علاندشي، حركة اللغة العربية وآدابها في نيجيريا، القاهرة، المكتبة الإفريقية النهار للطبع والنشر والتوزيع، الطبعة الثالثة، 2008، ص42

⁽⁸⁾ انظر: آدم عبد الله الإلوري، الإسلام في نيجيريا والشيخ عثمان بن فودي الفلاني، ص133.

⁽⁹⁾ انظر: محمد هداجي ومبارك جعفري، الحركة الإصلاحية عند عثمان بن فودي: المرتكزات والأبعاد، الإحياء، المجلد 20، العدد 26، سبتمبر 2020، ص503.

فقد ولد الشيخ عثمان في أسرة علم وثقافة؛ إذ توارث أفرادها العلم أباً عن جدّ. وظهر عليه منذ طفولته من دلائل النبوغ وملامح النجابة ما أهّله لأن يكون ذا مستقبل مرموق لدينه ووطنه، وتذكر الروايات أنّ الشيخ عثمان مولع منذ طفولته المبكرة بطلب العلم شغوف به، فأخذ مبادئ العلم عن والده محمد فودي، ومعناه بالفلانية الفقيه، وأمّه حواء وجدته رقيّة، ثم أخذ عن الشيخ عثمان بندور الكبوي، وأخذ الإعراب عن الشيخ عبد الرحمن بن حمدا، والفقه عن محمد ثنبو، والتفسير عن أحمد بن محمد الزنفري، والصحاح الستّ عن الحاج محمد بن راجي، ولأزم شيخه جبريل بن عمر في بلاد آهير واستفاد منه⁽¹⁰⁾. فقد تأثر الشيخ عثمان فودي بشيخه جبريل تأثراً كبيراً في تكوين شخصيته العلمية وحركاته الجهادية والإصلاحية، ويفتخر بتلمذته له. يقول ابن فودي متحدثاً عن شيخه: «فوالله لا ندرى هل [كنا] نهتدي إلى سبيل السنة وترك العوائد الذميمة لولا تنبيه هذا الشيخ المبارك. وكلّ من أحى السنة وهدم العوائد الذميمة في بلادنا السودانية هذه فهو موجة من أمواجه. ولذلك قلت شعراً:

إن قيل فيّ بحسن الظن ما قبلا * فموجة أنا من أمواج جبريلا⁽¹¹⁾.

كان الشيخ عثمان عالماً موسوعياً متعدد المواهب، وذا تصانيف كثيرة، فقد بلغت مؤلفاته حسبما يذكره ابنه محمد بللو في "إنفاق الميسور" أكثر من مئة، بل يذهب إسماعيل بلوغن أنّها بلغت 115⁽¹²⁾.

عهد الشيخ ابن فودي من أول عهده بنشر العلم والدعوة على القيام بدور المصلح الديني والاجتماعي، وكان غيوراً على نشر علوم الدين وتطبيق

(10) انظر: آدم عبد الله الإلوري، المرجع السابق، ص134.

(11) محمد بللو، إنفاق الميسور، تحقيق بهيجة الشاذلي، ، الرباط، معهد الدراسات الإفريقية، الطبعة الأولى، 1996، ص70.

(12) : (Ismoil Balogun, " Uthman Dan Fodio, The Mujadid of West Africa" in : Studies in History of the Sokoto Caliphate, Zaria, Nigeria, Ahmadu Bello University., 1995, p485.

الشريعة في العبادات والمعاملات، حريصًا على إقامة المعوّج من عقيدة بني قومه، وتخليصهم من شوائب البدع والخرافات، والعادات الفاسدة المنافية لأحكام شريعة الإسلام. وقد استطاع بما تمتّع به من الصفات الخلقية والمواهب العقلية والتفاني والإخلاص في العمل أن يشكّل قاعدة متينة في الجهاد الإسلامي، ونشر الثقافة العربية وتطبيق الشريعة الإسلامية في المجتمع الإفريقي عزّ نظيرها في بلاد السودان الغربي. إنّه في فجر دعوته وحركته الإصلاحية بدأ نشاطه مع ثلة قليلة من بني مجتمعه، وسرعان ما لحق به أهل بلده فرادى وجماعات لصدق لهجته، وقوّة حجّته، وإخلاصه حتى تحقّق له تأسيس إمارته الإسلامية في 1804م، وهكذا استحقّ بكلّ جدارة أن يكون أبرز المجدّدين والمصلحين الأفارقة خلال القرن التاسع عشر الميلادي، وعليه وصفه الشيخ آدم عبد الله الإلوري بعالم وفقهه، وواعظ ومرّبٍ، ومصلح وزعيم، وقائد وأمير، وحاكم وإمام، بل هو أمة وحده.⁽¹³⁾

المطلب الثاني : الشيخ عثمان بن فوديو وتأسيس إمارة سوكو توتو الإسلامية في شمال نيجيريا.

قامت دعوة الشيخ عثمان بن فوديو على تصحيح المفاهيم المغلوطة عند المسلمين، والنهي عن العادات المخالفة للشرع، وإصلاح الأوضاع الاجتماعية ونظمها الجائرة، ومحاربة البدع والخرافات، والنهوض بإحياء السنّة، والعمل بأحكام الكتاب والسنّة في العبادات والمعاملات.

ولما كانت دعوته - في أول أمرها - تهدف إلى إصلاح العامّة بعيدًا عن الشؤون السياسية درءًا للتصادم مع حكام بلاد الهوسا وأمرائها- بدأ الشيخ بنشر مبادئ دعوته مع نفر قليل اتّبعه في قريته "طلق" وفي بلاد غوبر، وأخذ يدعو الناس إلى الإسلام، ويلقي المحاضرات الدينية، ويقدم حلقات الدرس للتعفّف في الدين باللهجة المحلية واللغة العربية. ولما منحه الله من قوّة

⁽¹³⁾ انظر: آدم عبد الله الإلوري، الإسلام في نيجيريا والشيخ عثمان بن فوديو الفلاني، ص129.

الحجّة والقدرة الإقناعية والإخلاص في العمل لاقت دعوته عند النَّاس قبولاً واسعاً وترحيباً لدى العامة والخاصة. وما لبث أن انضمَّ الناس إلى جماعته فرادى وجماعات. فأخذت مجالسه الدعوية وحلقات دروسه تتّسع، وذاع صيته في مملكة «غوبر» والقرى والمدن المجاورة لها، وازدادت مكانته عند أهله وبين أتباعه ومريديه. فلما وصل أمر شأنه إلى « بساو» ملك «غوبر»، ورأى أنّ شوكته قد قويت حاول التقرب منه، فاستدعاه مع طائفة من العلماء، فلبيّ الشيخ دعوته وحضر إلى بلاطه، وأخذ يشرح له الإسلام على وجهه الصحيح، ويحثّه على إدارة شؤون بلاده على المبادئ الإسلامية وقيمه السامية والعمل على تطبيق أحكام الشريعة، فاستجاب الملك لدعوته، وصنعه على عينيه، وأسند إليه أمر الفتوى في مجلسه، وأثره على سائر العلماء. كلّ أولئك قد أثار حفيظة هؤلاء العلماء، وأخذوا يلقون إليه تهم طلب الجاه وحبّ الرئاسة والرياء، وطلبوا مثالبه ومعائبه، ويتصيّدون أخطائه حتى أنكروا عليه بعض تصرفاته، ومنهم الشيخ ماهر الذي استنكر على الشيخ جمع النساء والرجال في حلقاته ومجالس وعظه. وقال فيه شعرا يعاتبه فيه، ونصّه :

عليك منا تحيات مباركة شمن مسكا وسكا من يلاقونا
أيا ابن فودي قم فانذروا ولي الجهل لعلمهم يفقهون الدين والدونا
فامنع زيارة النسوان لوعظك إذ خالط الرجال النساء كفى شيئا
لا تفعلنّ ما يؤدي للمعائب إذ لم يأمر الله عيبًا كان يؤذينا
إنّ الممات وما بعد الممات وجهلاً بالعواقب وعظ كان يكفيننا
وأبيت المصطفى بج يتممها في عام رشّ مع زيد العد يغنيننا

فلما تلقى الشيخ تلك الأبيات عهد إلى أخيه عبد الله الذي كان ساعده الأيمن أمر الردّ عليه، فجاء ذلك الردّ في أبيات من البحر والروي نفسيهما.
وإليك نصّه :-

يَا أَيُّهَا ذَا الَّذِي قَدْ جَاءَ يُرْشِدُنَا سَمْعًا لَمَّا قُلْتِ فَاسْمَعِ أَنْتَ مَا قُلْنَا
نَصَحْتَ جِهْدَكَ لَكِنْ لَيْتَ تَعَذَّرْنَا وَقُلْتِ سَبِحَانَ هَذَا كَانَ بُهْتَانًا
إِنَّ الشَّيَاطِينَ إِجَاءُوا لِمَجْلِسِنَا هُمْ مَنْ يَبْثُونَ سُوءَ الْقَوْلِ طُغْيَانًا
لِسِنَانَا نَخَالِطُ بِالنِّسْوَانِ كَيْفَ وَذَا كُنَّا نُحَذِّرُ لَكِنْ قُلْتِ سَلِمْنَا
إِنْ كَانَ ذَاكَ وَلَكِنْ لَا أَسْلَمُ أَنْ يَتْرُكَ بِالْجَهْلِ هَمْلًا كَانَ يُؤْذِينَا
إِذِ ارْتِكَابِ أَخْفِ الضَّرْقَدِ حَتَّمَا يَكْفُرُ الْجَهْلُ إِنْ ذَا كَانَ عَصِيَانَا
هَذِي الْبِلَادِ وَجَدْنَا قَوْمَهَا غَرَقُوا بِالْجَهْلِ نَمْنَعُهُمْ أَنْ يَفْقَهُوا الدِّينَا
قَدْ قِيلَ دَحْتَتْ لِلْأَقْوَامِ أَقْضِيَّةٌ بَقْدَرَمَا أَحَدَثُوا خُذْ ذَاكَ مِيزَانًا⁽¹⁴⁾

وبعد وفاة «بساو» وتولي السلطان «نافاتا» عرش الملك نصب عداءً على
الشيخ ابن فودي ودبر مؤامرة لقتله غير أن المنية قد حال دون تنفيذها،
لكن ابنه «يونقا» الذي خلفه سار على نهج أبيه في اتخاذ الموقف العدائي
ضد الشيخ وأتباعه وتدير المؤامرات لصدّه عن نشاطاته الدعوية وحرركاته
الإصلاحية⁽¹⁵⁾. كل أولئك قد أدّى بالشيخ عام 1795م إلى قرار دعوة أتباعه
إلى الاستعداد لحمل السلاح للدفاع عن الدين وإعلان الجهاد في سبيل الله
اتباع لقوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ
تَرْهَبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ سورة الأنفال الآية 60. ومن هنا بدأ اشتباك
الشيخ مع ملوك بلاد الهوسا حيث أصدر وثيقة يدعو فيها جماعته إعلان
الجهاد ضد أمراء «غوير»، وهاجر هو وجماعته عام (1218هـ / 1803م)
قرية «طغل» إلى منطقة «قدو»، وهي قرية متاخمة لبلاد «غوير»، وبها قام
الفقيه الشيخ أغال التاركي بتحريض المؤمنين وإخوانه من التوارك على

⁽¹⁴⁾ انظر: آدم عبد الله الإلوري، الإسلام في نيجيريا والشيخ عثمان بن فوديو الفلاني،
ص 149 وما بعدها.

⁽¹⁵⁾ انظر: محمد بن علي بن محمد السكاكر، دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب
ودعوة الشيخ عثمان بن فودي: دراسة تاريخية مقارنة، الرياض، جامعة الإمام محمد
بن سعود الإسلامية، سلسلة مشروع وزارة التعليم العالي لنشر ألف رسالة علمية،
(35)، 1420هـ/2000م، ص 169 وما بعدها.

الهجرة إلى مكان الشيخ لمعاونته ونصرته فتتابعت أمواج الهجرة إليه حتى بلغت عدّتهم نحو عشرة آلاف⁽¹⁶⁾. ومن هذه القرية أخذ الشيخ يرأسل أمراء بلاد الهوسا يدعوهم فيها إلى الدخول في طاعته فرفضوا جميعاً عدا «جاتو» أمير «زاريا». وبه -على سبيل الاقتضاء- تحوّلت جهوده الدعوية وحركاته الإصلاحية من الجانب النظري إلى الجانب العملي، خاض فيها معارك متفرقة حامية مع هؤلاء الملوك وأفضت في النهاية إلى انتصار الشيخ وإقامة دولة إسلامية في بلاك الهوسا سنة 1803م. واتخذ مدينة سوكوتو عاصمة لها، ومنها يرسل الشيخ حملاته الجهادية ضد الوثنية، وبدأت ممالك بلاد الهوسا تسقط أمام تلك الحملات، فسقطت «زاريا» و«كاشنا» عام 1804م، ثم «كانو»، وبعدها «غوبر» حيث قتل ملكها يونفا سنة 1808م⁽¹⁷⁾. وهكذا استطاع الشيخ أن يفرض سلطانه على جميع ممالك الهوسا وما جاورها، وتحققت له إقامة دولة إسلامية تحكم بأحكام الكتاب والسنة، وتنتشر الإسلام في الممالك الوثنية في غربي إفريقيا. وقد دامت تلك الدولة لقرن بتمامه. وما كان لينقطع نفس هذه الدولة وتلفظ أنفاسها الأخيرة لولا طوفان الاستعمار الإنجليزي العاتي الذي أقصّ مضاجعها عام 1903م، فضمّها إلى المملكة الجنوبية مكوّناً منها مستعمرة أسماها نيجيريا⁽¹⁸⁾.

وتأسس هذه المملكة الإسلامية على يد الشيخ عثمان بن فودي عام 1804م قد غير بحقّ مجرى تاريخ الثقافة العربية في ديارنا النيجيرية. ففي ظل هذه المملكة اكتمل النشاط الثقافي العربي الإسلامي اكتمالاً مذهلاً يحير

⁽¹⁶⁾ انظر: آدم عبد الله الإلوري، الإسلام في نيجيريا والشيخ عثمان بن فوديو الفلاني، ص 154 وما بعدها.

⁽¹⁷⁾ انظر: وهيبه عليوا وشريفة غيتاوي، أثر لإصلاحات المغيلي على الدويلات الناشئة في غرب إفريقيا خلال القرن 19هـ سوكوتو وماسينا أنموذجاً، (مذكرة مكملة لمتطلبات شهادة الماستر في تخصص تاريخ جنوب الصحراء)، جامعة أحمد دراية، أدرار- الجزائر، 1441/1440هـ، 2020/2019م، ص 26.

⁽¹⁸⁾ انظر: آدم عبد الله الإلوري، المرجع السابق، ص 208.

العقل، فقد كان قادة هذه المملكة شيوخًا في العلم، وأولي الرسوخ في علوم الدين واللغة العربية⁽¹⁹⁾. كما أنّ لهؤلاء القادة أثرًا بالغًا في تخريج جبهة من تلاميذ حملوا لواء العلم والثقافة العربية الإسلامية في هذا العهد؛ فقد فتحوا أبوابهم لطلاب العلم، وشجعوا العلماء على نشر العلم والتدريس، فكثرت المدارس، وتعددت مجالس العلم وحلقات الدرس، وأصبحت العربية لغة الإدارة، والمراسلات والقرارات الحكومية تصدر بالعربية، كما أنّ الخطب الدينية والسياسية والاجتماعية تلقى باللسان العربيّ المبين، وتتابع العلماء والكتّاب في التأليف نثرًا وشعرًا. وقد أخذ هذا التطور يزداد اتساعًا واكتمالاً على تعاقب الأزمان حتى سقوط هذه الدولة في مطلع القرن العشرين على ما سبق ذكره. وكان هذا العصر معدودًا لدى جمهور الباحثين والمؤرخين- باستحقاقٍ وجدارةٍ-العصر الذهبي لهضة الثقافة العربية الإسلامية في نيجيريا.

المطلب الثالث : معالم تأثر الشيخ عثمان بن فودي بالإمام المغيلي.

كان الإمام المغيلي من أبرز الشخصيات الدينية التي وفدت إلى السودان الغربي في القرن العاشر الهجري وتركت بصمات واضحة في الحركة الدعوية والإصلاحية، وفي شؤون الحياة السياسية والاجتماعية لأهل غربي إفريقيا. وقد ظلت آثاره العلمية ورسائله في السياسة الشرعية مصدرًا مهمًا من مصادر العلوم الإسلامية ومدرسة روحية تربي عليها العلماء والحكام والعامّة، وتناقلته الأجيال من بعده، بل كانت مناهجًا أضاء الحياة العلمية في قلوبهم؛ حيث اعتمدوا على ما حواه تراثه العلمي من الآراء الفقهية وأحكام السياسة الشرعية، ومن ثمّ ظلّت ذكرى الإمام المغيلي محفورة في ذاكرة أهل

⁽¹⁹⁾ انظر: مادهو ك. بانيكار، الوثنية والإسلام تاريخ الإمبراطورية الزنجية في غرب أفريقيا، ترجمة أحمد فؤاد بلبع، القاهرة، المجلس الأعلى للثقافة، الطبعة الثانية، 1998، ص 278.

السودان الغربي عمومًا، وأهل نيجيريا على وجه الخصوص. يقول الأمين محمد عوض الله : «ونستطيع أن نؤكد من النصوص السابقة، أنّ الدور الذي قام به العالم الجليل المغيلي لا يدانيه أيّ دور قام به عالم مغربي في السودان الغربي. فقد ترك أثراً إسلامياً كبيراً، وقام بتصحيح مفاهيم كثيرة كانت مغلوطة في أذهان العامة والساطين»⁽²⁰⁾.

ويعدّ الشيخ عثمان بن فودي أكثر العلماء المصلحين في السودان الغربي تأثراً بالإمام المغيلي، وأحرصهم على ترسّم هديه سواء في تكوين شخصيته العلمية، أم في جهوده الدعوية، أم في حركاته الإصلاحية. إنّه قد استثمر توافر كثير من مؤلفات الإمام المغيلي حتى عهده في القرن الحادي عشر والثاني عشر الهجريين فوقف الشيخ عليها، وأخذ بعضها رواية عن شيوخه، واستفاد منها أيّما الاستفادة، وسار على نهجه في مؤلفاته، وفيما يأخذ أو يدع في سياساته ونظام حكمه.

ويمكن أن نحرّر أوجه تأثر الشيخ عثمان بن الفودي بالإمام المغيلي فيما يأتي :-

أولاً: التأثير في تحرير المؤلفات وأسلوبه.

والدارس المتتبع لتراث الشيخ عثمان بن فودي العلمي يرى اعتماده الشديد على آراء الإمام المغيلي وتعلّقه به أيّما التعلّق حتى كان يرى نفسه تلميذاً يتلقّى على شيخه. ها هو ذا يقول : «وسئل شيخنا محمد بن عبد الكريم التلمساني عن تحليل المطلقة ثلاثاً قبل زَوْج، فقال...». قال آدم الألوري معلّقاً على كلمة «شيخنا» هذه، فقال: «انظر قول ابن فودي: وسئل شيخنا... لقد عزا النقل إلى المغيلي ونسب نفسه إليه كالتلميذ الذي سمع أو

⁽²⁰⁾ الأمين محمد عوض الله، العلاقات بين المغرب الأقصى والسودان العربي في عهد السلطتين الإسلاميتين مالي وسنغي، جدّة، المجمع العلمي للنشر والتوزيع، 1979، ص192.

أخذ عن المغيلي مباشرة، مع ما بينهما من بعد العهد الذي لا يقلّ عن ثلاثة قرون. وإن دلّ ذلك على شيء، فإنّما يدلّ على غاية التأثير وشدة التعلّق بهذا الشيخ»⁽²¹⁾.

وقد بلغ تأثر الشيخ ابن فودي بالإمام المغيلي حدًّا يجيز القول بأنّ آراءه في كثير من المسائل مبنية على آراء الإمام المغيلي، فلا يكاد مؤلّف من مؤلّفاته يخلو من آراء المغيلي والاحتجاج بأقواله وفتاواه؛ إما استشهادًا أو تلخيصًا أو نقلًا مباشرًا. يقول الألوري في هذا الشأن: «تأثر به - أي بالمغيلي - حتى صار ينقل عنه من كتبه كأنّما ينقل عنه مشافهة»⁽²²⁾. وعلة النقل بهذا الحجم - فيما يبدو - ترجع إلى مكانة الإمام المغيلي عند أهل السودان الغربي، فقد وجد ابن فودي مؤلّفات هذا الإمام مرجعًا أصيلاً يمكن الاطمئنان إليه، سواء في تقوية مذاهبه في المسائل الفقهية أو آرائه العقدية، أم في قرع الخصوم المناوئين لحركته الدعوية والإصلاحية والجهادية بالحجج الدامغة التي لا يسهل دفعها. ولعل في ذلك بيانا كاشفًا لكثرة تلك النقول عن الإمام المغيلي في مؤلّفاته. ونسوق جملة من آيات ذلك فيما يأتي :-

أ- إنّ كتاب الشيخ الموسوم بـ «سراج الإخوان في أهمّ ما يحتاج إليه في هذا الزمان»⁽²³⁾ هو في ماهيته طبق أصل من أجوبة المغيلي على أسئلة الأمير محمد بن أبي بكر التوري المعروف بالحاج أسكيا أمير مملكة سنغاي⁽²⁴⁾؛ حيث نقل في تسعة فصول - من بين عشرة فصول احتوى عليها الكتاب -

⁽²¹⁾ آدم عبد الله الإلوري، الإمام المغيلي وآثاره في الحكومة الإسلامية في القرون الوسطى في نيجيريا، لاغوس نيجيريا، مركز العلوم العربية الإسلامية أوتوبو، الطبعة الأولى، 1444هـ / 2022م، ص ص 43-44.

⁽²²⁾ آدم عبد الله الإلوري، المرجع نفسه، ص 43.

⁽²³⁾ وهو رسالة صغيرة تتعلق بمن يجب جهاده من الكفّار وأصحاب الشرك والبدع وعلماء السوء.

⁽²⁴⁾ وهذه الأجوبة محققة ومطبوع، انظر: محمد عبد الكريم المغيلي، أسئلة أسقيا وأجوبة المغيلي، تحقيق عبد القادر زبايدية، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، 1974.

كلام المغيلي في أجوبته على أسئلة أسكيا. فلو حذفنا منه هذه النقول والنصوص المغيلية لما بقي فيه شيء يذكر سوى فقرات قليلة، وجمل أو عبارات لا تعدو أن تكون تعليقاً أو وسيلة ربط لتتبعات الكلام أو الفقرات. وفي رسالته المسماة: «مسائل مهمة يحتاج إلى معرفتها أهل السودان» أيضاً نقول في مواضع متفرقة عن أجوبة المغيلي لأسكيا، كما يستشهد بأقواله ويحتج بأرائه.

ب- وفي رسالته الموسومة بـ «تنبيه الإخوان على أحوال أرض السودان»⁽²⁵⁾، فقد قسمه الشيخ عثمان بن فودي إلى سبعة فصول، وخصص الفصل السادس منها لنقل وصية الشيخ المغيلي لمحمد بن يعقوب سلطان "كانو"⁽²⁶⁾. وقد جاء عنوان هذا الفصل على النحو الآتي: «في وصية الشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي التلمساني إلى أبي عبد الله بن يعقوب سلطان "كانو».

ج- وفي كتاب للشيخ عثمان بن فودي المسّى «أصول العدل لولاة الأمور وأهل الفضل»⁽²⁷⁾. فبعد أن أورد أصول العدل والإنصاف العشرة التي وضعها الإمام الغزالي في مؤلفه عن شؤون الإمامة والنصح للسلطين والأمراء، والموسوم بـ: «التبر المسبوك في نصيحة الملوك»⁽²⁸⁾، أتبعه بتلخيص

(25) عثمان بن فودي، مختارات من مؤلفات عثمان بن فودي، غوسو - نيجيريا، دار اقرأ، 2013، ص 25.

(26) أورد الإلوري نصها في كتابيه الإسلام في نيجيريا والإمام المغيلي وأثاره في الحكومة الإسلامية في القرون الوسطى في نيجيريا، انظر: آدم عبد الله الإلوري، الإسلام في نيجيريا والشيخ عثمان بن فوديو الفلاني، ص ص 118 121، وانظر: آدم عبد الله الإلوري، الإمام المغيلي وأثاره في الحكومة الإسلامية في القرون الوسطى في نيجيريا، ص 48 - 51

(27) عثمان بن فودي، مختارات من مؤلفات عثمان بن فودي، ص ص 201 - 211.

(28) انظر: الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد، التبر المسبوك في نصيحة الملوك، تحقيق أحمد شمس الدين، بيروت، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى 1409 هـ / 1988 م، ص 14 وما بعدها

– بلا زيادة ودون نقصان- للأبواب الثمانية التي يتألف منها كتاب المغيلي الذي ألفه لأمير «كانو» محمد بن يعقوب رمفا في نصح الأمراء⁽²⁹⁾، والمطبوع باسم «تاج الدين فيما يجب على الملوك والسلاطين»⁽³⁰⁾، ثم قال: «فهذه أصول العدل التي ذكرها الغزالي في بعض تواليفه، وينبغي لكل أمير أن يعتني بفهمها واستعمالها، وينبغي له أيضاً أن يعتني بثمانية أمور ذكرها محمد بن عبد الكريم المغيلي التلمساني في بعض تواليفه». وأمّا تلك الأبواب الثمانية التي نهض ابن فودي بتلخيصها فهي على النحو الآتي: الأول: فيما يجب على الأمير من حسن النية، والثاني: فيما يجب على الأمير من حسن الهيئة، والثالث: فيما يجب على الأمير من ترتيب مملكته، والرابع: فيما يجب على الأمير من حذر في الحضر والسفر، والخامس: فيما يجب على الأمير من الكشف عن أمور الإمارة، والسادس: فيما يجب على الإمام من العدل في حكام السلطنة رجال العدل والإحسان، والسابع: في مجي الأموال من وجوه الحلال، والثامن: في مصارف أموال الله.

د- لم يقف تأثر الشيخ ابن فودي بالإمام المغيلي في حدود النقول لنصوصه أو الاستشهاد بأرائه، والاحتجاج بأقواله، وإنما جاوز ذلك إلى ترسم أسلوبه في التأليف والعمل بتقاليد الكتابية. فكما أنّ الإمام المغيلي يختم كلّ فصل من رسالته «تاج الدين فيما يجب على الملوك والسلاطين» بعبارة "ورأس كلّ بليّة احتجاج السلطان عن الرعيّة"⁽³¹⁾، فإنّ ابن فودي أيضاً حذا حذوه واقتضى به في رسالته «إحياء السنّة وإخماد

⁽²⁹⁾ أورده الإلوري أيضاً في المرجعين السابقين، الإسلام في نيجيريا، ص ص 108-118، والإمام المغيلي وأثاره في الحكومة الإسلامية في القرون الوسطى في نيجيريا، ص ص 51-

⁽³⁰⁾ محمد عبد الكريم المغيلي التلمساني، تاج الدين فيما يجب على الملوك والسلاطين، تحقيق محمد خير رمضان يوسف، بيروت-لبنان، دار ابن حزم، 1994م.

⁽³¹⁾ انظر: محمد عبد الكريم المغيلي التلمساني، تاج الدين فيما يجب على الملوك

البدعة»؛ إنّه كان يختم كلّ فصل من فصول هذه الرسالة بهذه العبارة: «اللهمّ وفّقنا لاتّباع سنّة نبيّك-صلى الله عليه وسلّم- بجاهه عندك»⁽³²⁾. ومثل ذلك في رسالته «المسائل المهمة»...، إذ كان يختم كلّ فصل منها أيضاً بالدعاء المأثور: «اللهم أرنا الحق حقاً وارزقنا اتّباعه وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه»⁽³³⁾.

ثانياً : التآثر في منهج الدعوة والحركة الإصلاحية.

كان الإمام المغيلي من أوائل العلماء الذين رفعوا قواعد الدين الإسلامي ونشر تعاليمه في بلاد هوسا شمالي نيجيريا، بل هو من أبرز أولئك الذين لعبوا دوراً فاعلاً في التاريخ الثقافي والاجتماعي والسياسي في تلك البلاد منذ العقد الأخير من القرن الخامس عشر حتى نهاية القرن التاسع عشر. بل إنّ أفكار هذا الإمام ونظريته فيما يخصّ الدولة الإسلامية - ولا سيما توصياته لأمر «كانو» - قد أحدثت تغييراً جذرياً وتطوّراً ملموساً في حياة الناس في بلاد هوسا وفي نظمها الاجتماعية والسياسية.

وقد أجمع المؤرّخون لتاريخ السودان الغربي على أنّ الشيخ عثمان بن فودي هو من أبرز علماء هذه المنطقة تأثراً بمنهج الإمام المغيلي في الدعوة والحركة الإصلاحية، سواء في نشر تعاليم الإسلام أو تصحيح مفاهيم العقيدة الإسلامية كموقفه من يهود توات، أو مناهضة الأعراف الاجتماعية المخالفة للعقيدة الإسلامية الصافية كادّعاء الولاية والكشف، وتعاطي السحر والشعوذة، وادّعاء العلم بالغيب وغيرها.

⁽³²⁾ انظر : عثمان بن فودي، إحياء السنة وإخماد البدعة، تحقيق أحمد عبد الله باجور، القاهرة، مطابع شركة الإعلانات الشرقية، الطبعة الثانية، 1985م، ص 45

⁽³³⁾ انظر : عثمان بن فودي، المسائل المهمة التي يحتاج إلى معرفتها أهل السودان، تحقيق حسن عيسى عبد الظاهر، حويلات كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة قطر، العدد3، 1984م، ص 187

فإذا كان الإمام المغيلي في أول عهده بالنشاط الدعوي والحركة الإصلاحية في السودان الغربي قد جمع بين التدريس والوعظ قبل أن يصل بدعوته إلى تحرك نحو قصر السلطان لغاية دينية هي إقناع الملك على تطبيق أحكام الشريعة والعمل بالقيم الإسلامية الفاضلة لتحقيق العدالة الاجتماعية والأمن الاجتماعي بين الرعية، ففي 1188هـ - 1774م على وجه التقريب بدأ ابن فودي أيضاً نشاطه الدعوي وحركته الإسلامية معلماً ومرتبياً وواعظاً، وله من العمر عشرون عاماً. وعلى مدى ثلاثين عاماً سار في دعوته بالحكمة والموعظة الحسنة، يبصر بني قومه بالقيم الإسلامية الفاضلة وحقائق الإسلام وصفاء العقيدة، وكان يشجب العادات والتقاليد الجائرة والمخالفة لقيم الإسلام وأحكامه العادلة؛ فاستهجن الاستيلاء على الممتلكات الخاصة، وسنّ الضرائب غير الشرعية، واستنكر ممارسات الشعائر الوثنية المنتشرة عند بني قومه، وناهض بطانة السوء من العلماء ورجال الدين المتواطئين مع الحكام لظلم الرعية، وحثّ على تطبيق أحكام الشريعة في إدارة شؤون الممالك في بلاد الهوسا. وكان يرتحل بدعوته بفقه واع، وبصيرة نافذة متنقلاً في تلك الممالك بين العامة والخاصة من الناس والعلماء والملوك، وبعيداً عن التصادم بهم إلى أن واجه من بعضهم اضطهاداً وتضايقاً لتكاثر أتباعه وازدياد جماعته المتواصل. وهكذا لقي الشيخ في دعوته ومسعاها الإصلاحي من أمراء الهوسا وعلمائها ما لقيه الإمام المغيلي من تعنت ووضوع عراقيل من زعماء المغرب وعلمائها فكانت المواجهة حتماً مقضياً، فانطلقت دعوته من التغيير باللسان إلى حمل السلاح وإعلان الجهاد سيرا على نهج الإمام المغيلي واستلهاماً من تجربته الفذة في منطقة توات. قد أتى أكله في تحقيق النصر وقيام إمارة إسلامية تحكم بأحكام الشريعة الإسلامية في بلاد الهوسا، وذلك في القرن الثاني عشر الهجري مطلع القرن التاسع عشر الميلادي.

ثم إنّ المتابع الحريص لمؤلفات الشيخ عثمان بن فودي وأخيه عبد الله ومحمد بللو في أسس الجهاد وقواعده وفي أحكام السياسة الشرعية يرى أنّها مبنية على اجتهادات الإمام المغيلي في الميدانين السياسي والاجتماعي. وآية ذلك أنّ الشيخ عثمان بن فودي قد استند على فكرة الإمام المغيلي وما أودعه في رسالته « مصباح الأرواح في أصول الفلاح »⁽³⁴⁾ من أدلّة وحجج تجيز إعلان الحرب على المرتشي المتحالف مع الكافرين، فأخذ بها في كتابه « نجم الإخوان يهتدون به بإذن الله في أمور الزمان »⁽³⁵⁾، واتخذها قياساً للحكم على زعماء الهوسا وأتباعهم بأنهم غير مؤمنين، وبجواز إعلان الحرب ضدهم على سبيل الاقتضاء.

ثالثاً: التأثير في المذهب الفقهي والاتجاه العقدي والتربية الروحية.

تبين في عرض السيرة الثقافية للشيخين أنّ ابن الفودي مالكي المذهب أشعري العقيدة، صوفي على طريقة القادرية. وله كثير من المؤلفات في منهج القادريين وسلسلتهم منها: السلاسل الذهبية، والسلاسل القادرية، وتبشير الأمة المحمدية بفضائل الطريقة القادرية. والمعلوم من تاريخ الثقافة العربية في السودان الغربي أنّ الإمام المغيلي من أبرز فقهاء المدرسة المالكية الجزائرية تأثيراً في وجدان مسلمي إفريقيا الغربية، وأكثر علماء الاتجاه العقدي الأشعري هيبه ومكانة عندهم، يضاف إلى ذلك أنّه يعدّ أوّل من أدخل الطريقة القادرية إلى بلاد السودان الغربي، بل يعد الحلقة الأساسية في سلسلة مشائخ الطريقة عند المريدين في السودان الغربي⁽³⁶⁾. والمعلوم من

⁽³⁴⁾ وهي إحدى رسالتين حواهما كتاب " رسالتان في أهل الذمّة، بتحقيق عبد المجيد الخيالي، ومن مطبوعات دار الكتب العلمية بيروت، الطبعة الأولى 2001م.

⁽³⁵⁾ الكتاب من مطبوعات الزهراء للإعلام العربي، القاهرة.

⁽³⁶⁾ انظر: آدم عبد الله الإلوري، الإمام المغيلي وأثاره في الحكومة الإسلامية في القرون الوسطى في نيجيريا، ص 27، وأدم عبد الله الإلوري، تاريخ دخول الإسلام في أفريقيا

أعراف العلم بالضرورة أنّ السند المتّصل هو معيار أصيل من المعايير
المعتبرة في الكشف عن تجليات التأثير والتأثر بين عالم وآخر، ولا سيما عند
تباعد العهد بينهما. وها هو ذا ابن فودي يقول مفتخرًا باتّصال سنده بالإمام
المغيلي في كتابه « تعليم الإخوان »: « ونريد أن نختم هذا الكتاب بذكر سندننا
المتّصل إليه . رضي الله تعالى عنه . الذي جاءنا من سيدي محمد المختار بن
أبي بكر الكُنْتي الأموي، وهو سند ورد السلسلة القادرية، أجازني به الشيخ
العالم نوح، وهو عن شيخه سيدي محمد المختار المذكور، وهو عن شيخه
سيدي الشريف علي بن أحمد، وهو عن شيخه سيدي أبي النقب السيد
الأمير لُقْب به لكونه يتلّم، وهو عن شيخه أخيه سيدي أحمد، وهو عن
شيخه سيدي علي بن أحمد، وهو عن شيخه أبيه سيدي أحمد، وهو عن
شيخه الرقاد، وهو عن شيخه أحمد الفيرم، وهو عن شيخه عمر بن سيدي
أحمد البكاء، وهو عن شيخه سيدي محمد بن عبد الكريم المغيلي رضي الله
تعالى عنه»⁽³⁷⁾، ثم يعقّب هذا القول بما يثبت اعتزازه بهذا السند ويؤكّده :
«وقدّر اتصالنا به الاتصال الحسن في البرزخ وفي الآخرة كما قدّر اتصالنا به
في الدنيا الاتصال المعنويّ الذي هو هذا السند»⁽³⁸⁾.

ذلكم حاصل ما توصلنا إليه من أوجه تأثر الشيخ عثمان بن فودي
بالإمام المغيلي.

الغربية المسلمة بنيجيريا من مستعمرات بريطانيا، مجلة الأزهر، المجلّد السابع،
القاهرة. مطبعة الأزهر، 1946م، ص 284

⁽³⁷⁾ عثمان بن فودي ، تعليم الإخوان بالأمور التي كَفَرنا بها ملوك السودان، مخطوط،

جامعة باييرو، كانو، نيجيريا. ص 18 - 19

⁽³⁸⁾ عثمان بن فودي ، المرجع نفسه، ص 20

خاتمة وتوصيات.

استبان فيما أوردناه من المطالب في هذه الورقة البحثية جملة من الأمور، أهمها :-

- إنّ الإمام المغيلي من أبرز الشخصيات الدينية التي أثّرت في حياة أهل السودان الغربي - ولا تزال إلى يوم الناس هذا- تأثيراً إيجابياً ملموساً، بل كان رافداً حضارياً وجسراً ناقلاً للعلوم الإسلامية، وأحكام السياسة الشرعية التي غيّرت مجرى حياة شعب الإفريقية الغربية في عمومها، وشمال بلاد نيجيريا على وجه الخصوص.

- كانت مؤلفات الشيخ المغيلي مرجعاً دينياً وترثاً ثقافياً يتوارثه العلماء والأمرء والحكام المسلمين في هذه الديار جيل بعد جيل.

- يعدّ الشيخ ابن فودي في جهوده الدعوية ونشاطاته الإصلاحية أبرز المصلحين المجددين تأثراً بالإمام المغيلي في السودان الغربي. ويتجلّى هذا التأثير في الحرص الشديد على الرجوع بالمسلمين إلى المنهج الإسلامي الصحيح، وإصلاح الأوضاع الدينية والسياسية للمسلمين، ومقاومة الأوضاع السياسية الفاسدة المخالفة لأحكام الشريعة الإسلامية، والتمسك بتطبيق أحكام الشريعة الإسلامية في إدارة شؤون الدولة.

بناءً على ما تقدّم نوصي بما يأتي:-

- استثمار التراث العلمي الثري الذي خلفه الإمامان، وإعادة قراءته بعقل واعٍ وبصير، وفي ضوء أوضاعنا السياسية والاجتماعية المعاصرة، ثم العمل بهديه لترشيد نظم الحكم في المجتمعات الإسلامية، ولحلّ ما تواجهه من المشكلات السياسية والاجتماعية والقضايا الأمنية المعاصرة.

- وضع صندوق مالي يرمى مشروع إحياء التراث العلمي للإمامين،
ويقوم بتشجيع المشتغلين بتاريخ الحضارة العربية الإسلامية في الجنوب
الصحراء على النهوض بمهام تحقيق مؤلفات الإمامين التي لا تزال مخطوطة
برعاية وإشراف من الهيئة الإدارية لهذا الصندوق.

المراجع :

أ- الكتب

1. ابن فودي، عثمان، مختارات من مؤلفات عثمان بن فودي، غوسو-نيجيريا، دار اقرأ، 2013م.
2. ابن فودي، عثمان، إحياء السنة وإخماد البدعة، تحقيق أحمد عبد الله باجور، القاهرة، مطابع شركة الإعلانات الشرقية، الطبعة الثانية، 1985م.
3. ابن فودي، عثمان، تعليم الإخوان بالأمور التي كَفَرنا بها ملوك السودان، مخطوط، جامعة باييرو، كانو، نيجيريا.
4. ابن فودي، عثمان، نجم الإخوان يهتدون به بإذن الله في أمور الزمان، القاهرة، دار الزهراء للإعلام العربي، د.ت.
5. أحمد بابا التنبكتي، نيل الابتهاج بتطريز الديباج، طرابلس، دار الكاتب، الطبعة الثانية، 2000م.
6. الإلوري، آدم عبد الله، الإسلام في نيجيريا والشيخ عثمان بن فوديو الفلاني، القاهرة، مكتبة الإسكندرية، الطبعة الأولى، 2014م.
7. الإلوري، آدم عبد الله، الإمام المغيلي وآثاره في الحكومة الإسلامية في القرون الوسطى في نيجيريا، لاغوس - نيجيريا، مركز العلوم العربية الإسلامية، الطبعة الأولى، 1444هـ/2022م.
8. بانيكار، ك. مادهو، الوثنية والإسلام تاريخ الإمبراطورية الزنجية في غرب أفريقيا، ترجمة أحمد فؤاد بلبع، القاهرة، المجلس الأعلى للثقافة، الطبعة الثانية، 1998م.
9. بللو، محمد، إنفاق الميسور، تحقيق بهيجة الشاذلي، الرباط، معهد الدراسات الأفريقية، 1996م.
10. بوعزيز، يحيى، أعلام الفكر والثقافة في الجزائر المحروسة، بيروت، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى، 1995.
11. زبايدية، عبد القادر، الحضارة العربية والتأثير الأوروبي في أفريقيا الغربية جنوب الصحراء، الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1989م.
12. السعدي، عبد الرحمن بن عبد الله بن عمران بن عامر، تاريخ السودان، باريس، المدرسة الباريزية لتدريس اللأسنة الشرقية، 1981م.

13. طاهر، أحمد، أفريقيا فصول من الماضي والحاضر، القاهرة، دار المعارف، 1978م.
14. عوض الله، الأمين محمد، العلاقات بين المغرب الأقصى والسودان الغربي في عهد السلطنتين الإسلاميتين مالي وسنغي، جدة، المجمع العلمي للنشر والتوزيع، 1979م.
15. الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد، التبر المسبوك في نصيحة الملوك، تحقيق أحمد شمس الدين، بيروت، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى 1409هـ / 1988م.
16. غلاندشي، شيخو أحمد سعيد، حركة اللغة العربية وآدابها في نيجيريا، المكتبة الإفريقية، القاهرة، النهار للطبع والنشر والتوزيع، الطبعة الثالثة، 2008م.
17. المغيلي، عبد الكريم محمد، أسئلة أسقيا وأجوبة المغيلي، تحقيق عبد القادر زبايدية، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، 1974.
18. المغيلي، عبد الكريم محمد، تاج الدين فيما يجب على الملوك والسلطين، تحقيق محمد خير رمضان يوسف، بيروت-لبنان، دار ابن حزم، 1994م.
19. المغيلي، عبد الكريم محمد، مصباح الأرواح في أصول الفلاح، ضمن كتاب "رسالتان في أهل الذمة"، تحقيق عبد المجيد الخيالي، بيروت - لبنان، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، 2001م.
20. مقدم، مبروك، الإمام محمد بن عبد الكريم المغيلي التلمساني ودوره في تأسيس الإمارة الإسلامية بأفريقيا الغربية، وهران، دار الغرب للنشر والتوزيع، 2006م.

ب- الدوريات العلمية

1. ابن فودي، عثمان، المسائل المهمة التي يحتاج إلى معرفتها أهل السودان، تحقيق حسن عيسى عبد الظاهر، حوليات كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة قطر، العدد 1984، 3م.
2. الإلوري، آدم عبد الله، تاريخ دخول الإسلام في أفريقيا الغربية المسلمة بنيجيريا من مستعمرات بريطانيا، القاهرة، مجلة الأزهر، المجلد السابع، مطبعة الأزهر، 1946م.

3. جعفري، أحمد، حوارات الإمام عبد الكريم المغيلي (909هـ) مع ملوك وأمراء غرب إفريقيا وأثره في حركة الفتح الإسلامي لإفريقيا، الفضاء المغربي، العدد الأول، سبتمبر 2020م.
4. هداجي، محمد وجعفري، مبارك، الحركة الإصلاحية عند عثمان بن فودي: المرتكزات والأبعاد، الإحياء، المجلد 20، العدد 26، سبتمبر 2020.

ج- الرسائل العلمية

1. السكاكر، محمد بن علي بن محمد، دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب ودعوة الشيخ عثمان بن فودي: دراسة تاريخية مقارنة، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض، سلسلة مشروع وزارة التعليم العالي لنشر ألف رسالة علمية (35)، 1420هـ/2000م.
2. عليوا وهيبة، وشريفة غيتاوي، أثر إصلاحات المغيلي على الدويلات الناشئة في غرب إفريقيا خلال القرن 19م سوكوتو وماسينا أنموذجاً، مذكرة مكملة لمتطلبات شهادة الماستر في تخصص تاريخ أفريقيا جنوب الصحراء، الجزائر، جامعة أحمد دراية- أدرار، الجزائر، 1440/1441هـ، 2019/2020م.

د- المراجع الأجنبية

- Balogun, Ismoil (1995), "Uthman dan Fodio, The Mujaddid of West Africa", in: Studies in History of the Sokoto Caliphate, Zaria, Nigeria, Ahmadu Bello University.

مقومات الدولة السلطانية في الفكر السياسي عند الإمام محمد بن عبد الكريم المغيلي

بلعربي خالد

أستاذ التعليم العالي كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية-جامعة سيدي بلعباس

الملخص:

تحاول هذه المداخلة التعرض إلى مقومات الدولة السلطانية في الفكر السياسي عند أحد علماء المغرب الأوسط في النصف الثاني من القرن التاسع الهجري. إذ يعد واحدا ممن جمع بين العلم وممارسة السياسة، وعبر بوضوح عن أفكاره وآراءه السياسية، خاصة تلك المضمنة في رسالتيه الشهيرتين بـ "تاج الدين فيما يجب على الأمير من حسن النية، وأسئلة الأسقيا وأجوبة المغيلي".

استطاع المغيلي في هذا الكتاب أن يجمع شتات الأسئلة والأجوبة التي دارت بينهما في شكل رسائل منها «تاج الدين فيما يجب على الملوك والسلطين» وأخرى حملت عنوان «فيما يجوز للحكام من ردع الناس على الحرام».

لقد كشفت الرسالة الأولى عن الفكر السياسي عند الإمام المغيلي، من خلال توجيهاته الحكيمة التي أوردها لسلطان مملكة كانو، وتضمنت في جوهرها الأسس والمبادئ التي تبني عليها الإمارة منها الصدق وإخلاص النية في حكم الإمارة. أما رسالته الثانية فكانت جوابا عن سؤال السلطان عما يجوز للحاكم شرعا فعله لردع الناس عن المعاصي.

لقد كشفت هاتان الرسالتان عن مدى الفكر السياسي الذي بلغه المغيلي في هذا القرن من خلال تعرضه لأسس الدولة ومقوماتها في عهده.

The Foundations of the Sultana State in the Political Thought of Imām al-Maghīlī

Abstract:

This paper attempts to address the foundations of the Sultana state in the political thought of Imām Abū ‘Abdullah Muḥammad b. ‘Abdul Karīm al-Maghīlī, one of the scholars of the Middle Maghreb in the second half of the ninth century AH. He was considered one of those who combined science with the practice of politics and clearly expressed his ideas and political opinions, especially those contained in his two famous treatises, "Taj al-Dīn fi ma yajibū ‘ala l-Mulūk wa Salatīn" regarding what is required of the prince's goodwill, and the questions of al-Asqiyya and the answers of al-Maghīlī. In that book, al-Maghīlī was able to collect the fragments of questions and answers that took place between them in the form of letters, including "The Crown of Religion in what is obligatory for kings and sultans" and another one entitled "What is permissible for rulers to deter people from what is forbidden". The first treaty shows the political thought of al-Maghīlī, through his wise guidance that he gave to the Sultan of the Kingdom of Kano. The treaty included in its essence the foundations and principles upon which the emirate should be built, including honesty and purity of intention in ruling the emirate. As for his second Treaty, it was an answer to the sultan's questions about what the ruler should be legally permitted to do to deter people from sin. These two treaties revealed the extent of political thought that al-Maghīlī reached in that century by showing the foundations and principles of the state during his time.

Keywords:

al-Maghīlī, Kano, Songhay, Political Thought, Legal Policy, Treaties

مقدمة:

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، أما بعد:
فقد شكَّلت الأفكار السياسية وتاريخها في التعاطي مع مفهوم السلطة السياسية والتأصيل لها مجالاً خصباً في العصر الوسيط، ولقد عرف الفكر الإسلامي في الغرب الإسلامي خلال هذه الفترة تطوراً كبيراً مثله عدة علماء رواد، من بينهم عبد الرحمن بن خلدون (732-808هـ/1332-1405م) في مقدمته الشهيرة وكذلك ابن الأزرقي الأصبحي الغرناطي (831-896هـ/1426-1491م) في كتابه "بدائع السلك في طبائع الملك".

وفي القرن التاسع الهجري الخامس عشر الميلادي، ظهر أحمد بن يحيى الونشريسي (ت914هـ/1508م) مؤلف كتاب «الولايات ومناصب الحكومة الإسلامية والخطط الشرعية»، ويعد الشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي التلمساني (ت909هـ/1503م) من أبرز علماء المغرب الأوسط الذي جمع بين مجال العلم وبين ممارسة السياسة وعبر بوضوح عن أفكاره وآرائه السياسية خاصة تلك المضمنة في رسالتيه الشهيرتين بـ«تاج الدين فيما يجب على الأمير من حسن النية، وأسئلة الأسقيا وأجوبة المغيلي».

كان الشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي التلمساني واحداً من علماء تلمسان في النصف الثاني من القرن التاسع الهجري الخامس عشر للميلاد، حيث شهد هذا القرن موجة من الاضطرابات، وعدم الاستقرار السياسي في بلاد المغرب الأوسط نتيجة استمرار صراع الزيانيين مع جيرانهم المرينيين والحفصيين، والهجمات الإسبانية المتكررة على سواحل المغرب الأوسط، غير أن ذلك لم يؤثر على الحياة العلمية، فقد شهد هذا العصر بروز عدة علماء أجلاء كان لهم دور في تفعيل الحركة العلمية في المغرب الأوسط، ومنهم الشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي الذي كان عالماً فقيهاً متمكناً في العديد من العلوم وفنون المعرفة، وقد أفادته سنواته الطويلة التي قضاهَا

في قصور توات المترامية في الصحراء، وبلاد السودان الغربي، أن يمدنا بالكثير من أفكاره وآرائه في السياسة الشرعية، والأدب السلطاني، والتي حوتها مؤلفاته المخطوطة والمطبوعة والتي كانت شاهدة على ثراء شخصيته العلمية والفكرية والسياسية.

مشكلة الدراسة:

إنّ جوهر الإشكال يدور حول: كيفية تناول الشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي في فكره السياسي، مقومات الدولة السلطانية انطلاقاً من أفكاره وآرائه في السياسة الشرعية، ويندرج تحت هذا الإشكال الأسئلة التالية:

- ما هي الأوضاع التي كان عليها المغرب الأوسط في عهد المغيلي؟ وهل أثرت على فكره السياسي؟

- كيف تنظر رسائل الأحكام السلطانية المختارة للعلاقة بين الحاكم والمحكوم؟

- ما هي أهم التصورات السلطانية عند المغيلي فيما يتعلق ب"الدولة"، وأشكال تدبيرها، وأهم مقوماتها؟

دوافع الدراسة:

- إعادة الاعتبار لشخصية محمد بن عبد الكريم المغيلي بصفته رائداً من رواد الفكر السياسي بالمغرب الأوسط والسودان الغربي خلال هذه الفترة.

- محاولة التعرف على التراث السياسي الإسلامي الذي خلفه الشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي.

- الميل الشخصي إلى مثل هذه المواضيع التي تؤرخ للفكر السياسي الإسلامي في الفترة الوسيطة.

أهمية الدراسة:

تكتسي هذه الدراسة أهمية كبيرة؛ نظرا لارتباط هذه الفترة من القرن التاسع الهجري، الخامس عشر الميلادي بالواقع الذي كانت تعيشه الدولة الإسلامية من ضعف وانحطاط، فكانت كتابات الشيخ محمد ابن عبد الكريم المغيلي معبرة عن واقع هذا العصر في أغلب رسائله، كما كانت تخطيطا لواقع أحسن في إطار دولة سلطانية تنبني على مجموعة من المقومات تكون هي المرجع الذي يحدد شكل هذه الدولة ونظام الحكم فيها.

منهج الدراسة:

أ- المنهج التحليلي: اعتمد الباحث على المنهج التاريخي الذي تم من خلاله التعرض للأوضاع المختلفة التي كان عليها المغرب الأوسط في عهد المغيلي، وأهم تصوراتها بخصوص الدولة السلطانية مستخدما في ذلك ما يمكن استخدامه من مقومات البحث العلمي في صياغة البحث.

ب- مصادر البيانات: اعتمد الباحث على المصادر المكتوبة والمخطوطة، والمراجع المتعلقة بموضوع البحث، والتي سيتم ذكرها في مراجع البحث.

ج- حدود الدراسة: وتتمثل في مقومات الدولة السلطانية عند الشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي (870-909هـ/1465-1503م)، وهي فترة شهدت تفرغه للتأليف في السياسة الشرعية وميادين أخرى، كما أنها فترة عرفت بانتقاله من تلمسان إلى قصور ووحدات توات، ثم من توات إلى بعض إمارات وممالك السودان الغربي وانتهاء بوفاته بتوات.

هيكلية الدراسة:

تم تقسيم هذه الدراسة إلى ثلاثة مباحث، يتناول المبحث الأول منها، الإطار النظري للدراسة والدراسات السابقة، بينما يتطرق المبحث الثاني إلى الأوضاع التي كان عليها المغرب الأوسط في عهد المغيليومدى تأثيرها على فكره

السياسي، ثم الدولة السلطانية في الفكر السياسي لدى المغيلي، وكذا أهم التصورات السلطانية عند المغيلي فيما يتعلق بـ "الدولة" و أشكال تديريها، وأهم مقوماتها.

الإطار النظري والدراسات السابقة:

أولاً- الإطار النظري:

قسمت هذه الدراسة إلى مقدمة، وثلاثة مباحث، وخاتمة، ثم قائمة المصادر والمراجع، وذلك على النحو التالي:

المبحث الأول: وعنوانه: «الشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي وظروف عصره»، وتناولت فيه بالحديث الأوضاع العامة في بلاد المغرب الأوسط خلال فترة الدراسة، السياسية، والثقافية.

المبحث الثاني: وعنوانه: «تجليات الفكر السياسي عند الشيخ المغيلي في رحلته إلى السودان الغربي».

المبحث الثالث: وعنوانه: «المقومات الأساسية للدولة السلطانية في الفكر السياسي عند الشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي» وتطرقت فيه إلى حفظ الدين وإقامة العقوبات. وطاعة الأمراء والسلطين. وإقامة العدل في الأحكام ومصارف المال. واختيار العمال وترتيب المملكة. وتديير الجيش وسياسة الحروب.

ثانيا-الدراسات السابقة:

لقد تناولت العديد من المراجع الفكر السياسي عند الشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي، غير أنها لم تتطرق إلى موضوع «مقومات الدولة في فكره السياسي» بشكل مستقل يفي بالغرض المطلوب، ومن الدراسات التي تعرضت للموضوع نذكر:

-دراسة خير الدين شترة سنة(2011م) والمعنونة بـ« الشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي التلمساني، المصلح الثائر وفكره الإصلاحى فى توات والسودان الغربى»، وهو فى جزئين سلط فىه الضوء على حياة الداعية محمد بن عبد الكرىم المغىلى والجغرافية التاريخية لحواضر السودان الغربى ثم منهجه فى معالجة بعض قضايا عصره، وقد أفادتنى الدراسة فى الجزء الثانى من الكتاب والمتعلقة بـ « الأوضاع التى كان علمها المغرب الأوسط فى عهد المغىلى، السىاسية، والثقافية، والاجتماعية».

-دراسة ياسين شبايى(1428هـ/2007م) «الفكر السىاسى عند الشيخ المغىلى التلمسانى ودعوته الإصلاحية بتوات والسودان الغربى» وهى عبارة عن أطروحة دكتوراه نوقشت بجامعة وهران بقسم الحضارة الإسلامىة، تعرض فىها الباحث إلى الفكر السىاسى عند المغىلى، ودعوته الإصلاحية بإقليم توات والسودان الغربى، وقد استفدت منها فى المبحث المتعلق بمقومات الدولة السلطانية عند المغىلى.

ومن المقالات التى أفادت البحث كثيرا تلك التى جاءت ضمن أعمال الملتقى الدولى الذى انعقد بتلمسان يومى 12-13 ربيع الأول 1433هـ الموافق لـ05-06 فبراير 2012 وقد دارت أعماله حول «الإمام محمد بن عبد الكرىم المغىلى - فقه السىاسة والحوار الدينى»، ومن بين الدراسات الجادة كذلك نذكر على سبيل المثال لا الحصر دراسة الدكتور قاسمى بختاوى الموسومة بـ«النشاط الإصلاحى للشيخ المغىلى بإقليم توات والسودان الغربى» وكذا دراسة محمد عبد الحلیم بیشى حول"المشروع السىاسى للمغىلى- النظرية والتطبيق.

المبحث الأول : « الشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي وظروف عصره في المغرب الأوسط.

*الحياة السياسية:

كانت الدولة الزيانية بالمغرب الأوسط في النصف الثاني من القرن التاسع الهجري (15م)؛ أي: عصر المغيلي، تعيش أوضاعا سياسية جد مضطربة داخليا وخارجيا، ففي الداخل ظهر صراع حاد بين الأمراء والسلاطين الزيانيين على العرش والسلطة والنفوذ، وصل إلى حد الحروب فيما بينهم أحيانا، وذلك من أجل إحكام قبضتهم على السلطة في تلمسان وكان ذلك بالاستعانة بالقبائل العربية كبني عامر والداودة وأولاد سعيد وغيرهم، وهو ما أدى إلى ضعف الدولة الزيانية، فدخلت بذلك في مرحلة الإنعاش بحيث أخذت تلفظ أنفاسها شيئا فشيئا مع مرور الأيام، فضلا عن السنوات. كما ساعد على ضعفها تلك الحروب الداخلية التي كانت تندلع من قبل المناهضين لسلطانها، مثل: مغراوة وبني عامر⁽¹⁾.

إنّ الضعف الذي آلت إليه دولة بني زيان، والحروب التي كان المغرب الأوسط مسرحا لها، والروابط القبلية التي كانت تطبع مجتمع المغرب الأوسط خلال هذه الفترة، أدت إلى انفصال العديد من القبائل، وظهور إمارات ترفض الخضوع لسلطة الدولة في المغرب الأوسط، كإمارة بنو جلاب في تقرت بقيادة سليمان المريني الجلابي⁽²⁾.

أمّا خارجيا فنتيجة الوضعية السياسية التي آل إليها المغرب الأوسط في هذه الفترة، استمرت التدخلات المرينية والحفصية في شؤونه الداخلية،

(1) مولاي بلحميسي، نهاية دولة بني زيان "مجلة الأصالة"، العدد 26، (الجزائر قسنطينة، مطبعة البعث، جويلية - أوت 1975) ص ص 33-34.

(2) صالح عباد الجزائر خلال الحكم التركي 1514-1830 (الجزائر، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، 2005) ص 15.

وظلت شواطئه ومدنه على وجه الخصوص عرضة لتهديدات الجيوش الإسبانية والبرتغالية على حد سواء، وذلك بهدف السيطرة على الطرق التجارية في الحوض الغربي للمتوسط، فسقطت مرسى الكبير سنة 1505م ثم، وهران سنة 1509م، وبجاية سنة 1510م، فزادت بذلك وحدة الدولة الزيانية تصدعا، وضعف ملوك بني زيان المتأخرون على مقاومتهم، إلى حين دخول الأتراك العثمانيين إلى الجزائر⁽³⁾.

في ظل هذه الظروف السياسية والتاريخية التي كان يعيشها المغرب الأوسط عامة وتلمسان خاصة عاش الشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي، الذي لم يعجبه الوضع فيما آلت إليه الأوضاع السياسية في العاصمة تلمسان، فتاقت نفسه للهجرة إلى حيث يكون في مقدوره أن يقوم بواجب الإصلاح عن طريق الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فغادر تلمسان إلى السودان الغربي، ثم قصد واحات توات فقال قولته المشهورة هناك: «دخلنا توات فوجدناها ديار علم ومقر أكابر وأعلام فانتفعنا بهم وانتفعوا بنا...»⁽⁴⁾.

*الحياة الثقافية:

لم يمنع الاضطراب السياسي الذي عرفه المغرب الأوسط في القرن التاسع الهجري الخامس عشر الميلادي من تطور الحركة العلمية به، فقد عد هذا القرن من أوفر إنتاج الجزائر في الميدان الثقافي والعلمي وأخصب عهدها وذلك بسبب كثرة العلماء الذين نبغوا فيه، والمؤلفات التي خلفوها لنا، ويتضح ذلك جليا من خلا ما أوردها الرحالة الأندلسي «أبو الحسن القلصادي» (ت 891هـ/1486م) حول الحياة العلمية في هذه الفترة في المغرب الأوسط

⁽³⁾ عبد الحميد حاجيات، الحياة الفكرية بتلمسان في عهد بني زيان مجلة الأصاله، العدد 26 (قسنطينة الجزائر، مطبعة البعث، جويلية - أوت 1975) ص 457.

⁽⁴⁾ مولاي التوهامي، سلسلة النوات في إبراز شخصيات من علماء وصالحى إقليم توات (الجزائر، المطبعة الحديثة للفنون المطبعية، 2005)، ص 41.

الذي زاره سنة (840هـ/1437م) حيث وصف أثناء زيارته لتلمسان وبعض مدن المغرب الأوسط كوهران والجزائر الصورة التي كانت عليها الحركة العلمية قائلا: «وأدركت فيها (أي تلمسان) كثيرا من العلماء والصلحاء والعباد، والزهاد، وسوق العلم حينئذ نافقة، وتجارة المتعلمين والمعلمين رابحة، والهمم إلى تحصيله مشرفة، وإلى الجد والاجتهاد فيه مرتقية، فأخذت فيها بالاشتغال بالعلم على أكثر الأعيان، المشهود لهم بالفصاحة والبيان»⁽⁵⁾.

كما أورد لنا رحالة آخر زار تلمسان خلال هذه الفترة وهو عبد الباسط بن خليل (ت920هـ/1514م)، حيث التقى ببعض علماء المغرب الأوسط المشهود لهم بالعلم والدين كعبد الرحمن الثعالبي، وعبد الله محمد بن العباس، وقاضي الجماعة محمد العقباني، ومحمد بن مرزوق⁽⁶⁾.

وهذا يدل على تطور الحركة العلمية خلال هذه الفترة، بل إن هذا العصر عد من أوفر إنتاج الجزائر في الميدان الثقافي والعلمي وأخصب عهدها وذلك بسبب على كثرة العلماء الذين نبغوا فيه حيث أن تعدادهم كان يفوق عدد العلماء الذين برزوا في القرون الثلاث اللاحقة⁽⁷⁾.

ولعل من بين الأسباب التي أدت إلى ازدهار الحركة العلمية بالمغرب الأوسط في القرن التاسع الهجري، استمرارية نهضة القرن الثامن الهجري (14م) العلمية، وكذا مواصلة السلاطين الزيانيين عنايتهم بالعلم والعلماء، وأثر الهجرة الأندلسية في تطور الحركة العلمية، وانتشار تيار التصوف

⁽⁵⁾ أبو الحسن القلصادي، رحلة القاصدي (تونس، الشركة التونسية للتوزيع، 1978) ص95.

⁽⁶⁾ عبد الباسط خليل الروض الباسم في حوادث العمر والتراجم تحقيق عمر عبد السلام تدمري (صيدا بيروت، المكتبة العصرية، 2014، ج4) ص27.

⁽⁷⁾ بلعربي خالد، الدولة الزيانية في عهد السلطان يغمراسن بن زيان، دراسة تاريخية وحضارية، (الجزائر، دار الألمعية للنشر والتوزيع 2011). ص312.

وأثره في الحياة العلمية، ثم أثر الحركة التعليمية في ازدهار الحركة العلمية⁽⁸⁾.

المبحث الثاني: تجليات الفكر السياسي عند الشيخ المغيلي في رحلته إلى السودان الغربي.

نظرا للأوضاع السياسية المضطربة التي كانت تعيشها عاصمة الزيانيين في القرن التاسع الهجري الخامس عشر الميلادي، شد الشيخ المغيلي الرحال إلى إقليم توات حيث استقر بمدينة تمنطيط، غير أنه لاحظ سيطرة اليهود على المشهد الاقتصادي هناك، فاحتكروا الصناعات المربحة، وطفخوا وتجبروا وهذا أمام أعين القضاة وأهل العلم⁽⁹⁾. فأصدر فتوى في حقهم تجيز هدم كنائسهم وإجلالهم من إقليم توات، وقد أيد وجهة نظره العالمان الفقهاء محمد بن يوسف السنوسي، ومحمد بن عبد الله التنسي، بينما بقي موقف المجتمع بين مؤيد ورافض له، وبعدهما يئس المغيلي من تغير الأحوال في توات قرر أن يتوجه إلى بلاد السودان الغربي، فوصل هناك وزار عدة أماكن ومناطق فيه داعيا ومصلحا، لكنه استقر وطال مكثه في مملكتي كانو، وسنغاي، والتي سيكون التركيز عليهما؛ لأنهما شكلتا أفق ملامح الفكر السياسي عنده⁽¹⁰⁾.

خلال إقامته في كانو التي مكث فيها المغيلي عشر سنوات، كانت له لقاءات مع سلطانها آنذاك «محمد بن يعقوب رمفا» الذي كان يحكم عرش

⁽⁸⁾ عبد الحميد حاجيات، الحياة الفكرية بتلمسان في عهد بني زيان مجلة الأصالة، العدد 26 (قسنطينة الجزائر، مطبعة البعث، جويلية - أوت 1975) ص 143.

⁽⁹⁾ خير الدين شترة، الشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي - الشيخ المصلح الثائر وفكره الإصلاحي في توات والسودان الغربي (الجزائر منشورات وزارة الشؤون الدينية، 2011) ج 2، ص 43.

⁽¹⁰⁾ فاسم جاخاتي، مفهوم الدولة ورعاياها ومؤسساتها في الفكر السياسي لمحمد بن عبد الكريم المغيلي (الجزائر، منشورات وزارة الشؤون الدينية والأوقاف، 011) ص 93.

مملكة كانوا في الفترة الممتدة من (867-904هـ/1463-1499م)، وقد عين الإمام المغيلي مستشارا له، وولاه القضاء والإفتاء في كانوا، واستطاع المغيلي أن يجمع شتات الأسئلة والأجوبة التي دارت بينهما في شكل رسائل منها: «تاج الدين فيما يجب على الملوك والسلاطين» وأخرى حملت عنوان "فيما يجوز على للحكام من ردع الناس على الحرام"⁽¹¹⁾.

لقد كشفت الرسالة الأولى عن الفكر السياسي عند الإمام المغيلي، من خلال توجيهاته الحكيمة التي أوردتها لسلطان مملكة كانوا، وتضمنت في جوهرها الأسس والمبادئ التي تبني عليها الإمارة منها الصدق وإخلاص النية في حكم الإمارة، فالإمارة عنده ابتلاء من الله، وموقعها بين التقوى والهوى، لذا وجب إخلاص النية والاستعانة بالله والتوكل عليه، كما أمر سلطان كانوا بالعدل في حكم الإمارة، لأنه لا ملك بلا عدل، فالحاكم العادل تزيد في هيئته وتكون مكانته مرموقة بين رعيته. ثم بين له كيفية تنظيم شؤون المملكة حيث طالبه باختيار وزرائه وعماله وقضاته وخدمه وجميع أعوانه من خيار الناس ديناً وعلماً وتقوى وورعاً، ثم أن يسعى إلى جلب المال إلى المملكة لأنه لا سلطان بلا مال لكن عليه أن يتجنب الظلم في جلبه وصرفه"⁽¹²⁾.

هذا ما يتعلق بالرسالة الأولى، أما الرسالة الثانية"فيما يجوز على للحكام من ردع الناس على الحرام" فكانت جواباً عن سؤال السلطان عما يجوز للحاكم شرعاً فعلة لردع الناس عن المعاصي، ويظهر الفكر السياسي عند المغيلي في هذا الجواب في توجيه السلطان إلى عدم التمييز بين الناس في

⁽¹¹⁾ خير الدين شنترة، الشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي المصلح الناصر وفكره الإصلاحية في -توات والسودان الغربي (الجزائر، منشورات وزارة الشؤون الدينية والأوقاف، 2011) ج2، ص457.

⁽¹²⁾ خير الدين شنترة، الشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي المصلح الناصر وفكره الإصلاحية في -توات والسودان الغربي (الجزائر، منشورات وزارة الشؤون الدينية والأوقاف، 2011) ج2، ص460-474.

حكّم الله ورسوله فطلبه من ردع العامة عن سوء الأدب بالأقوال والأفعال، وبين له كذلك أنه لا خصوصية لعالم، ولا عابد، ولا شريف، ولا أمير، «وإن الناس في حكم الله ورسوله سواء فلا تخرج من ذلك عالما ولا عابدا ولا شريفا ولا أميرا وأقم الحق على جميع عباد الله بالتقوى لا بالهوى...»⁽¹³⁾.

بعد أن أنهى المغيلي مهمته الإصلاحية في مملكة كانو، غادرها نحو مملكة سنغاي الإسلامية، فوصل عاصمتها غاوو سنة (904هـ/1499م)، والتقى بسلاطنها الحاج أسكيا محمد الذي اتخذه مستشارا له، ولما استقر به المقام هناك وجه إليه السلطان أسكيا محمد عدة أسئلة متعلقة بالمشاكل السياسية والدينية والاجتماعية التي ظلت تواجهه في حكمه لمملكته، وقد أجابه المغيلي بأجوبة شافية وكافية تنم عن تضلعه في فقه السياسة الشرعية.

يتجلى الفكر السياسي في رسالة المغيلي إلى السلطان أسكيا محمد والموسومة بـ: «أسئلة أسكيا وأجوبة المغيلي» في صعوبة تحمل مسؤولية الدولة وهو القائل «فإن الإمارة خلافة من الله ونيابة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فما أعظم فضلها وأثقل حملها»⁽¹⁴⁾. وحدد وضع الحاكم ومسؤولياته: «إنما أنت مملوك لا تملك شيئا، وقد رفعتك مولاك على كثير من عباده لتصلح لهم دينهم ودينهم لا لتكون سيدهم ومولاهم، وأنت في جميع مملكتك راع لا مالك، وكل راع مسؤول عن رعيته، فانظر لنفسك قبل الفوات، فإنه لا بد لك من الموت»⁽¹⁵⁾، ثم طالبه بحسن اختيار الوزراء

⁽¹³⁾ خير الدين شترة، الشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي المصلح الثائر وفكره الإصلاحي في -توات والسودان الغربي (الجزائر، منشورات وزارة الشؤون الدينية والأوقاف، 2011) ج2، ص477.

⁽¹⁴⁾ محمد بن عبد الكريم المغيلي، تاج الدين فيما يجب على الملوك والسلطين، تحقيق محمد خير رمضان يوسف(دار ابن حزم، بيروت 1994)ص15.

⁽¹⁵⁾ محمد بن عبد الكريم المغيلي، أسئلة الأسقيا وأجوبة المغيلي تقديم وتحقيق عبد القادر زبايدية (الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1974، ص 22، 23.

والأعوان والعمال ويتجلى ذلك في قوله: « عليك أن تبعد عنك أهل الشر وأن تقرب منك أهل الخير، لأن الغالب على الإنسان التأنس بقرين والميل إلى طبعه وتزيينه"، والأخذ بنصائح أهل العلم ومشاورتهم، وهذا ظاهر في قوله: "عليك أن تسأل أهل الذكر عن كل ما لا تعلم حكمه من تصرفاتك كلها، لتحكم بما أنزل الله في كل ما حملك منها، وأهل الذكر من اجتمع فيه وصفان: العلم والتقوى؛ لأن بالعلم يعرف الرشد من الغي، وبالتقوى يأمر بالرشد وينهى عن الغي"⁽¹⁶⁾. كما أمر السلطان أسكيا محمد أن يطلب من بعض المسلمين المنشقين مبايعته والدخول في طاعته، ولو اقتضى الأمر محاربتهم؛ لأنه لا يجوز البيعة لخليفتين في آن واحد، طبقاً لقوله صلى الله عليه وسلم: «إذا بوع لخليفتين فاقتلوا الأخير منهما»⁽¹⁷⁾. إضافة إلى ذلك طلب منه إزالة ظلم الأمراء واستبدال الظلمة منهم بغيرهم من العلماء الأتقياء. وأن يقيم العدل.

المبحث الثالث: المقومات الأساسية للدولة السلطانية في الفكر السياسي عند الشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي:

أولاً: لابد من ترتيب نظام الدولة السلطانية:

يدرك المغيلي أن ترتيب أمور الدولة من أولويات الحاكم، فهو يحتاج إلى عدد من الناس اشتهروا بحزمهم وحكمتهم البالغة لاستشاراتهم في الأمور الحساسة للدولة، وقد أعطى المغيلي أهمية كبيرة للوزارة حيث جعلها من الوظائف الأساسية في الحكم، شريطة أن يخشى الوزير الله حتى يكون العون والسند الحقيقي للأمير الذي يلجأ إليه في الأمور المستعصية حلها، والوزير أجدر أن يكون أول نواب الحاكم، لأنه عوناً في سياسة الدولة، وفي

⁽¹⁶⁾ محمد بن عبد الكريم المغيلي، أسئلة الأسقيا وأجوبة المغيلي تقديم وتحقيق عبد القادر زبايدية (الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1974، ص 17، 18.

⁽¹⁷⁾ محمد بن عبد الكريم المغيلي، تاج الدين فيما يجب على الملوك والسلطين، تحقيق محمد خير رمضان يوسف (دار ابن حزم، بيروت، 1994) ص 23.

حمل أعباء ومسؤوليات الدولة في أيام السلم والحرب، وبذلك تكون نصيحته شافية ومشورته صائبة ومن خلاله يتمكن الحاكم من معرفة حقيقة رعيته أوضاعهم، يقول المغيلي: ينبغي أن يكون الحاكم من الأعوان ما يرتب به نظام مملكته...» فمن ذلك خدام بالحضرة يتصرفون، وعقلاء يُشيرون، وأمناء يقبضون ويصرفون، وكتّاب وحساب يحفظون، ورسل وجُساس، وحفظة وعسس، و...علماء ثقات يرشدون، وأئمة فضل يجمعون، وعدول يشهدون، ومحتسبون يكشفون ويصلحون، وأرباب شرطة يزجرون، وشفعاء يشفعون، وقضاة ثقات يفصلون، ورجال معظمون لوجه الله، وعمّال يحبون حقّ الله، ووزراء لا يخشون إلا الله...»⁽¹⁸⁾.

ثانياً: إقامة العدل:

إنَّ العدلَ مُهمٌّ جداً في حياة النَّاسِ، وفي مستقبل الأمم ونهضتها؛ فبإقامته يتحقَّق كلُّ خيرٍ ويفقدُه تحلُّلاتُ والشُّرور والآثام ويعتبر العدل نقطة هامة جداً لنيل الحاكم لشرعية سلطته.

إنَّ العاملَ الأساسَ عند الإمام المغيلي رحمه الله تعالى في نمو الدَّولة وازدهارها هو العدلُ فإذا كانَ السلطان عادلاً أمنت الرِّعية وأطاعت أمره واجتنبت نهيه، وعمرت الدَّولة، وقويت شوكتُها ورسخ حكمُها، وطالَ أمدُها، وسرت روح المحبَّة والوئام والانسجام والاستقرار النَّفسي بين الرِّاعي والرِّعيَّة، وفي المقابل إذا كان ظالماً خربت البلاد، وضعفت الدَّولة، وتقوَّض بنيانها، وتزعزعت أركانُها⁽¹⁹⁾.

⁽¹⁸⁾ محمد بن عبد الكريم المغيلي، تاج الدين فيما يجب على الملوك والسلطين، تحقيق

محمد خير رمضان يوسف(دار ابن حزم، بيروت، 1994)ص95.

⁽¹⁹⁾ قاسم جاخاتي، مفهوم الدولة ورعاياها ومؤسساتها في الفكر السياسي لمحمد بن

عبد الكريم المغيلي(الجزائر، منشورات وزارة الشؤون الدينية والأوقاف، 2011)

ص108.

وقد خص المغيلي العدل بباب مستقل في رسالة الإمارة وجعله من واجبات السلطان، بل بمثابة رجل الدولة، وتنبع دقة مفهوم العدل لديه من استعارته التعريف النبوي للعدل، حيث ينبغي أن يؤتى كل ذي حق حقه من نفسه وغيره. وبالتالي فالعدل هنا مفهوم متعديّ، أي أنه ملزم للنفس وللغير. فالحاكم عند المغيلي يجب أن يحسن إلى نفسه، وأن يعدل مع غيره ونفسه⁽²⁰⁾.

وفي أصول العدل التي تحدد العلاقة بين الحاكم والرعية، نجد أن المغيلي كان متأثراً بما وضعه الإمام الغزالي، ومن هذه الأصول أن يعرف الحاكم قدر ولايته ويعلم خطرهما، وذلك أن الولاية نعمة من الله عز وجل. وقد وضع على عاتق الدولة مسؤولية إرساء قواعد العدالة التامة والنزاهة في الأحكام حتى يشعر المتخاصمان بأنهما متساويان حقاً، وأن لا يقبل من الشهود إلا من كان عدلاً وإن تعذرت العدالة فعليه أن يراعي أمثلتهم في الصدق.

إن ما ذكره المغيلي وغيره من أهمية العدل في ترسيخ الحكم وتثبيتته يعدُّ قاعدةً عظيمةً وحكمةً قديمةً لا ينبغي المحيدُّ عنها وخصوصاً في زماننا، فأنظمة الحكم مهما كانت قويّة، إذا غابَ فيها العدلُ، وشاعَ الظلمُ، ستسقطُ في ليلٍ معدودة، وتنهأُ انهياراً كبيراً، فمن أسَّسَ بنيانه على الظلم والفساد، والجور بالعباد، سيأتي اللهبنيانه من القواعد، ويأذن بزوال حكمه، فالظالمون ضلَّ سعيهم في الحياة الدُّنيا، وباؤوا بالخسران الأكيد، وفي الآخرة لهم عذابٌ شديدٌ، وقد صدق الإمامُ الماورديُّ رحمه الله تعالى عندما قال: "واعلم أنّك لن تستغزِرَ موادك إلا بالعدل والإحسان، ولن تستندزرها بمثل الجور والإساءة؛ لأنَّ العدلَ استثمارٌ دائمٌ، والجورُ استئصالٌ منقطعٌ، وقد قيلَ في منثور الحكم: " بالعدل والإنصاف، تكونُ مدّة الائتلاف"⁽²¹⁾.

(20) قاسم جاخاتي، (الجزائر 2011)، ص 110.

(21) محمد بن عبد الكريم المغيلي، تاج الدين فيما يجب على الملوك والسلطين، تحقيق محمد خير رمضان يوسف (دار ابن حزم، بيروت، 1994) ص 41.

وضع الإمام المغيلي رحمه الله تعالى مجموعةً من القواعد الخالدة، تبنى منظومةً من العدل رائدة، تكون للسلطان والحاكم قائدة، صالحةً لكل زمانٍ ومكانٍ؛ فيها لمن اقتفى أثرها الخيرُ والسعادةُ والأمانُ، ومن حادَ عنها ابتُلي بالذل والصغارِ والهوان؛ فيجدر بكل من ولي أمر الناس أن يعمل بها، ويتخذها نبراساً يسيرُ على هداها، وتلك هي القواعدُ:

1- معرفة السلطان قدر الولاية وتحمل مسؤوليتها: فالإمارة خلافة من الله ونيابة عن الرسول صلى الله عليه وسلم فما أعظم فضلها وأثقل حملها. وهو القائل للسلطان أسكيا محمد "إنما أنت مملوك لا تملك شيئاً وقد رفعت مولاك على كثير من عبادته لتصلح لهم دينهم ودنياهم لا لتكون سيدهم ومولاهم، وأنت في جميع مملكتك راع لا مالك وكل راع مسئول عن رعيته"؛⁽²²⁾.

إنَّ الولاية نعمةٌ عظيمةٌ بلا شك، فالسلطان خليفةُ الأنبياء في إصلاح الخلائق، عليه أن يتحمل كامل مسؤولياته في تسييرها.

2- أن يكون السلطان قائماً على أمور الرعية: قال النبيُّ صلى الله عليه وسلم "خير الذين تحبونهم ويحبونكم ويصلون عليكم وتصلون عليهم وشرار أئمتكم الَّذِينَ تُبْغِضُونَهُمْ وَيُبْغِضُونَكُمْ وَتَلْعَنُونَهُمْ وَيَلْعَنُونَكُمْ"⁽²³⁾.

يخبر النبي صلى الله عليه وسلم أبناء أُمَّته بخبرٍ فيه صلاحهم وسعادتهم ونجاتهم بقوله: «إِنَّ خِيَارَ وَلَا تَكُم وَأَثَمَتِكُم الَّذِينَ يَعْدِلُونَ فِي الْحُكْمِ، فَتَنْعَقِدَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمُ الْمَوَدَّةَ وَالْمَحَبَّةَ؛ فَتَحْبُوبُهُمْ وَيَحْبُوبُونَكُمْ مَا دَمْتُمْ عَلَى قَيْدِ الْحَيَاةِ، فَإِذَا جَاءَ الْمَوْتُ يَتَرَحَّمُ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ وَيَذْكُرُ صَاحِبَهُ بِخَيْرٍ، وَشَرَارُ الْأَثَمَةِ الَّذِينَ تَبْغِضُونَهُمْ وَيُبْغِضُونَكُمْ وَتَلْعَنُونَهُمْ وَيَلْعَنُونَكُمْ؛ أَي: تَدْعُونَ عَلَيْهِمْ

⁽²²⁾ محمد بن عبد الكريم المغيلي، أسئلة الأسقيا وأجوبة المغيلي تقديم وتحقيق عبد القادر زبايدية الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر (1974) ص 22.

⁽²³⁾ أبو زكرياء يحيى بن شرف النووي، رياض الصالحين، تحقيق شعيب الأرنؤوط (بيروت لبنان مؤسسة الرسالة الطبعة الثالثة 1419هـ-1998م) ص 646-649.

ويدعون عليكم أو تطلبون البعد عنهم؛ لكثرة شرهم، ويطلبون البعد عنكم؛
لقلة خيركم...»⁽²⁴⁾.

دعا المغيلي السلطان أسكيا محمد إلى أن تكون العلاقة بينه وبين رعيته
رفيعة من الجودة والإخلاص في قوله: «...وهمك كله في مصالح خلق الله ما
ولاك عليهم لتصلح لهم دينهم ودنياهم...»⁽²⁵⁾.

3- استعمال اللطف والرفق في الأمر كله، فالرفق ما كان في شيء إلا
زانه، وما نزع من شيء إلا شانه، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم
«اللهم من ولي من أمر أمتي شيئا فشق عليهم، فاشقق عليه، ومن ولي من أمر
أمتي شيئا، فرقق بهم، فأرفق به»⁽²⁶⁾.

إنَّ الرفق من أفضل صفات الملك وأحمدِ خلائقه، ويحقق للملك فوائد
ومكاسب لا يحققها العنف، فالرعية عندما تعامل بالرفق تزول أحقادها
ويسهل قيادها، والعكس صحيح، فعندما يكون العنف تنمو الأحقاد وتفسد
البلاد والعباد، وقد كتب المغيلي للسلطان أسكيا محمد قائلاً له في هذا
الصدر «وقد رفعت مولك على كثير من عباده لتصلح لهم دينهم ودنياهم لا
لتكون سيدهم ومولاهم...»⁽²⁷⁾.

ثالثاً: جباية المال في الدولة السلطانية:

أولى المفكرّون المسلمون اهتماماً كبيراً بقضايا المال، عن طريق
مجموعة لا بأس به من المؤلفات التي تخصصت في موضوعه انطلاقاً من

⁽²⁴⁾ محمد بن عبد الكريم المغيلي، أسئلة الأسقيا وأجوبة المغيلي تقديم وتحقيق عبد
القادر زبايدية الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر (1974) ص 83.

⁽²⁵⁾ المغيلي، (الجزائر 1974) ص 85.

⁽²⁶⁾ ابن عثيمين، ، فتح ذي الجلال والإكرام بشرح بلوغ المرام، (مكة المكرمة. المملكة
العربية السعودية دار ابن الجوزي. 1430هـ-2009م) ص 1213..

⁽²⁷⁾ محمد بن عبد الكريم المغيلي، أسئلة الأسقيا وأجوبة المغيلي تقديم وتحقيق عبد
القادر زبايدية الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر (1974) ص 83.

القرن الثّاني الهجري، أغلبها كان مُندرجا في باب السّياسة الشّرعية أو الأحكام السّلطانية ممّا يعني أنّ مجال اهتمام أصحابها كان فقهيّا محضاً، كما كان لهذا الموضوع حظّه من الدراسة والاهتمام عند كُتّاب الأدب السّلطاني، والدّين انصرفوا في مُعالجة المسألة المالية في علاقتها بالملك، باعتبار المالكين أساسياً أو مقوماً من مقومات النّظام السّلطاني، فما هي نظرة المغيلي في جباية الأموال ؟

اعتبر المغيلي أنّ المال أحد مقومات الدولة السّلطانية فبالمال تستمد الدولة قوتها وتستقر السلطة فيها، وقد عالج موضوع المال في باين رئيسيين في رسالته في شؤون الإمارة والتي وجه فيها النصّح إلى سلطان "كانو" ومن خلاله إلى بقية سلاطين السودان الغربي، فالمال هو قوة السلطان وعمارة المملكة، لقاحه الأمن، ونتاجه العدل، وهو حصن السلطان ومادة ملكه، وقد عد العلامة المغيلي أنواع الأموال التي أحل للأمرء قبضها وصرفها وهي:

- أموال أباحها الله تعالى: ومنها يجب على كل أمير أن يجتبي أموال دولته، ويجمعها ثم يصرفها ومصادرها عند المغيلي هي: "زكاة العين والحرث والماشية وزكاة المعدن وزكاة الفطر وخمس الركاز والمعادن وخمس الغنيمة وأموال الجزية والصلح وما يؤخذ من تجار أهلها وتركته لاوارث لها، ومال أفاءه الله به من أموال أهل الحرب بلا حرب"⁽²⁸⁾.

وقد دعا المغيلي أبناء الأمة إلى دفع زكاتهم للسلطان إذا تأكّدوا من أنه سيصرفها بعدالة "فإذا كان الأمير عادلاً في صرف مال الله وجب على كل من بيده شيء فيه زكاة عين أو غيرها أن يدفعه له ليصرفه".

- أموال حرمها الله على الأمرء: كأخذ المال على ولاية القضاء فهو حرام بإجماع المسلمين وذريعة لإفساد الدين وفتح أبواب الرشاوى وقهر المساكين...»... ومن أموال الحرام الرشوة وهي حرام بالإجماع، فلا يجوز

(28) المغيلي، الجزائر (1974) ص47.

للسلطان ولغيره من القضاة والعمال أن يأخذوا من أحد الخصمين ولا من كليهما، فإذا دخلت الرشوة من باب خرجت الأمانة من الكوة....»⁽²⁹⁾.

ومن الأموال المحرمة كذلك أموال المكس، وهي جباية ليس لها أصل في الشرع، وهو أخذ الصدقة على غير حقها، وكذلك أموال العشر أو غيره من أرباب الحقوق أو التركات، وهو حرام بإجماع المسلمين.

وأكد المغيلي في مسألة جمع الأموال الحلال، أن ليس من حق الدولة أن يفتش ديار المواطنين وتهتك أستارهم لجباية زكاة عين تعتقد أن من واجهم أن يدفعوه، لأن مسؤولية دفع هذا النوع من الزكاة منوطة على عاتقهم وحدهم، باستثناء الأشرار الذين قد يمتنعون عن دفعها فتتخذ السلطات نتيجة لذلك تدابير رادعة ضدهم⁽³⁰⁾.

وقد حث المغيلي مسؤولي الدولة على عدم اتخاذ إجراءات تعسفية في طريق جبايتهم للزكاة، وعلى تجنب كل تصرف ظالم أو جائر، وعلى عدم تقبل رشوة من أحد أو دفعها لأي فرد أو جماعة وعلى عدم تقبل هدية أو فرض عقوبة مالية أو حقوق مادية لا يقرها القانون.

أما مصارف أموال الدولة فأعلن المغيلي أنه "يجب على كل من بيده شيء من مال الله ألا يصرفه إلا في المصارف التي شرع الله استنادا لقوله تعالى: ﴿وَكُتِبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنْ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصًا ۚ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ ۗ وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ سورة المائدة، الآية 45).

وقد وضع المغيلي فلسفته في إدارة الشؤون المالية للدولة أن: «الكرم دوام الملك والبخل والتبذير خرابه، فالكرم بذل ما يحتاج إليه عند الحاجة لمستحقه، بقدر الطاقة فمن خرج عن هذا الحد، فقد تعدى وظلم ولا حظَّ

⁽²⁹⁾ (المغيلي، الجزائر 1974) ص 47.

⁽³⁰⁾ (المغيلي، بيروت 1994) ص 93.

له من الكرم، وهو إما بخيل، أو مبذر في أرزاق بيت المال، وكل منها خراب للمملكة على كل حال، فإذا كان البخل أو التبذير من جيلة السلطان فعلياً أن يستنوب في عطايا مملكته من ثقات خاصة أهلاً، فمال الله الذي جعله الله رزقا لعباده قسمان: قسم لأصناف معينة، وقسم يصرفه الإمام في المصالح، فالأول: هو زكاة العين والحراث والماشية وزكاة المعدن، وزكاة الفطر، أما الثاني: أي الفياء كخمس الركاز والمعادن وخمس الغنيمة وما يؤخذ من أهل الذمة وأهل الصلح، وخراج الأرضين، وتركة لا وارث لها، وما أفاء الله به من أموال أهل الحرب بلا حرب. فقد سمح المغيلي للإمام بحق التصرف في شأنه، وطلب منه أن يصرفه بالتقوى لا بالهوى، ويعطي الأولوية في ذلك لمصالح المسلمين، وفي مقدمتهم الأئمة والعلماء والقضاة ومن يلهم ممن يكرسون أوقاتهم في خدمة مصالح المسلمين⁽³¹⁾.

رابعا: الجيش ودوره في الحفاظ على الدولة السلطانية:

يعد الجيش كذلك إحدى المقومات الرئيسية في الدولة السلطانية عند الشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي فهو بمثابة "حصن حصين مكفى بالخزائن، وخيل خديدة، وظهور شديدة، ورجال شجعان، حاضرة في كل أوان وعدد كثيرة متينة"⁽³²⁾.

وقد ربط المغيلي الجيش بموضوع السلطان، وجعله من بين أبرز المحاور التي تدلّ على حُسن سياسته، وتدييره في مُلكه، حيث عدّه من قواعد المُلك، وأركانه التي يحتاج إليها المُلك في قوام سلطانه، فلا غنى لسلطان ولا دولة عن الجُند، فالجيش يحوط الرعيّة، ويقسم المغيلي جيش الإمارة إلى قسمين: قسم خاص بحراسة وحماية الأمير ورجال دولته، لا تفارقه ليلا ولا نهارا، وهم أكثر الجند موالاته وأمانة وشجاعة، وفي هذا الصدد نجدّه في وصيته لأمير كانوا يقول: "أدن بحماك في كل حين وأن عصبة من

(31) ياسين شبايي، جامعة وهران 2006-2007)ص74.

(32) المغيلي، بيروت 1994)ص26.

أمراء شجعان، عساس ورماة ورجال وفرسان، وليس وقت الخوف كوقت الأمان، واكتم سرّك عن غيرك حتى تتمكن من أمرك، وخذ حذرک من النمامين ولو كانوا أكثر من سبعين، ولا تغتر بظواهر الرجال وكن كيساً فطنا في كل حال»⁽³³⁾.

وأكد المغيلي على أن الدولة محاطة دائماً بمخاطر متينة، الأمر الذي يجب على السلطان أن يكون دائماً على أهبة الاستعداد متخذاً إجراءات احتياطية أمنية تفادياً لكل طارئ خاصة في حالة الحرب، وطالب من السلطان أن يظهر القوة والجلد، وأن يدخل المعركة بشجاعة وحزم، "فالملك بالسيف لا بالتسويق وهل يندفع الخوف إلا بالتخويف"، ثم طالب السلطان أن يتخذ جميع التدابير الأمنية اللازمة «ولا يقرب من طعامك وشرابك وفرادك وثيابك إلا أقرب أحبابك ولا تفارق الدرع والسلاح ولا يقرب منك إلا أهل الأمانة والصلاح ولا تنم بغير مكان أمين وغير مرقدك في كل حين واترك زيک المعروف في كل مكان مخوف..»⁽³⁴⁾.

وينصح المغيلي السلطان كذلك إلى إنشاء جيش قوي مجهز بمختلف الأسلحة والعتاد الحربي فيقول بأن أحق الأمور بالنفقة من أموال الإمارة هي الجيش وعدته، كما جعل ترتيب الجيش من حسن ترتيب جيش الإمارة⁽³⁵⁾، ولهذا يشير المغيلي إلى ضرورة تولية قادة جيوش أكفاء يعرفون خبايا الحروب، ويحسنون ترتيب الجيش في المعارك ما بين فرسان ومشاة ورماة، وإلى اختيار أحسن البلغاء والخطباء لإيقاظ الهمم العالية وبث الحماس في الجيش.

ومن سياسة الحروب إقامة الحصون المنيعة لتكون حاجزاً على رد الأعداء وصددهم، وتجهيز القوات المسلحة بالخيل والرمح والنبال وغير ذلك من أدوات وآلات الحرب المعروفة في تلك الفترة.

⁽³³⁾ (المغيلي، رسالة الإمارة،) ورقة 2 ظ..

⁽³⁴⁾ (المغيلي، رسالة الإمارة،) ورقة 4 ظ..

⁽³⁵⁾ (قاسم جاخاتي، الجزائر 2011) ص 107.

خامسا: أهمية الأخلاق كأحد مقومات الدولة السلطانية:

إنَّ الاتِّجاهَ الأخلاقي الذي عولت عليه النَّصوصُ السُّلطانية في تنظيرها للسلطة الحاكمة مبني على جعل السلطان شخصا متميزا في كلِّ شيء، مُنفردا عن رعيته، وحتَّى عنحاشيته، وقد اعتبر المغيلي أخلاق السلطان وهيبته وأدابه ذات أهمية كبرى في مسيرة حكمه، وحض في رسالته لسلطان كانو في باب شؤون الإمارة على أخلاق السلطان وهي حب الخير، وبغض الشر، وعدم التزين بالذهب والفضة والحريز، والوقار، والسكينة، وغض البصر، وفي هذا الصدد يقول: «فيما يجب على الأمر من تحسين الهيئة في مجلسه بإظهار حب الخير وأهله، وبغض الشر وأهله، وفي لباسه أن يلبس المباح للرجل غير متشبه بالنساء، ولا مفسد لبيت المال، ولا يتزين بالذهب والفضة والحريز، وفي جلوسه يجب أن يجلس بالوقار والسكينة من غير عبث ولا قهقهة مع غض البصر والإقبال على الرعية بالحق...»⁽³⁶⁾.

ومن منطلق أنَّه ينبغي للملك أن يكون مُتصفا بكلِّ القيم النبيلة، فقد اهتمَّ المغيلي بصناعة السلطان من الناحية الأخلاقية إلى درجة جعلها مقوما "أساسيا للسياسة وأحكامها"، حيث يتطلَّب من خُدَّام السلطان، ومُقرِّبيه ومصاحبيه أن يُدركوا أخلاق السلطان، ويأخذوا منها في تعاملهم، ويتحلَّوا بها ويتجنَّبوا ضدها.

ويمكن أن نقسم الأخلاق عند المغيلي إلى أخلاق تخصَّ السلوك الشَّخصي للسلطان من: مآكل، وملبس، ومبيت. وأخلاق تخصَّ سلوكه مع حاشيته من: اختيار، ورقابة، وتغافل. وأخلاق تخصَّ سلوكه مع رعيته من: عدل، ورفق، وحلم، وعفو. وأخلاق تخصَّ سلوكه مع أُنْداده من السُّلاطين زمن السلم، أو الحرب من: دهاء، وشجاعة، وفراسة.

⁽³⁶⁾ (المغيلي، بيروت 1994) ص35.

سادسا: توفر الأمن:

يعتبر الأمن في المجتمع أكبر نعمة قد منَّ الله بها علينا، وحتى تتحقق الغاية التي من أجلها خلق الله البشر لا بدَّ من وجود الأمن للفرد خاصة، وللمجتمع عامة، فلا يوجد استقرار للفرد في المجتمع إذا كان هذا المجتمع لا يتوفر به الأمن والأمان.

أشار المغيلي من خلال رسائله السياسية إلى ضرورة توفر الأمن في حياة الفرد والمجتمع فاعتبره مقوما أساسيا في الدولة السلطانية، بل اعتبره أساس تحقيق أي نهضة مجتمعية وأن أي اختلال في الأمن يؤدي إلى حدوث الفوضى والخوف والاضطراب، ولهذا في نظره وجب المحافظة على الأمن والاستقرار.

ونظرا لأهمية الأمن وضروره وجوده في المجتمع كتب المغيلي لأمير كانو في رسالته الموسومة ب«تاج الدين في ما يجب على الملوك والسلطين» «فعلى كل أمير أن يرتب نظام مملكته لسكونه وحركته على ما يتمكن به من صلاح رعيته... فمن ذلك... أرباب شرطة يزجرون...». وقال موجها الأمير: «ولا تفارق الدرع والسلاح... ولا تنم بغير مكان أمين وغير مرقدك في كل حين...» يذكر الشيخ المغيلي في هذه النصوص الحكام بالأمور التي تسهم في حفظ الأمن والاستقرار والإجراءات العملية الكفيلة بسد ثغور الأمة وحمايتها من الأعداء.⁽³⁷⁾

سابعا: لا بد من تطبيق العقوبات والحدود في الدولة السلطانية:

إن الغاية من العقاب في الشريعة الإسلامية هو حفظ نظام الحياة والمصالح الكبرى للمجتمع، وأنها رادعة وزاجرة للجنة من معاودة جرائمهم، وأن في تطبيقها تحقيقا لمبدأ العدالة وأخذ الحق من الجاني - دون تعد -

⁽³⁷⁾ (المغيلي، بيروت 1994) ص 35.

شفاءً لغيظ أولياء المجني عليه، ومنعاً لبروز عادة الثأر التي أخذت تطل برأسها، وبما تحمله من ظلم، وقد وضع الشارع قواعد أساسية يجب مراعاتها في الروادع والعقوبات، وقد أجمل المغيلي بعضها في رسالته إلى أمير كانو عندما كتب له عما يجوز للحاكم شرعاً فعله لردع الناس عن المعاصي، منها درء المفسد وجلب المصالح بحسب الإمكان « فلا بد من ردع المفسد الدينية والدنيوية بالمقامع الشرعية حسب الطاقة البشرية، ولا يجوز أن يترك مفسد على فساده مع إمكان ردعه عنه، أو لعنه، أو حبسه، أو ضربه أو صلبه، أو قتله، أو نفيه، أو نهب ماله، أو حرق بيته، أو غير ذلك من العقوبات الشرعية...»⁽³⁸⁾.

والعقوبات عند المغيلي أنواع محددة بنص شرعي، كعقوبة شرب الخمر، وأكل الميتة والدم، وكشف العورة، والفطر في شهر رمضان، والشرك بالله، والزنا، وفي هذا الصدد يقول في رسالته: «وأمنع جميع أهل بلادك عن جميع أنواع الشرك، وكشف العورة، وشرب الخمر، وأكل الميتة وغير ذلك من المحرمات وأمنع كفار بلادك من أن يظهروا ذلك بين المسلمين في الأسواق والمنازل، وغيرها من المحلات فلو لم يتركوا إظهار شرك أو خمر أو فطر في شهر رمضان أو زنا أو غير ذلك من المنكرات وأنواع ضلالهم لكان ذلك ذريعة لأن يفعل مثلهم ضعفة العقول من العامة...»⁽³⁹⁾.

وقد طالب المغيلي أمير كانو أن يطبق العقوبات على جميع الناس لأنها حق من حقوق الله تعالى ورسوله لا يجوز تركها أو التخفيف منها أو إلغائها أو تعويضها بعقوبة أخرى. وفي أساليب التحقيق مع المتهمين وتطبيق الشرع ميز المغيلي بين متهم عرف عنه الصدق والنزاهة وبين متهم بارتكاب الجرائم ومتهم آخر لا يُعرف عنه لا هذا ولا ذاك، فالنوع الأول لا يعاقب، أما الثاني فهو

⁽³⁸⁾ "المغيلي، بيروت 1994) ص29.

⁽³⁹⁾ (المغيلي، بيروت 1994) ص18.

مستحق للعقاب، فيُحبَس ويُهدَّد ويُجلَد ولكن مع مراعاة نوع الجريمة وخطورتها. أما الثالث فيجب التقصي والتمحيص في حالته، فإذا تبين أنه من أهل الخير، حكم له بالبراءة وإن كان من أهل الشر عوقب.

ويأمر الإمام المغيلي أمير كانوا بوجوب تطبيق الشرع على كل الناس «فلا تخرج من ذلك عالما ولا عابدا ولا شريفا ولا أميرا وأقم حق الله على جميع عبادته بالتقوى لا بالهوى ومن عرضك في شيء فعاقبه بما فيه ردع له ومثله...»⁽⁴⁰⁾.

الخاتمة:

خلصت هذه الدراسة بمجموعة من النتائج يمكن تلخيصها في مجموعة من النقاط:

- إنَّ الإمام المغيلي كان أكثر تأثرا بأحداث عصره، فأفكاره السياسية التي حملها في رسائله كلها جاءت لتخدم متطلبات العصر وذلك بالرجوع إلى تعاليم الدين السمحة من خلال العدل في جميع الأحكام السلطانية. وحسن اختيار العمال والأعوان.

- يعدُّ السُّلطانُ عند الإمام المغيلي خليفة الأنبياء في إصلاح الخلائق، ودعوتهم إلى عبادة الرَّحمن، ولا منزلةً فوقَ السلطان العادلِ إلا منزلة النبي المرسل أو الملك المقرب.

- العامل الأساسُ عند الإمام المغيلي في نمو الدولة وازدهارها هو العدل، فبإقامته يتحقَّقُ كلُّ خيرٍ، ويفقدُه تحلُّ الآفاتِ والشُّرور، وتخرِبُ الأمم والبلدان، ويشقى الإنسان.

⁽⁴⁰⁾ (المغيلي، بيروت 1994) ص24.

- حصر المغيلي مقومات الدولة السلطانية في وجوبية ترتيب الدولة وتنظيمها، ولا يكون ذلك إلا باختيار الحاكم لأناس أكفاء ونزهاء يسيرون معه دواليب السلطة. وتفقدته لرعيته وعماله.

- وجوب إقامة العقوبات والحدود التي تردع المخالفين والزائغين عن الصواب وتعيد للناس حقوقهم المنتهكة.

- حسن إدارة الأموال بداية بجبايتها من مصادرها المشروعة وانتهاء بتصريفها في وجوهها المستحقة.

- ضرورة أخلقة السلطة السياسية عند المغيلي بل جعلها مقوما "أساسيا للسياسة وأحكامها.

- قواعد العدل والإنصاف عند الإمام المغيلي معرفة الحاكم قدّر الولاية وخطورة أمرها، والتقرب من العلماء الصالحين الناصحين وسماع آرائهم، ورفع ظلم الولاة عن الشعب، وعدم التكبر والغضب، وعدم الرضا للرعيّة ما لا يرضاه لنفسه، وقضاء حوائج الناس بسرعة، وعدم تحقيق أرباب الحوائج، وعدم الاشتغال بالشّهوات، أو استعمال اللطف والرفق في الأمر كله، والاجتهاد في طلب رضا الرعيّة بموافقة الشرع.

التوصيات:

- يوصي الباحثُ بتشكيلِ لجانٍ علميّةٍ على مستوى العالم الإسلامي لدراسة وبحثِ أعلامِ الفكرِ الإسلاميّ الذين تعدّدتِ جوانبُ نبوغهم وتنوّعتِ ثقافتهم؛ وفي طليعتهم الإمامُ المغيلي رحمه الله تعالى.

-إنشاءُ مراكز علميّةٍ تُعنى ببيان المفاهيم العامّة عند الأئمّة، ونشر مبادئهم، وعرض أفكارهم وآرائهم؛ لتخريجِ طَلابٍ يتمتّعون بالوعي والاتزان، والذِّكاء وقوّة الحجّة وسعة الأفق.

- العمل على تدريس الأفكار السياسية التي جاء بها الإمام محمد بن عبد الكريم المغيلي في أقسام العلوم السياسية والتاريخ بالجامعات الإفريقية والعربية على حد السواء.

- يقترح الباحث كذلك إجراء البحوث التالية:

* البعدُ الأخلاقيُّ للفكرِ السياسي الإسلامي عند أبي الإمام محمد بن عبد الكريم المغيلي.

* قواعد العدل عند الإمام محمد بن عبد الكريم المغيلي من خلال رسائله.

وأخيرًا أسألُ الله سبحانه الله وتعالى أن يتقبَّلَ صالحَ هذا العمل، ويعفوَ عمَّا حواه من خطأٍ وزللٍ؛ إنّه أكرم من أعطى وأجود من سئَل وأخرُ دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وصلى الله على النَّبي الأُمي الخاتم سيدنا محمّدٍ وعلى آله وصحبه أجمعين.

المصادر والمراجع:

1. بلعربي خالد، الدولة الزيانية في عهد السلطان يغمراسن بن زيان، دراسة تاريخية وحضارية، دار الأملية للنشر والتوزيع، الجزائر 2011.
2. خير الدين شترة، الشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي - المصلح الثائر وفكره الإصلاحي في توات والسودان الغربي ج2 منشورات وزارة الشؤون الدينية والأوقاف الجزائر 2011
3. مولاي بلحميسي، نهاية دولة بني زيان، "مجلة الأصالة"، العدد 26، جويلية - أوت 1975.
4. صالح عباد، الجزائر خلال الحكم التركي 1514-1830، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر 2005..
5. عبد الحميد حاجيات، الحياة الفكرية بتلمسان في عهد بني زيان، مجلة الأصالة، العدد 26 جويلية - أوت 1975، مطبعة البعث، قسنطينة الجزائر
6. قاسم جاخاتي، مفهوم الدولة ورعاياها ومؤسساتها في الفكر السياسي لمحمد بن عبد الكريم المغيلي، ضمن أعمال ملتقى دولي بتلمسان، منشورات وزارة الشؤون الدينية والأوقاف الجزائر 2011.
7. محمد بن عبد الكريم المغيلي، تاج الدين فيما يجب على الملوك والسلاطين، تحقيق محمد خير رمضان يوسف بيروت 1994.
8. محمد بن عبد الكريم المغيلي، أسئلة الأسقيا وأجوبة المغيلي تقديم وتحقيق عبد القادر زبايدية الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر 1974.
9. مولاي التوهامي، سلسلة النوات في إبراز شخصيات من علماء وصالحي اقليم توات المطبعة الحديثة للفنون المطبعية، الجزائر 2005.
10. ياسين شبايي، الفكر السياسي عند الشيخ المغيلي التلمساني ودعوته الإصلاحية بتوات والسودان الغربي، كلية العلوم الإنسانية والحضارة الإسلامية، جامعة وهران 2006-2007.

السياسة الشرعية في فكر الإمام المغيلي: قراءة في مضمون الرسائل المرسلت لسلطان كانو وسنغاي

الأستاذ المساعد الدكتور: محمد مرسلين محمد إسماعيل
جامعة المالديف الوطنية- جزر المالديف-

ملخص:

إنَّ الإمام العلامة محمد بن عبد الكريم المغيلي إمام من أئمة هذا الدين العظيم. وكان له دور فعال في إيقاظ المسلمين وحثهم على التمسك بدين الله تعالى، كما قام بإصلاح الرعاة بتفقيه السلاطين والأمراء بالسياسة الشرعية والتي حولتهم إلى سلاطين وأمراء صالحين. يهدف البحث إلى التعريف بالإمام محمد بن عبد الكريم المغيلي ونشأته وتكوينه العلمي وثناء العلماء عليه، كما يتعرض البحث إلى شيوخ الإمام المغيلي وتلامذته ومؤلفاته ووفاته. يتناول البحث السياسة الشرعية في فكر الإمام المغيلي، كما يقوم البحث بإلقاء الضوء على السياسة الشرعية في مضمون الرسائل المرسلت إلى سلطان كانو وسنغاي. ويعتمد البحث على المنهج الاستقرائي والتحليلي. وقد خلص البحث إلى أن الإمام العلامة محمد بن عبد الكريم المغيلي كان متمكناً في علم السياسة الشرعية بحيث دل على ذلك قراءة مضمون الرسائل المرسلت إلى سلطان كانو وسنغاي. ويوصي البحث على أن تكون هناك دراسات تثمن نظرات الإمام المغيلي الثاقبة في السياسة الشرعية وصلاحياتها في عصرنا الحاضر.

كلمات مفتاحية:

الإمام المغيلي، السياسة الشرعية، سلطان، كانو، سنغاي

Legal Policy in the Thought of Imām al-Maghīlī – Reflection in the Treaties Sent to the Emirs of Kano and Songhay

Abstract

The great scholar Imām Muḥammad b. ‘Abdul Karīm al-Maghīlī is one of the Imams of this great religion. And he had an effective role in awakening the Muslims and urging them to adhere to the religion of Almighty Allah. He reformed the shepherds by educating the sultans and princes through legal politics, which turned them into righteous sultans and princes. This research aims to introduce Imām al-Maghīlī, his upbringing, his scientific formation, and the praise of scholars for him. The research also deals with the teachers of Imām al-Maghīlī, his students, his writings, and his death. The research deals with the Islamic legal policy in the thought of Imām al-Maghīlī and the research sheds light on the Islamic legal politics in the content of the letters sent to Sultan Kano and Sanghay. The research relies on the inductive and analytical method. The research concluded that Imām al-Maghīlī was well versed and mastered in the science of Islamic legal policy, as evidenced by reading the content of the letters sent to Sultan Kano and Sanghay. The research recommends that there should be valuable studies that evaluate Imām al-Maghīlī’s insightful views on Islamic legal policy and its validity in our present era.

Keywords:

Imām al-Maghīlī, Islamic Legal policy, Sultan, Kano, Sultan Sanghay

لقد ساهم علماء الجزائر بمساهمات قيمة وجلييلة في شتى الفنون والعلوم، ومن ضمن هؤلاء العلماء البارزين الإمام العلامة محمد بن عبد الكريم المغيلي رحمه الله. وقد كان للإمام المغيلي مؤلفات عديدة في فنون مختلفة ومتعددة كما أنّ له جهوداً جبارة في فقه السياسة الشرعية بحيث كان الإمام علماً من أعلام السياسة الشرعية في الجزائر المحروسة. وإن من يطالع الرسالة المرسلّة الموسومة بـ «تاج الدين فيما يجب على الملوك والسلاطين» إلى سلطان كانوا وأجوبة الإمام المغيلي المعنونة بـ «أسئلة أسكيا وأجوبة المغيلي» إلى سلطان سنغاي ليعرف علم اليقين بأن الإمام المغيلي كان أحد أعمدة السياسة الشرعية في القرن التاسع والعاشر الهجري. ولذلك فقد اختار الباحث دراسة مضمون هاتين الرسالتين في ضوء السياسة الشرعية عند الإمام المغيلي، بحيث قسم الباحث الدراسة إلى المبحثين، ففي المبحث الأول يتطرق إلى التعريف بالإمام العلامة المغيلي وفي المبحث الثاني يتناول السياسة الشرعية في فكر الإمام المغيلي.

المبحث الأول: التعريف بالإمام العلامة المغيلي.

المطلب الأول: نسب الإمام المغيلي ونشأته وثناء العلماء عليه.

أولاً: نسب الإمام المغيلي ومولده

هو أبو عبد الله محمد بن عبد الكريم بن محمد بن مخلوف بن علي بن الحسن بن يحيى بن علي بن أحمد بن عبد القوي بن العباس بن عطية بن مناذ بن السري بن قيس بن غالب بن أبي بكر بن أبي بكر بن عبد الله بن إدريس بن إدريس بن عبد الكامل بن الحسن المثنى السبط ابن علي بن أبي طالب رضي الله عنه وفاطمة الزهراء البتول رضي الله عنها بنت الرسول الأكرم صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم.⁽¹⁾ ويعتبر الإمام المغيلي من

⁽¹⁾ عائشة بوشقيف، الدور الفكري لعبد الكريم المغيلي في إقليم توات والسودان الغربي رسالة ماجستير، جامعة أبو بكر بالقائد، تلمسان، 2010/2011م، ص 20. انظر:

العلماء الربانيين ومن أعلام القرن التاسع والعاشر الهجري، ومن أسرة بربرية من قبيلة مغيلة.⁽²⁾

لقد اختلف المؤرخون وتضاربت أقوالهم في تحديد تاريخ مولد الإمام المغيلى، فقال البعض إنّه ولد في عام 790هـ/1388م، وقال البعض إنّه ولد في عام 831هـ/1427م⁽³⁾، وليس في 790هـ؛ لأنّ هذا القول يعارض ما ورد في أنّ الإمام المغيلى قاتل اليهود في عام 902هـ/1496م، وفي هذه الحالة يكون عمر الإمام المغيلى قد تجاوز المائة سنة. وهذا بعيد جدا.⁽⁴⁾

ثانيا: نشأة الإمام المغيلى وتكوينه العلمي.

نشأ الإمام المغيلى بين أحضان عائلته المشهورة بالعلم والتقوى، بحيث بدأ حياته العلمية على يد أبيه في تلمسان فحفظ عنه القرآن الكريم وأخذ عنه علوم العربية، وعكف على دراسة العلوم الإسلامية والعقلية والنقلية،

محمد بن عسكر، دوحة الناشر لمحاسن من كان بالمغرب من مشائخ القرن العاشر، تحقيق: محمد حجي (الرباط: دار المغرب، ط2، 1397هـ/1977م)، ص130-132. وانظر: التنبكتي، بابا أحمد، نيل الابتهاج بتطريز الديباج (القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية، ط1، 1423هـ/2004م)، ص576-579.

⁽²⁾ أبوبكر ميقا، "دعوة الإمام المغيلى العلمية والإصلاحية في السودان الغربي في أواخر القرن التاسع وأوائل العاشر الهجريين وأثرها في الرعاة والرعية وانتعاش الحركة العلمية في المنطقة"، مجلة جامعة الإمام ابن سعود الإسلامية، العدد 7(الرياض: جامعة الإمام ابن سعود الإسلامية، 1413هـ/1992م)، ص192.

⁽³⁾ مبروك مقدم، الإمام محمد بن عبد الكريم المغيلى من خلال المصادر والوثائق التاريخية (الجزائر: مؤسسة الجزائر، ط1، 2002م)، ص27.

⁽⁴⁾ مبروك مقدم، الإمام محمد بن عبد الكريم المغيلى ودوره في تأسيس الإمارة الإسلامية بأفريقيا الغربية خلال القرن التاسع للهجرة والخامس عشر للميلاد(د.م: دار الغرب للنشر، د.ط، د.ت)، ص27. انظر: فراج عطا سالم، "محمد بن عبد الكريم المغيلى: دراسة تاريخية بيبولوجرافية"، مجلة عالم الكتب، العدد3 (مكة المكرمة: جامعة أم القرى، 1990م)، ص341-358.

ثم توجه إلى مدينة بجاية⁽⁵⁾ والتي كانت حينئذٍ إحدى مدن العلم والثقافة العربية الإسلامية يعجّ بها الطلاب الوافدون إليها من كل جهة، وتعتبر رحلته إليها أول رحلة قام بها الإمام المغيلي في طلب العلم والاستزادة منه، واكتساب معارف جديدة والتلمذ على يد المشائخ مباشرة.⁽⁶⁾ ولم يكتف الإمام المغيلي بما درسه من علوم في المدينتين السابقتين، بل خرج قاصدا الجزائر العاصمة بحيث اتصل بالمفسر المشهور الإمام عبد الرحمن بن الثعالبي⁽⁷⁾، ومكث عنده مدة من الزمن، وأخذ عنه علم الحديث والتفسير وغيرها من العلوم وخاصة التربية والسلوك. ولما رأى الإمام الثعالبي في شخصية الإمام المغيلي من الذكاء والفتنة والشجاعة، قربه إليه وزوجه ابنته زينب، ثم أوصاه عند رحيله بدعوة منه له «أن لا يعاشر أهل سفاهة، وأن لا يستوطن مكان إهانة».⁽⁸⁾

ثالثا: ثناء العلماء على الإمام المغيلي.

كان الإمام المغيلي عالما بارعا في العلم متفننا في العلم مع الصلاح والدين، وقد وصفه ابن عسكر (المتوفي سنة 986هـ): «الشيخ الفقيه الصدر الأوحى، كان من أكابر العلماء، وأفاضل المتقين»⁽⁹⁾، ونعتَه أحمد بابا التنبكتي (المتوفي سنة 1036هـ): «خاتمة المحققين، الإمام العالم العلامة الفهامة القدوة، الصالح السني، أحد الأذكياء، ممن له بسطة في الفهم

⁽⁵⁾ أحمد بن القاضي، "لقط الفرائد من لفاظة حقق الفوائد"، محمد حجي، موسوعة أعلام المغرب (تونس: دار الغرب الإسلامي، ط2، 2008م)، ج2، ص 909.

⁽⁶⁾ راجع: التنبكتي، بابا أحمد، نيل الابتهاج بتطريز الديباج، ص 330.

⁽⁷⁾ راجع: التنبكتي، نيل الابتهاج بتطريز الديباج، ص 173.

⁽⁸⁾ راجع: مبروك مقدم، الإمام محمد بن عبد الكريم المغيلي من خلال المصادر والوثائق التاريخية، ص 42.

⁽⁹⁾ راجع: محمد بن عسكر، دوحة الناشر لمحاسن من كان بالمغرب من مشائخ القرن العاشر، ص 131.

والتقدم، متمكن المحبة في السنة، وبغض أعداء الدين»⁽¹⁰⁾ وقال ابن مريم التلمساني عنه (المتوفي سنة 1014هـ): «أحد أذكى العالم، وأفراد العلماء الذين أوتوا بسطة في العلم والتقدم والنسبة في الدين»⁽¹¹⁾ ووصفه ابن مخلوف (المتوفي سنة 1360هـ): بـ«خاتمة الأئمة المحققين والعلماء العاملين، مع البراعة والتفنن في العلوم، والصلاح والدين المتين»⁽¹²⁾.

المطلب الثاني: شيوخه وتلامذته.

أولاً: شيوخه.

لقد أخذ الإمام المغيلي العلم عن علماء زمانه، منهم: محمد بن أحمد بن عيسى المغيلي الشهير بالجلاب التلمساني المتوفي سنة 875هـ⁽¹³⁾، والشيخ أحمد بن إبراهيم البجائي⁽¹⁴⁾ المتوفي سنة 840هـ/1434م، ومن أشهرهم كان الإمام العلامة أبو زيد عبد الرحمن بن مخلوف الثعالبي⁽¹⁵⁾ الجزائري المتوفي سنة 875هـ، وأبو عبد الله محمد بن يوسف السنوسي⁽¹⁶⁾ المتوفي سنة

⁽¹⁰⁾ التنبكتي، بابا أحمد، نيل الابتهاج بتطريز الديباج، عناية وتقديم: عبد الحميد عبد الله الهرمة (طرابلس: منشورات كلية الدعوة الإسلامية، ط1، 1398هـ/1989م)، ص 264.

⁽¹¹⁾ ابن مريم التلمساني، البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان (الجزائر: المطبعة الثعالبية، 1326هـ/1908م)، ص 253-257.

⁽¹²⁾ محمد بن قاسم مخلوف، شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، تحقيق: عبد المجيد خيالي (بيروت: دار الكتب العلمية، ط1، 2003م)، ج1، ص 395-396. وانظر: أحمد بن القاضي، "لقط الفرائد من لفاظة حقق الفوائد"، محمد حجي، موسوعة أعلام المغرب (تونس: دار الغرب الإسلامي، ط2، 2008م)، ج2، ص 909.

⁽¹³⁾ راجع: مبروك مقدم، الإمام المغيلي ودوره في تأسيس الإمارة الإسلامية بأفريقيا الغربية، ص 27.

⁽¹⁴⁾ راجع: محمد بن عسكر، دوحة الناشر لمحاسن من كان بالمغرب من مشائخ القرن العاشر، ص 132.

⁽¹⁵⁾ راجع: التنبكتي، نيل الابتهاج بتطريز الديباج، ص 173.

⁽¹⁶⁾ المصدر السابق، ص 325.

895هـ، ويحيى بن يدير بن عتيق أبو زكريا التدلسي⁽¹⁷⁾ المتوفي سنة 877هـ وغيرهم.

ثانياً: تلامذته.

فقد تتلمذ على يد الإمام المغيلي كثير من التلاميذ، ومن أشهرهم: أبو العباس أحمد بن يحيى بن محمد بن عبد الواحد بن علي الونشريسي⁽¹⁸⁾ المتوفي سنة 914هـ، ومحمد بن عبد الجبار الفجيجي⁽¹⁹⁾ المتوفي سنة 956هـ، والعاقب بن عبد الله الأنصمي⁽²⁰⁾ وآخرون.

المطلب الثالث: مؤلفاته.

لقد خلف الإمام المغيلي العديد من المؤلفات بحيث ترك لنا تراثاً ضخماً في مختلف الفنون، ومن أهم مصنفاته ما يلي:

- (1) البدر المنير في علوم التفسير.
- (2) تفسير سورة الفاتحة.
- (3) حاشية على مختصر خليل.
- (4) مصباح الأرواح في أصول الفلاح.
- (5) أجوبة أسئلة الأمير أسكيا.
- (6) الفتح المبين في شرح القرآن الكريم.
- (7) المفروض في علم الفروض.

⁽¹⁷⁾ المصدر السابق، ص 637.

⁽¹⁸⁾ راجع: دوحة الناشر لمحاسن من كان بالمغرب من مشائخ القرن العاشر، ص 132.

⁽¹⁹⁾ راجع: التنبكتي، نيل الابتهاج بتطريز الديباج، ص 354. وانظر: محمد بن عسكر،

دوحة الناشر، ص 132.

⁽²⁰⁾ المصدر السابق، ص 132.

- 8) منهج الوهاب في رد الفكر إلى الصواب.
- 9) شرح على بيوع الأجال لابن الحاجب.
- 10) مفتاح النظر في علم الحديث.
- 11) مقدمة في علم المنطق.
- 12) تاج الدين فيما يجب على الملوك والسلطين
- 13) تنبيه الغافلين.

ولقد ذكر العلماء أن للإمام المغيلي أكثر من أربعين مؤلفا بين مخطوط ومطبوع ومفقود.

وفاته:

لقد اتفق المؤرخون على أن وفاة الإمام المغيلي رحمه الله كانت سنة 909هـ/1503م.⁽²¹⁾

المبحث الثاني: السياسة الشرعية في فكر الإمام المغيلي.

تظهر السياسة الشرعية في فكر الإمام المغيلي جليا وواضحا عند قراءتنا في مضمون الرسالة التي أرسلها الإمام المغيلي إلى سلطان كانو ومحتوى الأجوبة التي أجاب عنها على أسئلة سلطان سنغاي. يعتبر الإمام المغيلي مسؤولية الحاكم مسؤولية خطيرة وعظيمة وليست كما يتوهم سلاطين بلاده، ميلا إلى الهوى وتهاونا بالواجبات الشرعية، وانحرافا عن تعاليم الدين الإسلامي الصحيح، ولذا فقد بين الإمام المغيلي في رسالته المرسلة إلى سلطان كانو وأجوبته التي أجاب عنها على أسئلة سلطان سنغاي بيانا شافيا وأعطى تصورا واضحا للسياسة الشرعية التي يجب أن يلتزم بها الحاكم والمحكومون.

⁽²¹⁾ راجع: محمد بن قاسم مخلوف، شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، ج1، ص 396-395.

يتطرق الباحث في هذا المبحث إلى المطلبين، وفي المطلب الأول يتناول السياسة الشرعية في الرسالة المرسله إلى سلطان كانو، وفي المطلب الثاني يتعرض إلى السياسة الشرعية في أجوبة الإمام المغيلي على أسئلة سلطان سنغاي.

المطلب الأول: السياسة الشرعية في رسالة الإمام المغيلي الموسومة بـ «تاج الدين فيما يجب على الملوك والسلاطين» إلى سلطان كانو.

أولاً: مضمون الرسالة ملخصاً.

لقد بدأ الإمام المغيلي بمقدمة الرسالة مخاطباً سلطان كانو: «أما بعد: وفقك الله للتقوى، وعصمك من نزعات الهوى، فإن الأمانة خلافة الله ونيابة عن رسول الله، فما أعظم فضلها، وما أثقل حملها، إن عدل الأمير ذبحته التقوى بقطع أوداج الهوى، وإن جار ذبحه الهوى بقطع أوداج التقوى. فعليك بتقوى الله: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أَجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَنْ زُحِرَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾».

وبعد هذه المقدمة بدأ الإمام المغيلي يستعرض توجهاته الرشيدة ونصائحه الثاقبة للسلطان، وهي في مجملها عبارة عن مرتكزات السياسة الشرعية العامة للإمارة بحيث جاء كل ذلك في ثمانية أبواب. وفي الأبواب الأربعة الأولى فقد تناول الإمام فيما يجب على الأمير أن يقوم به في أحواله من «حسن النية، وحسن الهيئة، وترتيب المملكة، والتزام الحذر بالحضر والسفر»، وفي الباب الخامس فتعرض إلى «فيما يجب كشفه من الأمور الخاصة برعيته». أما في الباب السادس فتطرق إلى «فيما يجب عليه من العدل والإحسان»، وأما في الباب السابع فكان «فيما يجب عليه من جني الأموال من وجوه الحلال»، وفي الباب الثامن خصه لوجوه «مصارف أموال الله». وقد ختم الإمام المغيلي هذه الرسالة القيمة بالحكمة المأثورة التي هي: «رأس كل بلية احتجاب السلطان عن الرعية».

هذا ملخص ما ورد في رسالة الإمام المغيلي إلى سلطان كانو في أمور الحكم والإمارة والسياسة الشرعية. وهذا يدل دلالة واضحة على أن موقف الإمام المغيلي من سلاطين عصره هو موقف المرشد المصلح والناقد الناصح الصريح، وليس موقف الطامع في مال، أو الباحث عن لقمة عيش أو جاه. ولأهمية رسالة الإمام المغيلي إلى سلطان كانو في السياسة الشرعية، يتناول الباحث رسالته المرسلة إلى سلطان كانو بالتفصيل الآتي:

ثانياً: دراسة مضمون الرسالة مفصلاً.

يحتوي مضمون الرسالة المرسلة إلى سلطان كانو على ثلاثة أقسام أساسية: مقدمة، ومدخل عام للموضوع، ثم دعاء للسلطان بالتوفيق والصلاح. ويليهِ تنبيه الإمام المغيلي السلطان إلى عظم مسؤولية الإمارة الملقاة على عاتقه بما تتطلبه من عدل واستقامة، وفي النهاية تذكيره بيوم الحساب بالجزاء والعقاب مصداقاً لقوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّقُونَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَنْ زُحِرَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾⁽²²⁾.

وبعد هذه المقدمة بدأ الإمام المغيلي يستعرض في رسالته أسس السياسة الشرعية العامة بحيث جاء كل ذلك في الأبواب الثمانية قائلاً:

الباب الأول: فيما يجب على الأمير من حسن النية.

لقد تعرض الإمام المغيلي في هذا الباب إلى أن يحسن الأمير النية في الإمارة، وينبه المبتلي بمسؤولية الإمارة بتجديد المقاصد والنيات، وتحريم الإرادة من سلطان الهوى، وإغراءات المناصب والجاه والمنزلة عند الخلق،

⁽²²⁾ آل عمران: 185. المغيلي، محمد بن عبد الكريم، تاج الدين فيما يجب على الملوك والسلاطين، تحقيق: محمد خير رمضان يوسف (بيروت: دار ابن حزم، ط1، 1415هـ/1994م)، ص 14-15.

ويوجب على كل حاكم تأدية مسؤوليته على الوجه الأكمل لأن الإمامة
موضوعة لخلافة النبوة في حراسة الدين وسياسة الدنيا.⁽²³⁾

الباب الثاني: فيما يجب على الأمير من حسن الهيئة.

تناول الإمام المغيلي في هذا الباب أن المسؤولية السياسية والسلطوية
بمنظور الشرع الحنيف عبادة وأمانة في آن واحد. ولذا يوصي الإمام المغيلي
السلطان أسكيا بالوفاء بالعهد؛ لأن هذا الفعل يزيد من هيبة صاحبه
ويجعله كبيرا في نظر الخلق، كما يجب على الأمير أن يتصف بالتواضع؛ لأن
التكبر مذموم ويحدث السخط بين الرعية ولذلك وجب على السلطان الميل
إلى العفو والصفح، كما لا يجب على الأمير أن يشغل نفسه بشهوات الدنيا
من لبس الثياب الفاخرة وغيرها.⁽²⁴⁾

الباب الثالث: فيما يجب على الأمير من ترتيب مملكته.

تطرق الإمام المغيلي في هذا الباب إلى أن السلطان يحتاج في ترتيب
مملكته إلى مجموعة من الحكماء والعقلاء لاستشارتهم وقت الحاجة،
والعلماء الثقات يرشدون، ووزراء لا يخشون إلا الله، والقضاة الثقات
يفصلون. كما أوصى الإمام المغيلي بوضع أشخاص أمناء على بيت المال
يخافون الله، لأن المملكة في نظر الإمام المغيلي تحتاج إلى أمثال هؤلاء الناس،
وأن السلطان عاجز على تولي جميع أمور المملكة وتديير جميع شؤونها. كما
يؤكد الإمام على ضرورة أن يكون للأمير جيشا لحماية مملكته والحفاظ على
استقرارها وأمنها.⁽²⁵⁾

⁽²³⁾ راجع: المصدر السابق، ص 17.

⁽²⁴⁾ انظر: المغيلي، محمد بن عبد الكريم، تاج الدين فيما يجب على الملوك والسلاطين،
ص 19-23.

⁽²⁵⁾ انظر: المغيلي، محمد بن عبد الكريم، تاج الدين فيما يجب على الملوك والسلاطين،
ص 25-28.

الباب الرابع: فيما يجب على الأمير من الحذر بالحضر والسفر.

يؤكد الإمام المغيلي في هذا الباب أن الحذر واجب من طرف أولي الأمر في حضورهم وسفرهم، وفي طعامهم وشرابهم، وصفات الكياسة والفتنة والدهاء صفات ضرورية للأمير لأن فيها حفظ لشخصه ومملكته، وعلى الأمير أن يظهر الحزم في جميع شؤون إمارته ليتمكن من تسييرها دون عناء.⁽²⁶⁾

الباب الخامس: فيما يجب على الأمير من الكشف عن الأمور.

يشير الإمام المغيلي في هذا الباب إلى الرقابة على الأمناء والأوصياء وأنها ضرورية ومفيدة، لأن تتبع الأمير لأحوال الأمناء الذين تولوا مناصب قبل توليتهم والكشف عن حال الأمور دليل على صلاحه، وخاصة أموال بيت المال، والواجب مراقبة جميع الولاة ومحاسبة العمال وزجرهم وإبعاد المداحين من مجالس الحكم، وأن من تكررت ضده الشكوى يتم استبداله للتقليل من الفساد.⁽²⁷⁾

الباب السادس: فيما يجب على الأمير من العدل في الأحكام.

لقد نبه الإمام المغيلي في هذا الباب إلى أن العدل والإحسان أمران ضروريان للأمير، وعلى كل من تولى شيئاً من أمور الأمة أن يجلس كل يوم لسماع هموم الناس وذلك لأن لجلوس الأمير أمام رعيته أثر كبير في نفوسهم، وعلى الأمير أن يعاين ويطلع على أوضاع الرعية، لأن المملكة لا يمكنها الثبوت إلا بالعدل والإحسان.⁽²⁸⁾

الباب السابع: في مجي الأموال من وجوه الحلال.

طلب الإمام المغيلي في هذا الباب من الأمير أن يجي الأموال من وجوه الحلال، كما حذره من الخراب الذي قد يحل بملكه إذا ما طمع في أموال

⁽²⁶⁾ المصدر السابق، ص 29-32.

⁽²⁷⁾ المصدر السابق، ص 34-40.

⁽²⁸⁾ المصدر السابق، ص 41-46.

الرعية. ثم بين الإمام المغيلي ما أحل من الأموال للأمير في أخذه وصرفه على وجوهه الشرعية منها: زكاة العين والحرث والماشية والمعدن وأموال الجزية وغيرها. كما وضع الإمام المغيلي للأمير مصادر المال الحرام كتقاضي الحاكم أجرا على تولية القضاء أو غيره ؛ لأن في ذلك إفسادا للدين، كما حذر من أخذ الرشوة أو قبول الهدية أو المال من الرعية، وكذا أخذه من السارق والزاني وأخذ العشر من أرباب الحقوق أو التركات.

الباب الثامن: في مصارف أموال الله.

تطرق الإمام المغيلي في هذا الباب إلى ضرورة تامين الأموال وتزكية الاقتصاد وترشيد المصارف كما شرعها الله تعالى، مستشهدا بقول الله تعالى: ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾⁽²⁹⁾، وقوله تعالى: ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾⁽³⁰⁾.

تعرض الإمام المغيلي في هذا الباب إلى توضيح دور السلطان في صرف الأموال العامة، بحيث قسمها إلى قسمين حسب مستحقها، فجعل القسم الأول يشمل زكاة العين والحرث والماشية وزكاة المعدن وزكاة الفطر، ويصرفها لصالح مستحقها الثمانية الذين ورد ذكرهم في القرآن الكريم فقال تعالى: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾⁽³¹⁾.

أما القسم الثاني من المال العام الذي يعمم من خلال المصالح فهو الفياء كخمس الركاز والمعادن وخمس الغنيمة وما يؤخذ من أهل الذمة وأهل الصلح وتجارهما وخراج الأرضين، والتركة التي لا وارث لها، وما أفاء الله

⁽²⁹⁾ المائدة: 45.

⁽³⁰⁾ الشعراء: 227.

⁽³¹⁾ التوبة: 60. راجع: تاج الدين فيما يجب على الملوك والسلاطين، ص 55.

من أموال أهل الحرب بلا حرب، وفي هذا القسم من المال جعل الإمام المغيلي للسلطان حرية تحديد المستحقين حسب الأهمية بالنسبة للمسلمين مراعيًا في ذلك التقوى وترك الهوى.⁽³²⁾

فقد ختم الإمام المغيلي هذه الرسالة المشهورة في السياسة الشرعية- كما افتتح- بالآيات القرآنية ثم بالصلاة والسلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى آله وصحبه أجمعين وداعيا بالمغفرة وللوالدين ولجميع المسلمين والمسلمات الأحياء منهم والأموات.⁽³³⁾

يتضح لنا جليا مما سبق بأن الإمام المغيلي قد رتب الرسالة المرسله إلى سلطان كانوا على ثمانية أبواب حسب الموضوعات التي تناولها كما ذكرنا سابقا. ولعل الناظر في التراث الفكري والرصيد التأليفي للإمام المغيلي ليشهد ذلك النتاج الزاخر في السياسة الشرعية على قلة ما كتبه العلماء السابقون في هذا الفقه المغيب، الذي يؤسس لبناء الدولة وعلاقات أفرادها وواجبات منتسبها، ويجلي حقوق الله تعالى وحقوق الأمة في الشورى والعدل والإنصاف.

وقد سعى الإمام المغيلي في هذه الرسالة المشهورة إلى بناء تصور متكامل للسياسة الشرعية والتنظيم الاجتماعي للدولة الإسلامية، وضبط علاقات أفرادها، وتحديد اختصاصات أجهزتها فيما خطه نصيحة للأمرء والحكام، والذي يمكن اعتباره بمثابة وثيقة دستورية توجه عملهم، وتضبط اشتغالهم، وتنير طريقهم.⁽³⁴⁾ كما فصل الإمام المغيلي في رسالته موارد الدولة

⁽³²⁾ المصدر السابق، ص 58-56.

⁽³³⁾ راجع: تاج الدين فيما يجب على الملوك والسلاطين، ص 60-59.

⁽³⁴⁾ مصطفى الحكيم، "الإمام محمد بن عبد الكريم المغيلي (909هـ/1503م): معالم من رؤيته الدينية والسياسية"، مجلة المنهل، العدد 4، (الجزائر: جامعة الوادي، 2017م)، ص 184.

مع الاستشهاد بما جاء في القرآن الكريم من أجل تحديد مصارف المال العام، مع تأكيد دائم على أهمية تقوى الله وحبس النفس عن مال الرعية. **المطلب الثاني: السياسة الشرعية في أجوبة الإمام المغيلي على أسئلة سلطان سنغاي.**

أولاً: مضمون الأسئلة والأجوبة ملخصاً.

يحتوي مضمون أسئلة سلطان أسكيا على سبع مسائل تطرق إليها فيما يواجه من المشاكل التي تتعرض له مملكة سنغاي من الداخل والخارج، بحيث يجيب الإمام المغيلي سلطان أسكيا على هذه المسائل السبع. وقد استشهد الإمام المغيلي في أجوبته على هذه المسائل بالقرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، كما استدل بأقوال بعض العلماء والشعر والحكم.

لقد بدأ السلطان أسكيا يستوضح الإمام المغيلي ويطلب منه فتوى يسير عليه في مملكته، فقال مخاطباً إياه: «وأنا أطلب من الله ثم منك أن تفتي لي بما علمك الله في هؤلاء القراء، هل يجوز لي أن نعمل على قولهم في دين الله، ويخلصني تقليدهم عند الله، أو لا يحل لي ذلك، ويجب علي البحث عن نولي الحكم ونقلده في أمور الدين، وبين لنا صفة من يصلح لذلك شرعاً، ثم أطلب منك أيضاً أن تشفي غليلي بترتيب الأجوبة على هذه الأسئلة بزيادة وما تيسر لكم من النصيحة أيضاً»⁽³⁵⁾.

وفي المسألة الأولى توجه السلطان أسكيا بسؤال الإمام المغيلي حول القراء الموجودين بمملكة سنغاي وأنهم من العجم يزعمون أنهم من العلماء ولكنهم يجهلون مقاصد العلماء ومواطن التصحيح والتحريف، ومع ذلك فإن لهؤلاء العلماء كتباً وحكايات وأخباراً، كما أن منهم قضاة ومفكرون يعتبرون أنفسهم من علماء الأمة، وأنهم ورثة الأنبياء، ثم يستوضح السلطان

⁽³⁵⁾ المغيلي، محمد بن عبد الكريم، أسئلة الأسكيا وأجوبة المغيلي، ص 22-23.

أسكيا الإمام المغيلي قائلا فهل يجب عليّ الاقتداء بهم؟ أو البحث عن ثقة أوليهم الحكم من أمور الدين؟ وكيف السبيل لمعرفتهم؟⁽³⁶⁾

لقد شرع الإمام المغيلي يجيب على السؤال الأول بكل دقة وأمانة مذكرا السلطان أسكيا بوجوب تقوى الله تعالى وبأنه في هذه الأرض موجه لا حاكم، ثم منها إياه على أهمية اتخاذ البطانة الصالحة من حوله ومصاحبة أهل العلم والتقوى والتي لا تخرج في كل الأحوال عن صنفين من الناس، بطانة تأمره بالمعروف وتنهيه عن المنكر، وبطانة لا تألوه إلا خبالا -كما قال- فمن وقى شرها فقد وقى.⁽³⁷⁾

وفي المسألة الثانية يستفسر السلطان أسكيا الإمام المغيلي عن قضية أساسية في غاية الخطورة التي تتعلق بأمر العقيدة، بحيث كانت موجودة لدى المسلمين على عهد السلطان سني علي الذي كان قبله، وكيف أنّ إسلامهم كان سطحيا تمارس فيه العادات الوثنية القديمة، وأن الأمير «سني علي» ما رؤي في جامع ولا مسجد ولا أحد من جماعته، وأنه كان يعاشر النساء دون الالتزام بأحكام الشرع، وأنه أحل دماء المسلمين فقتل من شاء وأبقى على من شاء. وبعد هذا الوصف خلص السلطان أسكيا إلى سؤال الإمام المغيلي عن حكم الشرع في هذا الأمير وأعوانه الظلمة وأتباعه من العامة.⁽³⁸⁾

ويجيب الإمام المغيلي عن هذا السؤال قائلا بأن الحاكم سني علي وجميع أعوانه وأتباعه هم من أظلم الظالمين الفاسقين، وأن الجهاد فيهم وأخذ السلطنة من يد سني علي واجب شرعا. وأما الحكم بكفرهم فهو واقع، ولكن هذا كله على شرط أن يكون الوصف المنقول عنه وعنهم صحيحا من الأمير.⁽³⁹⁾

⁽³⁶⁾ راجع: المغيلي، أسئلة الأسقيا وأجوبة المغيلي، ص 23.

⁽³⁷⁾ المصدر السابق، ص 24.

⁽³⁸⁾ المصدر السابق، ص 34-38.

⁽³⁹⁾ المصدر السابق، ص 39-42.

وفي المسألة الثالثة يطلب السلطان أسكيا من الإمام المغيلي حكما مفصلا في شأن أتباع الملك (سني علي) وكونهم ينطقون الشهادتين إلا أنهم يشركون مع الله شركاء ويمارسون كل العادات الوثنية القديمة فيعبدون الأصنام ويقدمون لها القرابين، بحيث زجرهم فأبوا إلا بالسيف، أما سني علي فما طلب منهم إسلاما قط، فما حكم هؤلاء؟⁽⁴⁰⁾

ويجيب الإمام المغيلي على هذا السؤال ويقر مارآه الشارع في حق هؤلاء جميعا قائلا بأن لا يعلق المسؤولية على سني علي وما فعله، بل لا بد له من إزالة الباطل وإصلاح كل ما وصل إليه، وأما هؤلاء الناس الذين وصفهم فهم مشركون بلا شك، ولا شك أن الجهاد فيهم أولى وأفضل من الكفار الذين لا ينطقون بالشهادة والذين يقتدي بهم المسلمون.⁽⁴¹⁾

وفي المسألة الرابعة نجد السلطان أسكيا يسأل الإمام المغيلي هذه المرة عن موقفه هو كأمر للمسلمين وكيفية التعامل مع بعض الأمراء والسلطين من حوله ممن هم بنفس الاعتقاد السالف الذكر، وممن يتخذون الإسلام غطاء لفعل ما حرم الله فهل يجب عليه محاربتهم والاستجابة لمن طلب نجدته والدخول في حمايته وتحت حكمه ورعايته؟⁽⁴²⁾

ويرد الإمام المغيلي على سؤال السلطان أسكيا قائلا بأن البلاد ثلاثة: بلاد سائبة لا أمير يحكمها، فهؤلاء أجهم إلى مبايعتك والدخول تحت طاعتك وإن أبوا فأجبرهم؛ لأنه لا يحل للمسلمين أن يبقوا بدون أمير، وبلاد لها أمير يرعى أهلها في دينهم ودنياهم؛ فهذا لا يحل لأحد أن ينزع السلطة من يده ولا أن ينازعه في حكمه، وبلاد لها أمير ظالم عليك بمحاولة إزالة ظلمه وتنصيب أمير عادل بديلا له. كما نبه الإمام المغيلي السلطان أسكيا في هذه

⁽⁴⁰⁾ المصدر السابق، ص 44-43.

⁽⁴¹⁾ راجع: المغيلي، أسئلة الأسقيا وأجوبة المغيلي، ص 45-46.

⁽⁴²⁾ المصدر السابق، ص 47-48.

المسألة إلى قضية جوهرية في علاقة الحاكم والمحكوم أخذاً بمبدأ قاعدة أخف الضررين حيث قال: «وإن لم تستطع أن تزيل ظلمه عن المسلمين إلا بمضرة عليهم، فقد تعارض هنا ضرران فاحذر تغيير منكر بمنكر مثله، أو أعظم منه فثبت لها هنا، وارتكب أخف الضررين لأن ارتكاب أخف الضررين قاعدة مشهورة وسنة مأثورة».⁽⁴³⁾

وفي المسألة الخامسة يتوجه السلطان أسكيا بسؤال الإمام المغيلي عن الخراج ومستحقاته الشرعية فيقول: «هل يجوز له أن يفرض خراجاً على الأراضي المملوكة لأصحابها؟ وأن ينصب عالماً أميناً يجمع الزكاة ويوزعها على مستحقها، وهل يجوز له معاقبة من يمنع أداءها؟ وما هي عقوبتهم؟ وهل يجوز شهادة السلطان وأعوانه إن عرفوا بالخير وعدم الظلم؟».⁽⁴⁴⁾

ويجب الإمام المغيلي السلطان أسكيا على جواز تنصيب عامل أو عمالاً لجمع الزكاة وصرفها في مصارفها التي ذكر الله تعالى في القرآن الكريم مع استشارة أهل المعرفة والأمانة، وعدم جواز نقل زكاة بلد إلى غيره إلا بموجب المصلحة العامة، وأما من أعرض عن أداء الزكاة فتؤخذ منه عنوة، وأما عقوبته فيضرب أو يحبس وغيرها، وأما السلطان وكذا لكل من عرف بالخير وعدم الظلم فشهادتهم مقبولة. ثم استشهد الإمام المغيلي بقول النبي صلى الله عليه وسلم: «اللهم من ولي من أمر أمتي شيئاً فشق عليهم فاشقق عليه، ومن ولي من أمر أمتي شيئاً فرفق بهم فارفق به»، وبقوله صلى الله عليه وسلم: «الناس شركاء في ثلاثة: الكلاً والماء والنار».⁽⁴⁵⁾

وفي المسألة السادسة نجد السلطان أسكيا يسأل الإمام المغيلي حول قضية الميراث على أن هناك أناساً لا يتوارثون بأحكام الشرع الإسلامي، فهل

⁽⁴³⁾ المصدر السابق، ص 49-51.

⁽⁴⁴⁾ المصدر السابق، ص 53.

⁽⁴⁵⁾ راجع: المغيلي، أسئلة الأسقيا وأجوبة المغيلي، ص 54-56.

تصادر أموالهم وتوضع في بيت المال أو تترك بأيديهم ويجبرون على التوارث بأحكام الشريعة الإسلامية؟ كما أن البعض الآخر أخرجوا من ديارهم واستقروا بلادا أخرى ثم رحل العدو وبقيت البلاد خالية فعمرها أناس آخرون فطلب منهم سكانها الأصليون إجارا على ذلك، فأبوا فما حكمهم في ذلك؟⁽⁴⁶⁾

ويجب الإمام المغيلي السلطان أسكيا على أنه لا بد من نهي هؤلاء الذين لا يتوارثون بأحكام الشرع الإسلامي، فإن تابوا وأصلحوا عملهم فذاك، وإن أصروا فلا بد من محاربتهم، وتنزع أموالهم التي أخذت بالباطل، وأما من طرده العدو من أراضهم ثم لم يعودوا بعد رحيل العدو فليس لهم أن يأخذوا أجرة ممن يزرع فيها أو يرعى، إنما يجوز لهم أن ينتفعوا بها أو يتركوها لمن ينتفع بها حتى يرجعوا إليها إن شاء الله.⁽⁴⁷⁾

وفي المسألة السابعة نجد السلطان أسكيا يعود ويستوضح من الإمام المغيلي عن وجود فئة من الناس تقوم بممارسة السحر والإدعاء بمعرفة الغيب وأخبار النجوم والجن وخط الرمل وأصوات الطيور وحركتها، وغش الناس في السلع، واقترافهم المنكرات بمعاشرة الإماء قبل الاستبراء، واختلاط الرجال بالنساء في الأسواق والطرقات، وكشف عورات الحرائر والإماء، فما الحكم في ذلك؟⁽⁴⁸⁾

ويجب الإمام المغيلي على هذا السؤال قائلا بأن كل ما ذكر هو باطل ومنكر حرام، ويجب على أمير المسلمين وكل من له القدرة من المؤمنين أن يصلح من شأنهم، أما عن السحرة والذين يدعون معرفة الغيب فأولئك كذابون ومن صدقهم فقد كفر، فلا بد لهم من إجبارهم على التوبة وإن أبوا

⁽⁴⁶⁾ المصدر السابق، ص 57-58.

⁽⁴⁷⁾ المصدر السابق، ص 60-61.

⁽⁴⁸⁾ المصدر السابق، ص 62-63.

فواجب قتلهم. وأما الغش في السلع فهو حرام، ومعاشرة الإمام قبل الاستبراء فهذا فسق، واختلاط الرجال بالنساء وكشف العورات من أعظم المنكرات، فواجب على الأمير منع ذلك بما استطاع وأن يجعل أمناء يطوفون بالليل والنهار في الطرقات.⁽⁴⁹⁾

نستخلص من خلال ما سبق عرضه من أجوبة الإمام المغيلي لأئلة السلطان أسكيا أن الإمام المغيلي سعى جاهدا من خلال معرفته وإمامه بالسياسة الشرعية لإيجاد حلول للقضايا التي تعترض طريق أي أمير في مملكته، وأن فتاويه لأسكيا تعد بمثابة قانون شرعي يجمع المسائل التي تنظم أمور الدولة وأحوال المجتمع، فبفضل هذه التوجيهات السديدة والسياسة الشرعية الرشيدة وتطبيقها على أرض الواقع، استطاع السلطان أسكيا ومن ورائه أتباعه من بعده أن يحافظوا على عرش الحكم لأطول مدة ممكنة حيث وصلوا بالمملكة من حيث القوة والتوسع إلى الحد الذي لم تصله أحد لا من قبلهم ولا من بعدهم⁽⁵⁰⁾، وهذا رغم ما لقيه من معارضة شديدة من طرف وجهاء سنغاي في بداية أمره والتي أدت إلى حد المقاومة بالسلاح.⁽⁵¹⁾

⁽⁴⁹⁾ المصدر السابق، ص 63-67.

⁽⁵⁰⁾ عبد القادر زبايدية، مملكة سنغاي في عهد الأسقيين 1493-1591م (الجزائر:

الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، د.ط، 1981م)، ص 31.

⁽⁵¹⁾ أحمد أبا الصوفي جعفري، "حوار الإمام المغيلي مع ملوك وأمراء غرب إفريقيا وأثره في حركة الفتح الإسلامي"، مجلة الفضاء المغربي، العدد 1 (الجزائر: جامعة تلمسان، 2020م)، ص 17.

الخاتمة والنتائج:

لقد توصل الباحث إلى النتائج التالية، منها:

(1) كان الإمام المغيلي من العلماء الكبار الذين عرفهم المغرب الأوسط والعالم الإسلامي وذلك لعلمه الغزير ونشاطه التعليمي الكثيف ودوره الإصلاحية والسياسية الذي عم مناطق واسعة. كما أنه كان من العلماء القلائل الذين نادوا بإصلاح الأوضاع القائمة وتصحيح المفاهيم الخاطئة عن الإسلام، لا سيما ببلاد السودان الغربي حتى بوأته المكانة اللائقة والمنزلة العالية بين علماء جيله، وقادة عصره.

(2) إن السياسة الشرعية المنشودة في فكر الإمام المغيلي تقوم على تقوى الله ومخافته واجتناب الهوى، وتحقيق الأمن والاستقرار، ومحاربة الفساد وإصلاح العدل وحفظ المال العام، ودفع المنكر قدر الاستطاع، وكذا حسن الرعاية وحماية المقاصد الضرورية من دين ونفس وعقل ومال وعرض، والعمل على مبدأ الشورى قبل اتخاذ أي قرار.

(3) للإمام المغيلي نظر ثاقب وفكر حقيقي في مجال السياسة الشرعية حول الدولة ورعاياها ومؤسساتها، بحيث صاغه الإمام المغيلي بطريقة جيدة واضحة في رسالته المرسله إلى سلطان كانو وسلطان سنغاي في شكل عمل محبوب ومسائل مرتبة، وبمنهجية تامة جعلته عالما سياسيا محنكا.

(4) يعد كتاب «تاج الدين فيما يجب على الملوك والسلطين» من النصوص السياسية النادرة في تاريخ الفكر السياسي الشرعي، بكونه نصا موجزا ونادرا، إضافة إلى محتواه القيم الذي يعكس فهمها فهما عميقا للسلطة ولأبعادها وخصائصها وما ينبغي أن يرد عليها من قيود، كما أنه أشبه بدستور أو خلاصة جامعة لأمر الدين والدنيا كما تبين ذلك أبوابها.

5) إن أجوبة الإمام المغيلي على أسئلة أسكيا تعدُّ بمثابة قانون شرعي يجمع المسائل التي تنظم الدولة وأحوال المجتمع، بحيث أخذ بها السلطان أسكيا وطبقها في مملكته، كما أخذ سلطان كانو بنصائح وتوجيهات الإمام المغيلي، وعليه فإن أفكار ونظريات الإمام المغيلي السياسية أخذت طريقا للتجسيد في بلاد السودان الغربي، وبفضل واقعية السياسة الشرعية للإمام المغيلي وتلاؤمها مع الخصوصيات الإفريقية صمدت تلك الأحكام الشرعية الصحيحة في مجابهة المستحدثات والعقائد الفاسدة وأعطى لإفريقيا جنوب الصحراء الأبعاد الإسلامية السياسية الأصلية والقيومية.

6) من خلال قراءة مضمون أجوبة الإمام المغيلي على أسئلة السلطان أسكيا الموسومة بـ«أسئلة الأسكيا وأجوبة المغيلي» يتضح لنا جليا أن الإمام المغيلي كان متمكنا في علم السياسة الشرعية وإمامه إماما تاما وذلك من خلال تطبيقات السلطان أسكيا في قضايا تنظيم الإمارة وأحوال الرعية والتعامل مع علماء السوء ومعرفة أوجه الجهاد الحقيقية ووجوب محاربة العصاة لأحكام الله ومحاربة المفسدين والسحرة. ولذا تعتبر «أسئلة الأسكيا وأجوبة الإمام المغيلي» من أهم المصادر التي اعتمدت عليها دولة الأسكيين بعد السلطان أسكيا محمد في حلِّ جُلِّ المشاكل التي كانت تواجهها.

7) رسائل الإمام المغيلي في السياسة الشرعية تمثل عصارة النصائح للسلطين والأمرء في تسيير شؤون الرعية والدولة على منهج كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم وفق مبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ومحاربة البدع، فهي دستور جامع موجز لما يجب أن يكون عليه السلطان وبطانته، كما تصلح أن تكون دليلا في هذا العصر لكل حاكم وأمير يريد الصلاح للخلق والبلاد ويسعى إلى نيل رضا رب العباد.

توصيات:

- 1) يرجى بذل المزيد من الجهود المكثفة في التعريف بأفكار السياسة الشرعية بالسلطة والدولة والرعية المبنوثة في رسائل وأجوبة الإمام المغيلي، والتي تمثل مشاريع سياسية راقية، قابلة للتطبيق في واقعنا المعاصر.
- 2) إدراج كتابات الإمام المغيلي السياسية ضمن برامج الجامعات والمعاهد الإسلامية ومقرراتها خاصة في مقياس فقه السياسة الشرعية.
- 3) عقد مؤتمرات سنوية بتعريف هذا الإمام الجليل، وإبراز أفكاره بالسياسة الشرعية خارج دولة الجزائر الحبيبة.

المصادر والمراجع.

1. ابن عسكر، محمد بن علي. دوحة الناشر بمحاسن من كان بالمغرب من مشائخ القرن العاشر، تحقيق: محمد حجي (الرباط: دار المغرب، 1397هـ/1977م).
2. ابن المجذوب، عبد الكبير. تذكرة المحسنين بوفيات الأعيان وحوادث السنين: موسوعة أعلام المغرب، تحقيق: محمد حجي وأحمد التوفيق (بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1417هـ/1996م).
3. بوشقيف، عائشة. "الدور الفكري لعبد الكريم المغيلي في إقليم توات والسودان الغربي"، رسالة ماجستير، جامعة أبو بكر بلقايد، تلمسان، 2010/2011م.
4. التلمساني، ابن مريم. البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان (الجزائر: المطبعة الثعالبية، 1326هـ/1908م).
5. التنبكتي، بابا أحمد. نيل الابتهاج بتطريز الديباج، عناية وتقديم: عبد الحميد عبد الله الهرمة (طرابلس: منشورات كلية الدعوة الإسلامية، 1398هـ/1989م).
6. التنبكتي، بابا أحمد. نيل الابتهاج بتطريز الديباج (القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية، 1423هـ/2004م).
7. جعفري، أحمد أبا الصوفي. "حوار الإمام المغيلي (909هـ) مع ملوك وأمراء غرب إفريقيا وأثره في حركة الفتح الإسلامي"، مجلة الفضاء المغاربي، العدد 1 (الجزائر: جامعة تلمسان، 2020م).
8. الحكيم، مصطفى. "الإمام محمد بن عبد الكريم المغيلي (909هـ/1503م): معالم من رؤيته الدينية والسياسية" مجلة المنهل، العدد 3 (الجزائر: جامعة الوادي، 2007م).
9. سالم عطا، فراج. محمد بن عبد الكريم المغيلي: دراسة تاريخية بيبولوجرافية، العدد 3 (مكة المكرمة: مجلة عالم الكتب، 1411هـ).
10. عبد القادر زبايدية. مملكة سنغاي في عهد الأسيقيين 1493-1591 (الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1981م).

11. المغيلي، محمد بن عبد الكريم. تاج الدين فيما يجب على الملوك والسلطين، تحقيق: محمد خير رمضان يوسف (بيروت: دار ابن حزم، 1415هـ/1994م).
12. المغيلي، محمد بن عبد الكريم. أسئلة الأسقيا وأجوبة المغيلي، تقديم وتحقيق: عبد القادر زبايدية (الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1974م).
13. محمد حجي. الحركة الفكرية بالمغرب في عهد السعديين (الرباط: دار المغرب، 1397هـ/1976م).
14. مخلوف، محمد بن قاسم. شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، تحقيق: عبد المجيد خيالي (بيروت: دار الكتب العلمية، ط1، 2003م).
15. مقدم، مبروك. الإمام محمد بن عبد الكريم المغيلي ودوره في تأسيس الإمارة الإسلامية بأفريقيا الغربية خلال القرن التاسع للهجرة والخامس عشر للميلاد (الجزائر: دار الغرب للنشر، د.ت).
16. مقدم، مبروك. الإمام محمد بن عبد الكريم المغيلي من خلال المصادر والوثائق التاريخية (الجزائر: مؤسسة الجزائر، 2002م).
17. ميكا، أبوبكر. «دعوة الإمام المغيلي العلمية والإصلاحية في السودان الغربي في أواخر القرن التاسع وأوائل العاشر الهجريين وأثرها في الرعاية والرعية وانتعاش الحركة العلمية في المنطقة»، مجلة جامعة الإمام ابن سعود الإسلامية، العدد 7 (الرياض: جامعة الإمام محمد بن سعود، 1413هـ/1992م).

في مقصدية السياسة الشرعية في كتابات عبد الكريم المغيلي التلمساني قراءة تفسيرية لبعض النماذج

اسم ولقب الباحث: شعيب مقنونيف

مؤسسة الانتماء: جامعة أبي بكر بلقايد- تلمسان

المخلص

يَنسَم الواقع الإنساني بكثرة الحوادث وتعاقبها، وتتابع مستجداتها ممَّا يستدعي عدم تناهي الأفضية والأحكام، والمسائل النازلة بالناس من شؤون مختلفة لا تجيب عنها الفتاوي المنقولة، والأحكام المتعارف عليها، وإنما تتطلب اجتهادا لكل نازلة طارئة وجديدة، لذا اهتم فقهاء المالكية أكثر من غيرهم بما يعرف بالسياسة الشرعية، على أنها باب من أبواب العلم والفقه في الدين، وفي قيادة الأمة وتحقيق مصالحها الدينية الدنيوية، فاعتنوا بها عناية شديدة، وعالجوا الكثير من نوازلها، وتمثلت هذه المساهمة التي قامت على منطلق تشريعي واضح في المحافظة على الكليات الخمس؛ الدين والنفس والعقل والنسل والمال في الواقع الديني والاجتماعي والاقتصادي والثقافي والسياسي. وممَّا يؤكد ذلك النظر في آثار فقهاء المالكية، فتحدثوا عن السياسة الشرعية في مدوناتهم الفقهية، وأفردوا لها الحديث في مصنفات خاصة. والشيخ المغيلي التلمساني واحد منهم، وذلك بمساهمته في كتاباته ورسائله لملوك وحكام إفريقيا في عصره (القرن التاسع الهجري)، حيث يكشف فيها عن حقيقة القضاء بالسياسة الشرعية من ناحية سياقها التاريخي والديني.

الكلمات المفتاحية:

مقصدية السياسة الشرعية/ كتابات المغيلي/ قراءة تفسيرية.

On the Purpose of the Legal Policy in the Writings of Imām al-Maghīlī al-Tilmisani -An Explanatory Reading of Some Models-

Abstract

The human reality is characterized by the abundance of events and their succession and developments, which necessitate the indefiniteness of the judiciary and rulings as well as the issues that come down to people from various matters that are not answered by the transmitted *fatwas* and the customary rulings, but rather require diligence for each emergency and new disaster. Thus, the Maliki jurists paid more attention than others to what is known the legal policy, as one of the chapters of science and jurisprudence in religion, and in guiding the nation, achieving its worldly and religious interests. This contribution, which was based on a clear legislative logic, was represented in preserving the five *Maqāsid of ash-Sharī'ah*" (Shariah objectives) the religion, the soul, the mind, the offspring and money, in the religious, social, economic, cultural and political reality. Then, this is confirmed by looking at the writings of the Maliki jurists, so they talked about legal politics in their jurisprudential books, and they specifically mentioned it in their workbooks. Among these contributions is that of the scholar Imām Muḥammad b. 'Abdul Karīm al-Maghīlī al-Telmisani, who reveals the reality of judging by legal policy in terms of its historical and religious context in his writings and letters to the kings and rulers of Africa in his time (the ninth century AH).

Keywords:

The Purpose of the Legal Policy, al-Maghīlī's writings, an Explanatory Reading

مدخل: في فقه السياسة والسلطة

1. أهمية فقه السياسة في الثقافة السلطانية

عرف الفقه الإسلامي السياسة الشرعية مصدراً تبعياً من مصادر التشريع فيما لا نصّ فيه، ولا أدلّ على ذلك من استخدام الفقهاء لهذا المصدر، فاستندوا إلى مبادئ وقواعد شرعية تعدّ من أصول السياسة الشرعية ومن مستنداتها الهامة كالاستحسان والمصالح المرسلّة، ومبدأ سدّ الذرائع والعرف، ومبدأ رفع الحرج ومراعاة الخلاف، وغيرها من المبادئ العامّة.

لقد تعدّدت المجالات الفقهية التي برز فيها فقهاء المالكية بالغرب الإسلامي، وتنوعت تأليفهم ما بين مطولات ومختصرات وشروح، فكان جلّ اهتمامهم منصباً على موضوع الأفضية والأحكام، وهذا الضرب من التأليف يساهم في فهم البعد التاريخي للدارس لمعطيات في غاية الأهمية من مختلف جوانب الحياة خاصة الدينية وما تعلق منها بالجانب الاجتماعي في العهود التي عاش فيها مؤلفوها.

والسياسة الشرعية هي: «التصرف في عموم مصالح الأمة ممّا زاد على القضاء»⁽¹⁾، وهي كذلك: «تدير شؤون الدولة الإسلامية التي لم يرد بحكمها نصّ صريح، أو التي من شأنها أن تتغيّر وتتبدّل بما فيه مصلحة الأمة، ويتفق مع أحكام الشريعة، وأصولها العامّة»⁽²⁾. وبناءً على هذا فوظيفة السياسة الشرعية⁽³⁾ بالأساس هي رعاية مصالح العباد والرعيّة، ومنع وقوع الفساد

(1) السيد عبد الرضى، التجاذبات السياسية بين الفقيه والسلطان والجماعة في الفكر السياسي الإسلامي، (بيروت- عمان: منشورات دار الثقافة والفنون، ط 01، 1999)، ص 143.

(2) الشامي عبد القادر، مقاربات جديدة للسلطة السياسية والسلطة الدينية في تاريخ الفكر السياسي الإسلامي، (القاهرة: منشورات الدار المصرية اللبنانية، 1994)، ص 78.

(3) إن أهمية السياسة الشرعية تظهر في جملة أمور منها:

عليهم؛ عبر التدابير التي يراها الحاكم المسلم، وذلك فيما لم يرد فيه نص شرعي، لذلك فهي تكتسب أهميتها من أهمية وجود الحكم السياسي، وقيام الحاكم بين الناس أساساً⁽⁴⁾.

2. خطاب فقه السياسية: الأصول والامتدادات

ولعل من أهم مقدمات هذا الضبط المعياري ما أَلْفَه فقهاء من أمثال الماوردي: «نصيحة الملوك»، و«قوانين الوزارة وسياسة الملك»، و«تعجيل النظر وتعجيل الظفر»، و«الأحكام السلطانية والولايات الدينية»، وكذلك أبو يعلى الفراء: «الأحكام السلطانية»، والجويني: «غياث الأمم في التياث الظلم»، و«كتاب الإرشاد إلى قواطع الأدلة في أصول الاعتقاد»، وأيضا المرادي أبي بكر بن الحسن «كتاب السياسة أو الإشارة في تدبير الإمارة»، على الرغم من أن التأليف في مبحث الأحكام السلطانية لا يعدو أن يكون على وجه الحق سوى نوع من الكتابة الفقهية في مجال السياسة، تحمّس لها المؤسسون⁽⁵⁾.

* وظيفة السياسة الشرعية الأساسية هي حفظ مقاصد الدين والضرورات الخمس؛ وهي حفظ الدين، وحفظ النفس، وحفظ العقل، وحفظ النسل، وحفظ المال، فوظيفة الحاكم هي تحقيق مقصود الله من أحكام الشريعة.

* السياسة الشرعية تهض بالأمة إلى أعلى مراتب الرقي والتطور؛ على جميع الأصعدة؛ السياسية، والاقتصادية، والأمنية والرفاهية.

* السياسة الشرعية تؤدي إلى حفظ المصالح وجليها وتحقيقها وتطوير الحسن للأحسن، ودفع المفساد، وسد الطرق المؤدية إليه ومنع وقوعها.

* تقوم السياسة الشرعية بمواجهة النوازل والمستجدات التي تطرأ على الأمة في جميع المجالات، وتقوم بتشريع الأحكام الشرعية الخاصة بها، والتي تليق بمقصود الشرع منها، وتحقيق الغايات التي من أجلها شرعت الأحكام.

* السياسة الشرعية تقوم بالتكيف مع الواقع بمرونة وسلاسة. (لمزيد من التوسع ينظر:- التجاذبات السياسية بين الفقيه والسلطان والجماعة...، ص 149 - ومقاربات جديدة للسلطة السياسية والسلطة...، ص 83)

⁽⁴⁾ ينظر: مقاربات جديدة للسلطة السياسية والسلطة الدينية في تاريخ الفكر السياسي الإسلامي...، ص 78.

⁽⁵⁾ ينظر: فازيو نبيل، دولة الفقهاء: بحث في الفكر السياسي الإسلامي، (دار المعارف: مصر، 2015)، ص 93.

يحقّ لنا التساؤل في هذا المقام عن الوظيفة الأساسية للفقهاء السياسي؛ هل هو الضبط المعياري والرقابي للدولة؟ أم التقعيد الشرعي لها؟ إن وظيفته هي التقعيد الشرعي للدولة، والرقابة المعيارية للمجال السياسي.

فإن كانت الأولى هي الأحق بالوصف فكيف يمكن أن تكون الكتابات الفقهية ذات نزوع ديني تقعيدي؟ وكيف أن لها أن ترتقي بمفاهيمها إلى مصاف المفاهيم السياسية؟ بعبارة أوضح: كيف يمكن للعقل الفقهي، أن يصير سياسياً وهو يتشوف إلى بلوغ المراتب السياسية لمفاهيمه، لا نعرف كيف يمكن لخطابٍ دينيٍّ يستند على الدين أن يكيّف منظومته ومجال التدبير السياسي.

3/ هيكل الدولة في فقه السياسية وجدلية السياسي والديني

قامت هيكل الدولة في الفقه السياسي بالارتكاز على مفهوم الإمامة، لما لهذا المفهوم من سلطة مرجعية تستند على الشرع أولاً، ثم من ثمة على السياسة ثانياً. فكّر الفقهاء إذًا في مسألة الإمامة على مقتضى الشرع، الذي مثّل بالنسبة لهم الضامن الوحيد للعدالة، وعلى ذلك أسس الفقهاء تصورهم على خمسة مرتكزات نذكر منها:

أولها: التمييز بين الدولة والسلطة، ومعناه التفكير في الدولة باعتبارها جهازاً، لكنهم لم يولوا أهمية لمسألة السلطة، بل حبسوا تنظيرهم في إرادة الحاكم باعتبارها جوهر السلطة، وهو ما نلّفه في كتاب "الخلافة والملك" لابن تيمية؛ حيث التركيز على الفتاوى الشرعية التي تصبّ في معمعة الحكم، وما يؤكد التمييز بين الدولة والسلطة؛ أي بين الحكم والملك⁽⁶⁾.

ثانيهما: مسألة الإمامة بين العقيدة والشريعة؛ حيث انتقل الحديث عن السياسة من كونها مسألةً عقديّةً إلى مصاف كونها شرعيةً، مفاد هذا الانتقال هو إحداث نقلة نوعية من علم الكلام إلى الشريعة.

⁽⁶⁾ نفسه: ص 169.

ثالث: هذه المرتكزات أصلها مسألة الإمامة وتأويل التاريخ. سخر الفقهاء جهداً كبيراً في تأويل التاريخ الإسلامي على مذهب التقعيد التاريخي للمسألة السياسية، لدرجة وصل معها ابن تيمية إلى دفع التهم التي ألصقت بمعاوية حتى يصير تاريخ الملك امتداداً للخلافة الراشدة؛ هكذا صار الفقهاء يؤولون التاريخ الإسلامي بما يفيد التبرير الشرعي للمسألة السياسية، ولا ضير أن يوفق الفقهاء هاهنا بين الخلافة والملك بعدها ما دامت الغاية هي التحقيق المعياري للفعل السياسي⁽⁷⁾.

مسألة أخيرة استأثر بها الفقهاء، تمثلت في التشريع لمنصب الإمام، وما دما قد بلغنا مرحلة الشروط المطلوب توفرها في الإمام؛ فهذا يعني أن التقعيد الشرعي لهذا المنصب قد فرغنا منه وجعلناه وجوباً ضرورياً.

ما يلتفت الانتباه في مسألة هذه الشروط هو أنها جاءت مفصلة تفصيلاً دقيقاً، فمن الشروط الجسدية مروراً بشرط العلم إلى مسألة الكفاية، عدّد الفقهاء شروط الإمام حتى كادوا يجعلونه صورةً طوباوية لا تستقيم وواقع الحال.

إذا «فاهتمام الفقهاء بشروط الإمامة شكّل واحدة من لحظات تفكيرهم في سؤال الإصلاحية الذي أخذ يطفو على سطح منطقهم التبريري، الذي أعملوه في استنباط أحكامهم السلطانية»⁽⁸⁾.

لم يقتصر تصور الفقهاء على التقعيد الشرعي والسياسي، بل تعدّاه إلى التخطيط لهياكل الدولة بما هي تجليات لها؛ أولى هذه الهياكل منصب الإمام بما له من حضور رمزي وواقعي، لذلك نلفي القاضي أبا يوسف⁽⁹⁾ في "كتاب

(7) ينظر: مقاربات جديدة للسلطة السياسية والسلطة الدينية في تاريخ الفكر السياسي الإسلامي...، ص 89.

(8) دولة الفقهاء: بحث في الفكر السياسي الإسلامي...، ص 218.

(9) هو يعقوب بن إبراهيم بن حبيب الأنصاري الكوفي البغدادي (المولود 113 هـ/731 م المتوفى 182 هـ/798 م)، صاحب الإمام أبي حنيفة و واحد من تلاميذه المخلصين والذين

الخراج" يؤكد على سلطة الإمام، وتعاليمها عن كل السلطات بوصفها سلطةً مركزيةً تمثل وحدة الدولة الإسلامية⁽¹⁰⁾.

لم يكن تشديد الفقهاء على سلطة الإمام سوى غيضٍ من فيضٍ؛ فالحاكم يجب أن يمتلك سلطةً قويةً ضامنةً لوحدة الدولة، كما أن شبح الضعف والوهن الذي طال أنظمةً سياسيةً كان يحلق فوق رؤوسهم.

أما وإنَّ الإمامَ مجرد إنسان فإن، فقد فكَّر الفقهاء في مسألة الولاية، بل جعلوها واجبًا دينيًا، أتوا لها بكل التبريرات الشرعية التي تبوَّأها المكانة الضرورية الملزمة شرعًا، كيف لا والمسألة على غاية من الأهمية؛ ما دامت تتعلق بخلافة الإمام، وتجنب الفتنة والتشردم، وهو ما كان يخافه الفقهاء ولربما أكثر من تهديدات الأعداء. انتقل إذاً الخطابُ الفقهيُّ من المستوى الكلامي إلى المستوى التشريعي، بل تعدَّاه إلى التفصيل في التأسيس نظريًا وعمليًا لهرم الدولة، حتى بدا أنه نزل بثقله على المسألة السياسية وجعلها نُصب اهتمامه، وليس بغريبٍ ههنا أن يهتمَّ الفقهاء بالمسألة السياسية تنظيرًا، لكن الأغرهبو الدخول في دواليب الدولة من ألفها إلى يائها؛ فمن

نشروا مذهبه. كان فقهما علامة و من حفاظ الحديث والقول بالرأي لغلبيته عليه. ولى القضاء ببغداد في عصرها الذهبي على أيام المهدي والهادي والخليفة هارون الرشيد. توفي وهو على القضاء. هو أول من دعي بـ "قاضي القضاة"، وقيل عنه «قاضي قضاة الدنيا». كان أول من ألف الكتب في أصول الفقه على المذهب الحنفي، وكان واسع العلم بالتفسير والمغازي وأيام العرب. من آثاره: - كتاب الخراج - كتاب الآثار (مسند الإمام أبي حنيفة) - كتاب النوادر - كتاب اختلاف الأمصار - كتاب أدب القاضي - كتاب الرد على مالك بن أنس - كتاب الأمالي في الفقه - كتاب الفرائض - كتاب الوصايا - كتاب الوكالة - كتاب البيوع (ينظر: فؤاد الأنطاكي، أهمية كتاب الخراج في فهم مؤسسات الدولة في الحضارة العربية الإسلامية، بيروت - بنغازي: منشورات دار التراث العربي، ط 02، 1987)، ص ص 45-46

⁽¹⁰⁾ ينظر: يعقوب أبي يوسف، الخراج: تحقيق: طه عبد الرؤوف سعد، سعد حسن محمد، (القاهرة: المكتبة الأزهرية للتراث، طبعة جديدة مضبوطة، محققة ومفهرسة، د.ت)، ص 29. و- دولة الفقهاء: بحث في الفكر السياسي الإسلامي...، ص 228.

الإمام إلى الولاية، ثم الوزارة والقضاء وصولاً إلى المظالم، ثم أخيراً تشكل الحقل السياسي.

لم يقتصر تنظير الفقهاء لدواليب الدولة على العموميات، بل تعدّاه إلى التفصيل في التفاصيل الدقيقة، التي من شأنها أن تحافظ على سير بناء الدولة وسلطتها.

تظهر تجليات هذا التنظير التفصيلي في ما كتبه الماوردي عن الوزارة، وشأنها في دواليب الدولة، إذ يقول: «الوزارة على ضريين: وزارة تفويض ووزارة تنفيذ، فأما وزارة التفويض فهو أن يستوزر الإمام من يفوض إليه تدير الأمور برأيه وإمضائه على اجتهاده، وليس يمتنع جواز هذه الوزارة»⁽¹¹⁾.

وما كتبه أيضا ابن طباطبا في الفخري: «الوزير وسيط بين الملك ورعيته، فيجب أن يكون في طبعه شطر يناسب طباع الملوك، وشطر يناسب طباع العوام، ليعامل كلا من الفريقين بما يوجب له القبول والمحبة.. الأمانة والصدق رأس ماله»⁽¹²⁾.

نصان صريحان في إثبات مشروعية وزارة التفويض بأنّها هي وزارة النيابة عن الإمام. وليس في الأمر من غرابة هاهنا لكون الماوردي وابن طباطبا يستندان في ذلك على النصّ القرآني الذي يمدّه بالشاهد على إمكانية اتخاذ الوزير في النبوة⁽¹³⁾.

(11) الماوردي علي بن محمد بن حبيب، الأحكام السلطانية، تصحيح محمد بدر الدين النعساني الحلبي، (القاهرة: مكتبة الخانجي، ط 1909، 01)، ص 285. و- بسيوني رسلان صلاح الدين، الفكر السياسي عند الماوردي، (القاهرة- بيروت: دار الثقافة للنشر والتوزيع، 1983) ص 281.

(12) ابن طباطبا محمد بن علي، كتاب الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية، (القاهرة: مطبعة الموسوعات، 1317 هـ)، ص 136.

(13) هذه الأهمية أكد عليها غير واحد من الكتاب والمهتمين بالشأن السلطاني وآدابه، فهذا الجهشيارّي يقرر أن الخليفة كان في أول الأمر «يشرف على كل شؤون الدولة بنفسه، وإن استشار بعض المقربين إليه. ولكن فيما بعد لم يتمسك الخلفاء كثيرا بهذا

لذلك عدّها ابن خلدون أم الخطّط السلطانية والرّتب المملوكية؛ لأن اسمها يدل على مطلق الإعانة، فطبيعة عمل الوزير أن يعاونه الخليفة في شتّى الأمور كالنّظر في الجند والسلاح وسائر أمور المال والإدارة وغيرها، وهي بهذا الشمول تفوق المناصب الأخرى»⁽¹⁴⁾.

أمّا على مستوى القضاء، فقد سخر الفقهاء كل رمزيّتهم الدينية للرفع من القضاء إلى مصاف المؤسسة القائمة الذات. لا تضاهي محاولة الماوردي في هذا الباب سوى تلك التي اضطلع بها أبو يعلى يوسف الفراء، حيث اعتبر القضاء أدخل في باب الولايات التي تستلزم حكماً شرعياً⁽¹⁵⁾.

على أنّ تبوؤ القضاء مكانة المؤسسة والسلطة لم تكن لتمر مرور الكرام لتنتقل إلى سلطة موازية للسلطة السياسية، بل جعلوا هذه السلطة تحت تصرف الإمام، بما يفيد ضبط السّير العام لجميع السلطات التي تنهل من سلطة الإمام. لا يحوز القاضي في هذا المقام سلطة التصرف والحكم والفصل بمعزل عن سلطة الإمام، بل إنّه سلطة تابعة ولاحقة لسلطة الإمام؛ أو قلّ إنّها امتداد لسلطة الأخير⁽¹⁶⁾.

أولاً- الشيخ المغيلي وجهوده الإصلاحية والدعوية

أ/ السياسي والديني في تصور الفقهاء:

شكّلت سلطة الفقهاء الثقافية أداةً طيّعة في يد السلطة السياسية، لكنها ليست سلطة قائمة الذات، بل كانت تحتلّ مكانة الاستشارة

الإشراف المباشر لانتساع رقعة الإسلام، بحيث كان الخلفاء يختارون من يساعدهم في تصريف شؤون دولتهم، وبخاصة الإدارية منها وذلك بين كبار موظفيهم، الذين يطلق عليهم لفظة الكاتب» (أحمد فاروق المختاري، السياسة الشرعية برؤية خلدونية،

(حلب، أقادير: منشورات دار الآفاق الثقافي، ط 01، 2001)، ص 41)

⁽¹⁴⁾ ينظر: السياسة الشرعية برؤية خلدونية...، ص 35.

⁽¹⁵⁾ ينظر: دولة الفقهاء: بحث في الفكر السياسي الإسلامي...، ص 291.

⁽¹⁶⁾ نفسه: ص 310.

والتجوز والإفتاء؛ إنَّها مكانة التبرير الشرعي لسياسة الإمام، وخلق مواعمة بين الواقع من جهة، والقانون والشرع والحق من جهة ثانية⁽¹⁷⁾.

كان الفقهاء على وعيٍ تامٍّ بتحوّلات الواقع السياسي، وهم في ذلك قاموا بلعبةً ذكيةً تمثلت في رفع راية مسامرة الواقع وما يحتمله من تغيّرات. وفي ذلك نجدهم أحلُّوا إشكاليةَ الشرع والتشريع محل الخلافة وشروطها⁽¹⁸⁾.

ب/ الإصلاح عند الفقهاء:

لم يكن الفقهاء في واقع الأمر بعيدين عن واقعهم السياسي، انخرطوا أيما انخرط في بناء وتحليل هذا الواقع، بما يفيد تأسيس الدولة والاجتماع السياسي الإسلامي. لذلك وجدنا الشيخ المغيلي يتّخذ من الحوار آلية في جميع جهوده الإصلاحية والدعوية فهو في نازلة اليهود بتوات «لم يمل في حله وترحاله من محاولة المحاورة والدعوة الهادئة إلى إصلاح حال الأمة التواتية، فلم يكتف بإرسال الرسائل وإيفاد الرسل، بل كان يذهب بنفسه لمناظرة غيره إذا استدعت الضرورة كما فعل مع علماء فاس في النازلة السابقة الذكر»⁽¹⁹⁾.

وغير خافٍ أن الشيخ المغيلي قضى أزيد من عشرين سنة في الدعوة إلى الإسلام ونشر أحكامه وأفكاره وإرساء مبادئه بين شعوب السودان الغربي والأخذ بيد الحكام⁽²⁰⁾. ما جعل شعوب وقبائل عديدة تعتنق الإسلام. كما

(17) م.س: ص 398..

(18) نفسه: ص 404.

(19) أحمد جعفري، من تاريخ توات (أبحاث في التاريخ)، (القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، 2008)، ص 24. - و خير الدين شترة، " الإرث الفكري والإصلاحي للشيخ المغيلي في إقليم توات وحواضر السودان الغربي"، مجلة المعارف للبحوث والدراسات التاريخية، العدد 21، (د.ت)، صص 41، 42.

(20) ينظر: دفرو رابح وعبد الله مقالاتي، 2010، " الشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي مصلحا دينيا وسياسيا في توات والسودان الغربي"، ضمن أعمال الملتقى الوطني الرابع

نوّه بذلك رواد الإصلاح في إفريقيا في العصر الحديث بمرجعية المغيلي في مختلف أحكامهم الدينية والسياسية⁽²¹⁾.

ولعلنا نتساءل عن مصدر هذه الجهود الإصلاحية والدعوية للشيخ؟؟ وللإجابة عن ذلك لا بدّ من الوقوف على مشاربه الفكرية المشكّلة من عناصر ثلاثة؛

أولها: تكوينه العلمي حيث نهل معارفه بداية من مسقط رأسه مغيلة، وعلى يد علماء تلمسان، كما أخذ عن علماء بجاية والجزائر وتوات. ولما تَبَغ في مختلف العلوم الشرعية واللغوية أَهْلَ لتولّي مهمّة التدريس بإجازة عديد من العلماء، فجلس للتدريس بالمسجد الكبير بتلمسان، وواصل المهمّة نفسها لما رحل إلى توات، وكذا بلاد السودان الغربي، فضلا عن الإمامة والإرشاد والوعظ⁽²²⁾.

ثانها: رحلاته العديدة التي عُرف بها جعلته ينطلق من تلمسان إلى بجاية، ثم رجوعاً إلى الجزائر⁽²³⁾، ثم التّزول بأرض توات التي بقي بها مدّة

حول إسهامات علماء توات في الحركة الفكرية والثقافية إبان العصر الحديث (1500 – 2000)، (جامعة احمد دراية أدرار)، ص 24.

⁽²¹⁾ ينظر:مقالاتي عبد الله و رموم محفوظ، ، دور منطقة توات الجزائرية في نشر الإسلام والثقافة العربية بإفريقيا الغربية، (الجزائر:منشورات وزارة الثقافة، دار الشروق، ط 01، 2009)، ص 131.

⁽²²⁾ ينظر: "الشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي مصلحا دينيا وسياسيا في توات والسودان الغربي"،...، ص 24- و فيلالي فاطمة، "منهج وأسلوب العالم محمد بن عبد الكريم المغيلي التلمساني في التأليف من خلال كتابه مصباح الأرواح في أصول الفلاح"، مجلة الاستيعاب، (العدد الثاني، 2019)، ص 157.

⁽²³⁾ ينظر:عبد الله كروم، الرحلات بإقليم توات دراسة تاريخية وأدبية للرحلات المخطوطة بخزائن توات، (الجزائر:منشورات باب حسان، د.ط، 2007)، ص 53- وشترة خير الدين، الشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي التلمساني المصلح الثائر وفكره الإصلاحي في توات والسودان الغربي، ج 2، (مخطوط دكتوراه)، الجامعة الإفريقية، أدرار- الجزائر، 2010، ص ص342، 343.

ليست بالقصيرة فقام بالدعوة والإصلاح والتعليم، وتحين الفرصة بعد ذلك للذهاب إلى فاس بدعوى نازلة اليهود المعروفة⁽²⁴⁾، ورواج الآراء الفقهية والعقدية الذي صاحبها في أغلب حواضر المغرب الإسلامي قدم انطبعا إيجابيا على تأثيرات الرحلات الأنفة الذكر على شخصية المغيلي وثقافته، كما ممتنت هذه النازلة العلاقة الحضارية بين الكثير من الحواضر المتباعدة، فقد تعدى الأمر حدود توات وأخذ صبغة إقليمية، يُناقش في كل حواضر المغرب الإسلامي⁽²⁵⁾.

توجه بعد ذلك الشيخ إلى السودان الغربي الذي سيقضي فيه قرابة العشرين سنة في حقل الإفتاء والتدريس والدعوة لدين الله وكتابه⁽²⁶⁾. وأثناء هذه المدّة أُتيحت له فرصة مرافقة « الأسقيا محمد الكبير » في رحلة حجية ومن ثم زيارة القاهرة حيث التقى بواحد من أساطين العلم والمعرفة وقتئذ إنّه العلامة جلال الدين السيوطي⁽²⁷⁾.

ويبدو أنّ ثقافة الرحلة والترحال أكسبت المغيلي رصيذا معرفيا واجتماعيا كبيرا وكان لها أثر واضح ومباشر في تكوينه العلمي والدعوي والإصلاحي.

ثالثها: منزلة المغيلي الثقافية والعلمية:

كما هو معلوم لقد تلقى المغاربة مذاهب السلف على يد مَنْ وُفِد إليهم من الصحابة والتابعين، وشاهدوا الفتن التي أدّى إليها التأويل والبعد عن النصوص، فبعد دخول الموطن إلى إفريقية ومعرفة سكانها بتفسيره أقبلوا

⁽²⁴⁾ ينظر: يحيى بوعزيز، تاريخ إفريقية الغربية الإسلامية من مطلع القرن 16 م إلى مطلع القرن 20 م، (الجزائر: دار هومة للطباعة والنشر، د.ط، 2001)، صص 76-79.

⁽²⁵⁾ ينظر: الشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي التلمساني المصلح الثائر وفكره الإصلاحي في توات والسودان الغربي، ج 2، ...، ص 343.

⁽²⁶⁾ تاريخ إفريقية الغربية الإسلامية من مطلع القرن 16 م إلى مطلع القرن 20 م ...، ص 80-83.

⁽²⁷⁾ ينظر: السملاي العباس بن ابراهيم، الإعلام بمن حل بمراكش وأغمات من الأعلام، ج 5، مراجعة: عبد الوهاب بن منصور، (الرباط: المطبعة الملكية، ط 1999، 02)، ص 107.

عليه، والتزموا به، حيث وجدوا فيه ضالهم لجمعه بين البساطة والأصالة إضافة لاستمداده من الحديث. وبهذا اشاع مذهب مالك في بلاد المغرب عامة، وتشبثوا به وخدموه خدمة جليلة حتى إنَّ كتبهم في المذهب وشروح الموطأ تحتل مقام الصدارة فيمراجع الفقه المالكي شرقا وغربا.

يعدّ الشيخ المغيلي من مثقفي عصره وعلمائه النشيطين تميّز بشخصية قوية استطاع عبرها التأثير في الناس يوم تواجدته في بلدان السودان الغربي، حتى قرُن اسمه لديهم بلفظة "الإمام"⁽²⁸⁾.

أمّا بالنسبة لبلاد المغرب فقد عُرف بنقمته على الحكام الذين رأى فيهم تفريطا في مصالح الحكم والمسلمين بتقريبهم اليهود والنصارى واتّخاذهم بطانةً من دون المؤمنين، وخروج اليهود عن صفة أهل الدّمة وما يلزم ذلك من الجزية والصّغار لذا جاءت جهوده الإصلاحية في بلاد المغرب في هذا المسلك بقيامه ضد اليهود في منطقة توات ممّا أثارت جدلا واسعا بين معاصريه وبها ازدادت شهرته وأطبقت الأفاق في عصره وبعده⁽²⁹⁾ إنّ بيان منزلة المغيلي بين علماء المذهب لاحتياج إلى كبير تقرير، فقد أطبقت مصادر ترجمته على أنّه أشعري العقيدة مالكي المذهب، خدمه خدمة في مقام اتال تأصيل والمناظرة والتأليف، وتطوير مجالات تطبيق أصول المذهب وخاصة فقه العمليات أيما جرى به العمل والفتوى⁽³⁰⁾ والقضاء، ذلك أنه كان فقيها

⁽²⁸⁾ ينظر: محمد بن عبد الكريم المغيلي، أسئلة الأسقيا وأجوبة المغيلي، تحقيق: عبد القادر زبادية، (الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، د.ط، 1974) ص 10.

⁽²⁹⁾ ينظر: أبو العباس بن يحيى الونشريسي، المعيار المغرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل إفريقية والأندلس والمغرب، ج 02، خرّجه: جماعة من الفقهاء بإشراف محمد حجي، (الرباط: نشر وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالمملكة المغربية، 1981) ص ص 214-235. و- ابن عسكر الحسني الشفشاوني، دوحة الناشر، تحقيق: محمد حجي، (الرباط: أوفيسيطدار المغرب، ط 02، 1977)، ص 131. و- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج 01، (بيروت: دار الغرب الإسلامي، ط 1998، 01)، ص ص 53-55.

⁽³⁰⁾ الفتويهي «الإخبار عن الحكم على غير وجه الإلزام. وتبيين الحكم الشرعي عن دليل لمن سأل عنه» (مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي، القاموس المحيط، ترتيب:

حافظا ترجع إليه الفتوى، وأصوليا ماهرا نظّارا، محققا كبيرا، نقادا ثَبَّتًا، مشاركًا في التفسير، مشهودا له في الحديث وعلومه، مؤلفًا قدوةً، نبيا عارفاً بعلم القراءات متضلعا في علوم الأدب على حدّ رأي أحد الدارسين⁽³¹⁾، إنّه بالفعل «الفقيه الفذّ، والمجتهد البصير، والمصلح المشرّع الحصيف الذي كان له من البلاء، ما يجدر بالقارة الإفريقية أن تضع اسمه ضمن قائمة رجالاتها وبواسلها العظام»⁽³²⁾، حيث ساهم بتأليف جملة من المصنفات التي تخدم المذهب خدمة مباشرة⁽³³⁾، 5 وعُني في الفقه، والترجمة لرجاله

خليل مأمون شيحا، (بيروت: دار المعرفة، ط 2007، 2)، ص 975. و-(إبراهيم اللقاني، منار أصول الفتوى وقواعد الإفتاء بالأقوى، تحقيق: عبد الله الهلالي، الرباط: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المملكة المغربية، 2002)، ص 231.⁽³¹⁾ ينظر: محمد بن محمد بن مخلوف، شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، (بيروت: دار الكتاب العربي، د. ط، د. ت)، ص ص 266، 267.⁽³²⁾ مقدم مبروك، الشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي التلمساني وأثره الإصلاحية بإمارات وممالك إفريقيا الغربية خلال القرن الثامن والتاسع والعاشر للهجرة، ج 01، (وهران: دار الغرب للنشر والتوزيع، ط 2002، 01) ص 28.⁽³³⁾ لقد ترك العلامة المغيلي تراثا ضخما في مختلف الفنون والمعارف هذه أهمها:

- «البدر المنير في علوم التفسير» - تفسير سورة الفاتحة - "الفتح المبين في شرح القرآن المبين" - مصباح الأرواح في أصول الفلاح - "المفروض في علم الفروض" - "مختصر في علم الفرائض" - "منهج الوهاب في رد الفكر إلى الصواب" - "شرح على بيوع الأجل لابن الحادب" - "مقدمة في العربية" - تنبيه الغافلين عن مكر الملبسين بدعوى مقامات العارفين" - "مفتاح النظر في علم الحديث" - "مقدمة في علم المنطق" - أسئلة الأسقيا وأجوبة المغيلي" - "التعريف بما يجب على الملوك والأمراء" - "مختصر فيما يجوز للحكام في ردع الناس عن الحرام" - "مغني النبيل وهو شرح لمختصر خليل" - "إكليل مغني النبيل".

لقد ذكر له العلماء أزيد من أربعين مؤلفاً بين مخطوط ومطبوع ومفقود، ويتواجد أغلب هذه المخطوطات في خزائن مكتبات توات ومراكز المخطوطات بغرب إفريقيا كساي بالنيجر وتمبكتو بمالي وكانونبيجريا. (للمزيد من الاستزادة حول مؤلفاته ينظر:- أبو بكر ميغا، الحركة العلمية والثقافية والإصلاحية في السودان الغربي، (المملكة العربية السعودية: مكتبة دار التوبة، ط 01، 1977)، ص ص 173، 174. و-أحمد مرتضى، الإمام المغيلي وإسهامه في بناء الحضارة الإسلامية في بلاد الهوسا، (الملتقى الدولي الثالث حول الفاتح عقبة بن نافع، سيدي عقبة بسكرة - الجزائر،

حتى نعته أحمد بابا التنيكتي بقوله: «محمد بن عبد الكريم المغيلي التلمساني خاتمة المحققين الإمام العالم العلامة الفهامة القدوة الصالح السني، أحد الأذكياء ممن له بسطة في الفهم والتقدم متمكن المحبة في السنة وبغض أعداء الدين»⁽³⁴⁾. كما نعته أيضا العلامة السيوطي بالحبر النبيل، فضلا عن الاعتراف بفضله بعد المراسلة المنظومة بينهما في علم المنطق⁽³⁵⁾.

وانتصر له كذلك الفقيه أحمد الونشريسي بقوله: «الحق الأبلج الذي لا شك فيه، ولا محيدا عنه أن البلاد التواتية وغيرها من قصور الصحراء النائية المسامية لتلول المغرب الأوسط المختلطة وراء الرمال المتهبة التي لا تنبت زرا ولا ضرعا بلاد إسلام باختطاط، لا تقرر للملاعين اليهود أبعدهم الله فيها كنيسة إلا هُدمت باتفاق ابن القاسم»⁽³⁶⁾.

وعُدَّ المغيلي من أشهر العلماء والأولياء الذين حلوا بتمنيط إنّه: «مشهور بالعلوم الظاهرة والولاية الباطنة، فهو آية الله في أرضه وحجته في شريعته»⁽³⁷⁾، ووصفه عبد الرحمن الجيلالي بالبطل الشجاع في قوله: «هو

(2014)، ص 8-و- الشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي التلمساني وأثره الإصلاحية بإمارات وممالك إفريقيا الغربية خلال القرن الثامن والتاسع والعاشر للهجرة، ج 01، .. و- نورالدين بوكريد، جهود العلامة محمد بن عبد الكريم المغيلي في مجال الكتابة في فقه السياسة الشرعية بين التجديد والتأثير، (قسنطينة: جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، د.ت) ص 104.

⁽³⁴⁾ أحمد بابا التنيكتي، نيل الابتهاج بتطريز الديباج، ج 01، تحقيق: عبد الحميد عبد الله الهرامة، (طرابلس: منشورات كلية الدعوة الإسلامية، ط 1989، 01)، ص 264.

⁽³⁵⁾ قال المغيلي في مستهل المراسلة المنظومة للسيوطي:

خُذِ الْحَقَّ حَتَّى لَوْ مِنْ كُفُورٍ وَلَا تُقِمِّمْ دَلِيلًا عَلَى شَخْصٍ بِمَذْهَبٍ مِثْلِهِ

(نيل الابتهاج بتطريز الديباج، ج 01، ..، ص 151)

⁽³⁶⁾ المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل إفريقيا والأندلس والمغرب، ج 02، ..،

ص 232.

⁽³⁷⁾ ابن عبد الرحيم بن بابا حيدة، القول البسيط في أخبار تمنيط، تحقيق: فرج

محمد فرج، (الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية والمؤسسة الوطنية للكتاب، د.ط، 1977) ص 38.

أبو عبد الله محمد بن عبد الكريم بن محمد المغيلي التلمساني أحد أعلام الجزائر، وأبطالها الشجعان في فاتحة القرن العاشر الهجري»⁽³⁸⁾.

ثانيا- السلطة وشرعيتها من منظور المغيلي

1/ السلطة ومسؤوليتها:

لا بأس أن نستهل هذا العنصر ببسط الحديث عن مفهوم السلطة حتى يسهل علينا فهم تعاطي المغيلي معها.

السلطة بمعناها العام في الاصطلاح هي: «الحق في الأمر، فهي تستلزم أمراً ومأموراً وأمراً، أمراً له الحق في إصدار أمر إلى المأمور، ومأموراً عليه واجب الطاعة للأمر وتنفيذ الأمر الموجّه له. إنّها إذاً، علاقة بين طرفين متراضيين؛ يعترف الأول منهما بأن ما يُصدره من أمر إلى الطرف الثاني ليس واجباً عليه إلا لأنّه صادر عن حقّ له فيه، ويعترف الثاني منهما بأن تنفيذه للأمر مبني على وجوب الطاعة عليه وحقّ الطرف الأول في إصدار الأمر إليه، فالمشكلة الأساسية الأولى في علاقة السلطة هي مشكلة الاعتراف بما تتقوم به من حق وواجب عند طرفيها.

فإذا كان الاعتراف تاماً ومتبادلاً، استقامت السلطة كعلاقة أمريّة مشروعة، ولكن إذا تطرّق الخلل إليه، من جهة الأمر أو من جهة المأمور أو من جهة الأمر نفسه، فإنّها تتعرّض للارتباك والتصدّع والوهن، وقد تنتهي إلى انهيار»⁽³⁹⁾.

⁽³⁸⁾ عبد الرحمن الجيلالي، تاريخ الجزائر العام، ج 02، (الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية، 1982)، ص 171.

⁽³⁹⁾ ناصيف نصار، منطق السلطة مدخل إلى فلسفة الأمر، (بيروت: دار أمواج للنشر والتوزيع، ط 2، 2001)، ص 7.

طرح المغيلي مفهومين شديدي الأهمية والاتساق في مطلع كتابه « تاج الدين فيما يجب على الملوك والسلاطين»⁽⁴⁰⁾ عند حديثه عن أبعاد مفهوم السلطة، وهما مصطلحا التقوى وهو النفس. حيث ربط المغيلي بداية حديثه بين تقوى الله والاعتصام بالله من هوى النفس⁽⁴¹⁾، وهو أمر في اعتقادنا يبدو منطقيًا وأساسيا عند الكلام عن السلطة، خاصة في تلك الفترة الزمنية التي كانت الممارسة تشير إلى أن سلطة الدولة كلها في يد الأمير أو الخليفة ويفوض بعضها لولائه على الأقاليم والأمصار، وأن ولي الأمر كان

⁽⁴⁰⁾ هو رسالة صغيرة تقع في ثمانية عشر صفحة من القطع الصغير، صدرت في مكة المكرمة على نفقة "صالح بن عبد الله باخطمة" المدعي العام ومفوض القسم العدلي بإدارة الأمن العام بمكة المكرمة، ونشرت باللغة العربية والإنجليزية عن دار ابن حزم سنة 1415 هـ / 1994 م.

وللإشارة تتكون هذه الرسالة التي بعث بها المغيلي إلى أمير كانو "محمد بن يعقوب رُمفا" من ثلاثة أقسام أساسية: مقدمة وضمها مدخل علم للموضوع ودعاء للأمير بالتوفيق والصلاح وإن لم يذكره باسمه لتبقى عامة، ثم نهبه إلى عظم مسؤولية الإمارة الملقاة على عاتقه بما تتطلبه من عدل واستقامة، وفي نهاية المطاف ذكره بيوم الآخر يوم الحساب والعقاب، وعقب هذه المقدمة بدأ المغيلي يسدي توجيهاته ونصائحه للأمير وهي في مجملها عبارة عن مرتكزات السياسة العامة للإمارة حصر كل ذلك في أبواب ثمانية؛ الخمسة الأولى فيما يجب على الأمير أن يقوم به في أحواله من "حسن النية"، و"ترتيب المملكة"، و"النزاهة بالحذر بالحضر والسفر"، و"ما يجب كشفه من الأمور الخاصة برعيته".

أما الباب السادس فذكر "بما يجب عليه من العدل والإحسان"، والباب السابع "فيما يجب عليه من جني الأموال من وجوه الحلال"، والباب الثامن خصصه "لوجوه مصارف أموال الله".

(للتوسع أكثر ينظر:- آدم عبد الله الإلوري، الإسلام في نيجيريا والشيخ عثمان بن فوديو الفلاني، (القاهرة:الدار المصرية للنشر والترجمة والتوزيع، ط 03، 1978)
- جهود العلامة محمد بن عبد الكريم المغيلي في مجال الكتابة في فقه السياسة الشرعية...، ص 110)

⁽⁴¹⁾ ينظر:محمد بن عبد الكريم المغيلي التلمساني، تاج الدين فيما يجب على الملوك والسلاطين، تحقيق: محمد خير رمضان،(بيروت:دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع، ط 1994، 01)، ص 17، 18.

يفعل بالمحكومين كيف يشاء ومتى يشاء، وكان غياب المؤسسة وما تفرضه من ضوابط على الحكام والمسؤولين، يجعل الاهتمام بالتحذير من هوى النفس أمراً في محلّه.

والمطالع للفقرات الأولى من كتابه «تاج الدين» التي تتحدّث عن مسؤولية السلطة خاصة عبارته «..الإمارة بلوى بين الهوى والتقوى»، يتّضح له أن المغيلي على دراية بعمق النفس البشرية وخبايها في تلك العبارة المشار إليها، فقد قدّم الهوى على التقوى، بالرغم من أن التقوى هي الأعلى والأسهى والأفضل فإنّها هي مقصود المغيلي تحقيقه من قبل الحاكم. بيد أن التراتبية التي قدمها تعكس فهم الإنسان وسرائره، حيث الهوى هو الأسهل والأقرب إلى النفس، وهو جزء أساسي ليس فقط من ممارسة السلطة، وإنّما أيضاً من أي عمل إنساني... أما التقوى، فهي على العكس من ذلك، تحتاج إلى الاجتهاد والجهاد والخروج عن الهوى ومقاومته، «وكأنّما يقدم المغيلي خطأً متدرجاً من الأسهل إلى الأصعب، من الأقرب إلى النفس البشرية إلى الأبعد منها، حينما يقول إن «الإمارة بلوى بين الهوى والتقوى»⁽⁴²⁾.

وقد رأى المغيلي في السلطة مسؤولية، حيث ذهب إلى أن كل من يملك العقل سمّاه «الرشادة»، فعليه أن يبنأ بنفسه عن السلطة. ولا يدخل أبواب الحكم إلا مضطراً، أو كارهاً.

أمّا إذا ما اضطر الإنسان إلى ممارسة السلطة والدخول إلى عالمها، وفقاً لأفكار المغيلي، فأول ما يجب أن يتذكره هو أنه ما زال بشراً، مثل كل البشر من حوله. ويحرص المغيلي على أهمية الخوف من الله والسهير على خدمة الناس الذين ولاه الله عليهم، حيث أن الحكم ليس ميزة وإنما عبء ومسؤولية. مع تأكيده على أهمية التواصل مع الرعية والعلم بقضاياهم،

⁽⁴²⁾ علي حسين ابتسام، "أصول السلطة السياسية ووظائفها الاجتماعية"، مجلة المسلم المعاصر، (العدد 2008، 130)، ص 15.

وعدم اتكال الحاكم على مجموعة من القضاة أو غيرهم من العاملين في الدولة، فضلا عن الاهتمام بفئتين من الرعية، ألا وهما النساء والأطفال، وربما يعكس ذلك الاهتمام بتلك الفئتين تحديداً بصيرة المغيلي، فهم الضعفاء من الناس والمستضعفين منهم، وبالتالي، فهم أكثر الناس حاجة إلى العدالة والحماية⁽⁴³⁾.

2/ شرعية السلطة.

لقد تطرق المغيلي لمسألة شرعية السلطة، فقد كرر على مدار صفحات كتاب «تاج الدين»، عبارة أشد ما تعبر عن اهتمامه الشديد بمسألة الشرعية وهي «رأس كل بلية، احتجاب السلطان عن الرعية»⁽⁴⁴⁾، فالحاكم لينال مشروعيته لا مناص له من الاهتمام والانغماس في هموم رعيته، وعدم الانزواء في قصره مع حاشيته، والتفرغ لأُموره الشخصية، وملذاته الفردية، إذ يفقد في هذه الحالة شرعيته، ويعرض حكمه لخطر الثورة عليه.

إنّ هذه العبارة جوهرية بالنسبة لفهم المغيلي وطرحه لمفهوم السلطة. ويظهر ذلك بتكرار هذه العبارة في أكثر من صفحات بالكتاب.

ومن أجل بناء شرعية السلطة، تطرق المغيلي إلى عدد من القضايا الفرعية المهمة، مثل مظهر السلطة. فقد حضّ الحاكم على حسن المظهر والتطيب والتزين... الخ، فإن هيبة الحاكم لا بد أن ترتبط بمظهر لائق، لكن مع ترك الإسراف والتطرف والمغالاة. بل إن الضوابط التي أوردتها المغيلي تكاد تقضي على فرص الحاكم في الخيلاء بنفسه أو الزهو بها. فعليه أن يراعي عدم التشبّه بالنساء أو إفساد بيت المال أو التحلّي بالذهب أو الفضة أو الحرير، وكل ما حرم الإسلام على الرجل⁽⁴⁵⁾.

⁽⁴³⁾ ينظر: تاج الدين فيما يجب على الملوك و السلاطين...، ص 6، 7.

⁽⁴⁴⁾ م.م.س: الصفحات: 24، 53، 47، 40، 33، 28.

⁽⁴⁵⁾ نفسه: ص 19.

بقدر ما حرص المغيلي على حسن هيئة الحاكم، فركز كذلك على حسن السلوك داعياً الحاكم إلى الجلوس بشكل معين أطلق عليه «التربيع» وهو دلالة على التواضع، وترك كثرة الحركة، لما في ذلك من ضياع الهيبة والوقار اللازم للحاكم، مع التأكيد على مراعاة حتى النظر إلى الآخرين وعدم التحديق في الآخرين «هامش العين» والتفكر مع الإقبال على المحكومين لأداء حقوقهم وليس رياءً.

هذا، وقد راعى «المغيلي» أدق التفاصيل، حتى فتح فيه للتثاؤب، فهو غير وارد إلا في أضيق الحدود⁽⁴⁶⁾. بما يعني ملاءمة مظهر الحاكم لمنصبه المهم، ملبساً وسلوكاً.

ومما يُحسب، في تقديرنا، للمغيلي أنه كان صاحب نظرة استشرافية، حيث أكد على مسألة المظهر دون أن يعيش في العصر الحديث، حيث يحظى تعليم الحكام كيفية ارتداء الملابس والقيام بالسلوكيات (طريقة المشي، الأكل، الوقوف... الخ)، والتصرفات اليومية باهتمام كبير مبني على دراسات علمية متنوعة، ويُنفق مال كثير لتعليم الأمراء هذه الأمور، ويمكن مقارنتها بما يصطلح عليه حالياً (بالإيتيك) و(البروتوكول) كفنّ للتعامل مع الآخر بدوق وتهذيب.

ومن المؤكد في عالمنا اليوم، أن شكل الحكام ومظهرهم جزء لا يتجزأ من الصورة العامة (publicimage) الخاصة بكبار المسؤولين. وهو ما انعكس في الاهتمام ليس فقط بتاريخ الحكام السياسي والاجتماعي، وإنما أيضاً شكلهم الفيزيائي، أصلهم العرقي، أسلوبهم في الحديث والخطاب وتناولهم للقضايا العامة المهمة. وتمّ إنفاق ملايين الدولارات على تحسين قدرة الحاكم، بل والمرشحين للمناصب العامة الكبرى، على أداء تلك المهام بشكل جذاب ولائق يعظّم من احترامه، ويعزّز من ثقة المواطنين فيه.

(46) نفسه: ص ص 21، 22.

إن تلك الأشياء التي قد تبدو بسيطة أو غير ضرورية هي في الحقيقة شديدة التأثير في نفوس المحكومين، وتعزّز بشكل أو بآخر شرعيتهم لدى الحاكم.

ذلك أن «المحكوم ينظر إلى الحاكم سيّء الملبس والسلوك غير جدير بالطاعة، وبالتالي إذا كانت السلطة تفتقر إلى الطاعة، فإنها تنتهي وتزول»⁽⁴⁷⁾.

وهناك قضية فرعية أخرى هامة طرحها المغيلي وهي الصحبة أي صحبة الأمير، والمقصود هم معاونو الحاكم وخدمه. وقد عرّفهم باستخدام معيارين: الوظيفة والصفات الشخصية التي تصبّ جميعها في قيمتي الورع وتقوى الله. فمرة يشير إلى المعاون من حيث وظيفته، وتارة يشير إليه من حيث ورعه.

وقد فصّل المغيلي في مسألة الصحبة، فأصحاب الحاكم ينبغي أن يكونوا: «خدّام بالحضرة يتصرفون، وعقلاء يُشرون، وأمناء يقبضون ويصرفون، وكتّاب وحساب يحفظون، ورسل وجسّاس، وحفظة وعسس، وعلماء ثقاتٌ يرشدون، وأئمة فضل يجمعون، وعدول يشهدون، ومحتسبون يكشفون ويصلحون، وأرباب شرطة يزجرون، وشفعاء يشفعون، وقضاة ثقاتٌ يفصلون، ورجال معظمون لوجه الله، وعمّال يحبون حقّ الله، ووزراء لا يخشون إلا الله»⁽⁴⁸⁾.

هذا إلى جانب تخصيصه حالة الحرب بعدد آخر من المستشارين والمتخصّصين الذي يجب أن يتّخذهم الحاكم كأصحاب، وهي نقطة مهمة أخرى يتناولها المغيلي في بناء شرعية السلطة، حيث تنبني على تحذير الأمير من الجبن والجبناء. فالجبناء ينتجون حالة من الجبن العام ويدفعون

⁽⁴⁷⁾ "أصول السلطة السياسية ووظائفها الاجتماعية"، ص 23.

⁽⁴⁸⁾ تاج الدين فيما يجب على الملوك والسلاطين...، ص 25، 26.

الحاكم إلى التخاذل والخنوع، فيما يحفزه الشجعان على الإقدام والمواجهة. وتكون هذه الفكرة استكمالاً لما قدّمه المغيلي عن صحبة الأمير أو السلطة. وقد ذكر المغيليان أصحاب الأمير في حالة الحرب يتوجب عليهم أن يكونوا «وزراء يجمعون الرجال ويخففون الأثقال، ويحملون على الحرب وحمل السلاح... وجناحين من سائر الخيل والرجال، وبلغاء ينشطون القلوب ويقبحون الهروب، وعرفاء بالحروب برأيهم تنكشف الكروب»⁽⁴⁹⁾.

ثالثاً- مقومات الحاكم والحكم من منظور المغيلي

من مقومات الحاكم والحكم عند المغيلي نكتفي بالإشارة إلى:

1/ العدالة:

إنّ القراءة المتأنية لنصوص الآداب السلطانية تكشف أن العدالة عدّت مسؤوليةً خطيرةً تقع على كاهل السلطان أو الحاكم، وأنّه يتحمّل أوزارها أمام الخالق، وهذا ما عبّر عنه المرادي الحضرمي في إشارته إلى أن السلطان «مسؤول عن جميع الخلق»⁽⁵⁰⁾. وكان الغزالي أكثر تحديداً لهذه المسؤولية حين أكد أن السلطان مسؤول أمام الله في تطبيق العدالة، ما يفهم من قوله، وهو يخاطبه «وأما ما يتعلق بمظالم الناس، فإنّه لا يتجاوز به عنك على كل حال يوم القيامة وخطره عظيم، ولا يسلم من هذا الخطر أحدٌ من الملوك إلا ملك عمِل بالعدل والإنصاف»⁽⁵¹⁾، وكما يلاحظ هو قول: «يوحى

(49) نفسه: ص ص 126، 127.

(50) أبوبكر محمد بن الحسن المرادي، كتاب السياسة أو الإشارة في تدبير الإمارة، تحقيق: سامي النشار، (الدار البيضاء دار الثقافة، د. ط، 1981)، ص 23.

(51) أبو حامد، الغزالي، التبر المسبوك في نصيحة الملوك، تحقيق: محمد أحمد دمج، (بيروت: دار الكتب العلمية، د. ط، 1988) ص 14.

بأن محاسبة الحاكم في تطبيق العدالة تكون محاسبة إلهية مؤجلة لا محاسبة بشرية آنية»⁽⁵²⁾.

وللمغلي عن العدالة والعدل تصور دقيق حيث مفهومه مأخوذ من استعارته للتعريف النبوي للعدل، إذ ينبغي أن يُؤتى كل ذي حقِّ حقَّه من نفسه وغيره. ومن ثمَّ فالعدل هنا مفهوم متعديّ، أي أنه ملزم للنفس وللغير، فيما الإحسان مفهوم لازم، يلزم به الإنسان نفسه دون غيره⁽⁵³⁾.

2/ القضاء:

الحاكم عند المغلي يجب أن يحسن إلى نفسه، وأن يعدل مع غيره ونفسه. وعلى الحاكم كذلك حين يفصل في خلاف بين خصمين أن يسوي بينهما في الدخول والجلوس وحتى النظر إليهما والكلام معهما، وغير ذلك من الأمور المتصلة بهذين الخصمين، مع التأكيد على ضرورة عدم إظهار الحاكم الميل لأحدهما أو غيرهما. ويكون ذلك عبر ترك التباسط والتعجرف في أبسط الأمور مثل السلام، فلا يردّ السلام إلا على مَنْ سلّم عليه وبما سلّم ليس أكثر ولا أقل، حتى يتبين له أنّ الشخص غير ذي صلة أو صفة في الخلاف محل الفصل.

وقد تطرق المغلي إلى أدقّ تفاصيل العملية القضائية، فإلى جانب الأبعاد الإجرائية الذي سبق تناولها في كيفية التعامل مع المتخاصمين، فإنه تناول قضية الأدلة وتحديد الشهود. ما يقبل منهم وما لا يقبل منهم. فعلى سبيل المثال، لا يقبل من الشهود التنكيل أو اتهام المشهود عليهم. ومراعاة السيرة الحسنة للشهود، لتجنّب شهود الزور⁽⁵⁴⁾.

⁽⁵²⁾ إبراهيم القادري بوتشيش، خطاب العدالة في كتب الأداب السلطانية، (الدوحة -

قطر:المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، ط 2014، 01)، ص 19.

⁽⁵³⁾ ينظر: تاج الدين فيما يجب على الملوك والسلاطين...، ص ص 41، 42.

⁽⁵⁴⁾ م.م.س: ص ص 43 - 45.

ولم ينته المغيلي عند هذا الحدّ، بل أصرّ على أن الحاكم، رغم سلطانه، يصدر حكمه على أساس مرجعية فقهية، تتمثل في إمامه الذي يتبعه هذا الحاكم، وإلا كان حكمه جوراً وطغياناً.

وهذه مساهمة قدّمها المغيلي، ولها أهميتها من المنظور المعاصر، ممّا يستوجب معه التّنويه بهذا المجتهد العلامة، ذلك لأن كل الأنظمة القانونية والقضائية المعاصرة تصر على وجود مرجعية قانونية للحكم القضائي، وهذا ما يسمّى بالركن الشرعي أو القانوني في القانون الجنائي، « فلا حكم إلا بقانون» و«القاضي يطبّق القانون ولا يصنعه». بل أكثر من ذلك، أتى بمفهوم النقص، إذا ما تمّ الحكم على غير مرجعية فقهية.

ولم يتوقف المغيلي في طرح فكرة العدل كجزء من القضاء عند هذا الحدّ. بل أيضاً ضمّن أساليب التحري، وبالأحرى التحقيق. فعلى سبيل المثال، ميّز بين ثلاثة أنواع من المتهمين: «مَن عُلم عنه النزاهة والصدق، ومَن عُرف عنه الفساد وارتكاب الجرائم، ومَن لا يُعرف عنه لا هذا ولا ذاك»⁽⁵⁵⁾.

فالنوع الأول، لا يُعاقب، بل يُعاقب مَن ادّعى عليه، إكراماً له. والنوع الثاني، فهو مستحق للعقاب، فيُحبَس ويُهدّد ويُجلّد ولكن مع مراعاة نوع الجريمة وجسامتها. كما يمكن أن يُعرّم في بعض الدعاوى مثل دعاوى اليمين الكاذب وغيرها.

أما النوع الثالث وهو الذي لا يذاع عنه خير أو شرّ، فيتمّ التّقصي والتمحيص في حالته، فإذا تبيّن أنه من أهل الخير، حكم له بالبراءة وإن كان من أهل الشرّ، عوقب. أما إذا لم يتولد عن التحري عنه شيء، فيطلق سراحه لكن بعد سياسة وتهديد وكشف ووعيد بحسب كل حالة. بيد أن كل ما سبق يقتصر وينحصر في نوع معين من الجرائم كالسرقة واليمين الكاذب. لكن في حال النظر في دعاوى جرائم أخرى مثل القتل، فإن العقاب يختلف وإجراءات التحري والتحقيق تختلف؛ فبادئ ذي بدء، لا بد أن يُحبَس ويُكبّل

(55) نفسه: ص 47.

بالحديد ويهدّد، فإن ظهر أمر مستجدّ، كاعترافه مثلاً أو ظهور الفاعل الحقيقي، اتُّخذ الإجراء المناسب، أو يتمّ الأخذ بالأدلة المتاحة، فينظر في قربه أو بعده عن الجرم المنسوب إليه، فإن ظهر قربه، طُوّل عقابه وإن بعد عنه، عُجِّل بإطلاق سراحه. ويعود المغيلي، مرة أخرى، ليؤكد على أنّ كلّ واحد له حكم بحسب حاله⁽⁵⁶⁾.

وتأكيداً على أهمية بناء شرعية الحاكم، يطالب المغيلي الأمير ليس فقط بالتواصل مع المستضعفين من النّاس، مثل النساء والأطفال الأيتام وسماع شكواهم، ولكن أيضاً فإنّ الحاكم يمكن أن يعزل القضاة والعاملين (المسؤولين) في الدولة، ليس بسبب مفسد ارتكبوها وإنّما تأليفاً لقلوب الرعية وكسباً لوُدّهم⁽⁵⁷⁾.

إن دليل العدالة الذي يقدّمه الكاتب السلطاني في صورة توجيهات ونصائح مقتبسة من المأثور الديني والتراث الأجنبي والأقوال والحكم، هو دعوة صريحة أو مبطنّة للسلطان لإقامة العدل، لكن لا ترقى نصوصه إلى مستوى آلية قانونية أو دستورية أو تعاقديّة إلزامي ينظم علاقة الحاكم بالمحكوم في إطار الحقوق والواجبات، أو يستوعب علاقات الأفراد في ما بينهم عبر سلطة قضائية واضحة المعالم⁽⁵⁸⁾.

على الرغم من إعطاء هذه المسؤولية بعدها الديني في خطاب الآداب السلطانية، فإنّها لم تكن ملزمة للحاكم مطلقاً، إذ تبقى عدالة الحاكم مجرد فضيلة لا التزاماً سياسياً أو واجباً قانونياً واقعياً⁽⁵⁹⁾، ولا تخرج عن نطاق

⁽⁵⁶⁾ نفسه: ص ص 51، 52.

⁽⁵⁷⁾ م.م.س: ص 53.

⁽⁵⁸⁾ ينظر: خطاب العدالة في كتب الآداب السلطانية...، ص ص 19، 20.

⁽⁵⁹⁾ ينظر: أحمد محمد سالم، دولة السلطان: جدور التسلط والاستبداد في التجربة الإسلامية، (القاهرة: الهيئة العامة لقصور الثقافة، إصدارات خاصة 2011، 100)، ص 197.

النصيحة التي يبقى للحاكم أو السلطان حق قبُولها أو رفضها ما دامت سلطته هبة إلهية.

تبقى آراء المغيلي في الحكم شبه تجريدية، من ناحية كونها قائمة على شكل ونموذج معيّن مقنّن بنصوص وأحكام، لا تشابه في كثير من الحالات المشخصات والمرئيات في صورتها الطبيعية والواقعية. أي أنّ واقع الحال فيما يخصّ سياسة الحكّام المسلمين لمحوهم لا يطابق أحكام السياسة الشرعية الإسلامية في هذا الباب، والعيب قطعاً ليس في النصوص، ولا يمكن أن نقدح فيها أو نردّها لها الخلل والزلل، بل اللوم كلّه على من لا يطبّقونها، أو يطبقونها بشكل خاطئ قد يكون بسبب سوء تفسير النصوص وعدم الرغبة في قرائتها قراءة تتلائم مع روح العصر ومتغيراته، أو قد يكون فهمهم للنصوص سليماً، لكن يتحايلون في تطبيقها بما يخدم مصالحهم، ويلوون عنق النصوص ليأبى عبر فقهاء البلاط ووعاظ السلاطين ليثبتوا للناس أنهم ولاة الأمر كما يحبّ الله ويرضى، لذلك نرى أنّ آراء المغيلي قائمة على أساس أخلاقي مثالي، لكنها أيضاً لا تخلو من مرتكزات واقعية⁽⁶⁰⁾.

وختاماً توصل البحث إلى النتائج التالية:

1/ نجدّد القول إنّ المغيلي في نشاطه الدعوي ساهم بشكل رئيس في نشر الإسلام بإفريقيا الغربية، لا يقلّ شأننا عن الدور الإصلاحي الذي مارسه في توات، حيث اتّسم بالأصالة والاجتهاد في القضايا الدينية والسياسية ونظرته الحصيفة لسبل تطبيق الأحكام الشرعية في توات وإمارات السودان الغربي.

⁽⁶⁰⁾ هذه الواقعية أكّد عليها الدكتور عبد الله الإلوري من نيجيريا بقوله: >> إن أفكار المغيلي أدّت إلى تغيير ملموس في حياة الناس... لقد ورث "الكوتو" الجهاد عن الشيخ المغيلي وكان ذلك أحد العناصر الهامة في تطور الإسلام والثقافة العربية ببلاد الهوسا» (آدم عبد الله الإلوري، مصباح الدراسات الأدبية في الديار النيجيرية، دون ناشر،

2/ نستنبط من مراسلات المغيلي السياسية تضلعه في مجال علم السياسة الشرعية وتدير أمور الرعية.

3/ سيطرة الرؤية الحوارية على الخوض في فقه السياسة الشرعية الموجه بالأساس إلى ملوك وأمراء غرب إفريقيا.

4/ رؤية المغيلي الثاقبة حول الدولة وهيكلها ورعاياها، جسدها في شكل جيد وواضح وممنهج، الأمر الذي بؤاه صفة السياسي المحنك، كان له تأثير عميق في سياسات إمارات إسلامية بغرب إفريقيا، حققت نجاحا وازدهارا لقرون عديدة، وذلك بنبذ المعتقدات الوثنية واعتناق الإسلام.

5/ السياسة الشرعية المنشودة في فكر المغيلي تقوم على تقوى الله ومخافته وتحقيق الأمن والاستقرار ومحاربة الفساد وإصلاح العدالة وحفظ المال العام والعمل بمبدأ الشورى قبل اتخاذ أي قرار.

قائمة المصادر والمراجع

أولا- المصادر

1. ابن بابا حيدة بن عبد الرحيم، 1977، القول البسيط في أخبار تمنطيط، تحقيق: فرج محمد فرج، ديوان المطبوعات الجامعية والمؤسسة الوطنية للكتاب: الجزائر، د.ط.
2. التنبكي أحمد بابا، 1989، نيل الابتهاج بتطريز الديباج، ج 01، تحقيق: عبد الحميد عبد الله الهرامة، منشورات كلية الدعوة الإسلامية: طرابلس، ط 01.
3. السملالي العباس بن ابراهيم، 1999، الإعلام بمن حل بمراكش وأغمات من الأعلام، ج 5، مراجعة: عبد الوهاب بن منصور، المطبعة الملكية: الرباط، ط 02.
4. الشفشاوني بن عسكر الحسني، 1977، دوحة الناشر، تحقيق: محمد حجي، أوفسيط دار المغرب: الرباط، ط 02.
5. ابن طباطبا محمد بن علي، 1317 هـ، كتاب الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية، مطبعة الموسوعات: القاهرة.
6. الغزالي أبو حامد، 1988، التبر المسبوك في نصيحة الملوك، تحقيق: محمد أحمد دمج، دار الكتب العلمية: بيروت، د.ط.
7. الفيروزآبادي مجد الدين محمد بن يعقوب، 2007، القاموس المحيط، ترتيب: خليل مأمون شيحا، دار المعرفة، ط2، بيروت.
8. اللقائي إبراهيم، 2002، منار أصول الفتوى وقواعد الإفتاء بالأقوى، تحقيق: عبد الله الهلالي، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المملكة المغربية: الرباط.
9. الماوردي علي بن محمد بن حبيب، 1909، الأحكام السلطانية، تصحيح محمد بدر الدين النعساني الحلبي، مكتبة الخانجي: القاهرة، ط 01.
10. المغيلي محمد بن عبد الكريم، 1974، أسئلة الأسقيا وأجوبة المغيلي، تحقيق: عبد القادر زبادية، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع: الجزائر، د.ط.
11. المغيلي التلمساني محمد بن عبد الكريم، 1994، تاج الدين فيما يجب على الملوك والسلطين، تحقيق: محمد خير رمضان، دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع: بيروت، ط 01.

12. المغيلي محمد بن عبد الكريم، 1968 مصباح الأرواح في أصول الفلاح، تحقيق: رابح بونار، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع: الجزائر، ط 01.
13. المرادي أبوبكر محمد بن الحسن، 1981، كتاب السياسة أو الإشارة في تدبير الإمارة، تحقيق: سامي النشار، دار الثقافة: الدار البيضاء، د. ط.
14. الونشريسي أبي العباس بن يحيى، 1981، المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل إفريقية والأندلس والمغرب، ج 02، خرّجه: جماعة من الفقهاء بإشراف محمد حجي، نشر وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالمملكة المغربية: الرباط.
15. يعقوب أبي يوسف، د.ت، الخراج، تحقيق: طه عبد الرؤوف سعد، سعد حسن محمد، المكتبة الأزهرية للتراث: القاهرة، طبعة جديدة مضبوطة، محققة ومفهرسة.

ثانيا- المراجع

1. الإلوري آدم عبد الله، 1978، الإسلام في نيجريا والشيخ عثمان بن فوديو الفلاني، الدار المصرية للنشر والترجمة والتوزيع: القاهرة.
2. الإلوري آدم عبد الله، 1992، مصباح الدراسات الأدبية في الديار النيجيرية، دون ناشر.
3. أحمد فاروق المختاري، 2001، السياسة الشرعية برؤية خلدونية، منشورات دارالآفاق الثقافية: حلب، أقادير، ط 01.
4. بوتشيش إبراهيم القادري، 2014، خطاب العدالة في كتب الآداب السلطانية، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات: الدوحة-قطر، ط 01.
5. بسيوني رسلان صلاح الدين، 1983، الفكر السياسي عند الماوردي، دار الثقافة للنشر والتوزيع: القاهرة- بيروت.
6. بوعزيز يحيى، 2001، تاريخ إفريقيا الغربية الإسلامية من مطلع القرن 16 م إلى مطلع القرن 20م، دار هومة للطباعة والنشر: الجزائر، د. ط.
7. جعفري أحمد، 2008، من تاريخ توات (أبحاث في التاريخ)، مكتبة النهضة المصرية: القاهرة.
8. الجيلالي عبد الرحمن، 1982، تاريخ الجزائر العام، ج 02، ديوان المطبوعات الجامعية: الجزائر.

9. سالم أحمد محمد، 2011، دولة السلطان: جدور التسلط والاستبداد في التجربة الإسلامية، الهيئة العامة لقصور الثقافة: القاهرة (إصدارات خاصة 100).
10. سعد الله أبو القاسم، 1998، تاريخ الجزائر الثقافي، ج 01، دار الغرب الإسلامي: بيروت، ط 01.
11. السيد عبد الرضى، 1999، التجاذبات السياسية بين الفقيه والسلطان والجماعة في الفكر السياسي الإسلامي، منشورات دار الثقافة والفنون: بيروت-عمان، ط 01.
12. الشامي عبد القادر، 1994، مقاربات جديدة للسلطة السياسية والسلطة الدينية في تاريخ الفكر السياسي الإسلامي، منشورات الدار المصرية اللبنانية: القاهرة.
13. فازيو نبيل، 2015، دولة الفقهاء: بحث في الفكر السياسي الإسلامي، دار المعارف: مصر.
14. فؤاد الأنطاكي، 1987، أهمية كتاب الخراج في فهم مؤسسات الدولة في الحضارة العربية الإسلامية، منشورات دار التراث العربي: بيروت-بنغازي، ط 02.
15. كروم عبد الله، 2007، الرحلات بإقليم توات دراسة تاريخية وأدبية للرحلات المخطوطة بخزائن توات، منشورات باب حسان: الجزائر، د.ط.
16. مبروك مقدم، 2002، الشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي التلمساني وأثره الإصلاحى بإمارات ومماليك إفريقيا الغربية خلال القرن الثامن والتاسع والعاشر للهجرة، ج 01، دار الغرب للنشر والتوزيع: وهران، ط 01.
17. بن مخلوف محمد بن محمد، د.ت، شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، دار الكتاب العربي: بيروت، د. ط.
18. مقالاتي عبد الله ورموم محفوظ، 2009، دور منطقة توات الجزائرية في نشر الإسلام والثقافة العربية بإفريقيا الغربية، منشورات وزارة الثقافة، دار الشروق: الجزائر، ط 01.
19. ميغا أبو بكر، 1977، الحركة العلمية والثقافية والإصلاحية في السودان الغربي، مكتبة دار التوبة: المملكة العربية السعودية، ط 01.
20. ناصيف نصار، 2001، منطق السلطة مدخل إلى فلسفة الأمر، دار أمواج للنشر والتوزيع: بيروت، ط 2.

ثالثا - المقالات والدوريات

1. إبتسام علي حسين، 2008، أصول السلطة السياسية ووظائفها الاجتماعية، مجلة المسلم المعاصر، العدد 130، ص ص 207-256.
2. شترة خير الدين، د.ت، الإرث الفكري والإصلاحي للشيخ المغيلي في إقليم توات وحواضر السودان الغربي، مجلة المعارف للبحوث والدراسات التاريخية، العدد 21، ص ص 10-55.
3. فيلاي فاطمة، 2019، "منهج وأسلوب العالم محمد بن عبد الكريم المغيلي التلمساني في التأليف من خلال كتابه مصباح الأرواح في أصول الفلاح"، مجلة الاستيعاب، العدد الثاني، ص ص 153 – 184.
4. نورالدين بوكريدي، د.ت، جهود العلامة محمد بن عبد الكريم المغيلي في مجال الكتابة في فقه السياسة الشرعية بين التجديد والتأثير، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية:- قسنطينة.

رابعا- الأطارح والمذكرات

1. شترة خير الدين، 2010، الشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي التلمساني المصلح الثائر وفكره الإصلاحي في توات والسودان الغربي، ج 2، (مخطوط) رسالة دكتوراه، الجامعة الإفريقية، أدرار- الجزائر.

خامسا – الملتقيات والندوات

1. أحمد مرتضى، 2014، الإمام المغيلي وإسهامه في بناء الحضارة الإسلامية في بلاد الهوسا، الملتقى
2. الدولي الثالث حول الفاتح عقبة بن نافع، سيدي عقبة بسكرة – الجزائر.
3. دفرو رايح وعبد الله مقلاتي، 2010، الشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي مصلحا دينيا وسياسيا في توات والسودان الغربي، الملتقى الوطني الرابع حول إسهامات علماء توات في الحركة الفكرية والثقافية إبان العصر الحديث (1500 – 2000)، جامعة احمد دراية أدرار.

الشيخ المغيلي والطريقة القادرية

للأستاذ الدكتور محمد حوتية

الجامعة الإفريقية أحمد دراية – أدرار-الجزائر

الملخص:

يتجلى الفكر الصوفي عند الشيخ العلامة سيدي محمد بن عبد الكريم المغيلي في نزعتة للطريقة القادرية لمؤسسها الشيخ سيدي عبد القادر الجيلاني وقد كان لهذه الطريقة أثر بالغ في نشرها بتوات وغربي إفريقيا. وللاجابة عن ما سبق وضعنا الإشكالية التالية:

- ما هو التصوف؟
 - من هو الشيخ عبد القادر الجيلاني؟
 - ما مدى مساهمة الشيخ المغيلي في نشر الطريقة القادرية بتوات وغرب إفريقيا؟
 - ما هي الرسائل التي استعملها في نشر هذه الطريقة؟
- كل هذا سنتناوله في المداخلة المعنونة بـ"الشيخ المغيلي والطريقة القادرية"

Imām al-Maghīlī and the Qadiriyya Order

Abstract

The Sufi thought of Imām Abū ‘Abdullah Muḥammad b. ‘Abdul Karīm al-Maghīlī is evident in its propensity for the Qadiriyya Order of its founder, Shaykh Sidi Abdul Qadir Al-Jilani, and this Sufi Order had a great impact on its dissemination in Tuat and West Africa.

In order to expand on the subject, we raised the following questions:

- What is Sufism?
- Who is Shaykh Sidi Abdul Qadir Al-Jilani?
- What is the extent of Imām al-Maghīlī's contribution to spreading the Qadiriyya Order in Tuat and West Africa?
- What are the means he used to spread the Qadiriyya Order?

All these will be discussed in the presentation entitled "Imām al-Maghīlī and the Qadiriyya Order".

Keywords:

Imām al-Maghīlī, Shaykh Sidi Abdul Qadir Al-Jilani, Qadiriyya Order, Tuat, West Africa

مفهوم الطرق الصوفية

الطرق: جمع طريقة والطريق السبيل الذي يطرق بالأرجل أي يضرب وعنه استعير كل مسلك يسلكه الإنسان في فعل محمود كان أو مذموماً.

مسلك الطائفة من متصوفة جمع طرقات وطرق (المنظم).

ويقال الطريقة بمعنى السيرة والحالة وطريقة الرجل مذهبه وقد ورد اللفظان في القرآن الكريم قال تعالى: ﴿مصدقاً لما بين يديه يهدي إلى الحق وإلى طريق مستقيم﴾⁽¹⁾.

وقال تعالى: ﴿إذ يقول أمثلهم طريقة إن لبثتم إلا يوماً﴾⁽²⁾.

وقال تعالى: ﴿إن الذين كفروا وظلموا لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم طريقاً﴾⁽³⁾.

وجمع الطريق طرق على حين أن جمع الطريق الطرائق قال تعالى ﴿إنا منا الصالحون ومنا دون ذلك كنا طرائق قدداً﴾⁽⁴⁾، إشارة إلى اختلافهم في درجاتهم كقوله تعالى: ﴿هم درجات عند الله﴾⁽⁵⁾.

حدد ابن خلدون التصوف في أربعة عناصر هي:

(الكلام في المجهولات ومحاسبة النفس على الأعمال والكلام في الكشف والحقيقة المدركة من عالم الغيب والتصرفات في العوالم والأكوان وأنواع الكرامات وأخيراً ألفاظ مهمة الظاهر نطق بها أئمة القوم⁽⁶⁾)، وقال في معناه:

(1) سورة الأحقاف، الآية 80.

(2) سورة طه، الآية 104.

(3) سورة النساء، الآية 168.

(4) سورة الجن، الآية 16.

(5) سورة آل عمران، الآية 163.

(6) عبد الله عبد الرزاق، الصوفية والمجتمع في غرب أفريقيا، (مصر: المكتب المصري لتوزيع المطبوعات، 1999)، ص 248.

وفيما معنى التصوف: «التصوف هو العكوف على العبادة والانقطاع إلى الله تعالى والإعراض عن زخرف الدنيا وزينتها والزهد فيها مما يقبل عليه الجمهور من لذة ومال وجاه والانفراد عن الخلق في الخلوة للعبادة وكان ذلك معروفاً عند الصحابة السلف»⁽⁷⁾، ولما أقبل الناس على الترف في الدنيا اختصر الذين تمسكوا بالعباد باسم الصوفية فالتصوف عبادة ومجاهدة للنفس ومحاولة لإدراك الحقيقة. أما رجال الطرق الصوفية انقسموا حول أنفسهم حول أصل كلمة التصوف فمنهم من قال إن الصّوفية اسم مشتق من الصوف بوصفه اللباس الغالب على هؤلاء المتصوفة وأنه اسم قديم وجد قبل ظهور الإسلام⁽⁸⁾، ويرى آخرون أن الكلمة مشتقة من دار الصفة وهي الصومعة التي يأوي إليها جماعة من فقراء المسلمين للاعتكاف والعبادة وكان الناس يقدمون لهم ما يتصدقون به عليهم من الطعام والمال، وهذه الجماعة أمرها الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه بأن تهجر الصومعة فلا تأوي إليها ولا تعتكف فيها ثم قال كلمته المشهورة لا يقعدن أحدكم عن طلب الرزق وهو يقول اللهم ارزقني وقد علم أن السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة⁽⁹⁾ ولا يوجد لهذا الاسم في العربية مثل لا من ناحية القياس ولا الاشتقاق والظاهر فيه أنه كاللقب، فأما قول من قال إنه من الصوف وتصوف إذا لبس الصوف كما يقال تقمص إذا لبس القميص فذلك وجه لكن القوم لا يختصوا بلبس الصوف، ومن قال إنهم منسوبون إلى صفة مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم فالنسبة إلى الصفة لا تجيء على نحو الصوفي ومن قال أنه من الصفاء فاشتقاق الصوفي من الصفاء بعيد في معنى اللغة العربية ومن قال: أنه مشتق من الصف فالمعنى صحيح ولكن

(7) محمد جلال، دراسات في التصوف الإسلامي شخصيات ومذاهب، (بيروت: دار النهضة العربية الطباعة والنشر)، ص 10.

(8) أبو الوفا الغنيمي التفتراني، الطرق الصوفية في مصر، (جامعة القاهرة: مستخرج من حوليات كلية الآداب)، 1968، ص 56.

(9) أبو حامد الغزالي، مختصر إحياء علوم الدين، تحقيق وتعليق شعبان محمد إسماعيل، (القاهرة، 1978م)، ص 7.

اللغة لا تقتضي هذه النسمة إلى الصف، ثم أن هذه الطائفة أكبر من أن يحتاج إلى قياس لفظ أو اشتقاق»⁽¹⁰⁾.

والخلاصة أن التصوف عبارة عن مذهب منظم يشير إلى مراتب صوفية مختلفة ويدل على الحقيقة في محاولة لمحاكاة النفس على الأفعال وفهم الآداب خاصة به، وقد مر التصوف الإسلامي بعدة مراحل حيث كان أولاً زهداً في الدنيا وانقطاعاً لعبادة الله عز وجل ثم صار حركات ومظاهر خالية من الروح والعبادة ثم تحول إلى الحاد وخروج عن دين الله وقد عبر عن هذا التحول أحد كبار الصوفية، حيث قال «كان للقوم إشارات ثم صارت حركات ثم لم يبق إلى حسرات»⁽¹¹⁾، وقد تشعبت الطرق الصوفية وأصبحت تنسب إلى أقطاب هذه الطرق وأهم الطرق الصوفية بإقليم توات الطريقة القادرية والموساوية والشيخية والتيجانية. إلا أننا سنسلط الضوء على الطريقة القادرية والشيخ المغيلي التي هي محل دراستنا.

الشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي التلمساني:

باشر المغيلي دراسته بتلمسان فحفظ القرآن الكريم على يد الشيخ محمد بن أحمد بن عيسى المغيلي المعروف بالجلاب، كما أخذ عنه أمهات الكتب الفقهية كالرسالة ومختصر خليل وابن الحاجب وبعض كتب بن يونس كما تتلمذ على يد يحيى بن يدر وتربى على يد أبي العباس الوغليسي فقد أجاد عدة فنون مختلفة، فتفقه في مذهب الامام مالك بن أنس وقد ساعده على التحصيل المعرفي ذكائه ونية صالحة ومكارم أخلاقه، وغذاها باتصاله بالشيخ العالم سيدي عبد الرحمن الثعالبي الذي تتلمذ عليه

⁽¹⁰⁾ أبو القاسم النيسابوري، الرسالة القشيرية في علم التصوف، ط1، (بيروت: المكتبة العصرية)، ص ص279-

⁽¹¹⁾ Jenkins .R.G, the evolution of Religious Brotherhoods in north and North West Africa 1525-1900 in Willis. vol. I, Johnrafl (. London: ed studies in west African Islamic history, 1979), p 41

وزادت المصاهرة بينهما وأواصر المودة والقرابة⁽¹²⁾ وبهدف استكمال تحصيله العلمي رحل إلى بجاية فأدرك بها شيوخ أجلاء وعاد منها إلى تلمسان ومن الوصايا التي أوصى بها الشيخ الثعالبي تلميذه المغيلي عند عزمه الرحيل إلى تلمسان أنه دعاه بألا يعاشر أهل سفاهة، وأن لا يستوطن مكان إهانة" حيث أنه بعد هذه الرحلة التي توسعت فيها مداركه ومعارفه، وتزود بما يكفيه ليكون مدرسا وشيخا تتلمذ على يديه عدد لا بأس به من الطلاب كما أنه بقي مواصلا لتحصيله العلمي بتلمسان، إلا أن الحال لم يستقم له بها بسبب توتر الأوضاع السياسية والاجتماعية والاقتصادية، نتيجة ما تسبب فيه اليهود من أمور ليست من الدين في شيء فعزم على مغادرة تلمسان سيما محاولة الانقلاب على سلطانها التي حدثت في شهر شوال سنة 870هـ/1465م وتعرض العديد من شيوخها وعلمائها للمضايقات وعمليات القمع والنهب⁽¹³⁾، وقد أبدى المغيلي استيائه من الوضع العام بتلمسان في تلك الأثناء وكان يردد دائما:

تلمسان أرض لا تليق بحالنا * ولكن لطف الله نسأل في القضا
وكيف يحب المرء أرضا يسوسها * يهود وفجار ومن ليس يرضى

وبذلك رحل إلى منطقة توات في تلك السنة 870هـ/1465م ودخل إلى تمنطيط قاعدة القصور التواتية⁽¹⁴⁾، وقال:

(12) مبروك مقدم، الامام محمد بن عبد الكريم المغيلي التلمساني ودوره في تأسيس الإمارة الإسلامية بإفريقيا الغربية خلال القرن التاسع للهجرة الخامسة عشر للميلاد، (وهران: دار الغرب للنشر والتوزيع)، 2006، ص 27

(13) ياسين شبايبي، "الفكر السياسي عند الشيخ المغيلي التلمساني ودعوته الإصلاحية بتوات والسودان الغربي (870-909هـ/1465-1503م)"، جامعة وهران، السنة الجامعية: 1427-1428هـ/2006-2007م، ص ص 23-24

(14) أحمد الحمدي، "محمد بن عبد الكريم المغيلي من خلال بعض آثاره المخطوطة"، مجلة الجزائرية للمخطوطات، ع:1، (جامعة وهران:1: مخبر مخطوطات الحضارة الاسلامية، 2004)، ص 35

«دخلنا توات فوجدناها ديار علم ومقر أكابر وأعلام فانتفعنا بها وانتفعوا بنا».

فقد بقي الشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي التلمساني بأرض توات⁽¹⁵⁾ مدة طويلة في الدعوة ووقف حائلاً بين اليهود سيما في فتوى هدم الكنائس وهذا بعد محاورة العديد من علماء عصره واستمر في الدعوة الإصلاحية المرتكزة على الاقناع قبل أن يتوجه إلى غرب إفريقيا، وهناك مكث قرابة العشرين سنة في التدريس والافتاء والدعوة لكتاب الله⁽¹⁶⁾. فاتجه في بادئ الأمر إلى بلاد الأهير شمال نيجيريا ومن هناك أخذ طريقه إلى الهوسا، واستقر بمدينة تيقدا (تيغزة) التي كانت تزدهر بها الحركة الثقافية والتجارية واشتغل بالتدريس والارشاد والوعظ في مساجدها وبعدها توجه إلى كانو ثم إلى كاتسنا واستقر هناك ثم اتصل بأميها أبي عبد الله محمد بن يعقوب الذي طلب منه أن يكتب له جملة مختصرة فيما يجوز للحكام في ردع الناس عن الحرام فأجاب له لرغبته وكتب له الرسالة وشرح له فيها كيف يمكن أن يحكم بلاده ورعيته وفق الديانة الاسلامية وأن يقاوم العادات الوثنية.

وبعد إقامة طويلة في بلاد الهوسة انتقل الشيخ المغيلي إلى بلاد التكرور في فولتا العليا شمال السينغال غرب بلاد غانة القديمة والتحق بمدينة قاو

⁽¹⁵⁾ تقع المنطقة بين خطي طول 4° غرباً إلى 1° شرقاً وبين خطي عرض 26°-30° شمالاً ينقسم إقليم توات إلى ثلاث مناطق متميزة هي: تنجورارين وتوات وتيدكلت. للمزيد ينظر: عبد الرحمان بن عبد الله السعدي، تاريخ السودان، (مدينة أنجي: مطبعة بردين 1898م)، ص 07، محمد حوتية، توات والأزواد خلال القرنين الثاني عشر والثالث عشر للهجرة، الثامن عشر والتاسع عشر ميلادي: دراسة تاريخية من خلال الوثائق المحلية، ج1، (الجزائر: دار الكتاب العربي للنشر والتوزيع والترجمة، 2007)

⁽¹⁶⁾ أحمد جعفري، "حوار الإمام محمد بن عبد الكريم المغيلي (909هـ) مع ملوك وأمراء غرب إفريقيا وأثره في حركة الفتح الإسلامي لإفريقيا، مجلة الفضاء المغاربي"، مجلة الفضاء المغاربي، ع:2، مج:18، (الجزائر: جامعة أبو بكر بلقايد تلمسان 2020)، ص8

عاصمة مملكة صنغاي والتقى بأمرها الأسقيا محمد الكبير وأقام بها وطلب منه الأسقيا محمد الأول أن يكتب له رسالة ينصحه فيها حول سبعة مسائل ذكرها في شكل أسئلة وطلب منه أن يعرفه بحكم الشرع الإسلامي فيها فرحب المغيلي بذلك وتسلم منه الأسئلة وقدم له أجوبة إضافية ودقيقة عن كل مسألة وعن اطلاعه للأوضاع الاقتصادية والاجتماعية لبلاد الصنغاي في تلك الفترة⁽¹⁷⁾. ويعد الشيخ المغيلي أول من نشر الطريقة القادرية في بلاد السودان.

الطريقة القادرية:تنسب الطريقة القادرية إلى الشيخ محمد محي الدين عبد القادر بن أبي صالح المولود بمدينة جيلان في مارس (470هـ/ 1077م) والذي جاء إلى بغداد عام (488هـ/ 1095م) ودرس مذهب الإمام أحمد بن حنبل لكنه ترك الانضمام إلى المدرسة النظامية التي كان يشرف عليها الشيخ أحمد الغزالي، بعد وفاة أخيه أبي حامد الغزالي ويقال أنه لم يعتنق أي فكر صوفي حتى حضر إلى مدرسة أبي الخير حمد الدباسي المتوفي (526هـ/ 1131م) وقضى عبد القادر الجيلاني خمسة وعشرون عاماً يتجول في صحراء العراق وفي عام (521هـ/ 1127م) عند ما كان قد جاوز الخميس عاماً صار من أشهر العلماء في بغداد على الطريقة الحنبلية وكان يلبس لباس العلماء ولبس لباس المتصوفة ثم بنى مدرسة لنفسه عام (528هـ/ 1135م) اشتهر بورعه وتقواه لكن لم ينضم أحد إلى طريقته طوال حياته⁽¹⁸⁾، وبعد وفاته بدأ بعض الناس يسيرون على نهجه واستطاع أبنائه نشر مذهب والدهم الذي يتسم بالولاء والإخلاص والطاعة والتواضع وصارت أوراد الطريقة القادرية تلقى قبولاً لدى عدداً من الإتياع وأخذ تلامذته على عاتقهم نشر مذهبه في أجزاء كبيرة من العالم الإسلامي حيث

⁽¹⁷⁾ يحيى بوعزيز، أعلام الفكر والثقافة في الجزائر المحروسة، ج2، ط خ، (الجزائر:

عالم المعرفة للنشر والتوزيع، 2009)، ص ص152، 155.

⁽¹⁸⁾ Ibid, P 41

انتشر في القارة الإفريقية وعلى وجه خاص في شمالها فقد سيطرت الطريقة الصوفية القادرية في مراكز على الحياة الدينية والاجتماعية خلال القرون الموالية بعد دخولها⁽¹⁹⁾، وأصبح الشيخ علي الكنتي قطباً للطريقة القادرية عندما انتقلت قبائل كنتة في القرن التاسع الهجري الخامسة عشر ميلادي إلى واحات توات وحملوا معهم الطريقة القادرية وفي هذه الواحات انتشرت الطريقة القادرية في النصف الثاني في القرن الخامس عشر الميلادي وكان شيوخ الكنتة يزورون برنو يتبعون الطريقة القادرية.

وفي عام 957هـ 1550 م بدأت أفكار جديدة تؤثر على الطريقة القادرية في وسط السودان وغربه، جاءت هذه الأفكار من الشرق عبر مصر وتركيا وظهر الشيخ الزروق الذي يعتبر من أهم رجال الطريقة في أغاديس ومن هذه المدينة انتقلت أفكار وآراء الشيخ الزروق إلى الشيخ المختار الكبير الذي ساعده بدوره على نقل تعاليم الصوفية القادرية إلى جماعة القولاني في بلاد الهوسا⁽²⁰⁾، وانتقلت الطريقة بعد ذلك إلى منطقة النيجر حيث ساعد الفقيه محمد الأنصاري على نشرها وفي أوائل القرن 12هـ الثامن عشر ميلادي أسس شيوخ الكنتة مدينة مبروك التي صارت مركزاً لنشر الطريقة القادرية وظهر بين جماعة الكنتة عدد كبير من الفقهاء الذين صارت لهم

(19) أحمد شلبي، موسوعة التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية، ط4، ج6، (القاهرة: مكتبة النهضة، 1983م)، ص 211، ينظر: عبد القادر الجيلاني، سر الأسرار ومظهر الأنوار، تحقيق: خالد محمد عدنان الزرعي ومحمد غسان نصوح عز قول، (دمشق: دار السنابل، 1994م)

عبد القادر الجيلاني، الفيوضات الربانية في الآثار والأوراد القادرية، جمع وترتيب: الحاج إسماعيل بن محمد سعيد القاري، (مصر: مطبعة الباب الحلي وأولاده، بدون تاريخ الطبع).

(20) عبد الله عبد الرزاق إبراهيم، أضواء على الطريقة الصوفية في القارة الإفريقية، (د.م: مكتبة مدبولي، 1990)، ص 37.

الزعامة الدينية في القرن 13هـ 18م وتوسعوا خارج الحدود القبلية وظهر عدة شيوخ حملوا لواء الطريقة القادرية تعليماً وتأليفاً وممارسة⁽²¹⁾.

فقد ظهر من أهل المنطقة مشائخ اتصفوا بالكمال من الناحية الدينية والروحية فجازوا على مراتب بين قبائلهم وأوكلت لهم مهمة الإشراف على الطريقة القادرية فنسقوا بين المريدين وأحيوا المناسبات وأدخلوا الطريقة القادرية العديد من الأقطار فقد استطاعوا عن طريق تكوين (مقدمين)⁽²²⁾، مهمتهم نشر الطريقة حسبما جرت به العادة إذ يكلف المقدم وخليفته بالعمل مباشرة بعد ما يتسلم سجادة أو سبحة أو عكاز الشيخ الذي يأخذ عنه الورد⁽²³⁾، ولقد انقسم الشيوخ المرتبطون بالطريقة القادرية إلى قسمين: القسم الأول ويمثله ممن كان يحظى بسمعة كبيرة لدى العامة تنسب لهم كرامات وأقوال كانت محل تصديق الجميع وقد جمع أصحاب هذا الصنف بين التصوف والتأليف والتعليم والفتوى ولهذا نجدهم تركوا أعمالاً جلييلة في الدعوة للطريقة القادرية بالمناطق التي عاشوا بها والمحاذية لهم مثل الشيخ مختار الكبير الذي عرف بعلمه وتأليفه العديدة في علوم الشريعة وتعمقه في الطريقة فقد ألف فيها كتاب اسماء الكوكب الوقاد ونظراً لأهميته في الطريقة قال فيه (يجب أن يسمى بأسماء كثيرة وكثرة الأسماء تدل على عظمة المسمى) تناول في بداية مخطوطه أسس الطريقة القادرية

(21) أبو نصر السراج، كتاب اللمع للطوسي: تحقيق: عبد الحليم محمود، (القاهرة، 1960)، ص 47.

(22) المقدم في اصطلاح الصوفية يطلق على من ينوب صاحب الطريقة في منطقة من المناطق ويكون من الشيوخ المعروفين بالعبادة وإخلاصهم للطريقة.. ينظر:

XavierCoppolari Octave De port ,les confréries religieuses musulmanes, Adolphe Jourdan, 1897, p 195.:Alger

محمد بن عبد الله، الفتح الرباني فيما يحتاج إليه المريد التيجاني، (مصر: مطبوعات الحاج عبد السلام بدون تاريخ)، ص 31.

(23) الشيخ محمد بن الشيخ المختار، الطرائف والتلائد، (مخطوط) ص 184.

ومؤسسها فذكر كرامات ومزايا ورده بالإضافة إلى فضل الأذكار وأهميتها في الحياة الدنيا والآخرة⁽²⁴⁾، وهذا وقد ترك الشيخ المختار الكبير العديد من التصانيف في الأذكار أبرز من خلالها مناهج التربية الصوفية السليمة كما يراها هو «تلك المبنية على عنصر المحبة ويقسمها إلى قسمين رئيسيين: المحبة المفروضة وتتمل في امتثال الأوامر وعدم ارتكاب المعاصي وأي تقصير في الواجبات معناه الوقوع في المحرمات والتقصير في العبادات وعلى كل مبتدئ أن يوازن ما بين الناحيتين حتى يستطيع أن يدرك المحبة المفروضة والقسم الثاني المحبة المندوبة التي يصلها كل من حقق القسم الأول (المحبة المفروضة) وأعطاهها جميع حقوقها عندها يدخل المرید في المرحلة الثانية من المحبة المرتكزة على القيام بالواجبات ثم النوافل والابتعاد عن المحرمات مع عدم الوقوع في الشبهات»⁽²⁵⁾، ويعتبر الكنتيون أكثر شيوخ المنطقة إسهاماً في علم التصوف بصفة عامة وبالطريقة القادرية بصفة خاصة تجلى ذلك في رسائل وقصائد وكتب، فالشيخ المختار الكبير قصيدة في السلسلة القادرية ونازلة في التصوف وإجازة في الأوراد والأحزاب⁽²⁶⁾ وإجازة في الورد ورسالة إلى أحد مريديه، ومثله الشيخ محمد بن الشيخ المختار الكبير الذي ترك إجازة في الأوراد والأحزاب القادرية ومخطوطاً في الأدعية والأذكار وقصيدة الابتغال وجواباً على ثلاث مسائل في الورد القادري وقصيدة في الأدعية والتوسل وبهذا فقد تفاوتت هذه المصنفات في محتوياتها وعدد صفحاتها إلا أن القاسم المشترك بينها إضافة تراث وإثراء هذه الطريقة العريقة المنتشرة في إقليم توات.

⁽²⁴⁾ الشيخ المختار الكبير، الكوكب الوقاد في فضائل المشائخ وحقائق الأوراد، الخزانة العقبوية (مخطوط) أقبلي، ص 112.

⁽²⁵⁾ الشيخ المختار الكبير، الجرعة الصافية، مخطوط خزانة الشيخ باي بلعالم أولف، ص 16.

⁽²⁶⁾ الأحزاب مجموعة من الأذكار الراتبة شهوها بحزب القرآن للمداومة عليها في أوقات معينة.

والقسم الثاني من شيوخ الطريقة يندرج تحته صلحاء من الشيوخ الذين اشتهروا بالزهد في الحياة وكثرة الأذكار وخدمة العامة واشتهروا بالكرامات ومواقف خالدات واكتفوا بالعبادة والأوراد ولم يتركوا مؤلفات في ميدان الأدب أو الفقه وإنما خلدت أسماؤهم في الذاكرة الشعبية بتوات نظراً لما اشتهروا به من أعمال خيرية خدموا بها للصالح العام وأفنوا حياتهم في الزهد وضحو بأموالهم وأعمارهم في سبيل الإصلاح كإصلاح ذات البين وإعانة الفقراء والمحتاجين في الزوايا التي أسسوها وساهموا في تسييرها لتؤدي دورها الخيري لكل المسلمين وأبناء السبيل وبعد وفاتهم خلدت قبورهم بأضرحة وزيارات سنوية.

ومن أضرحة شيوخ هذه الطريقة نجد ضريح الشيخ المختار بن محمد بن عمر بلوافي بقرية (الجديد) ونجد في زاوية كنتة ضريح أحمد بن محمد الرقاد ونجد في أقبلي ضريح الشيخ أحمد بونعامة... وغيرها.

ومن أهم مظاهر الطريقة القادرية وأنشطتها الورد القادري ويتكون أساساً من عدد معين من الركعات يقرأ في أولها فاتحة الكتاب مع سورة معينة وبعد التسليم من الصلاة يقرأ آيات محددة من القرآن ويصلي على النبي صلى الله عليه وسلم ويدعوا دعاء عاماً يخص في نهايته مؤسس الطريقة القادرية عبد القادر الجيلاني، وعندها ينتهي الورد وأما كيفية أدائه فإنهم يقرؤون في الركعة الأولى سورة الكوثر ستاً وفي الثانية سورة الكافرون ستاً وفي الثالثة سورة الإخلاص ستاً وفي الرابعة سورتى المعوذتين مرة وفي الخامسة (آية الكرسي) مرة وفي السادسة ﴿لو أنزلنا هذا القرآن على جبل﴾⁽²⁷⁾ ، مرة ويذكرون في السجود قوله تعالى ﴿رب اشرح لي صدري ويسر لي أمري﴾⁽²⁸⁾ ، ثم يقول (اللهم إني أستودعك ديني وإيماني فاحفظها علي في حياتي وعند وفاتي وبعد مماتي رجمة أن الأول للأولين والثاني للواسطين

⁽²⁷⁾ قرآن كريم سورة الحشر الآية 21.

⁽²⁸⁾ قرآن كريم سورة طه ص 25.

والثالث للآخرين) كما سجل اتباع الطريقة القادرية ما حث عنه الرسول صلى الله عليه وسلم عمه العباس في صلاة التسبيح أخبره أن مصلحها يغفر له ذنبه صغيرة وكبيرة أوله وآخره وهي أن يصلي أربع ركعات في كل ركعة يقرأ الفاتحة وسورة ويقول بعد قراءة السورة سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر خمسة عشر مرة وفي الركوع والرفع منه وبعد السجدين في كل ركعة عشرة ومن نسي بعض ذلك جاء به في الركن الذي بعده وإن شاء سلم من الركعتين وإن شاء لم يسلم وهذا هو المتبع⁽²⁹⁾، هذا ومن مميزات الطريقة القادرية في المنطقة كانت تتحاشى ما كان شائعاً فتمنع رفع الأصوات عند الذكر الجماعي فتتم عملية الذكر عند التقاء المريدين بطريقة هادئة سواء كانت فردية أم جماعية تحت إشراف مقدم الطريقة، وتفرعت الطريقة القادرية إلى الجنوب الغربي من القارة إلى شعبتين كبيرتين البكاية الكنتية والفاضلية فظهرت في منطقة شنقيط والسنغال⁽³⁰⁾.

إسهامات الشيخ المغيلي في نشر الطريقة القادرية من خلال دعوته الإصلاحية:

ريادة الشيخ المغيلي في نشر الطريقة القادرية بالسودان الغربي جنوب الصحراء، حتى أن الكثير من زعماء بعض الحركات الثورية والإصلاحية بالمنطقة كانوا من أتباع الطريقة القادرية اتباعاً لنهج الإصلاح للشيخ المغيلي. وبذلك كثر الدعاة القادريون من الفقهاء والمعلمين بين الشعوب حيث كانوا يدعون إلى العلم. فضلاً عن نجاح الطريقة القادرية بانضمام أمراء ماسينا إليها⁽³¹⁾

⁽²⁹⁾ الشيخ باي الكنتي، النوازل، خزانة زاوية الكنتاوي، زاوية كنتة أدرار، ص 831.

⁽³⁰⁾ Alfred Le chatelier, l'islam dans l'Afrique occidentale, (Paris : Steinhel, 1899), p329 330.

⁽³¹⁾ محمد الصالح حوتية، آل كنتة دراسة تاريخية من خلال الوثائق المحلية في القرنين الثاني عشر والثالث عشر للهجرة (الجزائر: دار الكتاب العربي، 2008)، ص 245

لقد استفادت البلاد الأفريقية منه كثيراً، حيث كان المغيلي قد أرسى بوصاياه السياسية القواعد الشرعية للحكم وللراعي وللرعية وللتغيير والنظام، فأعماله وآثاره المكتوبة والروايات الشفوية المنقولة عنه لا زالت محفوظة ولا زال العلماء وأهل الإصلاح.

السياسة ورجال الدعوة يتناولونها جيلا من بعد جيل.. إلى أن وصلت مرحلة قيام الحراثورية والدعوية التي قادها عثمان دان فوديو، فاستثمرت فيها أحسن استثمار واعتمدت عليها أشد الاعتماد حتى أننا لا نكاد نجد مؤلفا من مؤلفات الشيخ عثمان أو غيره، من منظري حركته والقائمين بدعوته والمؤرخين لها يخلو من الإشارة للمغيلي والنقل عنه والرجوع إلى وصاياه. وفتاواه ورسائله، والاحتجاج بأقواله وآرائه في تدعيم دعوتهم وإسنادكته الأفكار التي تضمنتها حركتهم الجهادية والإصلاحية والدعوية.

الموقف المتخذ من الشيخ المغيلي من سلطان كانو وغيره من السلاطين هو موقف الناقد والمرشد والمصلح وليس موقف الطامع في مال⁽³²⁾

إن تأثير الشيخ المغيلي في الحركات الإصلاحية والدعوية بإفريقيا الغربية لا يمكن حصره في مجرد النقول التي نجدها تتردد في جل كتابات وخطابات زعماء هذه الحركات بل لقد تجاوز إلى الاقتداء بسيرته وطريقته في ردع البدع ومنهجه في الدعوة وإلى العمل بآرائه والاقتداء بأفكاره واستعمالها في تدعيم مواقفه وكثير من الفصول والرسائل التي كتبها الناقلين عنه نجدها إما تكرار أو شرح أو تلخيص أو تعليق أو إعادة إنتاج لأفكار المغيلي وكتابات وترداد لمقولاته.

الدعوة إلى الصفاء الأول للإسلام: فبالرغم من نزعة المغيلي الصوفية القادرية إلا أنه كان سلفيا من طراز نادر، فقد كان يعتقد أن التصوف إذا

(32) ياسين شبايبي، المرجع السابق، ص 132

لم يكن خاضعًا فيشكله وموضوعه خضوعًا تامًا للشريعة فإنه يكون نوع من الابتداع والزندقة، وضربًا من الباطل والغلو في الدين. وهو من أوائل من دفع العلماء والحكام وعمامة الناس في تواتر والسودان إلى الرجوع إلى كتاب الله وسنة رسوله-صلى الله عليه وسلم-، وأخضع المعارف الإسلامية لمحك النقاش والأخذ والرد والعطاء، ووسَّع دائرة النقاش العلمي بحيث أصبح يشمل مناطق لم تكن العلوم الدينية قد وصلتها على الشكل المنهجي، وقام بإعادة الناس على قدر استطاعته إلى الصفاء الأول للإسلام. فدوره في السودان لا يكاد يُدانيه أيُّ دور قام به عالم مغربي.

دعوة إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكرات: كما خالف المغيلي الصوفيين في منهجهم وأساليبهم في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فقد كانت دعوى بعض الصوفيين إلى الانتباه إلى النفس وترك الخلق دون توجيه أو إرشاد، دعوة منافية لمبادئ الإسلام في نظره، لذا فإنه عارض بشدة مبدأهم القائل: «دع الخلق للخالق أقم العبد في ما أراد». واتخذ لنفسه طريقة الرسل والمصلحين، فكان يعظ ويوجه وينتقد العلماء وتكاليفهم على المال بأسلوبه المعروف الأمراء والحكام لتحديثهم عن الحقوالجاه وتأييدهم للحكام بالحق كذلك كان يوجه نقده اللاذع والعلماء الرسميين وبالباطل، والذين لزموا أبواب الأمراء وطوَّعوا الدين وأولَّوه بما يتفق مع هوى الحكام الظالمين.

الدعوة إلى إصلاح أمور المسلمين الدينية والدنيوية: وأهم موضوع رئيسي في المنهج الفكري والدعوي للشيخ المغيلي هو محاولاته الحثيثة الداعية إلى إصلاح أمور المسلمين الدينية والدنيوية، ومن خلال ما كتبه المغيلي سواء لأمر كان أو للأسقيا محمدالكبير، يتضح اطلاعه الكامل ومعرفته التامة بأحوال المسلمين في السودان الغربي وسياسة ملوكها وأمرائها وعادات وتقاليد السكان.

ومن جهة أخرى فقد أثبت المغيلي في ذلك حرصه الشديد على أن يحكم المسلمون بحزم وذلك وفق قواعد الشريعة السمحة، والدليل على ذلك أنه عندما استقام ملوكالفلان أمر بلاد الهوسا بقيادة الشيخ عثمان دان فوديو في القرن التاسع عشر، أنهم وجدوا في البلاد النظم الإدارية صالحة احتفظوا بها ولم يُغيروا منها شيئاً، فهذه مثلاً نظماً الضرائب التي وجدوها تسيّر وفق النظم الإسلامية المستمدة من تعاليم القرآن الكريم فضريبة الزكاة كانت تدفع لبيت المال وهناك ضريبة العُشر، وثمة ضريبة تفرض على الماشية وأخرى على الأراضي الزراعية والخراج وهي ضريبة تسمى الجزية وكانت تفرض على الوثنيين الذين رفضوا الدخول في الإسلام، وقد حافظ الشيخ عثمان على هذا النظام الذي وجدته في البلاد فعمل على تعميمه ونشره في الأقطار الأفريقية التي دانت له بالطاعة⁽³³⁾.

الخاتمة:

تمكّن الشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي التلمساني من أداء دعوته الفكرية والإصلاحية في توات وغرب إفريقيا في ظلّ الاكراهات التي وجدت في البيئة المعاصرة له من أوضاع سياسية وعلى الرغم من ذلك فقد تمكن من إدخال وتثبيت الركائز الدينية في المنطقة الغربية لإفريقيا عن طريق النصح والإرشاد والوعظ وفق تعاليم الشريعة الإسلامية إلى جانب إدخاله الطريقة القادرية وقد نجم عنه تكوين أتباع ومريدين لها فضلاً عن بروز شيوخ انتهجوا نفس المسار للشيخ الاصلاحى محمد بن عبد الكريم المغيلي التلمساني.

⁽³³⁾ خير الدين شترة، "الإرث الفكري والإصلاحى للشيخ المغيلي في إقليم توات وحواضر السودان الغربي، مجلة المعارف للبحوث والدراسات التاريخية"، ع:21، (الوادي:جامعة حمه لخضر، 2019)، ص ص 42، 44.

قائمة المصادر والمرجع:

- القرآن الكريم.
- المخطوطات:
 1. الشيخ باي الكنتي، النوازل، خزانة زاوية الكنتاوي، زاوية كنتة أدرار.
 2. الشيخ محمد (بن الشيخ المختار)، الطرائف والتلائد، (مخطوط).
 3. الشيخ المختار الكبير، الكوكب الوقاد في فضائل المشائخ وحقائق الأوراد، الخزانة العقباوية (مخطوط) أقبلي.
 4. الشيخ المختار الكبير، الجرعة الصافية، مخطوط خزانة الشيخ باي بلعالم أولف.
 5. المصادر باللغة العربية:
 6. الجيلاني عبد القادر، سر الأسرار ومظهر الأنوار، تحقيق: خالد محمد عدنان الزرعى ومحمد غسان نصوح عز قول، (دمشق: دار السنابل، 1994م).
 7. الجيلاني عبد القادر، الفيوضات الربانية في الآثار والأوراد القادرية، جمع وترتيب: الحاج إسماعيل بن محمد سعيد القاري، (مصر: مطبعة الباب الحلي وأولاده، بدون تاريخ الطبع).
 8. السراج أبو نصر، كتاب اللمع للطوسي: تحقيق: عبد الحليم محمود، (القاهرة، 1960).
 9. النيسابوري أبو القاسم، الرسالة القشيرية في علم التصوف، ط1، (بيروت: المكتبة العصرية).
 10. بن عبد الله، محمد الفتح الرباني فيما يحتاج إليه المرید التيجاني، (مصر: مطبوعات الحاج عبد السلام بدون تاريخ).
 11. المراجع باللغة العربية:
 12. إبراهيم عبد الله عبد الرزاق، أضواء على الطريقة الصوفية في القارة الإفريقية، (دم: مكتبة مدبولي)، 1990م.
 13. السعدي عبد الرحمان بن عبد الله، تاريخ السودان، (مدينة أنجي: مطبعة بردين 1898م).
 14. بوعزيز يحيى، أعلام الفكر والثقافة في الجزائر المحروسة، ج2، ط خ، (الجزائر: عالم المعرفة للنشر والتوزيع، 2009).

15. التفتراني أبو الوفا الغنيمي، الطرق الصوفية في مصر، (جامعة القاهرة: مستخرج من حوليات كلية الآداب)، 1968.

16. جلال محمد، دراسات في التصوف الإسلامي شخصيات ومذاهب، (بيروت: دار النهضة العربية الطباعة والنشر).

17. حوتية محمد الصالح، آل كنتة دراسة تاريخية من خلال الوثائق المحلية في القرنين الثاني عشر والثالث عشر للهجرة (الجزائر: دار الكتاب العربي، 2008).

18. حوتية محمد، توات والأزواد خلال القرنين الثاني عشر والثالث عشر للهجرة، الثامن عشر والتاسع عشر ميلادي: دراسة تاريخية من خلال الوثائق المحلية، ج1، (الجزائر: دار الكتاب العربي للنشر والتوزيع والترجمة، 2007).

19. الغزالي أبو حامد، مختصر إحياء علوم الدين، تحقيق وتعليق شعبان محمد إسماعيل، (القاهرة)، 1978م.

20. عبد الله عبد الرزاق، الصوفية والمجتمع في غرب أفريقيا، (مصر: المكتب المصري لتوزيع المطبوعات، 1999).

21. مبروك مقدم، الإمام محمد بن عبد الكريم المغيلي التلمساني ودوره في تأسيس الإمارة الإسلامية بإفريقيا الغربية خلال القرن التاسع للهجرة الخامس عشر للميلاد، (وهران: دار الغرب للنشر والتوزيع، 2006).

- الموسوعات:

أحمد شلبي، موسوعة التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية، ط4، ج6، (القاهرة: مكتبة النهضة، 1983م).

- الرسائل الجامعية:

1. شبايي ياسين، "الفكر السياسي عند الشيخ المغيلي التلمساني ودعوته الإصلاحية بتوات والسودان الغربي (870-909هـ/1465-1503م)"، جامعة وهران، السنة الجامعية: 1427-1428هـ/2006-2007م.

- المقالات:

1. أحمد الحمدي، "محمد بن عبد الكريم المغيلي من خلال بعض آثاره المخطوطة"، مجلة الجزائرية للمخطوطات، ع:1، (جامعة وهران: 1: مخبر مخطوطات الحضارة الإسلامية، 2004).

2. جعفري أحمد، حوار الإمام محمد بن عبد الكريم المغيلي (909هـ) مع ملوك وأمراء غرب إفريقيا وأثره في حركة الفتح الإسلامي لإفريقيا، مجلة الفضاء المغربي، مجلة الفضاء المغربي، ع:2، مج:18، (الجزائر: جامعة أبو بكر بلقايد تلمسان، 2020).
3. شترة خير الدين، "الإرث الفكري والإصلاحي للشيخ المغيلي في إقليم تواتو حواضر السودان الغربي، مجلة المعارف للبحوث والدراسات التاريخية"، ع:21، (الوادي: جامعة حمه لخضر، 2019).

- المراجع باللغة الأجنبية:

1. Jenkins.R. G, the evolution of Religious Brotherhoods in north and North West Africa 1525-1900 in Willis. vol. I (London: Johnrafl (ed) studies in west African Islamic history ,1979).
2. XavierCoppolari Octave De port, les confréries religieuses musulmanes, (Alger: Adolphe Jourdan, 1897).
3. Alfred Le chatelier, l'islam dans l'Afrique occidentale, (Paris: Steinhel,1899).

مدرسة التصوف الجزائرية وامتداداتها في غرب الصحراء (من سيدي غلي بن سيدي يحيى إلى الشيخ سيدي أحمد البكاي)

الأستاذ: الباحث: أحمد ولد سيدات (الرفاعي)
الجامعة: جامعة نواكشوط. قسم التاريخ والحضارة

الملخص:

ترصد الورقة امتدادات مدرسة التصوف الجزائرية في الغرب الصحراوي من خلال تأثير شخصيات دينية ذات منزع تصوفي تتناثر مدافنها من تلمسان وتوات في الجزائر باتجاه تيرس فولانة بموريتانيا الحالية، وتميط اللثام عن واحد من أقدم روافد التصوف الكنتي متمثلا في الطريقة العقبوية بسندها المعروف بورد التلقين، المتداول بين الكنتيين في جنوب الجزائر، مرورا بالنيجر وأزواد وصولا إلى موريتانيا وجنوبي المملكة المغربية، وقد أسهم رجال هذه الطريقة في التربية وتهذيب السلوك، كما أسهموا في الاستقرار والانسجام الاجتماعي بموريتانيا منذ القرن 9 هـ مع ظهور الشيخ سيدي محمد الكنتي الكبير وحفيده الشيخ سيدي أحمد البكاي، وستعزز هذه الطريقة -لاحقا- بالأوراد المغيلية مع سيدي غمر الشيخ، فيكون لذلك ما بعده من التجديد والإرشاد الدني والإصلاح في الغرب الصحراوي والقارة الإفريقية عموما.

الكلمات المفتاحية:

الجزائر، موريتانيا، التصوف الكنتي، الطريقة العقبوية، المغيلية.

The Algerian Sufi School and Its Extension in the West of the Sahara (From Sidi Ali ben Sidi Yahya to Sidi Ahmed al-Bakkay)

Abstract:

This paper deals with the extensions of the Algerian school of Sufism in the West of Sahara through the influence of religious personalities with Sufi inclinations whose burials are scattered from Tlemcen and Tuât in Algeria towards Tiris, to Walatah in present-day Mauritania. It also sheds light on one of the ancient tributaries of Kunti Sufism in the Sahara, represented by the Kunti Oqbawi Tariqah, known as "indoctrination litany", which is spread among the Kunti people in southern Algeria, passing through Niger and Azawad, to Mauritania and the south of the Kingdom of Morocco. This Tariqah's pioneers have contributed to the discipline, refinement of behaviour, stability and social harmony in Mauritania since the 9th century AH with the advent of Shaykh Sidi Muhammad al-Kunti and Shaykh Sidi Ahmed al-Bekkay, before it was strengthened by another tributary who is their descendant Sidi Omar al-Shaykh who brought the new branch of the Al-Qadiriyya al-Maghiliyya Tariqah. So, it was a reason for renewal, religious guidance, and reform in the west of Sahara and Africa in general.

Keywords:

Shaykh Sidi Muhammad al-Kunti, Shaykh Sidi Ahmed al-Bekkay, Oqbawi, Sufism, Litany, Al-Qadiriyya al-Maghiliyya

مقدمة

من المسلمات المطلقة بين الباحثين قدم الصلات بين المغرب الثلاثة وبينها وإفريقيا جنوب الصحراء، كما تؤكد المصادر ديمومة التناقل الثقافي بين هذه الأقطار ومثانة الصلات الاجتماعية والدينية بينها. ولئن كانت مدرسة التصوف الجزائرية عريقة عراقية التصوف والمتصوفين في الأمة الإسلامية؛ فإنها كذلك لم تقتصر على المركز منذ أشرقت بشخصياتها العلمية، بل أضاءت الأقطار المجاورة وانساحت في الأطراف من خلال الرحلات العلمية والسياحة الصوفية، كما تكشف أسانيد ورد التلقين المتداولة عن مؤسسي ورواد الطريقة العقبية الكنتية في موريتانيا، ومدافن أوائل أجدادهم المتناثرة بين البلدين.

إضاءة: إننا لسنا بصدد الحديث عن قيام مدرسة التصوف الجزائرية ولا سرد مراحل نشأتها وتطورها في المركز، بل سنتقصى وجودها في الأطراف ودورها في استقرار المجتمعات الإفريقية ونهضتها من خلال جهود أجداد الكنتيين من أحفاد عقبة بن نافع الفهري، بدءا من سيدي عثمان أول من استوطن منهم توات وأقام بها حتى توفي، حيث خلفه ابنه يحيى الأب ثم وريثه يحيى الابن⁽¹⁾. وأضرحة الثلاثة موجودة هناك وبجانها قبور السبعين الذين تتلمذوا على سيدي يحيى الابن، وهو الذي ترك ابنه سيدي علي ودفن إلى جانبه في عزي بالجزائر، "بعد أن تخرّج على يده أزيد من ألف واصل"⁽²⁾ في رحلة حافلة بالإرشاد والتربية أوصلته إلى شمال موريتانيا الحالية حيث تزوج من بنت أمير ابدوكل⁽³⁾ لتكون مرحلة انتقال أجداد الكنتيين إلى هذه المنطقة

(1) يحيى ولد سيدي أحمد، ديوان الصحراء الكبرى، المدرسة الكنتية، الجزائر، دار المعرفة 2009، ج 1، ص 48.

(2) الشيخ سيدي محمد بن الشيخ سيدي المختار "الرسالة الغلاوية" تحقيق د. حماها للهبنالسالم، بيروت - لبنان، دارالكتبا العلمية، 2013، ص 199.

(3) أول إشارة مفصلة مكتوبة عن قبائل الشوكة الصنهاجية التي أسست إمارة ابدوكل، وردت في نصوص أحمد بن الحاج عبد الله الرقادي، وتحديدًا في نسخة أهل الشيخ ولد

من الصحراء وبداية تأثيرهم القوي تباعا مع ظهور الشيخ سيدي محمد الكنتي⁽⁴⁾ الكبير نزيل فصك⁽⁵⁾ فابنه الشيخ سيدي أحمد البكاي نزيل ولاتة(ق 15) وأولاده الذين حملوا لواء دعوته من بعده ونشروا أوراده واحتفظوا بوصاياهم واتخذوا طرائق قدا في الصحراء، عمادها منهج أوائل أجداده وتوجيهات من إشارته ورأيه⁽⁶⁾. حيث لم يتوان الشيخ سيدي أحمد البكاي بعد أن فارق أبناءه في رحلته الحجية التي توقفت بولاتة" عن بعث الكتب إليهم بالوصايا الحكيمة في الحض على التمسك بالسنة والنصح للعامّة والخاصة" إلى غير ذلك مما أورده الشيخ سيدي المختار الكبير في كتابه المنة في اعتقاد أهل السنة، وقد انتشرت الطريقة البكائية العقبوية والمغيلية على يد أبناء سيدي أحمد البكاي وأوسطهم سيدي الحاج بوبكر، وهو أسرعهم لحاقا به، وأكبرهم الشيخ سيدي محمد الكنتي الصغير سبيّ جده؛ وهو الذي تولى أمر دولته وسياسته من بعده، وأصغرهم سيدي عمر الشيخ خليفته الذي واصل نهجه في السياحة حتى التقى بالشيخ سيدي محمد بن عبد الكريم المغيلي، فكان رفيق دربه، وحامل ورده والرئيس الأعلى للطريقة القادرية من بعده⁽⁷⁾.

أنّ المكتشفة أخيرا، واستنادا إليها فإن المجموعة المذكورة تنقسم إلى أربعة أقسام: إدغموس، أولاد عثمان بن أجنف، أولاد الحسن، أولاد امغارن، للمزيد راجع أحمد بن الحاج عبد الله الرقادياحمد ولد سيدات (الرفاعي)، بحث لنيل درجة الماستر في التاريخ، كلية الآداب والعلوم الانسانية، غير منشورة، جامعة نواكشوط، السنة الجامعية 2014-2015.

⁽⁴⁾ هو المتوكل على الله سيدي محمد بن سيدي علي.. كما ذكر ابنه الشيخ سيدي أحمد البكاي، ولقب بالكنتي نسبة لجده لأمه اللمتونية، ويرى د. حماد الله ولد السالم أنه قد يكون هو المسى محمد بن رشيد الفهري الوارد في فتاوي المعيار بوصفه من أئمة التجديد والدعوة، الرسالة الغلاوية، م، س، هوامش المحقق، ص 67، الإحالة رقم: 6.

⁽⁵⁾ موضع في شمال غربي موريتانيا الحالية.

⁽⁶⁾ إشارة إلى وصايا الشيخ سيدي أحمد البكاي التي ترك لأبنائه، وهي مليئة بالتوجيه والإرشاد مخطوط من 14 صفحة بحوزتنا نسخ منه.

⁽⁷⁾ بول مارتى، كنته الشرقيون تعريب محمد محمود ودادي، دمشق، مطبعة زيد بن ثابت، 1985م، ص 33.

المحور الأول: من توات إلى ولاتة:

تعود الصّلات بين هذه الأقاليم إلى مرحلة قديمة، فالروابط بين سجلماسة وتوات وولاته لم تكن ارتباطات اقتصادية من خلال تجارة القوافل فحسب، بل كانت ثقافية واجتماعية، كما أدت الهجرات البشرية أدوارا حاسمة في هذا المجال، وظلت من الروافد المؤثرة في الفضاء الشنقيطي التكروري إلى عهد قريب، ليس آخره قدومُ عرب الهجرة والفتح من المغرب الإسلامي، مروراً بالجنوب الغربي للجزائر عبر آدرار توات، المحطة الرئيسية في مسار رحلاتهم، ومثلهم المحاجيب والأشراف، الذين استقروا في ولاتة⁽⁸⁾. كما كانت البلاد الجزائرية محطة رئيسية لقوافل الحج الشنقيطية، حيث تلتقي الأركاب في آقبلي عند شيخ الركب أبي نعامة الكنتي، في تولي رئاستها⁽⁹⁾ مما يجسد شكلاً آخر من أوجه الروابط التاريخية والدينية بين البلدين.

أمّا حين نتحدث عن امتدادات مدرسة التصوف الجزائرية في غرب الصحراء من خلال الطريقة العقبوية الكنتية في القرنين التاسع والعاشر

(8) يحيى ولد سيدي أحمد، ديوان الصحراء، م، س، ص 25.

(9) ذكر محمد ابن أبي بكر الصديق البرتلي، في مصنفه فتح الشكور في معرفة أعيان علماء التكرور، ص 48 أثناء ترجمته للحاج أحمد بن الحاج الأمين الغلاوي الملقب "التواتي" حج مرات بيت الله الحرام، وهو شيخ الركب من أرضنا حتى يصل إلى توات فيكون الأمر لأبي نعامة... "وأبو نعامة الكنتي هو المترجم له في معجم المشايخ للزيدي: ص 18، حيث قال عنه "أحمد ابن محمد بن عبد الرحمن أبي نعامة التواتي الملقب بالبكاوي صاحب النير (=كذا في الأصل) والسر والمدد والكرامات؛ منازلهم في آقبلي من عمالة توات وزاويتهم محترمة وقد تولي مشيخة ركب الحج كعادة أبيه وجده؛ وكنت قد سمعت به ووصلت إلي أخباره وكاتبته وعقدت معه عدة الأخوة، ثم ورد علينا حاجا في أثنا سنة 1197 فاجتمعت به وشاهدت من محاسنه ومكارم أخلاقه ما يفوق عن الوصف وقد جددت معه عقد الأخوة والمحبة، وسمع مني أشياء، وكتبت له الإجازات ودعا لنا بالخير، وعاد لبلاده. ولا تنقطع عني مراسلاته وهداياه بارك الله فيه" نقلا عن الرسالة الغلاوية، م، س، هوامش المحقق، صص 217، 218.

الهجريين، فإن ذلك لم يأت اعتباراً ولا مجازفة؛ وإنما من خلال شخصيات مشتركة بين الجزائر وموريتانيا، ومدافن ومزارات متناثرة ما بين القيروان بأقصى المغرب الأدنى إلى شرق الجريد فتلمسان ومستغانم ومزاب وتوات وتيرس وولاتة.. كسيدي عثمان وسيدي يحيى وحفيدهما سيدي علي الذي كانت معه بداية انتقال تلك المؤثرات من توات إلى تيرس والمغرب الصحراوي عن طريق ابنه الشيخ سدي محمد الكنتي الكبير كما سبقت إليه الإشارة.

ويمكن أن نسمي هذه الفترة من الطريقة العقبوية عموماً بمرحلة الأفراد، ونقسمها إلى مرحلتين:

أ- المرحلة الأولى: من سعيد الأبر، إلى سيدي علي؛ وتتميز بطغيان السياحة الدينية وانحسار جهود أصحابها في المغرب الأدنى والأوسط وأطراف المغرب الأقصى بعيداً عن غرب الصحراء؛ ورجالاً المرحلتين عموماً هم رجال سند التلقين، المتداول بين الكنتيين في جنوب الجزائر، مروراً بالنيجر وأزواد وصولاً إلى موريتانيا وجنوبي المملكة المغربية، ويرفعونه إلى عقبة المستجاب وقد نظمته غير واحد من مريدي هذه الطريقة ومشايخها، كالشيخ سيدي محمد بن الشيخ سيدي عمر بن الشيخ سيدي محمد الخليفة، عن أبيه عن جده إلى عقبة المستجاب، في نظم من 43 بيتاً

يقول في آخره

عن شيخه أبيه صاحب النبي * عقبة فاتح بلاد المغرب
 عن الرسول المصطفى الأمين * صلى عليه الله كل حين
 أخذ بلا واسطة كما نقل * شيخ الشيوخ في العلوم والعمل
 نقله سيدنا المختار * جعله الله كما يختار

كما نظمته العالم البوبكري أحمد بن حبيب، حيث يقول بعد المقدمة:

وقد أخذت جهدي التلقينا * والبيعة المؤسسين الدينا

ويسرد رجال السند إلى أن يقول

عن عقبة ابن نافع أبيه * القُرشي الماجد الوجيه

وأخذ البيعة والتلقينا * عن صفوة الأنام أجمعينا

وهذه السلسلة حسب أسانيدھا المختلفة عن صفوة الأنام، مرورا بالفاتح عقبة بن نافع فابنه عبد الرحمن القرشي، فحفيدہ عامر التونسي⁽¹⁰⁾ فابنه العاقب⁽¹¹⁾ وصولا إلى عثمان ثم يحيى الأول ويحيى الابن فسيدي علي وسيدي محمد الكنتي..

وهي التي نجد الشيخ سيدي محمد الخليفة - في سياق آخر- يتحدث عن بعض رجالها من أجداده فيعطي صورة عن مسار هذا المد الصوفي ومكانة بعض رجاله وأدواره حيث يذكر أن "شاكر مؤلف المدخل، وقبره مشهور يُزار... وأن حفيده سيدي عثمان، استوطن عزي (...). فأقام بها مربيا مرشدا، تؤخذ عنه فنون العلم، حافظا محدثا إلى أن توفي (...). وقبره بها مشهور وخبره ماثور. ثم خلفه ابنه سيدي يحيى وكان علامة حافظا ورعا زاهدا مربيا، تخرج على يده جماعة فرقهم في القرى والمدن للإرشاد والتربية ووعدهم بالموت عنده والدفن بإزائه، فربوا ما ربوا وأرشدوا ما أرشدوا، ثم ماتوا عنده ودفنوا إلى جنب روضته، وقبورهم مشهورة إلى يومنا هذا تزار"⁽¹²⁾....

هذا النص الطويل من الرسالة الغلاوية للشيخ سيدي محمد الخليفة الكنتي يتحدث بتفصيل عن سير ومسارات هذا الجيل من الأفراد خلال المرحلة الأولى التي يمكن اعتبار آخر رجالها سيدي يحيى الابن.

⁽¹⁰⁾ هل يكون هو عبد السلام التونسي المدفون في تلمسان، وفيها ضريح باسم سيدي شاكر الذي يرد في هذه السلسلة أيضا.

⁽¹¹⁾ إجازة سيدي محمد بن المعلوم في ورد البيعة والتلقين، الملحق 3.

⁽¹²⁾ الشيخ سيدي محمد بن الشيخ سيدي المختار، الرسالة الغلاوية، م، ن، صص 195-190.

ب- المرحلة الثانية: تبدأ من سيدي علي بن سيدي يحيى وكانت مرحلة الغرب الصحراوي بامتياز، بعد انتقال الجيل الثاني بمؤثراته الصوفية وما اضطلع به من أدوار سياسية واجتماعية مثلت الإرهاصات الأولى لقيام المدرسة الكنتية التي سُرّس قواعدها على يد الشيخين سيدي علي وسيدي محمد الكنتي؛ وتتوسط مع حفيدهما الشيخ سيدي أحمد البكاي، وفي هذه المرحلة نلاحظ التحول من السياحة بين الأقطار إلى الاستقرار النسبي والانتقال من المجهود الفردي إلى الجماعي وتبلور مشروع شبه اجتماعي وسياسي كما سنرى لاحقا من خلال جهود الشيخين سيدي محمد الكنتي وسيدي أحمد البكاي وأحفادهما. ونلاحظ أن هذه الفترة بمرحلتها وأقطابها ستبقى حاضرة في وجدان بعض أقطاب التصوف المتأخرين ونبراسا مضيئا وأسوة اقتداء ومصدر فخر في مشاعرات الشيخ المجدد الشيخ سيدي المختار الكنتي الكبير.

هم الأئمة قدما غيرذي كذب ** المنقذون الورى من ربة الكدر

القائمون لأمر الله لا شطط ** يلفى لديهم ولا طيش على خطر

إلى أن يقول

منهم ولي ومنهم مقسط بدل ** والغوث منهم ومنهم قائم السحر

وفيم قد يرى المجددون ومن ** تحيا بحرمة المومة بالخضر

والسالكون ومن يحيا بنفحته ** قلب المريد ويحظى منه بالوطر

إلى أن يقول

فعقبة المستجاب القرم فاتحها ** كفرا فكفرا بإذن سيد البشر

وقام عمرو العلامن بعده وبه ** تقطب العشرة الأبدال في الزمر

من جملة التابعين في أرومتها ** حازوا العلوم وفتحوا بين الأثر

- وعامر بعده حاز العلوم بها **
 وبعده شاكرهمس ودومانها **
 ويحيا قد حييت به القلوب وقد **
 ورد كالا إلى قوم يسدهم **
 وقد علا بعده إلى سماء العلا **
 نزيل فصك له قدر ومنقبة **
 وهو الذي دوخت لمتونه دعوته **
 ونجله قد بكى التسعين تتبعها **
 بدءا وعودا وحاز السبق بالكبر **
 حازوا التقطب لا نكرا لذي نكر **
 سقى بنفحته السبعين من نهر **
 والكل مات لديه آخر العمر **
 علي مجد بسقي الألف مفتخر **
 شديد ركن عظيم القدر معتكر **
 حتى علتهم بنوحسان بالخفر **
 عشرا مخافة رب الكون مزدجر **

أما الشيخ الجليل الشيخ محمد المامي، فكان يرى أن من يساوي مؤسسي هذه المدرسة) الشيخ سيدي محمد الكنتي وابنه الشيخ سيدي أحمد البكاي) مع غيرهما من الأولياء فقد أتى كبيرة من الكبائر حيث يقول في ابنه أفلواط:

- جعلته في حمى الأشياخ كلهم **
 لا سيما عدة العصر المعاذ به **
 أقطاب تيمرس والأمصار غارقة **
 ونجله الكوكب الدرّي لو جمعت **
 لم يبلغ العشر من ياقوت حلتته **
 ومن يساويهما فقد بغى وأتى **
 من كل ما بعد هذا اليوم من خطر **
 رمق البسيطة من بدو ومن حضر **
 في نوره كغروب الشمس والقمر **
 بوران ما ملكت من لامع الدرر **
 من العلوم ولا عشرا من العشر **
 إحدى الكبائر بين الناس والكُبر **

ومع أن جهود هذه الطريقة في التربية والإرشاد بدأت مع الرعيل الأول، كما يتضح من قصة السبعين التي أوردها الشيخ سيدي محمد الخليفة وتحليلته لبعضهم في نصه المتقدم بقوله قطب علامة مربي⁽¹³⁾ ... إلا أن تأثيرها القوي في الفضاء الشنقيطي التكروري سيبدأ في المرحلة الثانية مع الشيخ سيدي محمد الكنتي الكبير كما يتجلى من خلال حضوره في التحولات الثقافية والاجتماعية ودوره في التربية والإصلاح وضبط التصادم بين صنهاجة وحسان؛ وسيتجاوز التأثير العمق الصنهاجي والحساني إلى العمق الإفريقي في عهد ابنه الشيخ سيدي أحمد البكاي ويتصاعد مع أبنائه وأحفاده بموريتانيا والبلدان المجاورة حتى يتجاوز القارة في عهد حفيده المجدد الشيخ سيدي المختار الكبير.

ج- هيئة الأخذ، وصيغة الورد:

تتضح مكانة هذه الطريقة عند مشايخها وكيفية أخذ المريدين لها مما جاء في بعض إجازاتهم ومنه: "الحمد لله الذي جعل التلقين من أشرف أنواع البيعة الإسلامية، والصلاة والسلام على أشرف البرية وعلى آله وأصحابه الموصوفين بحسن الأفعال وطهارة الطوية، وبعد فإنه لما كان التلقين للفظ الجلالة لا تتأتى الفريضة إلا به وجب صرف الهمة إليه، والتعويل في إصلاح الباطن عليه، ولهذا المعنى تعاطاه الخلف عن السلف جيلا بعد جيل وقبيلاً بعد قبيل على الكيفية المتعاطاة فيما بينهم وهي أن يستقبل القبلة عند أخذ التلقين مغمضاً عينه مخبتاً لله تعالى مظهراً للذلة بين يديه لدخوله في حضنه، واندرجاه في دائرة خفارته ناوياً أداء الفريضة إذ لا بد للواجب من تمييز بينه وبين غيره بالنية الصادقة والحضور التام مع استحضر البيعة الإسلامية لأنه مباح للنبي صلى الله عليه وسلم في ذلك متشبثاً بأذيال الوسائط المبلغين له عن نبيه عليه السلام، هذه البيعة الشريفة المعظمة

(13) نفس المرجع والصفحة.

لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾⁽¹⁴⁾.. "وتختلف بيعة النساء عن بيعة الرجال.

أما صيغة وردها فهي: لا إله إلا الله تخرق الطباق، لا إله إلا الله تزيل الشقاق، لا إله إلا الله تنفي النفاق، لا إله إلا الله تضيء لمحققها ليالي المحاق، لا إله إلا الله السباق السباق، لا إله إلا الله مفيد بالإطلاق، لا إله إلا الله تفتح الآفاق⁽¹⁵⁾.

المحور الثاني: المدرسة الكنتية ودورها في استقرار المجتمعات الإفريقية ونهضتها.

من القرن 9هـ حتى 10

عندما نتحدث عن كنتة فنحن نتحدث فقط عن قبيلة صحراوية عربية تحولت إلى عدة قبائل وكونفدراليات، وباتت اليوم منتشرة في الصحراء الكبرى والشمال والغرب الإفريقي عموماً⁽¹⁶⁾ ويعرفها الباحث الفرنسي پول مارتى خلال القرن الماضي بـ"تلك الوحدة الإسلامية القوية التي تندرج فروعها المختلفة ابتداء من توات حتى منطقة زندر بواسطة الطوق الغربي من الصحراء الكبرى: المتمثل في توات وأدرار الموريتاني، وتگانت، والعصابة والحوض، وأژواد، وعقفة نهر النيجر، وتمترين، وأدرار إفغاس وحاليا حتى ضفة الهوسا الشرقية من نهر النيجر حتى طاوه"⁽¹⁷⁾.. ويرى في

⁽¹⁴⁾ الملحق رقم 1.

⁽¹⁵⁾ الملحق رقم 1.

⁽¹⁶⁾ توجد كنتة في الدول التالية مرتبة حسب حجمها: موريتانيا، مالي، الجزائر، النيجر،

المغرب، سنغال، مصر، غينيا كوناكري، سيراليون، ليبيا، بوركينا فاسو، نيجيريا..

⁽¹⁷⁾ پول مارتى، كنتة الشرقيون، م، س، ص 09.

كتابه دراسات حول الإسلام في موريتانيا- أنها تمثل التراث الإسلامي الحقيقي في الصحراء.⁽¹⁸⁾

أما حين نتحدث عن المدرسة الكنيتية فنحن لا نتكلم عن مجموعة أو فئة معينة أو عرق أو لون واحد، وإنما نتحدث كذلك عن مجموعة من الأعراف والقيم الدينية والروحية والحربية أيضا والثقافية والسياسية، وعن مد صوفي وخطاب إصلاحي جامع ظهر في أوج التحولات الكبرى في الاجتماع والثقافة بالصحراء خلال القرنين 9 و10 الهجريين على الأقل. وهذا الخطاب والمنهج حري بالدراسة والتذكُّر والاستحضار، لدوره في الإصلاح والاستقرار، وسموه عن التخندق، وعدم تقاعسه عن التدخل- أحيانا- لترجيح كفة العدل وضبط إيقاع التصادم، بما يضمن عدالة المنتصر ويصون كرامة المهزم⁽¹⁹⁾. وذكرنا للأشخاص هنا من باب مساهمتهم في هذا البناء المعرفي والروحي وجهودهم في الإصلاح الاجتماعي فقط ليس إلا؛ وسنلاحظ أن هذه الجهود الممنهجة والخطاب الشامل لمجموعة الأعراف والقيم المجسدة لما نسميه المدرسة الكنية، بدأت جذوره في موريتانيا في عهدي سيدي علي وابنه الشيخ سيدي محمد الكنتي الكبير، وتوطدت أركانه على يد حفيدهما الجد الجامع لقبيلة كنته: الشيخ سيدي أحمد البكاي، الذي كان دوره عظيما هو الآخر وانصرفت جماعات كنته من بعده نحو هذه الرسالة وهي الدعوة والإدارة الدينية⁽²⁰⁾.

⁽¹⁸⁾ بول مارتى "دراسات حول الإسلام في موريتانيا، الشيخ سيديا-الفاضلية-إدوعل، ترجمة د. البكاي بن عبد المالك، (بدون تاريخ ولا مكان نشر) ص135. في النسخة الورقية، وكذا الرقمية وهي متاحة على بصيغة pdf على الرابط:

https://drive.google.com/file/d/1qel6GlqZqEGAU_nwvgrFZU3E2-

2022/10/11 بتاريخ: p_4P5e/view

⁽¹⁹⁾ إشارة إلى دور سيدي محمد الكنتي في حرب شر ببه الأولى وسيأتي الحديث عنه لاحقا.

⁽²⁰⁾ بول مارتى، كنتة الشريقون م، س، ص28.

أولاً: جذور المدرسة الكنتية في موريتانيا.

يتضح إذاً مما تقدم أن جذور المدرسة الكنتية- بوصفها معطى صوفيا وسياسيا وباعتبارها شخصيات مؤثرة في الفضاء الصحراوي والإفريقي لاحقاً- تعود إلى أواخر القرن الثامن الهجري تقريبا، وترتبط ارتباطا وثيقا بمرحلة انتقال أجداد الكنتيين إلى الصحراء بدءا من سيدي علي بن سيدي يحيى.

ومع أنها المرحلة الصامتة أو مرحلة الفراغ الوثائقي في هذا المجال ومصادرها قليلة، والكتابة عنها نادرة؛ إلا أن بعض أحداثها ما تزال محفورة في الذاكرة الجمعية، والموجود من مصادرها صريح في أن سيدي علي بن سيدي يحيى كان من أهل العلم والصلاح، وشيخ تربية، بل "قطبا علامة مربيا تؤخذ عنه الأوراد وتستمد منه الأمداد، "قُدوة يُهتدى بهديه ويُرجع إلى إشارته ورأيه، وكان يخرج إلى المرابطين (ابُدوكلُّ) أيام دولتهم بالصحراء. وجيلُ حَسَّان يأخذون عنه الأوراد ويستمدون منه الأمداد"⁽²¹⁾. وربما نال بذلك حُظوة لدى زعماء حسان وأمرأء ابُدوكلُّ من صنهاجة فتزوَّج منهم "أهو (حواء) بنت محمد ألم بن زم بن كنت (...). رئيسُ ابُدوكلُّ"⁽²²⁾ فأنجبت ابنه سيدي محمد الكنتي الذي نشأ وتربى بين أحواله حتى حفظ القرآن، ومهر في العلوم ثم أعمل الرحلة من جديد لطلب العلم وكان يتردد على توات كما ورد في حولياتها⁽²³⁾ قبل أن يعود إلى الصحراء الشنقيطية في سياق آخر بدأت فيه الصدامات المباشرة (ما يسمى الأدبيات التاريخية المحلية بحرب شر ببه

(21) الشيخ سيدي محمد لخليفة، الرسالة الغلاوية، م، س، ص 196.

(22) أحمد بن الحاج عبد الله الرقادي، م، س، ص 35.

(23) أورد ذلك مارتي في كتابه كنتة الشرفيون نقلا عن الضابط الترجمان، آ. جي. ب. مارتان، في وثيقة هامة هي التي اعتمدت عليها حوليات توات فيما بعد للمزيد راجع يحيى ولد سيدي أحمد، م، س، ص 51.

الكبرى⁽²⁴⁾ بين قبائل الهجرة العربية الحسانية من جهة، وإمارة اَبْدُوْكَلَّ الصنهاجية القوية آنذاك، دولة المرابطين كما يسمها الشيخ سيدي محمد الخليفة⁽²⁵⁾.

ثانيا: الشيخ سيدي محمد الكنتي الكبير وحرب شرببه الأولى (دارت في حدود 800-830هـ).

أ- من محكم في الأطراف إلى طرف في الحرب: يتحدث الشيخ سيدي محمد الخليفة عن مسار تلك العلاقة المعقدة بإمارة اَبْدُوْكَلَّ، وعن جموعهم المتكاثرة وحللهم المتناثرة ومكانتهم السياسية والحربية وسيطرتهم على الصحراء حتى أطراف السودان؛ وما حظي به الزعيم الروحي وسبط أميرهم الشيخ سيدي محمد الكنتي من احترام في عموم المجال سواء لدى السكان الأصليين أو طلائع الوافدين الجدد من الحسانيين، كما يتحدث عن استقلاليتته بمن معه من تلامذته وجيرانه، ومكانته العلمية والروحية وخلالها المعرفية، وأنه "كان مجاب الدعوة، لا يجاربه في مجاربه خلف.. دام يُخَي ما قد أميت من الفضل، وينفي فقرا ويترد محلا... محترما مكرما معظما عند سائر دولة المرابطين (اَبْدُوْكَلَّ) من لمتونة وبني حسان، مقدما عليهم مُحَكَّمًا فيهم، إلى أن جرى القضاء بأمر غاظه على أخواله اَبْدُوْكَلَّ. وهم يومئذ المتغلبون على الصحراء ومن فيها إلى أطراف السودان. فارتحل عنهم، مغاضبا لهم"⁽²⁶⁾. وهذا المقتطف من الرسالة الغلاوية صريح في أن سيدي محمد الكنتي الكبير كان المحكم في الأطراف، قبل أن ينحاز إلى أحدها، ويتحول إلى فاعل رئيسي في الحرب، ويفتي بوجوب الخروج على الإمارة وقيم تحالفات من أجل مقاتلتها كما أفتى بذلك- حسب بعض المصادر الأخرى -

⁽²⁴⁾ للمزيد راجع: د. حماه الله ولد السالم، تاريخ بلاد شنقيطي، بيروت، دار الكتب العلمية، 2012م، ص 168 وما بعدها.

⁽²⁵⁾ الشيخ سيدي محمد الخليفة، الرسالة الغلاوية، م، س، ص 200.

⁽²⁶⁾ الشيخ سيدي محمد الخليفة، الرسالة الغلاوية، م، ن، ص 200.

عالم من أصهاره يسمى يعقوب الجكني قاضي تنيكي⁽²⁷⁾. وإذا كانت أسباب ذلك الانحياز لم ترد في النص فإن صفة المحكم تشير إلى وجود احتكاكات دائمة بين الأطراف وتنامي الصراعات المحلية، كما أن في الفتيا بجواز أو وجوب مقاتلة الإمارة إحياء بسلوك مخالف للشرع أو ممارسة تبرر حمل السلاح عليها.

ب- البيعة الكبرى وإعادة تشكيل البنيات الثقافية والاجتماعية بالصحراء: تتحدث المصادر المحلية عن حرب طويلة بين طلائع الهجرات القادمة من الشمال خلال القرن 14 والإمارات الصنهاجية التي كانت تتقاسم المجال، في صراع دام لأزيد من عشرين سنة، وتؤكد المصادر أن موقف هذا الشيخ المناهض لأخواله كان بسبب رفضهم شفاعته في ردّ المنهوبات التي يحصلون عليها من إغاراتهم على قوافل مريديه من العرب وأصهاره من تجكانت⁽²⁸⁾، وهي رواية منطقية لسبب الخلاف الذي مثل بداية نهاية إمارة ابْدُوْكَلْ، بعد إزاحة الشرعية الدينية عنها، وتكتل خصومها في البيعة الكبرى للشيخ سيدي محمد الكنتي التي غيرت رتبة البنيات الثقافية والاجتماعية وأعدت تشكيلها من جديد.

وعن بداية ذلك التكتل يقول الشيخ سيدي محمد الخليفة "فورد عليه غزو من أولاد النَّاصر وقد بلغهم مغاضبته لأخواله، فقال بعضهم لبعض: إن فاتتكم هذه الفرصة في لمتونه فحرام عليكم الظفر بهم بعدها. فقد غاظوا هذا الغوث وأغضبوه. وما يزيل قُلنسوة الغوث عن رأسه، يزيل مُلك السلطان من أُسِّه"⁽²⁹⁾ فأجابهم لذلك وفق شروط مهدت للانتقال السلس من السيطرة المطلقة لإمارة ابْدُوْكَلْ إلى تقاسم المجال بين قوى جديدة

(27) حماه لله ولد السالم، تاريخ بلاد شنكيط، م، س، ص 172.

(28) حماه لله ولد السالم، تاريخ بلاد شنكيط، م، س، ص 168.

(29) الشيخ سيدي محمد الخليفة، الرسالة الغلاوية، م، س، ص 202.

صارعت للسيطرة مدة عقود وانتصرت أخيرا بعد هذا الحلف الذي أبرم وفق معاهدة ملزمة لقادة حسان، لا يتعرضون بموجها للعلماء وطلبة العلم ومن لا ذنب لهم أو اعتزل الحرب، ويكفون عن مقاتلة خصومهم حين يبلغون منهم الحد الذي يأمنون شوكتهم.

ج- التقاسم الوظيفي أداة لاستقرار المجتمع وتنظيمه: بفضل مكانته العلمية والروحية استطاع الشيخ سيدي محمد الكنتي القيام بدور محوري في الصراع منحازا لأحد أطرافه وفق الشروط المنصوص عليها في بنود البيعة التي قلبت موازين القوى من متونة إلى بني حسان، وهيات للانتقال من العصر الصنهاجي إلى العصر الحساني، وقيام مجتمع البيضان.

وهنا يتضح أن الشيخ سيدي محمد الكنتي الكبير لم يتحرك بدافع الانتقام أو البحث عن سلطة وإنما لضبط إيقاع التصادم بين أمتين إحداهما حكمت المجال لعدة قرون وأخرى قادمة لتوها من الشمال وكان بذلك «يؤسس لاقتسام السلطة بين الزوايا والعرب المحاربين»⁽³⁰⁾، إذ احتفظ الزوايا بالسلطة الدينية والروحية بعد ذلك، واستطاع بنو حسان لاحقا تشكيل قوى حربية وإقامة سلط سياسية اكتسحت المجال وتقاومت السيطرة على عموم البلاد. فكان بمثابة "صانع حكام الصحراء الجدد كما يقول بعض الباحثين⁽³¹⁾ أو هو صانع الملوك كما يقول إرنستا كلنير في كتابه السلطة السياسية والوظيفة الدينية في البوادي المغربية⁽³²⁾ وقد اختط

⁽³⁰⁾ الظريف، محمد. "الطريقة القادرية الكنتية البكائية مصدر لإنتاج الخطاب الصوفي في الصحراء"، اطروحة لنيل الدكتوراه في الآداب، غير منشورة، جامعة محمد الخامس، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، السنة الجامعية 2012-2013. ص122.

⁽³¹⁾ محمد الظريف "الطريقة القادرية الكنتية البكائية، م، ن، ص 122.

⁽³²⁾ إرنستا كلنير "السلطة السياسية والوظيفة الدينية في البوادي المغربية الأنثروبولوجيا والتاريخ: حالة المغرب العربي، ترجمة عبد الأحد السبتي، وعبد اللطيف الفلق، دار توبقال للنشر، ط2، 2007، ص:57)

لنفسه طريقا بين طريقين فلا هو وجماعته- التي تمسكت ببيعته من العرب القادمين من الشمال في ذلك العهد إلى اليوم- مصنفون ضمن الزوايا بالمفهوم الوظيفي الصرف، ولا ضمن العرب بالمفهوم الوظيفي الصرف أيضا، إذ لم يتخلوا عن حمل السلاح ولكنهم لم يحملوه للغزو والإغارة وإنما للدفاع فقط، أو لترجيح كفة ما، حين تقتضي الضرورة ذلك.

ولعل من أقدم المدوّن عن هذه المرحلة النصوص التي نقلها أحمد بن الحاج عبد الله الرقادي التواتي من خط الشيخ سيدي أحمد البكاي، وفيها ينقل الأخير عن أبيه سيدي محمد الكنتي "أن جميع من في محله من الناس غير السودان له معهم رحم"⁽³³⁾. وهي إشارة بالغة الدلالة في حصر صلوات القرابية-وربما- الروحية إذ ذاك في المكونات العربية والصنهاجية ما بين توات إلى تيرس مروراً بالساقية الحمراء، قبل أن تتألق في فضاءات أخرى خلال عهد ابنه ووريثه الشيخ سيدي أحمد البكاي.

ولا شك أن مكانة الشيخ سيدي محمد الكنتي الكبير وسلطته الدينية والروحية تعززت بانتصار حلفائه من حسان ما مهد الطريق أمام ابنه الشيخ سيد أحمد البكاي، فانساح جنوباً ليضيف للطريقة الكنتية البعد الإفريقي بعد إرساء تقاليدهما في المكونات الصنهاجية والحسانية.

ثالثاً: الشيخ سيدي أحمد البكاي.

عاش الشيخ سيدي أحمد البكاي خلال القرن التاسع الهجري وتبرز مكانته العلمية والروحية من تراجم العلماء له، ففيه يقول الشيخ سيدي محمد الخليفة هو « الغوث العلامة النحرير الفهامة المربي المجدد المسلك، المسدد⁽³⁴⁾ » كما عرفه صاحب فتح الشكور في معرفة أعيان علماء التكرور بـ "الولي العارف بالله تعالى المتبرّك به، المشهور (...). كان من عباد الله

⁽³³⁾ أحمد بن الحاج عبد الله الرقادي، م، س، ص 96.

⁽³⁴⁾ الشيخ سيدي محمد، الرسالة الغلاوية، ص 155.

الصالحين، والأولياء المعروفين المشهورين، يزوره الناس من كل فج في كل ساعة، يزوره الشرفاء والصالحون وغيرهم (...). وهو جد كنته كلها (...). وأخرج الله من نسله كثيرا من الأولياء والصالحين⁽³⁵⁾»

ويرى بعض الباحثين أنه « لم يكن شخصا عاديا، بل كان عالما جليلا متبحرا، وشيخا مربيا وقطبا كبيرا » كوالده الشيخ سيدي محمد الكنتي...» وقد مثل ظهوره منعطفًا حاسما في مسار الأجداد الكنتيين والتحولت الثقافية والاجتماعية في المجال، كما نسج علاقات قوية بالجماعات المحلية عمادها التحالفات الكبرى في عهد أبيه وعززتها روابط الأوراد والأرحام بعد ذلك، وترك آثارا مكتوبة تعزز المتداول عن جهوده في النهضة العلمية والإصلاحات الاجتماعية، ويمكن من خلالها تتبع جذورا الخطاب الإصلاحي لدى الطريقة العقبية الكنتية في هذه المرحلة.

المحور الثالث: الفكر الإصلاحي والدور السياسي

لعب الشيخ سيدي محمد الكنتي الكبير دورا محوريا في ضبط التصادم بين صنهاجة وحسان مؤسسا لاقتسام السلطة بين فئتي الزوايا والعرب المحاربين، مما يؤكد وعيه السياسي المبكر وتطلعه للإصلاح الاجتماعي من خلال تسيير الصراع بوضع معاهدة تحفظ لكل طرف دوره ومكانته حسب وظيفته الدينية والحربية أو الاقتصادية، وتبرز ملامح مشروع وريثه الشيخ سيدي أحمد البكاي وجهوده الإصلاحية في ثلاث نقاط.

1- البعد الديني: محاربة البدعة والحرص على السنة انطلاقا من الوحيين، كما جاء في كتاب المنة لحفيده الشيخ سيدي المختار "وكان حريصا على الاستئناس بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، جليلها وقليلها، فيقول

⁽³⁵⁾ البرتلي الطالب محمد بن أبي بكر الصديق الولاتي "فتح الشكور في معرفة أعيان علماء التكرور"، تحقيق وتعليق د. عبد الودود بن عبد الله، ود. أحمد جمال بن الحسن، لقاها، دار نجيبويه للطباعة والنشر، 2010. ص 59.

"أيها الناس إن عملاً قليلاً في سُنَّة، خير من عمل كثير في بدعة"⁽³⁶⁾، وأن الله تعالى لا يقبل من ذي بدعة عملاً صالحاً، واعملوا في أيام قليلة ذاهبة لأيام طويلة دائمة. وما هذه إلا حياة قليلة تُعد، وأيام تمر سراعاً.

2- البعد الأخلاقي: الحث على تحجب المرأة ومنع الاختلاط بين الجنسين لغير المحارم. حيث ظلت التقاليد الصنهاجية القديمة هي المسيطرة، وساد عدم الاحتجاب والاختلاط بين الرجال والنساء حتى في ولاتة رغم ما اضطلع به المحاجيب منذ مقدمهم إليها، ويتضح الجهد الإصلاحى للشيخ سيدي أحمد البكاي ودوره في التربية وتهذيب السلوك بتغيير أحوالهم بين رحلتي ابن بطوطة ورحلة الوزان⁽³⁷⁾.

3- النهوض الاجتماعي من خلال تعليم المرأة وتربيتها باعتبارها اللبنة الأولى في صلاح البيوت الذي هو صلاح المجتمع، وأن عليها مسؤولية وتكليفاً كما هو على الرجل، وأنها راعية ومسؤولة عن رعيتهما من بيت ومال وجار وعن حفظ نفسها ومالها، "فكان يجمع النساء في بيت ويجعل بينه وبينهن حجاباً، ويقول «أيها النساء إن الله كلفكن كما كلف الرجال، وخصكن بأمر دون الرجال، وهي الحجاب وثئي القدم وملازمة البيوت وطاعة البعولة والشفقة على العيال، إن نبيكن كان يقول لا تحقرنّ جارةً ما تصل به جارتها، ولو

⁽³⁶⁾ من أقوال الحسن البصري.

⁽³⁷⁾ قبل قرن ونصف من قدوم الشيخ سيدي أحمد البكاي وصفهم ابن بطوطة عام 753هـ/1352م بالقول: "وشأن هؤلاء القوم عجيب، وأمرهم غريب، فأما رجالهم فلا غيرة لديهم.. وأما نساؤهم فلا يحتشمن من الرجال ولا يحتجبن مع مواظبتن على الصلوات. والنساء هنالك يكون لهن الأصدقاء والأصحاب من الرجال الأجانب، وكذلك للرجال صواحب من النساء الأجنيات، ويدخل أحدهم داره فيجد امرأته ومعها صاحبها فلا ينكر ذلك." وبعد خمس سنوات من وفاة الشيخ سيدي أحمد البكاي وصف الوزان رجال ونساء ولاتته بأنهم أصبحوا يتلثمون ويغطون وجوههم، حين زار المنطقة بين 926-932هـ/1520-1525م.

فرسن شاة»،⁽³⁸⁾ فإن الجيران إذا تواصلوا كثر خير بيوتهم وغشيتهم رحمة الله، وذكرهم الله في من عنده، وإذا تقاطعوا أصابهم القتر وفارقتهم الرحمة ومقتهم الله تعالى، وعليكن بالتودد إلى بعولتكن، واحفظنهم في أموالهم وأنفسكن، فإن صلاح البيوت بصلاح النساء وفسادها في فسادهن⁽³⁹⁾.

إلى غير ذلك من جهوده التي جعلت بعض الباحثين يرى أن الحركة الإصلاحية التي قادها في ولاته وغيرها من مناطق الصحراء كان لها عظيم الأثر في النهضة العلمية بكل المناطق التي مر منها⁽⁴⁰⁾ ويستشهد بوجود عدد كبير من العلماء بولاته وقت وفاته وأخذ بعضهم عنه⁽⁴¹⁾.

أ- جذور الخطاب الإصلاحي لدى الطريقة العقبوية الكنتية: يذكر الشيخ سيدي المختار الكبير أنه أدرك مكتبة ضخمة لجده الشيخ سيدي أحمد البكاي بولاته، ولعلها ضاعت بعده أو تفرقت في الأمصار، فلم يبق من آثاره المكتوبة -المكتشفة حتى الآن- سوى ما نقل من خطه أحمد بن الحاج عبد الله الرقادي التواتي وفيه نبذ من التواريخ والأنساب، تضمنت ذكر آبائه وأسماء وأنساب أمهاته وجدات أبيه، أو ما نقله عنه الشيخ سيدي المختار الكبير في كتاب الإرشاد ويسمى المنة أيضا، في شكل خطب للعامه ووصايا لأبنائه يمكن اعتبارها جذور خطاب الطريقة العقبية البكائية، وروح رؤيتها الإصلاحية الدينية والدنيوية. وتتضح شمولية هذا الخطاب بتناوله السلوك ومعاملة المرأة والجار والمستضعف، كما تناول الجوانب السياسية بما قدم من أسس لبناء اللحمة الاجتماعية وما أسدى من نصائح لحملة العلم وأصحاب السلطة وقادة المجتمع وولاة أمر المسلمين عامة.

(38) رواه أبو هريرة، متفق عليه..

(39) وصايا الشيخ سيدي أحمد البكاي، ص 5، مخطوط بحوزتنا.

(40) محمد الظريف "الطريقة القادرية الكنتية البكائية، م، س، ص 126.

(41) الشيخ سيدي محمد، الطرائف والتلائد، م، س، ص 73.

كما أعلى مكانة العلم واعتمد محددات جديدة للعلاقات البيئية أقوى من رابطة النسب، ورسم المعالم الواضحة لطريق السيادة، فمنذ الوهلة الأولى خاطب الشيخ سيدي أحمد البكاي أبناءه قائلا: نسبكم المعرفة والعلم، فمن أخذ بهما فهم نسبه ومن ضيعهما فقد ضاع نسبه⁽⁴²⁾ وفي مصدر آخر أنهم عند ما سألوه عن نسبهم قدم لهم قصعة ودواة وقلمًا.

وفي القصعة والدواة والقلم إشارة لعناصر السيادة والشرعية التي تقوم عليها السلطة السياسية والمكانة العلمية والاجتماعية، وتزهد في الاعتماد على النسب، والحث على العلم والتعلم والرفق بالجار ذي القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل وذي الرحم؛ والرحم في أدبيات الشيخ سيدي أحمد البكاي لا ينحصر في القرابات البعيدة من جهتي الآباء والأمهات وإنما يشمل الصحبة أيضا ففي وصاياه أن "صحبة ساعة صحبة، وصحبة شهر عهد، وصحبة سنة رحم، قطع الله من قطعها ووصل من وصلها"

وقد ساهم ذلك في استقطاب العديد من المجموعات سواء العربية التي تحالفت مع أبيه سيدي محمد الكنتي الكبير والمجموعات المحلية التي كانت للسلالة الكنتية روابط صلوات بها وخوؤلات وفق المنهج الذي رسمه الشيخ سيدي أحمد البكاي في صيغة وصية وأخبار "يا بني إن طلبتم الجود فعليكم بمعادنه فإن للجود معادن، وللمعادن أصولا وللأصول فروعا وللفروع ثمر لا يطيب ثمر إلا بفرع ولا فرع إلا بأصل ولا أصل إلا بمعدن طيب"... ثم يبين أن المعادن الطيبة في كل قوم، بعد أن بين أن المعاني والفضائل كسبية وليست وراثية فيقول: «واعلموا يا بني أن سلفكم كانوا لا ينكحون إلا إلى صالح كل قوم وخير كل قبيلة»⁽⁴³⁾ ويعطي في مؤلف آخر أمثلة يتضح منها أن

⁽⁴²⁾ وصايا الشيخ سيدي أحمد البكاي، م، س، ص 4.

⁽⁴³⁾ وصايا الشيخ سيدي أحمد البكاي، ن، م، ص 4.

معظم آباء جداته وأبيه كانوا قضاة ورجال علم وزعماء لمجموعات أو مؤسسين لبطون منها، مؤكداً على أهمية تلك الروابط والعلاقات وأنها رحم قطع الله من قطعها ووصل من وصله.

فهيأ بذلك لإقامة تجمع كبير طغت فيه الروابط الجديدة وصارت الفيصل في الائتلاف والفرقة بين مكونات الوحدة الاجتماعية والروحية التي شيدت وفق قواعد متينة وضعت في شكل وصايا لديمومة ذلك الائتلاف الذي مر بثلاث مراحل أساسية:

1- مرحلة سيدي علي وفيها تشكلت جماعة أساسها من حملة الأوراد المتنقلين معه،

2- مرحلة البيعة الكبرى وفيها "اجتمعت الجموع من شتى القبائل على الشيخ سيدي محمد الكنتي.

3- مرحلة الشيخ سيدي أحمد البكايو كانت مرحلة التشكل الأخيرة قبل التوسع والانتشار داخل الفضاء الصحراوي عموماً.

ب السلطة الدينية والمكانة الاجتماعية: إن تتبع جذور الفكر الإصلاحية لدى الطريقة العقبية الكنتية خلال هذه المرحلة لا يعكس مكانتها في الإصلاح الديني والاجتماعي ومكانة روادها فحسب، بل يؤكد أن رائدها الأكبر في القرن 15 الشيخ سيدي أحمد البكاي كان يدرك حجم الأعباء التي صارت على عواتقهم، والأدوار التي سيكون عليهم الاضطلاع بها في المستقبل، وهو الذي وضع المنهج والأسس النظرية الدينية والأخلاقية لذلك، فكان يخاطبهم في مكاتباته لهم قائلاً "إن الله تعالى قد كلفكم أمور العامة وحمل أعباء الرئاسة فاجعلوها في الله والله، تنجون وتربحون وتسعدون، وإياكم ثم إياكم واتباع الهوى فيما خولكم الله وأنعم به عليكم، فيكون وشيك الزوال قريب الاضمحلال، مع ما تنتقلون إليه من الخيبة والخسارة والنكال، فالنجاء النجاء يا بني،... واعلموا أن نبيكم عليه الصلاة والسلام قال: المسلم

من سلم المسلمون من يده ولسانه⁽⁴⁴⁾. هذا حديث إنما كان يتعلق بخاصة نفسه، ولم يحتمل ما حُمِّلتم من أود العامة وتحمل أعباء الرئاسة، فيكون كالسفينة إذا سلمت من الغرق نجت وأنجت، وإذا غرقت هلكت وأهلكتم، فأنتم إذا نصحتهم العامة وقمتم فيها قيام الخازن الأمين نجيتهم وأنجيتهم، وإلا هلكتم وأهلكتم، فإن الله تعالى قد جعل في أيديكم وصدوركم ما كان عليه النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه من العمل في خاصة أنفسهم، والسيره في ما كُلفوا به من أمر الأمة والعامة، فإن اقتفيتهم آثارهم حذو النعل بالنعل سلمتم وسلّمتم، وإن خالفتموهم بعد العلم بما هم عليه فقد رغبتهم عن سنتهم، ومن رغب عن سنتهم فليس منهم، ومن لم يكن منهم كان من حزب الشيطان {ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون}⁽⁴⁵⁾ وإن الله قد اختصكم بنعمه، ووجه إليكم مؤونة خلقه، فإن شكرتموه على ذلك وقمتم بتلك المؤونة أعانكم الله على القيام بها في الدنيا ورحمكم بها في العقبى، وإن تبرمتم منها وسئتموها وتساهلتم بما حُمِّلتم سلبها منكم ونقلها إلى غيركم⁽⁴⁶⁾.

هذا النص الطويل من الوصايا التي ترك الشيخ سيدي أحمد البكاي لأبنائه ومريديه يعطي صورة واضحة عن المكانة التي بات يحتلها رواد هذه المدرسة في الهرم الاجتماعي والمسؤوليات التي أصبحت منوطة بهم، ليس كرجال علم وتربية فحسب، بل كقادة مجتمع يتحملون أمور العامة وأعباء الرئاسة، ولا يخاطب الشيخ سيدي أحمد البكاي أبناءه كرؤساء بطون أو قبائل، بل يخاطبهم كقادة مجتمع فيبادل بين كلمتي الأمة والعامة، منبها إلى أن المكانة الاجتماعية والدينية التي حدد لهم سابقا آليات الحصول عليها ليست تشريفا وإنما هي تكليف مضاعف إن استقام صاحبه بما رسم له من

(44) حديث صحيح رواه البخاري ومسلم وغيرهما بألفاظ مختلفة.

(45) المجادلة الآية 19.

(46) وصايا الشيخ سيدي أحمد البكاي، م، س، ص 7.

ضوابط في أمر الدنيا والدين نجى وأنجى وإلا هلك وأهلك، فمن اختصه الله بنعمه بأن وجه إليه مؤونة خلقه فقام بها شاكرًا لله أعانه على القيام بها في الدنيا ورحمه بها في العقبى، وإن تبرم سامة أو تساهلا بما حُمل به سلها الله منه ونقلها إلى غيره.

لقد أسهمت المكانة الاجتماعية في ترسيخ هذا النمط من التقاليد في التربية والسلوك كما أسهم في ذلك انتقال حملته من آحاد وشخصيات مؤثرة إلى كيانات وتجمعات بشرية تضم العديد من المرين والمرين، هذا بالإضافة إلى مميزات الطريقة العقبية الكنتية ذاتها المتمثلة في بساطة ووردها التلقيني وسهولة انتشاره وقبوله بين الناس، ومكانته عند مشايخ الكنتيين، إذ لا صلاح للباطن عندهم دونه، ولا مبرر لترك أخذه وفي ذلك يقول أحمد بن حبيب البوكري المتقدم:

إذ لا صلاح دونه للباطن ** من كل ظاعن وكل قاطن

كما انتشر هذا الورد بفضل سلوك مشايخه ومبادئهم التي تنزل روابط الجيرة والصحبة منزلة الرحم، كما تضاعفت نسمات أبناء الشيخ سيدي أحمد البكاي وتوسعت تحالفاتهم وترسخت طريقتهم بعد أن توفرت البيئة الحاضنة، وأصبح الانتماء لها انتماء سلوكيا وروحيا، أو ثقافيا بامتياز.

فشكلوا وحدة اجتماعية عريضة، وأرضية قوية للعمران والاستقرار، وأصبحوا رواد التجارة الصحراوية المسيطرين عليها بين الشمال وأرض السودان، لا سيما الملح الذي كانوا يمتلكون سباحه، فنقلوا تقاليد التجارة بين الشمال والجنوب إلى بقية السكان. كما نقلوا تقاليدهم في التربية والسلوك، ولا يخفى ارتباط الطرق الصوفية في الصحراء عموما بالقبائل «حيث تصبح القبيلة هي المدافع عن الطريقة وإحدى قنوات نشرها بين

القبائل الأخرى والشعوب المجاورة»⁽⁴⁷⁾ مما يؤكد أهمية فلسفتهم في تعزيز الروابط بالجماعات الدينية والسياسية المؤثرة في الفضاء، وأهميتها في بناء مشروعهم الإصلاحى واتساع سلطتهم الدينية⁽⁴⁸⁾، التي ساهمت إلى حد كبير في استقرار المجتمعات الإفريقية ونهضتها، منذ انتقال رواد الطريقة العقبوية الكنتية من توات إلى تيرس خلال القرنين 9 و10 العاشر الهجريين، وظلت تضطلع بذلك الدور وما تزال إلى يوم الناس هذا.

الخاتمة:

إن تتبع هذا المد الصوفي الذي بدأ مع انتقال أوائل أجداد الكنتين من تلمسان وعزي إلى تيرس بموريتانيا الحالية، وكان له تأثير قوي في الغرب الصحراوي خلا القرنين 9 و10 الهجريين يؤكد وجود طريقة صوفية بأسانيد متعددة لم يتم تتبع آثارها بالتفصيل من قبل، كما يؤكد أن البلاد الجزائرية لم تضطلع بثلاث مدارس كانت من أشهر الطرق الصوفية (القادرية والسنوسية والتيجانية) فحسب، بل كانت أيضا مهد الطريقة العقبوية الكنتية التي ظهرت مبكرا في موريتانيا، وأثرت في الاجتماع والثقافة والتربية والسلوك، ووضعت الأسس النظرية للإصلاحات الدينية والاجتماعية في تلك المرحلة، وأسهمت في الحفاظ على السلم والأمن، وهيات الأرضية المناسبة لاستجلاب معارف وأوراد جديدة، وهي المهمة التي اضطلع بها سيدي عمر الشيخ فأعمل الرحلة بعد أن تبحر في العلوم وظل يبحث عن مزيد منه حتى التقى بإمام الصحراء الشيخ سيدي محمد بن عبد الكريم المغيلي وجاء بالفروع الجديد من القادرية المغيلية، فكان لمجيئه ما بعده من التجديد والإرشاد الديني والإصلاح في الغرب الصحراوي والقارة الإفريقية عموما.

(47) محمد الظريف "الطريقة القادرية الكنتية البكاية، م، س، ص 118.

(48) تظهر قائمة الأعلام البشرية في الورقات التي نقل أحمد بن الحاج الرقادي من خط الشيخ سيدي أحمد البكاي معظم.

قائمة المصادر والمراجع

1. ابن الشيخ سيدي المختار، الشيخ سيدي محمد، "الرسالة الغلاوية" تحقيق د. حماد الله بن السالم، بيروت-لبنان، دار الكتب العلمية 2013.
2. ابن بطوطة، محمد اللواتي الطنجي "رحلة ابن بطوطة المسماة تحفة النظائر في غرائب الامصار وعجائب الاسفار" بيروت، دار التراث، 1968.
3. البرتلي، الطالب محمد بن أبي بكر الصديق "كتاب فتح الشكور في معرفة أعيان علماء التكرور" تحقيق وتعليق: د. عبد الودود بن عبد الله، ود. أحمد جمال بن الحسن، القاهرة، دار نجيبويه للبرمجة والدراسات والطباعة والنشر 2010.
4. بن الشيخ سيدي المختار، الشيخ سيدي محمد، "الطرائف والتلائد في كرامات ومناقب الشيخين الوالدة والوالد" تحقيق يحيى ولد سيدي أحمد، الجزائر، دار المعرفة 2011.
5. الرقادي، أحمد بن الحاج عبد الله "نصوص في التاريخ والأنساب" دراسة وتحقيق: أحمد ولد سيدات (الرفاعي)، بحث لنيل درجة الماستر في التاريخ، كلية الآداب والعلوم الانسانية، غير منشورة، جامعة نواكشوط، السنة الجامعية 2014-2015.
6. الظريف، محمد. "الطريقة القادرية الكنتية البكاية مصدر لإنتاج الخطاب الصوفي في الصحراء"، اطروحة لنيل الدكتوراه في الآداب، غير منشورة، جامعة محمد الخامس، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، السنة الجامعية 2012-2013.
7. مارتي پول، كنته الشرقيون تعريب محمد محمود ودادي، دمشق، مطبعة زيد بن ثابت، 1985م.
8. مارتي، پول "دراسات حول الإسلام: الشيخ سيدي، والفاضلية إدوعل" مجلة العالم الإسلامي. Revue du Monde Musulman Volume xxxi. التي كانت تصدر من نهاية القرن 19 حتى عشرينيات القرن الماضي، وقد جمعت مقالاتها في مجلد كبير. وترجمها أخيرا د. البكاي بن عبد المالك. (بدون تاريخ ولا مكان نشر) في النسخة الورقية، وكذا الرقمية وهي متاحة بصيغة pdf على الرابط التالي:

https://drive.google.com/file/d/1qeI6GlqZqEGAU_nwvgrFZU3E2-

2022/10/11: [p_4P5e/view](#)

9. ولد السالم، حماه الله، تاريخ بلاد شنغيطي، بيروت، دار الكتب العلمية، 2012.

10. ولد سيدي أحمد، يحيى، ديوان الصحراء الكبرى، المدرسة الكنتية، الجزائر، دار المعرفة 2009.

الملاحق: إجازات وأنظما أسانيد الطريقة العقبوية المعروفة بورد
البيعة والتلقين.

الملحق رقم: 1 إجازة عن محمد بن أحمد الولاتي حتى تصل إلى الشيخ سيدي
أحمد البكاي ومنه إلى عقبة المستجاب، مركز أحمد بابا التنبكتي، رقم
المخطوط 5575 وعنوانه إجازة في البيعة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى سَيِّرِنَا مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَوَجَّهْهُمُ
الْحَمْدُ لِلَّهِ إِنَّمَا جَعَلَ التَّلْقِينَ مِنْ أَشْرَفِ أَنْوَاعِ الْبَيْعَةِ الْأَسْلَامِيَّةِ وَالصَّلَاةِ
وَالصَّلَاحِ عَلَى أَشْرَفِ الرِّبِّهِ وَعَلَى آلِهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ بِحَسَنِ الْأَوْجَالِ
وَلِهَيْبَةِ الْعُقُوبَةِ وَبِعُرْوَانِهِ لِمَا كَانَ التَّلْقِينُ لِلْعَبْدِ الْخَلَّالِ لِاتِّسَامِ الْعَرِيبِ
الْأَبِي وَجِبْصِ وَالْحَمْدُ إِلَيْهِ وَالتَّعْوِيلُ فِي أَصْلَاحِ الْبِلَادِ مِنْ عَلَيْهِ وَكَيْفَ الْمَعْنَى
تَعَالَاهُ الْخَلْفُ عَنِ السَّلَفِ جَيْلًا بَعْدَ جَيْلٍ وَفَيْسَلًا بَعْدَ فَيْسَلٍ عَلَى الْكَيْفِيَّةِ ٧٨
الْمُعَامَلَةِ فِيهَا بَيْنَهُمْ وَهِيَ أَنْ يَسْتَنْفَعُ الْقَبِيلَةَ مِنْ خَيْرِ التَّلْقِينِ مَعَهَا عَيْنِي
عَيْنًا اللَّهُ تَعَالَى مَكْتُمٌ الْمَنْزِلُ بِمَنْ يُوَجِّهُ لِرُفُوعِهِ فِي حَصْنِهِ وَنَزْرَاجِهِ فِي ذَمِّ أَرْبَابِهِ
خَطَرَتِهِ نَأْوِيهِ وَإِيَّاهُ الْبَرِّيَّةُ أَنْ لَا يَرَى الْوَالِدُ مِنْ تَمِيْمٍ بَيْنَهُ وَبَيْنَ عَمِّهِ بِالْأَمْسِ
الْمُطَافَةِ وَالْحَضُورِ الْفَنَاحِ مَعَ اسْتِخْضَارِ السَّبْعَةِ الْأَسْلَامِيَّةِ لِأَنَّهَا مَبْدِئُ
الْمَنْبَغِ عَلَى اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَتَذَكَّرُ بِالْمُقْتَسِمَاتِ بِأَنَّهَا الْوَسَائِلُ الْمُسْتَعِينَةُ
بِهَا عَوْنًا أَنْ يَأْتِيَ عَوْنُ اللَّهِ بِرِ اللَّهِ عَوْنًا بِرَبِّهِمْ وَكَانَتْ بَيْعَةُ الرَّجَالِ عَلَى
الْإِسْمَاءِ تَمَّ وَالْأَمْرُ عَلَى الْبَيْعَةِ وَالْمُطَاعَةِ فِي التَّمَتُّعِ وَالْمُنْتَهَى وَالْحَمْدُ لِلَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَالْمُبَاهَاةُ وَكَانَتْ بَيْعَةُ الْأَسْمَاءِ بِعَمْرِ الْأَسْمَاءِ تَمَّ عَلَى سَلْوَاتِ عَمْرِ الْأَسْمَاءِ الرَّجَالِ
كُلُّهُ قَوْلُهُ تَعَالَى يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ بِيَاكُنَّ بِمَا جَاءَكَ عَلَى الْغُفُورِ رَحِيمٍ
فَرَأَيْتُنَّ الْبَيْعَةَ وَتَلْقَى مَشَاهِدَ عَنِ النَّسَبِ كَحَدِّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ وَهُوَ عَنِ
بَيْعَتِهِ أَنْ يُوَجِّهُ عَمْرًا لِلْحَمْدِ وَهُوَ عَنِ النَّسَبِ كَحَدِّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ عَمْرًا مَلَا

الملحق رقم: 2 إجازة لسيدي محمد بن المعلوم بزيادة في رجال السند مرورا
 بالشيخين سيدي أحمد البكاي وسيدي محمد الكنتي الكبير وصولا إلى عقبه
 المستجاب، وفيها صيغة ورد البيعة والتلقين.

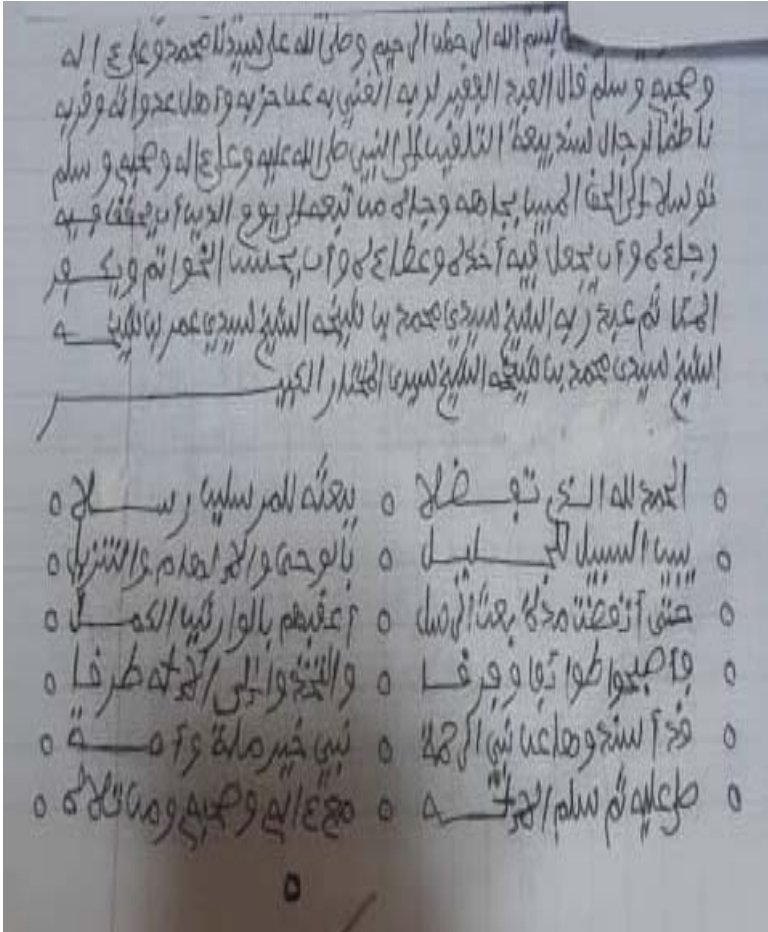
السيد عبد الله المحمدي، وهو عن شيخه السيد عبد الرحمن المحمدي، وهو عن
 شيخه الفاضل العلامة الرافعي بن محمد الخليلي وحديثه السلف لسيد محمد
 البكاي، وهو عن شيخه وأبيه سيد محمد الكنتي، وهو عن شيخه وأبيه
 سيد علي بن يحيى، وهو عن شيخه وأبيه السيد الشاذلي، وهو مولد الرافعي
 وهو عن شيخه وأبيه السيد الفاضل، وهو عن شيخه وأبيه يحيى بن
 وهو عن شيخه وأبيه يحيى بن، وهو عن شيخه وأبيه الطرابي، وهو عن
 شيخه وأبيه علي بن التونسي، وهو عن شيخه عبد الرحمن الرافعي، وهو
 عن شيخه وأبيه تابع التابعين السيد عفيف بن الشيخ، وهو عن شيخه
 أبا الفضل الشاذلي، وهو عن شيخه أبا البيت العمري، وهو عن شيخه
 أبو صلي بن هو عن شيخه أبا جيلان البصري، وهو عن شيخه تقي الدين الرافعي
 وهو عن شيخه الحسن البصري، وهو عن شيخه علي بن أبا، فلا يعرف الله
 وهم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم تمت السلسلة عن
 الشيخ سيد المختار بن محمد بن يحيى بن محمد بن أبي بكر بن محمد بن

بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله الذي جعل سبيل السلف
 خطا محدودا وفتح صدق الحدود او لا يتولج بعلم بما هو محدودا
 والمتشبهت بهم سعيه محمد واولاده ففتح عنهم شقيا مكروها
 هذا وان سلكه النبي ابا الفضل بسبب محمد المخلوع التوفيق
 ليحيى من سلكه السلف فاجتهد في راتية في حكاية العاشر
 في استخارة وانه اخذت ذلك من الشيخ بالاسناد المتفق عليه حسب
 ما هو بايرما سلكه وتراكم اخذت الشيخ وهو شيخ ذال
 لا اله الا الله في الكهان لا اله الا الله تزل الشفاعة
 لا اله الا الله تزل الشفاعة لا اله الا الله تزل الشفاعة
 المحاو لا اله الا الله السبيل والسبيل لا اله الا الله تزل
 بل لا هلا في لا اله الا الله تفتح في من الشيخ ابا الفضل
 المتفق بان عبد الله الوالي هو عن شيخه الحاج محمد بن
 عبد الله هو عن شيخه السيد ابراهيم بن بول ابو عن شيخه

ابراهيم بن بول

بسم

الملحق رقم: 3 الصفحة الصفحة الأولى من نظم سند البيعة والتلقين للشيخ سيدي محمد، بن الشيخ سيدي عمر، بن الشيخ سيدي محمد الخليفة وهو في 43 بيتا.



التصوف في إمارة إلورن نيجيريا بين القديم والحديث

الأستاذ الدكتور مشهود محمود محمد جمبا

جامعة ولاية كوارا - نيجيريا

مستخلص:

التصوف ضرب من ضروب العبادة والتقرب إلى الله سبحانه وتعالى، عن طريق التزكية النفسية والسمو الروحي. لقد بدأ في الإسلام في تاريخ متوغل في القدم، وقد مارسه كبار العلماء وقادة الفكر والزعماء السياسيون في العالم الإسلامي قاطبة. وإفريقيا الغربية من أكثر المناطق في العالم الإسلامي التي أثر التصوف في حياتها الدينية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية، فأغلب العلماء الذين قادوا الحركات الإصلاحية، وكذلك الأئمة والدعاة والعلماء الذين أسسوا المدارس والمراكز العلمية صوفيون. وقد انتشرت الطرق الصوفية بأنواعها المختلفة في مدن إفريقيا الغربية وقراها، وإمارة إلورن الإسلامية في نيجيريا إحدى تلك المناطق التي تتأثر بالحياة الصوفية في شتى نواحيها. فهذا المقال يهدف إلى إلقاء نظرة عابرة في النشاط الصوفي في الإمارة؛ نشأته ورجالاته، ومعارضيه، ومؤيديه، ثم مناقبه ومثاله. وقد بدأت المقالة بذكر نبذة تاريخية عن إمارة إلورن ومؤسسها ومكانتها العلمية. ثم تكلمت عن نشأة التصوف في الإسلام وأقوال العلماء فيه، وأسماء بعض أعلامه الأقدمين. وبعد ذلك تناولت بإيجاز شديد نشأة التصوف الإسلامي في إمارة إلورن والأطوار التي مر بها وبعض رجالاتها. وتناولت شيئاً من مناقب المتصوفة في الإمارة ودورهم في نشر الإسلام واللغة العربية في الديار. وانتقلت بعد ذلك إلى بعض مثالب المعاصرين منهم، ثم تعرضت لشيء من معارضة التصوف والمتصوفة في الإمارة اليوم. واختتمت المقالة ببعض الوصايا.

The Practice of Sufism in Ilorin Emirate - Nigeria Between the Past and the Present

Abstract:

Asceticism is innate in human beings. It was practiced by the Jewish, Buddhist and Christian monks, in different forms, years before the advent of Islam. When Islam came, it redefined and reformed the way it was being practiced, as way of life, renouncing celibacy and total devotion of one's life to worship, at the expense of hardworking and earning of legitimate livelihood, etc. This Islamic position is clearly stated in the Holy Qur'an thus: "But seek, with that (wealth) which Allah has bestowed on you, the home of the hereafter and forget not your portion of legal enjoyment in this world." (chapter 28, verse 77). Sufism, which is the Islamic form of asceticism, had been practiced across the Muslim world by saints, scholars and preachers, who spread the teachings of Islam across the nooks and crannies of West Africa and the role of the Sufists in the spread of Islamic religion and civilization in the area cannot be overemphasized. Ilorin Emirate, in the northern part of the Yorubaland of Nigeria, is one major area highly influenced by the Islamic Sufism. This paper focuses on the evolution, spread and practice of Sufism in Ilorin Emirate, past and present, with special focus on its merits and demerits.

إنَّ حياة الزهد والتقشف ظاهرة طبيعية وسجّية في الإنسان في محاولته العزوف عن ملذات الدنيا والتقرب إلى الله عز وجل. لقد مارسها رهبان اليهود والنصارى والبوذيين بطرق مختلفة قبل الإسلام. ولما جاء الإسلام مارس الزهد بشيء من الاعتدال والوسطية، فأنكر- على سبيل المثال- حياة التبتل والتفرغ للعبادة على حساب العمل والكسب الحلال. فالحضارة الإسلامية مبنية على الجمع بين خيري الدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ (القصص:77). وما لبث أن تحولت هذه الظاهرة إلى مدرسة لتزكية النفوس وتربية الأرواح والسموِّ بها إلى أعلى مراتب النبل والصفاء، فقد ألبسها العلماء المسلمون حلى قشيبية، وأعطوها مفهوما مغايرا لما عرفت به من قبل. وسرعان ما صارت طريقة حياة مألوفة، وعرفت بـ «التصوف» وانتشرت مع الدعاة المسلمين في ربوع العالم الإسلامي. لقد حمل روادها الأوائل على عواتقهم نشر التعليم الإسلامي والعربي في المدن والقرى في مشارق الأرض ومغاربها، وما زالت العملية قائمة إلى يومنا هذا. ومن سنة الله الخالق تغير أحوال خلقه وتطورها عبر الأزمان، ولم تنج الحياة الصوفية من هذا القانون الإلهي، فالتصوف لم يعد يمارس اليوم كما كان يمارس في قديم الزمان، فقد ظهرت منه فرق مختلفة بأسام وألقاب مختلفة، وعصفت الأهواء بمعظمها حتى خرجت بعيدا عن المقاصد القويمية النبيلة التي من أجلها وضع، فمثلهم مثل من قال فيهم الرسول الكريم (ص): «ستفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة»⁽¹⁾. وبهذا

⁽¹⁾ رواه أبو داود والترمذي وابن ماجه والحاكم، وصححه الشيخ الألباني في السلسلة الصحيحة.

يتضح أن التصوف الإسلامي جدير بأن يبحث حوله من حيث التطورات التي دخلت عليه من شتى النواحي.

نبذة عن إمارة إالورن.

كانت إالورن قرية صغيرة تتكون من أكواخ صيادين يورباويين منصبة في حي «دأبي»، بالإضافة إلى ثلاثة أحياء أخرى هي «غا» الذي يقطنه الفلانيون رعاة البقر، و«غمبيري» الذي يقطنه هوسويون ونوفويون وغيرهم، و«أوكي سُنّة» أي «ربوة السنة» الذي يعيش فيه مسلمون معظمهم من كانم/برنو. كانت هذه الأحياء تعيش منفصلة عن بعضها بعضا وتحت زعماء مختلفين. وكان سكان الحي الأول وثنيين في حين أن سكان الثلاثة الباقية مسلمون في العموم. في عام 1817م نزل في إالورن الشيخ صالح بن جنت الملقب «عالم» - وهو عالم رباني ينتسب إلى أصل توردي قدم من قرية بُنزا قرب صكتو- وألف بين الأحياء كلها عدا الحي الأول، وكون بهم وبأنصاره الكثر الذين قدموا معه "الأمة الإسلامية" وجيشا إسلاميا قويا. ثم أخذ يعلم الناس تفسير القرآن الكريم ومبادئ الدين الإسلامي، وما لبث أن انتشرت الكتاتيب والمساجد في أرجاء البلد، وبعد حين أحضر أبناءه من بلده، وبعد وفاته أسس أكبرهم عبد السلام الإمارة الإسلامية وتولى منصب أميرها، ثم عمل جاهدا على توسيع رقعة الإمارة وتعميق الثقافة العربية والإسلامية فيها فاستحضر علماء كثيرين من شمال نيجيريا لتحقيق ذلك. تعتبر إمارة إالورن الإمارة الإسلامية الوحيدة في كافة البلاد الواقعة في جنوب دولة نيجيريا على ترامي أطرافها، وقد كانت ولا تزال منبع الشعاع الإسلامي ومنارة العلوم ومعارف الوحي يقصدها عشاق العلم وشداة المعرفة من كل حذب وصوب.

ولقد شاءت إرادة الله سبحانه وقضت حكمته أن تكون قرية إالورن ذات شأن عظيم في مستقبل حياتها روحيا وحضاريا واجتماعيا واقتصاديا، فهياً لها أسباب ذلك كله، فقد هياً لها من الأسباب الجغرافية ما جعل

أراضيها صالحة للزراعة يغذيها روافد متعددة تنصبّ في نهر آسا الذي يجري في وسط المدينة وضواحيها، وما جعل طقسها معتدلا في معظم مواسم السنة، أضف إلى ذلك أنها تقع في منطقة استراتيجية جعلتها همزة وصل بين شمال نيجيريا وجنوبها، فهي تشرف على القوافل التجارية العظيمة التي تتبادل السلع والبضائع التجارية بين المنطقتين.

وكذلك بوأ الله المكان مركزا روحيا مهما مكن علماء كانم-برنو من تكوين مجتمع إسلامي صغير فيه يدعى أوّكي سنّة "ربوة السنة"، وكان ملجأ سياسيا أميناً للعبيد المسلمين الذين يتعرضون للعنصرية الدينية والذل والهوان في شتى بلاد يوربا المحيطة به، فمجتمع أوّكي سنة هو الذي تكونت منه النواة الأساسية للحضارة الإسلامية في المنطقة.

الإسلام والتصوف.

يذهب كثير من العلماء إلى أن التصوف من صميم الإسلام، لأنه في درجة الإحسان الذي هو ثالث درجات الإسلام.⁽²⁾ فقد شرح الفقهاء معنى الإسلام وسمّوه فقها وشريعة، وشرح المفكرون مقام الإيمان وسمّوه علم التوحيد، وشرح العباد والنسّاك والزهاد مقام الإحسان وسمّوه التصوف أو تزكية النفوس أخذا من قوله تعالى: ﴿هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة﴾ (الجمعة:2).⁽³⁾

لا نريد أن ندخل في خضم الخلافات الواردة حول نشأة التصوف في التاريخ، فالمراجع التي تتناول ذلك متوفرة في المكتبات وعلى الإنترنت، والحقيقة أن ألسنة المؤرخين لم تتفق في ذلك، فمنهم من يرجع أصله إلى الرهبنة البوذية، أو إلى الكهانة النصرانية، أو الشعوذة الهندية. وحتى إذا

⁽²⁾ آدم عبد الله الإلوري، آثار العلم والفلسفة والتصوف في مسيرة الدعوة الإسلامية، القاهرة، مكتبة وهبة، ط1، 1437هـ/2016، ص:64.

⁽³⁾ المرجع نفسه والصفحة، بتصرف.

اتفقنا على أن التصوف إسلامي النشأة، فإن آراء العلماء المسلمين كذلك لم تتجه في ذلك اتجاهها واحدا، إذ يقول بعضهم، أمثال محمد سعيد الجمل، إن أول صوفي هو الرسول محمد بن عبد الله (ص) لأنه بحد ذاته أول من دخل الخلوة في غار حراء.⁽⁴⁾ فيرى المسلمون أن أصول التصوف وفروعه مستمدة من تعاليم الدين الإسلامي؛ القرآن والسنة النبوية. وهذا الرأي مبني على أن التصوف في كُئنه هو التعبد والزهد في الدنيا ومجاهدة النفس، والانقطاع لذكر الله عز وجلّ، وتقديم القربات.

لقد نسب عدد كبير من الكتاب المسلمين الرسول والخلفاء الراشدين، ثم الصحابة الكرام والتابعين وتابعي التابعين إلى التصوف. ولكن الأسلم أن نقول إن التصوف الإسلامي- باعتباره طريقة وعلم وعمل- ظهر في القرن الثاني الهجري حين أخذ التأثير الروحي يتضاءل بالتدرج نتيجة تعدد الأجناس والأعراق التي تدخل الإسلام. ومن أوائل من كتبوا في التصوف:

الحارث المحاسبي (ت: 243هـ).

أبوسعيد الخراز (ت: 277 هـ).

أبوبكر الكلاباذي (ت: 438 هـ).

أبوطالب المكي (ت: 358 هـ).

أبو القاسم القشيري (ت: 465 هـ)

الراغب الأصفهاني (ت: 502 هـ).

أبو حامد الغزالي (ت: 505 هـ).

عبد القادر الجيلاني (ت: 561 هـ).

عبد الرحمن السيوطي (ت: 911 هـ).

(Assessed on 18/12/2022)<https://ar.m.wikipedia.org>⁽⁴⁾

وقد نضح التصوف الإسلامي على أيدي الأقطاب الأربعة، وهم أحمد بن علي الرفاعي، وعبد القادر الجيلاني، وأحمد الندوي، وإبراهيم الدسوقي، فهم الذين وضعوا الطرق ووضعوا لها الأدعية والأوراد الخاصة، وبأسمائهم سمّيت طرقهم، وقد تفرعت هذه الطرق إلى عشرات طرق أخرى.

التصوف في إمارة إلورن.

لا يزال تاريخ بداية التصوف في إلورن في حكم المجهول، وذلك لافتقار الوثيقة التي تحدده. ولكن الذي يميل إليه أكثر الباحثين هو أنه كان قديما قدم الإسلام في المنطقة، والمحتمل أن الطريقة التيجانية هي أسبق الطرق الصوفية وصولا إلى المنطقة، ومرجع هذا الحكم هو احتمال أن زعيم المسلمين في قرية أوكي سنّة (ربوة السنة) بإلورن، شولايرو كان صوفيا تيجانيا لأنه قدم من بلاد برنو حيث انتشرت التيجانية وترسّخت.⁽⁵⁾ ويلي التيجانية في الظهور الطريقة القادرية، ويحتمل كذلك أنها ظهرت على يد الداعية الشيخ صالح بن جنت، شَيْحُو عالم، وذلك بحكم أنه قدم من منطقة صكتو حيث انتشر القادرية. وقد نزل في إلورن حوالي 1807م أو 1812م، وبنزوله بدأ انتشار القادرية في المنطقة.⁽⁶⁾ أما محمد ناصر صلّاتي فيذهب إلى أن أقدم طريقة في إلورن هي القادرية.⁽⁷⁾

لقد ظلت الممارسات الصوفية لوقت طويل في إلورن نوعا من العبادة الفردية يمارسها الناس فرادى في بيوتهم، ولم نعثر على رواية واحدة أو وثيقة

Abdur-Razzaq Mustapha Sholagberu, The Historical Development of ⁽⁵⁾ the Tijaniyyah Sufi Order in Ilorin, Nigeria and Challenges for Survival, Journal of Muslim Minority Affairs, Vol. 38, No. 4, 2018, pp. 537, 539.

ibid p. 538.⁽⁶⁾

⁽⁷⁾ محمد ناصر الدين أبولا صلّاتي، الطريقة القادرية في إمارة إلورن.... مقالة مخطوطة، ص: 4.

تفيدنا بتجمع الناس في مكان واحد للذكر أو تلاوة الأوراد بشكل مستمر ومنتظم.

وقد قسم شولابيرو الأطوار التي مرّ بها الزوايا الصوفية في إلورن إلى ثلاثة أطوار، هي:

أ- طور تلاوة الأوراد فرادى: من دون إطلاق اسم «الزاوية» على مجلس الأوراد، ويشمل ذلك الطور الرعيل الأول من المتصوفة التيجانيين والقادريين أمثال الشيخ صالح بن جَنْتَ، والشيخ عبد المؤمن، وابنه عبد الباقي (مالمَ دَوَعُو)، والشيخ بخاري بَوَدَوُفُو، والشيخ شولابيرو.⁽⁸⁾

ب- طور الحلقة أو سِغيفة: كان الناس في هذه الفترة يجتمعون عند زعماء الصوفية ليس فقط لتلاوة الأوراد والأذكار، بل أيضا لتعلم المبادئ الإسلامية. ومن أبرز القادة الصوفية في الفترة الشيخ قاسم بودوفو، والشيخ أيربو، والشيخ محمد الجامع (تاج الأدب) وغيرهم من القادريين، والشيخ ولي إتاكودنما، والشيخ أبوبكر فَنَلوبا Fanlopa وغيرهما من التيجانيين.

ج- طور إطلاق اسم "زاوية": بدأ هذا الطور حين بنى الشيخ عبد السلام أونوردي (ت: 1942م) والشيخ بَشْر أدنبا (ت: 1956م) للتيجانية زاوية في 1896م و1918م على التوالي. أما أول زاوية للقادرية فقد بناها الشيخ أحمد الرفاعي إندَ صلاتي (ت: 1966م) عام 1936م، ومنذ ذلك الحين انتشرت الزوايا والتكايا في ديار إلورن.⁽⁹⁾

A.R.M. Sholagberu, Towards Sustenance of Islamic Culture of Ilorin, in ⁽⁸⁾ Human Security and the Survival of Ilorin Emirate Culture, Center for Ilorin Studies, p. 151.

A.R.M. Sholagberu, ibid. 152.⁽⁹⁾

ويرى ناصر صلاتي أن القادريين في إلورن كانوا من قبل يقومون بالأذكار والأوراد فرادى داخل بيوتهم، حتى قاموا برحلات إلى بلاد هوسا، إما للتجارة أو لطلب الاستزادة من العلم، وعندما رجعوا بدأوا ينشئون الحلقات والزوايا في ديارهم.⁽¹⁰⁾ ومن الأوراد والأذكار الشائعة عندهم قديما "الفيضات الربانية" و"السفينة القادرية" و"الفتح الرباني" وغيرها. أما أنواع هذه الأوراد في إلورن فيمكن تقسيمها إلى ما يلي:

- الأوراد الفودوية (أوراد أهل البيت)

- الأوراد الحسبيلية (الأوراد الكنتية للشيخ محمد المختار الكنتي)

- الأوراد القدسية، وغير ذلك.⁽¹¹⁾

وإلى جانب التيجانية والقادرية هناك شذرات من الطرق الصوفية التي يعرفها أهل إلورن لكنها خافتة الصوت، وهي الطريقة الجعفرية، والإخلاصية، والرفاعية.⁽¹²⁾

من مناقب التصوف والمتصوفة في إلورن.

إنّ للمتصوفة في نشر الإسلام في بلاد يوربا دورا لا يمكن إنكاره، كما مرّ. والحق أن مسلمي المنطقة مدينون للمتصوفة- بعد الله سبحانه وتعالى- بالشكر والتقدير على ما تجشموا به من التصدي للكفار والمشركين، والتضحية بأرواحهم- أحيانا- في سبيل نشر الإسلام وثقافته في كافة أرجاء البلاد. لقد بنوا للإسلام دولة رهيبة الجوانب، وبوأوا للمسلمين مكانة

⁽¹⁰⁾ محمد ناصر الدين صلاتي، المرجع السابق، ص: 3.

⁽¹¹⁾ المرجع نفسه، ص: 2.

⁽¹²⁾ A.R.M. Sholagberu, An Historical Sketch of Sufi Orders in Ilorin,

Nigeria in JARS, Department of Religions, University of Ilorin, Vol. 14,

Unilorin Press, 2000, p. 14-15.

مرموقة في المجتمع اليوربوي، وخلعوا على الشيوخ والعلماء حلى الشرف والكرامة حيثما حلّوا، فهم ملجأ الفقراء والعوام، وملاذ الملوك والعظماء في الضراء. ويتمثل في هؤلاء قول الإمام الحسن البصري (رحمه الله تعالى): «إن لأهل الخير علامة يعرفون بها؛ صدق حديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وقلة الفخر والخيلاء، ورحمة الضعفاء، وبذل المعروف، وحسن الخلق».

كان رجال التصوف في هذه البلاد المثل الأعلى في العبادة، والتقوى وحسن النية، وصفاء القلب، والإخلاص في حب الله سبحانه وتعالى. فمن يشك في الحديث القدسي الذي نصّه: «ما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، ولئن سألتني لأعطينّه، ولئن استعاذني لأعيذنه» فلينظر في حياة هؤلاء وما صنع الله لهم. لقد كانوا آية في الزهد والفرار من الدنيا، وكراهية الظهور، ولكنهم خير نموذج للمسلم الجريء القوي، فقد صدعوا بما أمروا، فقالوا الحق في موضعه، وأمام الأمراء والسلاطين والوزراء الجائرين من دون الخوف من عقابه. ودورهم في نشر التعليم العربي والثقافة الإسلامية وتربية النفوس وتزكيتها، خاصة لدى الشباب، دور عظيم يصعب تقديره حق قدره.

هذا، ولا ننسب الكمال إلى هؤلاء، إذ الكمال من خصوصيات الرب الخالق، فقد وقع من بعض كبار الصوفيين ما لا يمكن تبريره، أو نسبته إلى الإسلام بأية طريقة، لقد أتى بعضهم بالمنكرات والإباحية مما ليس في الإسلام في شيء. لكن إذا قارنا بين حسناتهم وسينئاتهم فإن السابقة أثقل في الميزان من اللاحقة بكثير، فالطرق الصوفية، كما يقول الشيخ الإلوري، "رابطة روحية وقيادة متبوعة وجمعية تعاونية، فلا تكره أو تمنع من أجل مثالها".⁽¹³⁾

⁽¹³⁾ الإلوري: المرجع السابق، ص 65

من مثالب التصوف والمتصوفة في إلورن اليوم.

كان المنكرون للصوفية قديما يكفرونها لجملة من الأشياء أبرزها اعتقاد المتصوفة وحدة الوجود، والاتحاد، والحلول، ولكن المتصوفة في الإمارة اليوم يأتون بأضعاف أضعاف ذلك، من المنكرات التي لا يسكت عنها من كان في قلبه قطرة من الإيمان وتقوى الإله. لقد خلف من بعد هؤلاء خلف أساءوا إلى الإسلام والتصوف أكثر مما أحسنوا إليهما، فاستوجبوا هجوما سافرا حتى من المتصوفة أنفسهم.

ولعل أبرز مثالبهم مجسّد في الغلوّ في كل شيء يمارسونه من عقيدة أو عبادة أو عادة، وقد نهى الله سبحانه وتعالى عن الغلو حين حذر قائلا: "يَأْهَلْ أَلْكِتَبِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ...." (النساء: 171). وأهم مظاهر الغلوّ كما يمارسه المتصوفة، خاصة الشباب بينهم اليوم ما يلي:

أ- الغلو في الشطحات، حتى أنكر بعضهم الصلوات المفروضة وصوم رمضان وغير ذلك من قواعد الإسلام.

ب- القول بوحدة الوجود، فقالوا بأن لا وجود لأي شيء سوى «هو»، وكل ما في الوجود مجسّد في "هو" لا غير.

ج- الغلو في التماس «الولاية» في الناس، فهم يدعونها في أي إنسان تصرفه غريب ومخالف للعرف، فيقدسونه حتى ولو كان مخبولا أو معتوها، ظانين- جهلا- أنه إنما يتستر ويتحايل كي لا يكتشف الناس أنه ولي من أولياء الله.

د- سوء فهم معنى «الكرامات» حتى خلطوا بينها وبين السحر، فالسحر أو الشعوذة إذا مورست باسم الدين فهي عندهم كرامة.

هـ- التقليد الأعمى لشيخ الطريقة، فهم يقدسون الشيخ ويعتقدون أنه لا يُسأل عما يفعل حتى لو أتى بالمنكرات والمحرمات، فهو معصوم من الخطأ، بل يظنون أنه يحمل عنهم الصلوات المفروضة والصيام وسائر العبادات.

و- ممارسة الإباحية المطلقة من رقى وسحر وزنا وشرب خمر، وترك صلاة، وخلط جنسي، وغير ذلك من ممارسات قد تستوجب وصف المرء بالشرك أو الكفر.

ز- قول التيجانيين إن « صلاة الفاتح » أفضل من تلاوة القرآن عدة آلاف مرة.⁽¹⁴⁾

ولعل الفارق الكبير بين المتصوفة القدامى والمحدثين يرجع إلى أن معظم المحدثين يعترفهم الجمع بين «الاعتقاد والجهل والطمع» خلافاً للقدامى الذين يجمعون بين "الاعتقاد والعلم والزهد"، فمعظم الشباب اليوم يجرون وراء حطام الدنيا وملذاتها، ويلتمسونها في أي شيء حتى عن طريق التصوف.

معارضة التصوف في إلورن.

ليست معارضة التصوف- كما سبق- وليدة هذا العصر، بل ترجع إلى وقت ظهوره في العالم الإسلامي. أما في إلورن، فيمكن تقسيم موقف العلماء من التصوف إلى ثلاثة: مؤيد، ومعارض، ومحايد. ويقول الإلوري: «ولو أحصينا الذين خاصموا التصوف والصوفية من أعلام الإسلام في مختلف القرون لوجدناهم على عدد أصابع اليد الواحدة».⁽¹⁵⁾

⁽¹⁴⁾ الإلوري، السابق، ص: 108.

⁽¹⁵⁾ المرجع نفسه ص 76.

والمعارضون له عادة هم وهابيون أو من تأثروا بفكرة الوهابية، وهم فريقان؛ فريق تأثروا بالشيخ محمود غومي، قاضي قضاة المحكمة الشرعية بشمال نيجيريا سابقا (رحمه الله تعالى)، وهم أعضاء «جماعة إزالة البدعة وإقامة السنة» التي أسسها مع الشيخ إسماعيل إدريس عام 1978م، وشدّد بها النكير على كل بدعة. وفريق آخر يتكون من خريجي جامعات المملكة العربية السعودية، ولهم نشاط دعوي وعلي ملموس على الإذاعة والتلفاز، وفي المجالس الدعوية والمساجد. ويسميهم الناس «أهل السنة» أو «سلفيون» في حين يطلق المتصوفة عليهم «منكر». ومعارضتهم تتسبب عن مظاهر «البدعة» والمخالفات الدينية والعقدية التي يلاحظونها في الأنشطة الصوفية، وأهمها- إضافة إلى ما ذكرنا آنفا- ما يلي:

أ- إقامة المولد النبوي الشريف، وهو عيد اعترف به حتى الحكومة النيجيرية التي جعلت له إجازة قومية.

ب- التوسل والشفاعة بجاه الرسول أو أحد الأولياء الصالحين.

ج- إقامة جلسة الترحم للميت، حيث يقوم أهله وجيرانه وأصدقائه بما يعرف بـ«فداء» في يوم محدد؛ الثالث أو الرابع أو السابع أو الأربعين، يقومون فيه بالدعاء الجماعي، وطبخ أنواع من الطعام يقدمونها للعامّة صدقة.

د- اتخاذ السبحة وأنواع من الصلوات على النبي، عدا الصلاة الإبراهيمية.

هـ- مسح الوجه باليدين عقب الدعاء.

و- القصائد الصوفية التي فيها غلو ومبالغة في مدح الرسول أو العلماء وشيوخ الطرق الصوفية.

وقد قامت الطائفتان المؤيدة والمعارضة بهجمات متبادلة ليس فقط في مجالس الوعظ، والمناسبات، وعلى الإذاعة والتلفاز ووسائل التواصل الاجتماعي، بل ومن خلال تصنيف الكتيّبات وطبعها وتوزيعها على الناس.

خلاصة القول والكلمة الأخيرة.

ويجمل بنا أن نختم هذه المقالة الوجيزة بأن نكرر القول بأن للطرق الصوفية دورا كبيرا لا يمكن إنكاره في نشر الإسلام وثقافته في ربوع إفريقيا جنوب الصحراء، وأن للطرق الصوفية في المغرب العربي دورا بارزا في نشر الصوفية في المنطقة وخاصة في دولة نيجيريا. إن علينا التمييز بين التصوف الصادق والتصوف الكاذب، ومن ثم بين الصالحين والاطالحين من قادة المتصوفة، فلا ينبغي الجمع بينهم، ولا ينبغي « رمي الطفل مع الماء الذي غسل به». يقول الإلوري:

...ذلك لأن الصوفية أشكال لا حصر لهم، ففهم العلماء وفهم الفقهاء وفهم الأدباء وفهم الفلاسفة، وفهم البسطاء السذج، وفهم الصادقون المخلصون، وفهم الكاذبون المضلون، وفهم الدعاة وفهم الأذعياء، والكل يأخذ من مشربه وكل إناء ينضح بما فيه، لأنهم ينظرون من مختلف الزوايا والنوافذ.⁽¹⁶⁾

وفي النهاية نوصي بما يلي:

أ- نوصي الدعاة بالتعامل باليسر والتسامح قدر الإمكان، بعيدا عن التشدد والتنطع كلما رأوا منكرا وأرادوا تغييره، فعليهم بأخذ الحذر والحيطة من تكفير كل من يصلي ويقول: «لا إله إلا الله»، ونبذ الغلو والإفراط، والاقتراء بالمعمول به في بلاد العرب من الوسطية والاعتدال، فالتصوف علم وعبادة وإحسان وإصلاح.

⁽¹⁶⁾ الإلوري، المرجع نفسه

ب- نوصي قادة الطرق الصوفية في نيجيريا عامة، وفي إمارة إلورن خاصة بتنظيم دورات تدريبية لمريديهم وأتباعهم بقصد التوعية العلمية والتربية الروحية والأخلاقية، وتبصيرهم بخطورة المنكرات والغلو والإفراط في الدين.

المراجع:

القرآن الكريم.

الحديث النبوي الشريف.

1. آدم عبد الله الإلوري، آثار العلم والفلسفة والتصوف في مسيرة الدعوة الإسلامية، القاهرة، مكتبة وهبة، ط1، 1437هـ/2016م.
2. محمد ناصر الدين أبولا صلاتي، الطريقة القادرية في إمارة إلورن.... مقالة مخطوطة.

1. A.R.M. Sholagberu, The Historical Development of the Tijaniyyah Sufi Order in Ilorin, Nigeria and Challenges for Survival, *Journal of Muslim Minority Affairs*, Vol. 38, No. 4, 2018.
2. A.R.M. Sholagberu, Towards Sustenance of Islamic Culture of Ilorin, in Human Security and the Survival of Ilorin Emirate Culture, Center for Ilorin Studies.
3. <https://ar.m.wikipedia.org>

إسهام الإمام المغيلي في النهوض بمدرسة التصوف الجزائريّة وفي الإشعاع الروحيّ والفكريّ لزواياها في الفضاء المغاربيّ وفي ربوع غرب إفريقيا

د. قاسم جاخاتي

أستاذ محاضر بقسم اللغة العربية، كلية الآداب والعلوم الإنسانية
جامعة شيخ أنتا جوب بداكار السنغال

ملخص:

يعالج بحثنا هذا موضوعا يتعلق بإسهام الإمام المغيلي في النهوض بمدرسة التصوف الجزائرية، وفي الإشعاع الروحي والفكري لزواياها في الفضاء المغاربي وفي ربوع غرب إفريقيا. وقد أولى البحث اهتماما خاصا للتراث الصوفي للإمام الثعالبي (875هـ/1470م)، الذي يُعتبر من أبرز وجوه مدرسة التصوف الجزائرية في مجال العلم والورع والتأثير. وسعى البحث إلى تقصي حقائق جذور فكره الصوفي، وطبيعة العلاقة التي كانت تربطه بتلميذه الإمام المغيلي الذي تخرّج من مدرسته، وأصبح صهره وحامل لواء تراثه العلمي والروحي. وقد تناول البحث بالدرس والتحليل سيرة حياة الإمام المغيلي، ومراحل تطور فكره الروحي، وحاول فهم توجّهاته، وتطبيقاته، وإشعاعه في الفضاءات المذكورة وتوضيحها، وكذلك إسهام مريديه وأنصاره من الطريقة القادرية الكنتية في نقل تراثه ونشره فيها.

الكلمات المفتاحية:

التصوف، الجزائر، الثعالبي، المغيلي، القادرية، أفريقيا الغربية، التراث، المدرسة، الزوايا، الإشعاع.

Contribution of Imām al-Maghīlī to the Advancement of Algerian Sufism School and Its Spiritual and Intellectual Influence in the Maghreb and Western Africa

Abstract

This paper deals with a subject concerning the contribution of Imām al-Maghīlī (d. 909/1503) to the development of the Algerian Sufi school culture and the spiritual and intellectual influence of its zawaya, in the Maghreb and the West African region. The paper, in its fundamental orientations pays a particular attention to the Sufi heritage of Imam At-ṭā'Ālibī (d. 875/1470) who is considered among the most remarkable figures of the Algerian Sufi scholars, in terms of scholarship, moral probity and influence. It deeply examined the sources of his Sufi thought, the nature of the relationships he maintained with Imām al-Maghīlī who was his student and his son-in-law and who became the standard-bearer of his intellectual and spiritual tradition.

The paper also studies and analyzes the biography of Imām al-Maghīlī and the different stages of the evolution of his spiritual thought, while trying to understand and explain its orientations, its applications and its influence in the spaces mentioned, as well as the contribution of his disciples and sympathizers, to the Qādiriyya brotherhood of Kunta obedience, in the transmission and propagation of his spiritual heritage.

Keywords:

Sufism, brotherhood, Algeria, At-ṭā'Ālibī, Imām al-Maghīlī, the Qādiriyya, West Africa, Zawaya

المقدمة:

أ- نشأة الإمام المغيلي ومراحل درساته.

كان الإمام عبد الكريم المغيلي التلمساني من أكثر أعلام الجزائر شهرة وتأثيراً في القرن الخامس عشر، وقد وصفه أحمد بابا التنبكتي (1036هـ/1627م) وابن مريم "بخاتمة المحققين، الإمام العالم العلامة المحقق الفهامة القدوة الصالح السني الحبر أحد أذكى العالم وأفراد العلماء الذين أوتوا بسطة في العلم والتقدم والنسبة في الدين المشهور بمحبة رسول الله صلى الله عليه وسلم وبغض أعدائه، الخ".⁽¹⁾

كاد كتابُ «لقط الفرائد» لأحمد بن القاضي، المتوفى سنة 1025هـ/1616م يكون كتابَ التراجم القديم الوحيد الذي قدّم فكرة واضحة عن حياة محمد بن عبد الكريم المغيلي في تلمسان وبجاية وتوات. وقد كتب بالتحديد أنه "محمد عبد الكريم المغيلي، الشيخ العالم العامل العلامة النحرير ذو الخوارق المتواترة، والحقائق المتوافرة، سيدي محمد بن عبد الكريم المغيلي التلمساني. ولد بتلمسان ونشأ بها ثم رحل منها بعد حفظ القرآن إلى بجاية، وتمهّر بها في العلوم على يد أبي العباس الوغليسي، وبعد بلوغه النهاية في العلم رحل إلى توات وهي يومئذ دار علم وإسلام واستقرّ بها ووُلد له الأولاد". بيد أن أحمد القاضي لم يشر إلى دراسة الإمام المغيلي في مدينة الجزائر ولا إلى إقامته في بلاد السودان، ولكنه أتى بمعلومات مفيدة عن قضية يهود توات لم أجدها في كتاب آخر.⁽²⁾

(1) التنبكتي أحمد بابا، نيل الابتهاج، بتطريز الديباج، طرابلس: منشورات كلية الدعوة الإسلامية، ج 1-2، 1989، ص 576. ابن مريم، البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، تحقيق محمد بن أبي شنب، الجزائر: المطبعة الثعالبية، 1908، ص 253.

(2) أحمد القاضي، لقط الفرائد، موسوعة أعلام المغرب، تنسيق وتحقيق محمد حجي، بيروت: دار الغرب الإسلامي، ج 2، 1980، ص 816.

وفيما يتعلق بالأخبار الواردة في كتب التراجم الأخرى فتتركَزُ على موقف محمد بن عبد الكريم بن محمد المغيلي تجاه يهود توات. وعلى سبيل المثال، بدأ ابن عسكر، المتوفى سنة 986هـ/1578م، الترجمة التي خصصها له بهذه العبارة: «ومهم الشيخ الفقيه الصدر الأوحده أبو عبد الله محمد بن عبد الكريم بن محمد المغيلي كان من أكابر العلماء وأفاضل الأتقياء وكان شديد الشكيمة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر...»، ثم انتقل عقب ذلك مباشرة إلى قضية يهود توات المشهورة بنازلة يهود توات، وكرّس لها أكثر من صفحتين ثم أشار إلى النشاطات التي قام بها في بلاد السودان وتوات مضيفاً إلى أنه توفي ودفن في توات التي يوجد فيها أحفاده يحيطهم أهلها بالاحترام والتوقير. ولكنه لم يأت بأدنى معلومات حول تربيته ودراسته»⁽³⁾.

وترجمة أحمد بابا التنبكتي، المتوفى عام 1036هـ/1627م، الخاصة بحياة محمد بن عبد الكريم بن محمد المغيلي والمنشورة في كتابه نيل الابتهاج، أولت اهتمامه في البداية بنفس الاعتبارات التي لفتت انتباه ابن عسكر؛ فوصفت الترجمة محمد بن عبد الكريم بن محمد المغيلي «التلمساني خاتمة المحققين الإمام العالم العلامة الفهامة القدوة الصالح السني أحد الأذكياء ممن له بسطة في الفهم والتقدم متمكن المحبة في السنة وبغض أعداء الدين وَقَعَتْ له بسبب ذلك أمورٌ مع فقهاء وقته حين قام على يهود توات وألزمهم الدُّلَّ...»⁽⁴⁾. وبعْدَ انتهاء الترجمة من موضوع نازلة توات التي خصصت لها أكثر من نصف صفحة حدَّدَتْ حَطَّ سَيْرِ رِحْلَتِهِ

⁽³⁾ ابن عسكر، دوحة الناشر، نسخة مصورة في حوزتنا من المكتبة الوطنية الفرنسية، باريس: المخطوط رقم R. C. 8301: انظر الأوراق: (71-73) وفيما يتعلق بأبي العباس الوغليسي، انظر بابا أحمد، نيل الابتهاج في تطريز الديباج، المصدر المذكور سابقاً، ص 248، ومخلوف محمد بن محمد، شجرة النور الزكية، القاهرة، المطبعة السلفية، ج1، 1349هـ، ص 237. وبالنسبة لحياة عبد الرحمان الثعالبي، انظر بابا أحمد، المصدر نفسه، ص 257-261.

⁽⁴⁾ التنبكتي بابا أحمد، نيل الابتهاج، المصدر المذكور سابقاً، ص 576.

التي انطلق من توات إلى بلاد أهير، ثم تكدة التي قام بالتدريس فيها، « ثم دَخَلَ بِلَادِكُنُو وَكَشَ مِنْ بِلَادِ السُّودَانِ وَاجْتَمَعَ بِصَاحِبِ (أَمِير) كُنُو، وَاسْتَفَادَ عَلَيْهِ وَكَتَبَ رِسَالَةَ فِي أُمُورِ السُّلْطَنَةِ يَحْضُرُهُ عَلَى اتِّبَاعِ الشَّرْعِ وَأَمَرَ بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَى عَنِ الْمُنْكَرِ، وَقَرَّرَ لَهُمْ أَحْكَامَ الشَّرْعِ وَقَوَاعِدَهُ »⁽⁵⁾.

واستطرد أحمد بابا في وصفه لمراحل الرحلة وأخبارها: «رحل لبلاد تكرر فوصل إلى بلدة كاغو(غاوو) واجتمع بسطانها الحاج أسكيا محمد وجرى على طريقته من الأمر بالمعروف، وألف له تأليفا أجابه فيه عن مسائل وبلغه هناك (نبأ) قتل ولده بتوات من جهة اليهود فانزعج لذلك وطلب من السلطان قبض أهل توات الذين بكاغو حينئذ فقبض عليهم، وأنكر عليه سيدنا أبو المحاسن محمود بن عمر، إذ لم يفعلوا شيئا، فرجع عن ذلك وأمر بإطلاقهم ورحل لتوات فأدرسته المنية بها فتوفي هناك سنة تسع وتسعمائة »⁽⁶⁾. وتحتوي الفقرات السابقة أخبارا مفيدة تتعلق بالرحلات التي قام بها محمد بن عبد الكريم بن محمد المغيلي بين توات وبلاد السودان وبالأعمال التي قام بها في مجالات التدريس والدعوة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والتأليف. وكانت تربطه بأمر كانو وسلطان كاغو في بلاد السودان علاقة خاصة تؤكد قوتها ومثابرتها الرسالة التي كتبها للأول بشأن سياسة الحكم في الإسلام كما تثبت مثابته علاقته بالثاني الرسالة التي ألفها له ووضع فيها أجوبة للأسئلة التي وجهها إليه السلطان أسكيا محمد حول شؤون الحكم ونوع العلاقة التي يجب أن تربط الحاكم بالمحكومين حسب الشريعة الإسلامية. ومن الصعب جدا تحديد تاريخ مغادرته توات ووصوله إلى بلاد السودان، ويوجد تضارب في التواريخ المذكورة حول الموضوع⁽⁷⁾.

⁽⁵⁾ التنيكتي بابا أحمد، نيل الابتهاج، المصدر المذكور سابقا، ص 577.

⁽⁶⁾ المصدر المذكور سابقا الصفحة نفسها.

⁽⁷⁾ op.cit. p p. ، Histoire de l'islamisation de l'Afrique de l'Ouest ، CuoqJoseph

وعلى الرغم من قلة المعلومات التي ذكَّرتُهَا كتبُ التراجم حول مراحل مهمة من حياة محمد بن عبد الكريم بن محمد المغيلي، فإنها تتضمن، على كل حال، معلومات مفيدة تُعيننا على فهم جوانب خاصة من صفاته وثقافته وآرائه، ونجد في كتاب «من تاريخ توات، أبحاث في التراث»، للدكتور أحمد أبَا الصافي جعفري، الأستاذ بجامعة أدرار والخبير بشئون منطقة توات، المُتخصِّص أيضا بالمخطوطات الجزائرية في إفريقيا، معلوماتٍ قيمةً تتعلق بظروف وصول الإمام المغيلي إلى توات بعد انتهاء رحلته الدراسية الطويلة، منها ما نقله من مخطوط "درة الأقلام في أخبار المغرب بعد الإسلام" نقتطف منها ما يلي: "وبعد جولته المعرفية الأولى بين مدن تلمسان وبجاية ثم الجزائر العاصمة، حلَّ الإمامُ المغيلي بأرض توات على الأرجح سنة 882هـ/1477م، ووَجَدَ اليهودَ يومها قد ضربوا بأذنانهم في كل شاردة وواردة من أمور حياة التواتيين بالإضافة إلى تمرُّدهم على كثير من الأحكام الشرعية عليهم، وهو ما رأى فيه الإمام إسقاطا لصفة الذمي عنهم"⁽⁸⁾. ووصف لنا- د. جعفري ظروف حياته الأخيرة ووفاته في توات، اعتمادا على معلومات نقلها من شيخ الزاوية الكنتية الحاج امحمد الكتني الذي قال إنَّه رواه عن الأوائل، مَفَادُه أن محمد بن عبد الكريم بن محمد المغيلي اتخذ قرار العودة إلى توات لما وصله خبرُ قتل ولده عبد الجبار الذي استخلفه على أهالي توات، « ولما بلغ توات الوسطى أو توات الحناء كما كانت تسمى، وتحديدًا قصر بوعلي جنوب بلدية زاوية كنتة حاليا، تقدَّم له البرامكةُ سكانُ القصر، وعرضوا عليه الإقامة عندهم فَلَبَّى الدعوةَ واستقرَّ أخيرا في قصر بوعلي، وهناك أسَّسَ مسجده وَخَلَوْتَه وَتَخَصَّصَ فيهما للدعوة والعبادة حتى وافته المنية سنة 909هـ، حيث نُقل إلى مشارف القصر، وهناك دُفِنَ، ومنذ ذلك الحين أَخَذَ مَوْضِعَ دَفْنِهِ اسْمَ زاويته المعلومة إلى الآن في المنطقة»⁽⁹⁾.

(8) د. أحمد أبَا الصافي جعفري، من تاريخ توات، أبحاث في التراث، الجزائر: منشورات

الحضارة، 2011، ط1، ص 14.

(9) المرجع السابق، ص 21.

ب- مؤلفاته.

أتى أحمد بابا بقائمة كُتِبَ ذكر أنها من مؤلفات محمد بن عبد الكريم بن محمد المغيلي منها البدر المنير في علوم التفسير، ومصباح الأرواح في أصول الفلاح، ووصف هذا الكتاب بكتاب عجيب في حجم كراسين أرسله مؤلفه إلى الإمام السنوسي وابن غازي فقاما بتقريبه، وشرح مختصر خليل الذي سمّاه مغني النبيل، وكذلك شروح ومختصرات لأجزاء كتب في الفقه المالكي، ومفتاح النظر في علم الحديث، وشرح الجمل في المنطق ومقدمة في المنطق ومنظومة فيه سماه منح الوهاب بالإضافة إلى ثلاثة شروح عليها. وأخبر التنبكتي أن والده كتب شرحا وافيا حسنا للمنظومة المذكورة. ثم ذكر أيضا كتابا اسمه: تنبيه الغافلين عن مكر الملبسين بدعوى مقامات العارفين، وشرح خطبة المختصر وكتاب مقدمة في العربية، وكتاب الفتح المبين وفهرسة مروياته، وعدة قصائد، كالميمية على وزن البردة وروياها في مدح النبي صلى الله عليه وسلم. وانتقل التنبكتي إلى شيوخ محمد بن عبد الكريم بن محمد المغيلي وذكر أنه أخذ عن الإمام عبد الرحمن الثعالبي، والشيخ يحيى بن بدير وغيرهما. ثم أفاد أن جماعة أخذ عنه ذكّر منها الفقيه أيد أحمد والشيخ العاقب الانصمني ومحمد بن عبد الجبار الفيحي وغيرهم. واختتم التنبكتي ترجمته لمحمد بن عبد الكريم بن محمد المغيلي بذكر مُراسلة شعرية جرت بينه وبين جلال الدين السيوطي لها علاقة بموقفهما تجاه علم المنطق⁽¹⁰⁾.

وبالاطلاع على ترجمة محمد بن عبد الكريم بن محمد المغيلي في كتاب أحمد بابا المعروف ب المحتاج لمعرفة ما ليس في الديباج، وجدنا أنه لخص

⁽¹⁰⁾ التنبكتي بابا أحمد، نيل الابتهاج، المصدر المذكور سابقا، ص 577-579.

فيها البيانات التي أوردتها في نيل الابتهاج⁽¹¹⁾. وقد قمنا أيضا بقراءة ترجمة ابن مريم لمحمد بن عبد الكريم بن محمد المغيلي في كتابه البستان فوجدناها صورة تكاد تكون طبق الأصل لما كتبه التنبكي في الموضوع نفسه⁽¹²⁾، ولاحظنا الشيء نفسه في كتب تراجم متأخرة مثل كتاب شجرة النور الزكية في طبقات المالكية لمخولف محمد بن محمد⁽¹³⁾، وكتاب تعريف الخلف برجال السلف للحفناوي⁽¹⁴⁾.

ج- إشكالية البحث:

تدور إشكالية بحثنا، بشقها الأول، حول إسهام الإمام المغيلي في النهوض بمدرسة التصوف الجزائرية، وتطرح فروضا ترمي إلى تأكيده أو نفيه مستعملا براهين وحجج علمية مناسبة. أما الشق الثاني للإشكالية فمرتبط بالأول باعتباره امتدادا له؛ وينصبُّ على معطيات الإشعاع الروحي والفكري لزوايا هذه المدرسة التي يُفترض انتشارها في الفضاء المغربي وفي بلاد غرب إفريقيا، وسنسعى إلى معرفة الجذور المحتملة للإشعاع المذكور كما سنحاول تحديد وتفسير ما يُتوقع أن يترتب على ذلك من تداعيات مختلفة مع الاعتماد على عناصر مصادر ومراجع الموضوع التي توحى إلى ذلك.

د- منهج البحث:

وسنستعمل في هذا البحث منهجين: أحدهما وصفي تحليلي، يسهّل لنا مهمة دراسة الموضوع وتحديد وجوده وتعيين واقعه، مع السعي وراء

⁽¹¹⁾ التنبكي بابا أحمد، المحتاج لمعرفة ما ليس في الديباج، نسخة مصورة في حوزتنا، من مخطوطات الأزهر، الجزء 12، رقم 893، رواق المغاربة، ورقة 95-96.

⁽¹²⁾ انظر ابن مريم، البستان، المرجع المذكور سابقا، ص 253-257.

⁽¹³⁾ مخولف محمد بن محمد، شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، القاهرة: المطبعة السلفية، ج 1، 1349 هـ، ص 274.

⁽¹⁴⁾ الحفناوي أبو القاسم محمد، تعريف الخلف برجال السلف، الجزائر: مطبعة فونتانة الشرقية، 1906 م، ص 166-170.

وصفه وصفا دقيقا يلقي الضوء على جوانبه المختلفة، ويكشف عن خصائصه. أما الثاني فتاريخي تحليلي سيعيننا على دراسة موضوعنا انطلاقا من ظروف نشأته، معتمدا على الوثائق والمستندات المتاحة، مع متابعة ظروف تطوره التاريخي، بالإضافة إلى ملاحظة ما يطرأ فيه من تطورات وتغيرات، نحاول فهم أسبابها وتحليلها محددا الجوانب السلبية والإيجابية الكامنة فيها، مع محاولة تقييم النتائج المترتبة على ذلك. والخطة المتبعة في هذا البحث تدور كالاتي: 1- منبع أصول تصوف الإمام المغيلي؛ 2- البعد الصوفي في فكر الإمام المغيلي؛ 3- ارتباط أهل كنته بالإمام المغيلي، حسب مخطوط «الطرائف والتلائد».

1.- منبع أصول تصوف الإمام المغيلي.

1.1. علاقته بالتراث الصوفي للإمام عبد الرحمان الثعالبي.

تكاد تتفق المصادر والمراجع على أن الإمام عبد الرحمان الثعالبي كان من أساتذة الإمام عبد الكريم المغيلي. واعتبره د. عصام طوالي الإمام الثعالبي من أبرز تلاميذه الذين تولوا نشر تراثه: "تُوِيَ الشَّيْخُ الثَّعَالِبِيُّ لَيْلَةَ الرَّابِعِ وَالْعِشْرِينَ مِنْ شَهْرِ رَمَضَانَ سَنَةِ 875هـ/1470م، (فهو) فقيهٌ، محدثٌ، مفسرٌ، مؤرِّخٌ، وصوفيٌّ، لقد أسَّس مدرسة شرعية مجمعٌ على صدق منهجها. مدرسةٌ سعى في نشر أنوارها تلاميذه، أشهرُهُمْ صِهْرٌ هُدَافِينُ أَدْرَار، عبد الكريم المغيلي (ت. 909هـ / 1503م).⁽¹⁵⁾ وقد أكد د. إدريس خويا وأ. فاطمة برماتي بأنه دَرَسَ عِلْمَ التَّصَوُّفِ مِنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الثَّعَالِبِيِّ فِي

⁽¹⁵⁾ د. عصام طوالي الثعالبي، مقامات الأولياء في الموروث الشعبي الجزائري: مقامات سيدي عبد الرحمان الثعالبي نموذجا: قلب ثقافة العاصمة، بحث منشور في مجلة "معايير"، مجلة دولية محكمة تصدر عن اللجنة الوطنية الجزائرية للتربية والعلم والثقافة بمشاركة كرسي اليونسكو الأمير عبد القادر لحقوق الإنسان وثقافة السلام لجامعة الجزائر-عدد خاص: الشيخ عبد الرحمن الثعالبي والإشعاع الثقافي لمدينة الجزائر، 1، المجلد 3، العدد 1، جامعة الجزائر 1، 1999، ص 143.

العبارة التالية: "وقد أخذ منه الشيخ المغيلي: التفسير، التصوف، والقراءات. وركز كثيرا على أن يأخذ منه علم التصوف".⁽¹⁶⁾ ونعتقد، بناء على ما سبق، بأن دراسة الفكر الصوفي للإمام عبد الرحمان الثعالبي تُسهِّلُ لنا فهم أهمّ العناصر التي تُكوِّن المرجعية الصوفية الأولى للإمام المغيلي. وقد بيّن د. الصادق دهاش وسائلَ تأثير الإمام الثعالبي في أتباعه، وحصّرها في الوسائل الثلاثة التالية: "قد أثر تأثيرا بليغا في أتباعه بواسطة ثلاث طرق أساسية: 1- تلاميذه 2- وتأليفه 3- وزاويته". وأشار د. دهاش إلى "إلى استشراف حركة التصوف بشكل جلي وترك بصماتها على نفسية العامة والخاصة، فانتشرت الرؤى والأحلام والكرامات والأدعية والأذكار. فكانت الجزائر يتجاذبها تياران أو رافدان: رافد الأندلس ورافد المشرق بمسحة مغاربية جزائرية أصيلة"⁽¹⁷⁾.

وقد أكدت د. بعارسية صباح إلى قُوَّة انتشار التصوف في المجتمع الجزائري في عصر الإمام الثعالبي وتأثيره الشديد في جميع فئات المجتمع المغربي بالعبارات التالية: "اشتهر الثعالبي في القرن 9هـ/15م، وهو القرن الذي انتشر فيه التصوف بين جميع فئات المجتمع المغربي، بما فيها فئة العلماء، خاصة الفقهاء منهم، الذين كانوا عادوا لأفكار الصوفية في عهد المرابطين. لهذا امتلأ هذا القرن بعلماء متصوفة، ومتصوفة علماء؛ وعلى رأس هؤلاء الثعالبي الذي جمع بين التصوف والعلم، فحصل على احترام الجزائريين وغير الجزائريين، نتيجة لغزارة علمه ولحياته المثلى، وللبركة التي منحها حضوره لمدينة الجزائر، حيث غطت شهرته البلاد، ودرسه العديد من

(16) د. إدريس خويأ/فاطمة برماتي، الشيخ سيدي محمد بن عبد الكريم المغيلي - من المهد إلى اللحد - مجلة الذاكرة، المجلد 4، رقم العدد 2، مخبر التراث اللغوي والأدبي في الجنوب الشرقي الجزائري، كلية الآداب واللغات، جامعة قاصدي مرباح ورقلة، 2016، ص 13.

(17) د. دهاش الصادق، دراسة تاريخية مع العلامة عبد الرحمن الثعالبي في رحلته العلمية، مجلة معابر، المرجع السابق، ص 41-43.

أبناء الجزائر ومن غيرهم، ولا نكاد نجد كتابا في التراجم لا يذكره، وضريحه حَجَّة للزائرين في مدينة الجزائر لليوم»⁽¹⁸⁾.

2.1. التصوف وأركانه عند الإمام الثعالبي.

ونقل فيما يلي مقتطفات من بحث د. حبيب بريك الله الذي خصَّصه لتصوف العلامة الثعالبي معتمدا على محتويات كتاب «رياض الصالحين وتحفة المتقين» الذي كان مخطوطا حبيس الرفوف، وقام د. حبيب بريك الله بتحقيقه ونشره، وتناوله بالدرس والتحليل في بحثه المذكور، مُوضحا بأن العلامة الثعالبي «جميع فيه الكثير من مظاهر وروايات التصوف في المجتمع الجزائري والمجتمعات الاسلامية الأخرى». وقدّم د. حبيب بريك الله وصفا ملخصا لطبيعة تصوف الإمام الثعالبي وأحوال عصره، في السطور التالية: «ويأتي تصوف الثعالبي في أسس وأطر التصوف الإسلامي الصحيح الذي يستند أصوله من الكتاب والسنة ويستوحى قواعد تصوفه من المدرسة الغزالية التي كانت سائدة آنذاك، وقد لمسنا من خلال كتابه، رياض الصالحين وتحفة المتقين، كثرة إيرادته لأقوال الغزالي من خلال كتابه احياء علوم الدين، والعلامة القرطبي في تذكّره، والعلامة ابن أبي جمرة في كتابه المشهور بهجة النفوس، وتحليها بمعرفة مآلها وما علّمها، وما دفع العلامة الثعالبي المتصوف إلى سلك طريق التصوف والزهد هي حالة عصره التي راجت وقتئذ. وتمثل في الركود والجمود والضعف في كثير من المجالات السياسية والدينية والضياع الاجتماعي، وانتشار علامات البذخ والانحلال في المجتمع الجزائري التي حملها النازحون من بلاد الأندلس. فجاء تصوف الثعالبي منافيا للفتن والأجواء السياسية والمجادلات العقلية والعصبية المذهبية التي ينكرها العقل القويم وتسأمها الفطرة السليمة لا سيما ما كان

⁽¹⁸⁾ د. صباح بعارسية، مكانة شخصية الشيخ عبد الشيخ عبد الرحمان الثعالبي في العهد العثماني، مجلة معابر، المرجع السابق، ص 61-62.

منها يعود إلى الحياة الاجتماعية والحضارية عامة من ألوان الترف والبذخ والمجون والاشتغال بسفاسف الأمور».⁽¹⁹⁾

عالم د. حبيب بريك الله موضوع أركان التصوف عند الإمام الثعالبي وعدّها أربعة، وهي الصمت، والعزلة، والجوع، والسهر، ثم أتى بالتوضيحات التي قدمها الإمام الثعالبي لهذه المفاهيم الصوفية، بدأها بالركن الأول، أي "الصمت": يقول الثعالبي في كتابه عن ركن الصمت ما يلي: قال: حميد بن هلال: قال لي الربيع بن خثيم: «عليك بكثرة الصمت وطول الصلاة والخشوع لله سبحانه فيها والخضوع له واعلم أن في الجنة دار ما بين بابيها كما بين المشرق والمغرب من لؤلؤة صفراء مجوفة فيها قصور وبيوت من ياقوت أخضر وأحمر وأبيض أعدها الله للمتقين قلت: ومن المتقين؟ قال: الذين اتقوا سخط ربهم، ثم قال لي: يا أبا بني عدي عليك بتلاوة القرآن وأكثر الفكرة فيه فإن فيه عبرا وأمثالا لمن أعتبر واتعظ وخاف واحذر ولاستكثرت المعروف فمن يفعله واعلم أن المعروف مصارع السوء، واعلم أن أعلم الخلق بالله أكثرهم خوفا من الله». وعن يزيد بن نافع قال: كان الربيع بن خثيم: «أخشع الناس أصمتهم إلا من خير وكان لسانه لا يفتر على الذكر»⁽²⁰⁾: الركن الثاني هو «العزلة»، وتحدّث عن ميزته في العبارة التالية: قال الحسن: مكتوب في التوراة: «الغنيمة في القناعة والسلامة في العزلة»؛ الركن الثالث هو «السهر»، وقد ربط هذا الركن بأذكار الليل ووضع له الضوابط التالية: «وأما إذا نمت فإياك أن تنام إلا بطهارة الظاهر والباطن وإن يغلبك النوم إلا بعد غلبة ذكر الله على قلبك ولست أقول على لسانك فإن حركة اللسان بمجرد ضعيفة واعلم قطعا أنه لا يغلب عند النوم على قلبك إلا ما كان قبل النوم غالبا عليه ولا تبعث من نومك إلا على ما غلب

⁽¹⁹⁾ د. حبيب بريك الله، منهج العلامة الثعالبي في التصوف من خلال كتابه "رياض

الصالحين وتحفة المتقين"، مجلة معابر، ص 127-134.

⁽²⁰⁾ المرجع السابق، ص 134.

على قلبك في نومك». الركن الثالث هو «الجوع»، وقد نوه به في العبارات التالية: «واعلم أنه إن كانت همتك ما يدخل في بطنك فقيمتك ما يخرج من بطنك وإذا لم يكن قصدك من الطعام إلا التقوي على عبادة الله كقصدهك من قضاء الحاجة فعلامه ذلك تظهر في ثلاثة أمور من مأكولك في وقته وقدره وجنسه أما الوقت فأقله أن تكتفي في اليوم واللييلة بمرة واحدة فتواظب على الصوم وأما قدره فإن لا تزيد على ثلث البطن وأما جنسه فأن لا تطلب اللذائذ من الأطعمة بل تقنع بما يتفق فإن قدرت على هذه الثلاثة وأسقطت عنك مؤنة اللذائذ قدرت بعد ذلك على ترك الشهوات وأمكنك ألا تأكل إلا حله فإن الحلال يعن ولا يفي بالشهوات»⁽²¹⁾.

نلاحظ أهمية «محاسبة النفس» في فكر الإمام الثعالبي الصوفي، وقد أشاد به في العبارات التالية: «فإن أردت نجاة نفسك فلا تغفل عن محاسبتها ما دمت حيا»، قال الغزالي: «واعلم أنه لا ينجو من خطر الحساب والميزان إلا من حاسب نفسه في الدنيا ووزن فيها بميزان الشرع أعماله وأقواله وخصراته ولحظاته". قال الغزالي في الإحياء والقرطبي في تذكرته: «يجب على كل مسلم البدار إلى محاسبة نفسه»: «حاسبوا أنفسكم وزنوها قبل أن توزنوا، وإنما حسابه كما قال عمر لنفسه أن يتوب عن كل معصية قبل الموت توبة نصوحا ويتدارك ما فرط فيه من تقصير فرائض الله عز وجل ويرد المظالم حبة حبة، ويستحل كل من تعرض له بلسانه ويده وسوء ظنه بقلبه ويُطيب قلوبهم حتى يموت ولم يُبق عليه فريضة ولا مظلمة فهذا يرجى من الله سبحانه أن يدخله الجنة بغير حساب. قال ابن أبي جمرة رحمه الله تعالى: «ولا يحمل المرء على هذه المحاسبة والمراقبة إلا الخوف من الله عز وجل والإجلال له وقوة اليقين، ولهذا المعنى كاف»⁽²²⁾.

⁽²¹⁾ المرجع السابق، ص 134-135.

⁽²²⁾ المرجع السابق، ص 137-135.

يبدو أن كتب الغزالي والقرطبي والمحاسبي تشكل أهم مراجعه في مجال التصوف، وهذا ما أكده الإمام الثعالبي في بداية كتابه «العلوم الفاخرة في النظر في أمور الآخرة»⁽²³⁾ وتجدر الإشارة إلى أن المتصوفة يولون لأمر الآخرة

⁽²³⁾ وفيما يلي نص الإمام الثعالبي الذي يتضمن معلومات قيمة تتعلق بحياته وكتابته وبمراجعته وبفكره الصوفي: «وبعد فيقول العبد الذليل المعترف بالعجز والتقصير عبد الرحمان بن محمد الثعالبي لطف الله به اللطف الجميل في المقام والرحيل، لما وهن العظم مني واشتعل الرأس شيبا، وبلغت من السنين نحو من ثلاثة وسبعين وعلمت النفس قرب الحمام منها علم اليقين وأيقنت أنها راحلة في عسكر الراحلين، شرعت في جمع كتاب أجعله تذكرة لنفسي، وأعمدة أنواره لظلم رمسي في ذكر الموتى وما بعده من الأمور الآخرة وصنف العلماء في هذا المعنى تصانيف جليلة كأبي حامد الغزالي وأبي عبد الله محمد بن أحمد القرطبي وأبي محمد عبد الحق الإشبيلي والمحاسبي وغيرهم إن شاء الله تعالى في قدار كلامهم وغيرهم من الأئمة، وثقات أعلام هذه الأمة ما تنشرح له الصدر ويستولي عليهما الضياء والنور. وبدأت جمعه وتأليفه في أوائل ذي القعدة من سنة تسع وأربعين وثمانمائة. جعله الله عملا صالحا لوجهه ومبلغا إلى مرضاته. اللهم انفعني به في الدارين وانفع به من نظره أو سمعه أو سعى في تحصيله آمين، آمين، آمين والحمد لله رب العالمين: "وسميته بالعلوم الفاخرة في النظر في أمور الآخرة". وإعطاء فكرة عن الطريقة التي يرجع بها الإمام الثعالبي إلى العلماء الذين ذكرهم، نورد نصه التالي: "وروي عن أنس رضي الله عنه أنه قال، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم، أكثروا من ذكر هادم اللذات فإنه لمحط الذنوب، ويُزهد في الدنيا. ورُوي عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: كفى بالموت واعظا. ورُوي عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: يا رسول الله، هل يُحشر مع الشهيد أحد؟ قال: نعم، من يذكر الموت في اليوم واللييلة عشرين مرة. قال الغزالي رحمة الله تعالى: وإنما سبب هذه الفضيلة ذكر الموت يوجب التجافي عن دار الغرور ويقتضي الاستعداد للآخرة، والغفلة عن ذكر الموت تدعو إلى الانتهاك في شهوات الدنيا. انتهى كلام الغزالي. قال القرطبي: وقال السدي في قوله تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: 2]، أي أكثركم للموت ذكرا، وله أحسن استعدادا ومنه أشد خوفا وحذرا]. " انظر ورقة 1 و2 من مخطوط "العلوم الفاخرة في النظر في أمور الآخرة" للإمام عبد الرحمن الثعالبي. يتألف المخطوط من جزأين، ونسخته جيدة، وعدد صفحاتها: 592، أما خطها فمغربي واضح. ومصدره: الدار البيضاء مكتبة مؤسسة الملك عبد العزيز. ويمكن تحميلها من موقع انترنت:

<https://archive.org/details/al-auloum.al-fakhira>

أهمية خاصة. وَبَعْدَ إمامنا بالخطوط العريضة لتصوف الإمام الثعالبي،
يجدر بنا الآن أن نعود إلى تلميذه وصهره النجيب الإمام المغيلي. وسنحاول
دراسة وتقييم البعد الصوفي في فكره.

2. البعد الصوفي في فكر الإمام المغيلي.

يتمحور البعدُ الصوفي في فكر الإمام المغيلي حول مفاهيم التقوى
والعلم، والورع، والصمت⁽²⁴⁾، وحبّ النبي صلى الله عليه وسلم⁽²⁵⁾، والتوسل
بجاهه⁽²⁶⁾، والتقرب لأهل الخير والابتعاد عن أهلالشر، ومحاسبة النفس. وقد
حَثَّ على التقوى في معظم كتبه: «وفقك الله للتقوى، وعصمك من نزغ
الهُوى»، «وعليك بتقوى الله: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَأَنَّمَا تُوَفَّقُونَ أُجُورَكُمْ
يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَنْ زُحَّحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا
إِلَّا مَتَاعٌ الْغُرُورِ﴾ (سورة آل عمران، الآية: 185)»⁽²⁷⁾. وقد أشاد بالعلم

⁽²⁴⁾ وهذا ما يدل عليه بيته التالي: "وَكُنْ عَلَى الصُّمْتِ حَرِيصًا دَائِمًا فَقَلَمًا يَسْلُمُ مَنْ
تَكَلَّمَ" انظر: المغيلي محمد بن عبد الكريم، تاج الدين فيما يجب على الملوك
والسلطين، ت محمد خير الله يوسف، بيروت: دار ابن حزم، 1994، ط1، ص 21.
⁽²⁵⁾ وهذا ما تدل عليه عبارته التالية: «فكل مؤمن حقيقي، لا بد أن يكون شديدا على
الكفار رحيفا بالمؤمنين، وبرهان ذلك أن كل مؤمن لا بد أن يحب النبي صلى الله عليه
وسلم لقوله عليه الصلاة والسلام: "لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه
وولده ووالديه والناس أجمعين". وكل من يحب النبي صلى الله عليه وسلم، لا بد أن
يكون معه لقوله صلى الله عليه وسلم: "المرء مع من أحب". انظر: المغيلي محمد بن عبد
الكريم، مصباح الأرواح في أصول الفلاح، تحقيق عبد المجيد الخيالي، بيروت: دار
الكتب العلمية، 2001، ص 25-26.

⁽²⁶⁾ هذا كتاب من عبد الله تعالى محمد بن عبد الكريم بن محمد المغيلي التلمساني
لطف الله به، وبجميع أحبائه بجاه سيدنا محمد صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه إلى
كل مسلم ومسلمة، سلام عليكم ورحمة الله وبركاته"، انظر: المغيلي محمد بن عبد
الكريم المصدر السابق، ص 21.

⁽²⁷⁾ المغيلي محمد بن عبد الكريم، تاج الدين فيما يجب على الملوك والسلطين، المصدر
السابق، ص 15-16.

والتقوى والورع، وحذر من الطمع واستشهد أولاً بالآية التالية: ﴿ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (سورة النحل، الآية: 43)، ثم فسر هذه الآية بما يأتي: «والذكر هو القرآن، وأهله من اجتمع فيه وصفان: العلم والتقوى؛ لأن بالعلم يُعرّف الرشد من الغي، وبالتقوى يأمر بالرشد وينهى عن الغي، فلا تقيّد في دينك إلا من ثبت أنه عالم تقي»⁽²⁸⁾. وأشار إلى أهمية التقوى في حفظ الدين: «فمن أعظم الواجبات على أمراء المسلمين حفظُ الدين؛ بأن لا يتركوا احدا يتكلم في دين الله بتعليم ولا حكم ولا فتوى حتى يكون من أهل العلم والتقوى. ولذلك لما قدم علي بن أبي طالب رضي الله عنه البصرة، دخل جامعها فوجد القصاص يقصون، فأقامهم حتى جاء إلى الحسن البصري رضي الله عنه، فقال: يا فتى إني سائل عن شيء فإن أنت أجبتني عنه أبقيتك، وإلا أقمته كما أقمته أصحابك. وكان قد رأى عليه سمتا وهديا. قال الحسن: سل عما شئت، فقال: ما ملاك الدين؟ قال:» الورع. قال: ما فساد الدين؟ قال:الطمع. قال: اجلس؛ مثلك يتكلم على الناس»⁽²⁹⁾. ودعا إلى ضرورة تعلم الدين من أهل الذكر: «فمن تبين لك أنه عالم تقي، فهو من أهل الذكر، فأسأله عن دينك وقلده ينجيك ويكفيك»⁽³⁰⁾.

1.2. برنامج صوفي يومي في مخطوط «عمل اليوم واللييلة».

ومما ورد في مخطوط «عمل اليوم واللييلة للإمام المغيلي يُبلورُ جوانب مختلفة من تصوفه العلمي والتطبيقي: بدأ النص بالبسملة، ثم الصلاة والسلام على النبي وعلى آله وأصحابه أجمعين، ثم كتب العبارات التالية: «أما بعد فيقول عبيد الله المعتصم بالله محمد بن عبد الكريم المغيلي

⁽²⁸⁾ المغيلي محمد عبد الكريم، أسئلة الأسقيا وأجوبة المغيلي، ت عبد القادر زبادية، الجزائر: الشركة الوطنية للنشر، 1974، ص 26.

⁽²⁹⁾ المصدر السابق، ص 27-28.

⁽³⁰⁾ المصدر السابق، ص 31-32.

التلمساني المالكي رحمه وبارك عمره: هذه جملة مباركة في عمل اليوم والليلة من عمل بها فقد حاز فضلا عظيما وهدى صراطا مستقيما. فأول ذلك: فإذا استيقظت من نومك أن تقول "لا إله إلا الله محمد رسول الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد يحيي ويميت وهو على كل شيء قدير، الحمد لله الذي أحياني بعد مماتي وإليه النشور. وتدكُّرُ بيقظتكَ من نومك إحياءُك بعد موتك؛ فإن اليقظة من النوم مشبهة للحياة بعد الموت»⁽³¹⁾.

ثم أوصى الإمام المغيلي بقراءة أدعية وأذكار عند القيام بأي تصرف من تصرفات الإنسان في حياته اليومية، وأن يتقيد بالأداب الصوفية المتمثلة في تطبيق الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ونصرة المظلوم، وإمالة الأذى عن الطرقات، والابتعاد عن الشبهات، والقيام بحق الله في جميع الجهات، ومن أهم ذلك الامتناع عن نظر العورات والنساء الأجنبية، وخفض الطرف، وحفظ اللسان عن فضول الكلام، وإفشاء السلام إلا على أهل البدع والآثام، إلا لضرورة تتعلق بمصلحة المسلمين، ونطق البسمة عند الشروع في عمل كل شيء، والقيام بمساعدة المسلمين فيما يحتاجون إليه من أمورهم الدينية والدنيوية، طلبا لمرضاة الله وامتنالا لأمره. وبعد الحث على التقيد بأداب سلوك نقلها من الشيخ أبي الحسن الشاذلي وأخرى من الشيخ ابن عطا الله، تطرق الإمام المغيلي إلى مسألة محاسبة النفس في العبارات التالية:

«فإذا تمَّ نهارك وانقطعت أشغالك، وأويت إلى فراشك، فعليك قبل نومك بحساب نفسك. فقد أجمع العلماء على وجوب محاسبة النفس. وكيفية ذلك: أن تعرض ما مضى لك في يومك على الكتاب والسنة، بأن تنظر إلى ما يتعلق بباطنك وظاهرِكَ من أمر الله تعالى ونهيه، وبأعضائك عضوا عضوا، فتعرض

⁽³¹⁾ المغيلي محمد عبد الكريم، مخطوط "عمل اليوم والليلة"، موجود في المكتبة الوطنية الفرنسية ضمن مجموعة من مخطوطات الشيخ عمر الفوتي المنهوبة من مكتبته بمدينة سيفو، باريس: المخطوط رقم (ARABE 5673, Volume de 314 feuilles, 4 novembre)، الخط، صحراوي واضح، ويتألف من أربع ورقات، أنظر ورقة 47. (1901)

لسانك مثلاً، هل ترك ما أمر الله به كالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهل فعل ما نهى الله عنه كالكذب والغيبة والإصرار، ثم كذلك تعرض أذنك وعينيك ويديك وبطنك وفرجك ورجليك، وحيث (يوجد) تقصير تداركته بالتوبة والاستغفار، وحيث ما ظهر لك ظلم، بادرت من وقتك برداً ما ظلمت فيه لأهله إن أمكنك كذلك، وإلا فلتعزم على رده على حسب إمكانك، بنية صادقة، وحيث ظهر أنك مستقيم في ذلك كله على ما طُلب منك، فلا تغتر، بذلك وانظر إلى قصدك بجميع طاعتك، هل أردت بكل واحد منهن وجه الله أم لا، فإن صفى لك ذلك كله وما أعرّ صفاؤها، فانظر هل رأيت نفسك لأجل طاعتك خيراً من غيرك أم لا، فإن لم تر ذلك، هل كبرت بسبب طاعتك على أحد من خلق الله أم لا، فإن صفى لك هذا كله وما أعرّ أن يصفو، فانظر هل أسندت استقامتك إلى عزمك وحزمك أم نسبت ذلك إلى ربك، فإن صفى لك ذلك كله مع عزته، فانظر هل عجبت نفسك بذلك أم لا، فإن صفى لك ذلك كله فانظر هل أدلت على الله بهذه الاستقامة أم لا، فإن صفت لك هذه الأمور المتعلقة بالطاعة وما غز صفاؤها، فانظر في معاصي القلوب، هل تطهر قلبك منها أم لا، كالحسد، والشماتة، وإرادة العلو في الأرض وغير ذلك من الصفات الذميمة»، الخ. (32)

2.2. إشكالية انتماء الإمام المغيلي إلى الطريقة القادرية.

وَنُدَّكَرُ أَنَّ أَهْلَ الْقَادِرِيَةِ الْكَنْتِيَّةِ يَعْتَبِرُونَ مُحَمَّدَ بْنَ عَبْدِ الْكَرِيمِ بْنِ مُحَمَّدِ الْمَغِيلِيِّ مَرْجِعًا مِنْ مَرَاجِعِهِمُ الرُّوحِيَّةِ الْأَسَاسِيَّةِ. وَمَعَ ذَلِكَ، فَإِنَّا لَا نَجِدُ فِي مَوْلَفَاتِهِ أَوْ فِي كُتُبِ التَّرَاجِمِ مِثْلَ نَيْلِ الْإِبْتِهَاجِ لِأَحْمَدَ بَابَا، وَالبِسْتَانِ لِابْنِ مَرْيَمَ، مَا يَثْبُتُ أَنَّهُ كَانَ صُوفِيًّا يَنْتَسِبُ إِلَى الطَّرِيقَةِ الْقَادِرِيَّةِ، وَلَعَلَّ هَذَا هُوَ الَّذِي دَفَعَ الْأَسْتَاذَ جُونِ هَانُويِك (J. O. Hunwick) يَشْكُرُ فِي صِحَّةِ انْتِمَاءِ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ الْكَرِيمِ بْنِ مُحَمَّدِ الْمَغِيلِيِّ إِلَى الطَّرِيقَةِ الْقَادِرِيَّةِ فِي نَهَايَةِ مَقَالِهِ

(32) المصدر السابق، ورقة 47، 49.

الذي خصّصه له في الموسوعة الإسلامية⁽³³⁾. وعلى الرغم من عدم إتيان كتب التراجم بمعلومات واضحة حول انتمائه إلى القادرية، فإننا لم نجد دليلاً موضوعياً يثبت عكس ما أقرّه وأكّده تراث القادرية الكنتية المكتوب والمروي، وهو أن الكنتيين أخذوا القادرية من محمد بن عبد الكريم بن محمد المغيلي. ومن المحتمل أيضاً أن محمد بن عبد الكريم بن محمد المغيلي أخذ القادرية أثناء إقامته في بجاية التي كانت مركز إشعاع للقادرية التي نشرها فيها سيدي أبو مدين شعيب، وتؤكد كتب التراجم بأن سيدي أبا مدين سافر إلى بلاد الحجاز والتقى في عرفة بمؤسس الطريقة القادرية الشيخ عبد القار الجيلاني، فقرأ عليه في الحرم كثيراً من الحديث وألبسه الخرقة، وأودعه كثيراً من أسراره، وحلاه بملابس أنواره، فكان أبو مدين يفتخر بصحبته، ويعدّه أفضل مشايخه الأكابر. وكان يسكن في بجاية التي كان يحبّها، وكرّس حياته فيها للتربية والتعليم ونشر تعاليمه الصوفية بين أنصاره الذين كانوا في زيادة مستمرة، ولم يزل كذلك حتى وشى به من يسميهم أحمد بابا التنبكتي ببعض علماء الظاهر، عند ممثلي الدولة الموحدية، يعقوب المنصور الذين قالوا له إنّ أبا مدين يشبه الإمام المهدي في كثرة أتباعه وتصرفاته، فبعث إليه في القدوم عليه ليختبره، ولكنه توفي قبل أن يصل إليه ودفن بالعباد قرب تلمسان⁽³⁴⁾.

3.2. العلاقات الروحية بين الإمام المغيلي وأهل كنته.

أهملت كتب التراجم العلاقات الروحية بين الإمام المغيلي وأهل كنته إهمالاً يكاد يكون تاماً، والمعلومات الوحيدة التي نملكها في هذا المجال وَرَدَتْنا من مصادر ومراجع أسرة كنته. ويرجع نَسَبُ كنته، حسب رواية

⁽³³⁾، Paris، Maisonneuve & Larose، Encyclopédie de l'Islam، J. O. Hunwick

p. 1155، T.V، 1979

⁽³⁴⁾ التنبكتي بابا أحمد، نيل الابتهاج، المرجع السابق، ص 198-194.

مؤرخهم⁽³⁵⁾، إلى عقبه بن نافع الذي كان من كبار قادة المسلمين، وقد غزا إفريقية، وبنى القيروان وجامعها، وحارب البربر وقُتِلَ على حدود الصحراء عام 63هـ/683م⁽³⁶⁾. وقد نشأ أهل كنته بالقيروان، ثم نمت أسرته وتطورت وتشعبت، وانتشرت في إفريقية وتلمسان ومستغانم وتوات، ثم امتدت شجرة الأسرة إلى أن وصلت فروعها إلى الشيخ أحمد البكاي الذي كان أكبر أولاده: سيد محمد الكنتي الصغير، وأبو بكر الحاج، وسيد أعمار الشيخ⁽³⁷⁾. وسيد أعمار الشيخ، الذي توفي سنة 958هـ/1552م، كان أول من انتسب من كنته إلى الطريقة القادرية الذي أسسها الشيخ عبد القادر الجيلاني المتوفى في بغداد سنة 561هـ/1166م. وكان سيد أعمار الشيخ عالما ورعا سافر إلى جميع بلاد المغرب للبحث عن يفيدته في مسائل علمية، وواصل رحلته إلى بلاد الشام، ثم إلى الحجاز، وحبَّ فرجاً إلى المغرب، واتجه بعد ذلك إلى بلاد التكرور حيث التقى بمحمد بن عبد الكريم بن محمد المغيلي، ولم يفارقه خلال ثلاثين سنة⁽³⁸⁾.

4.2. تطور العلاقات الروحية بين أهل كنتا والإمام المغيلي.

وحسب رواية إسماعيل حامد، كان محمد بن عبد الكريم بن محمد المغيلي، زمن لقائه بسيد أعمار، قادما من بلاد الهوسا للقيام بجولة في بلاد التكرور والمغرب للدعوة إلى تطبيق الإسلام، وبعد ما تبادل الرجلان حديثا له صلة بالأمور الروحية عقدا العزم على أن يظلا صاحبين لا يفترقان،

⁽³⁵⁾ الكنتي سيد محمد الخليفة بن الشيخ سيد المختار الوفي، الرسالة الغلاوية، تحقيق حماد الله ولد السالم، الرباط: منشورات معهد الدراسات الإفريقية، 2003، ص 131.

⁽³⁶⁾ مجموعة من المؤلفين، مادة عقبه بن نافع في المنجد في اللغة والأعلام، بيروت: دار المشرق، 1994، ط 34، ص 376.

⁽³⁷⁾ الكنتي سيد محمد الخليفة بن الشيخ سيد المختار، الرسالة الغلاوية، المصدر المذكور سابقا، ص 145-154.

⁽³⁸⁾ المصدر المذكور سابقا، ص 154-155.

ودامت صحبتُهما مدة ثلاثين سنة سافرا خلالها إلى المشرق وزارا مصر والتقى بجلال الدين السيوطي (ت. 911 هـ/1505 م) وتبادلا معه الأوراد (وهي عبارة عن أذكار تُقرأ في أوقات معينة في اليوم)، ثم سافرا بعد ذلك إلى بلاد الحجاز، وبعد رجوعهما إلى بلاد السودان بقليل وصلهما نبأ قتل ابن المغيلي في توات⁽³⁹⁾.

وقد ذكر بول مارتي (Paul Marty) نفس الروايات الواردة في بحث إسماعيل حامد، مع اختلافات قليلة، موضِّحا بأن سيد أعمر نال استقلاله الروحي التام، بعد وفاة محمد بن عبد الكريم بن محمد المغيلي التلمساني، وأصبح من كبار زعماء القادرية في بلاد تکرور والصحراء، وواصل، هو وأقاربه وأنصاره، أنشطتهم التجارية والدعوية في مختلف أرجاء الصحراء⁽⁴⁰⁾.

3. علاقات أهل كنته بالإمام المغيلي حَسَبًا وَرَدَ في «لطرائف والتلائد»⁽⁴¹⁾.

⁽³⁹⁾ in Revue du Monde ، Ismaël Hamet, Littérature arabe Saharienne

Musulman Paris, 1910, Tome 12, p.210.

tome ، in Revue du Monde Musulman ، Les Kounta de l'Est ، Paul Marty⁽⁴⁰⁾

pp. 20-22. ، 1918-1919 ، Paris ، Ernest Leroux ، 37

⁽⁴¹⁾ الشيخ سيدي محمد بن المختار، هو مؤلف مخطوط "الطرائف والتلائد من كرامات الشيخة الوالدة والشيخ الوالد"، وهو أيضا ابن وخليفة الشيخ سيدي المختار الكنتي المتوفى عام 1226هـ/1811م، المرجع الروحي الأساسي للزاوية الكنتية المختارية. وهي من أكثر فروع الطريقة القادرية نفوذا وانتشارا في إفريقيا جنوب الصحراء والمغرب الأقصى. وكتب أبو عبد الله البرتلي الولاتي في الباب الذي خصَّصه لسيرته، بأنه "شيخ الشيوخ السادات، مَنْ ظهرت بركائه شرقا وغربا. ومناقبُه في الناس عجما وعربا، ساقى المرید، وعمدة أهل التوحيد، شيخ المحققين، ومرّي السالكين". انظر: البرتلي الولاتي أبو عبد الله الطالب، فتح الشكور في معرفة أعيان علماء التكرور، تحقيق الكتاني محمد إبراهيم وحجي محمد، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1981، ص 152. تجدر الإشارة إلى أن نسخة المخطوط التي رجعنا إليها موجودة في المكتبة الوطنية الفرنسية بباريس، وكُتِبَ العارفُ في عنوان المخطوط المكتوب بالحروف اللاتينية بدلا من كلمة الطرائف الصحيحة، وخطُ المخطوط من النمط الصحراوي، وهو جيد وواضح، ولكن لا يوجد فيه اسم ناسخه ولا تاريخ نسخه. ورقم المخطوط هو: ARABE 5334، وعدد

وقد بدأ الشيخ سيدي محمد، مؤلف مخطوط "الطرائف والتلائد" معالجته للموضوع بتقديم تعريف لجدهم ومرجعهم الروحي في العبارات التالية: «القطب الجامع والغوث المغيث الهامع سيدي عمر الشيخ. قال شيخنا [يقصد والده وشيخه الشيخ سيدي المختار الكنتي] في "الإرشاد" معرفاً به: "ومن الأولياء المشهورين بالعلم والولاية جَدُّنا عمر الملقب بالشيخ، تَوَاتَرَ عنه أنه حفظ قبل بلوغه الرشد، ألف مجلداً في أنواع فنون العلم، وأنه رحل إلى الغرب الجواني برسم الاستفادة بعد ما عمره أبوه وشيخه سيدي أحمد البكاء. فطاف جميع بلاد الغرب فلم يجد من يفيد به بمسألة من جميع فنون العلم، فعمل الرحلة إلى إقليم الشام، فلم يظفر فيه بمن يفيد به كذلك، ولا من يتعلم عليه بل كانوا يأخذون العلوم عنه، ثم حج ورجع إلى المغرب، فجال في بلاد التكرور فلقى بها الشيخ الجليل القطب الكامل سيدي محمد عبد الكريم المغيلي، وقد أقبل من بلاد هَوْصَيْرِيد التكرور والمغرب الأقصى، برسم دعوى الناس إلى الإسلام والهدى والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وحمل الناس على السنة والحجاب، فتفاوضا في العلم. وقال له من أين أقبلت يا فتى؟ قال: من المغرب الأقصى، مسقط رأسي ومحل إقامتي ونشأتي. فقال: إن أرضاً يأتي منها مثلك في حدائة سنك، لا تحتاج إلى مثلي. ثم تفاوضا في علم الباطن، فأرْبِي عليه فيه الشيخُ ابن عبد الكريم، فانخلع له من جميع ما بيده، ولازمه برسم الصحبة ثلاثين سنة».⁽⁴²⁾

1.3. التوجه إلى المشرق والالتقاء بالإمام السيوطي

وصف الشيخ سيدي محطات الرحلة وما حدث فيها من أحداث، لمُعْظَم تطوراتها علاقة بأمور خارقة للعادة، الأمر الذي يدل على أهمية

ورقاتها: 156. ويمكن تحميل المخطوط من الموقع الرقمي للمكتبة المذكورة، وعنوانه: www.gallica.bnf.fr

⁽⁴²⁾ الشيخ سيدي محمد بن المختار، مخطوط "الطرائف والتلائد من كرامات الشيخة الوالدة والشيخ الوالد"، المصدر السابق، ورقة 61-62.

عنصر الكرامة في التجربة الصوفية بصفة عامة والطريقة بشكل خاص. وتجدر الإشارة إلى أن الكرامة في حدّ ذاتها، ظاهرة دينية اتفق جمهور العلماء على أنها لا تخالف الكتاب ولا السنة، وقد أورد الإمام ابن تيمية أدلة كثيرة تؤكد ذلك في كتابه "الفرق بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان" الذي كرّسه للموضوع.⁽⁴³⁾ وقد تحدث الشيخ سيدي عن كرامات الإمام المغيلي، وروى ما حدث بينه وبين الإمام السيوطي نقتطف منه ما يأتي: «ودخلا على السيوطي في مسجده. فقال له الشيخ ابن عبد الكريم: ما معك من العلوم يا عبد الرحمان؟ فقال: إني لأحصي أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم من أولها إلى آخرها. فقال: عسى أن لا تكون كذلك، فإن كنت صادقاً فإني سائلك في الأحاديث التي صح ورودها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، فجعل يملي عليه الحديث فيقول له لم يبلغني، فيدور بسارية من سوار مسجده، ثم يقبل إليه ويقول صدقت، حتى أفاده خمس مائة حديث، فقال سيدي عمر: ما باله لا يصدقك في الحديث حتى يطوف بالسارية، فقال: إنه لا يتمكن من رؤية النبي صلى الله عليه وسلم حتى تغيبه السارية فيراه فيسأله عن الحديث، فيقول: هو صحيح عني ولو أنه صلى الله عليه وسلم غاب عني طرفة عين ما عدت نفسي في المؤمنين. فمن يومئذ أقرّ السيوطي لابن عبد الكريم بالتقدم في العلم والولاية، فأخذ كل منهما عن صاحبه الأوراد. وكان ابن عبد الكريم لا يقول له إلا عبید الرحمان، فلما ألف البرهان قال صار الطالب عبد الرحمان عالماً، فلما ألف الإِتقان، قال تبحر السيد عبد الرحمان في العلوم».⁽⁴⁴⁾

⁽⁴³⁾ انظر ابن تيمية تقي الدين، الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان، بيروت:

دار الكتب العلمية، 1982.

⁽⁴⁴⁾ الشيخ سيدي محمد بن المختار، المصدر السابق، ورقة 62.

2.3. السفر للحج والعودة إلى بلاد السلطان أسكيا.

أخبر سيدي محمد بن المختار بسفر الإمام المغيلي وسيدي عمر إلى بلاد الحجاز لأداء مناسك الحج، ويّين بأنهما انصرفا إلى المدينة المنورة لزيارة قبر الرسول صلى الله عليه وسلم، وأكد بوقوع أمور عجيبة جذبت انتباه الحاضرين حينما ارتجل قرب ضريحه صلي الله عليه وسلم قصيدته البديعة التي مطلعها:

بشراك يا قلب هذا سيد الأمم وهذه حضرة المختار في الحرم

«فاهتزت عند ذلك الروضة الشريفة وانفتح بابها وفرّ الوكاء لعظم ما رأوا فدخل [أي الإمام المغيلي] الروضة الشريفة، فمكث فيها ساعة فأقبل الناس عليه فجعل يقول لستُ هناكم فلا تشتغلوا عما أنا بصدده، فمن كان منكم يريد البركة فعليه بالروضة الشريفة، فإنها عين الرحمة ومنبع الحكمة وأصل الهداية»⁽⁴⁵⁾.

وهذا بالتحديد ما أفاد به عباس بن إبراهيم السملالي الذي نقل أبيات القصيدة كلها في كتابه «الإعلام بمن حل بفاس وأغمات من الأعلام»، مع مقدمة قصيرة، ننقلها فيما يأتي:

"وذكر الكنتي في كتاب (التوحيد) أن المترجم له جال في بلاد التكرور والمغرب الأقصى وحلاه بالشيخ القطب الكامل، وعنه أخذ جده سيدي عمر الملقب بالشيخ وذكر بعض كراماته لما توجه معه إلى الحج وأنه لما أشرف على المدينة ارتجل قصيدته العجيبة التي مطلعها:

بشراك يا قلب هذا سيد الأمم وهذه حضرة المختار في الحرم

فاهتزت عند ذلك الروضة الشريفة وانفتح بابها، وفر الوكلاء لعظم ما رأوا فمكث فيها ساعة فأقبل الناس عليه ويقول لهم: «لست هنالك فلا

⁽⁴⁵⁾ المصدر السابق، ورقة 62.

تشغلوني عما أنا بصدده فمن كان منكم يريد البركة فعليه بالروضة الشريفة فإنها عين الرحمة، ومنيع الحكمة، وأصل الهداية». وأورد السملالي "نص القصيدة التي وصفها بأنها تدل على غوصه على المعارف":

- بشراك ياقلبُ هذا سيد الأمم * وهذه الروضة الغراء ظاهرة
وهذه القبة الخضراء كالعلم * ومنبر المصطفى الهادي وحجرته
وصحبه وبقيع دائرهم * فطب وغب عن هموم كنت تحملها
وسل تنل كل ما ترجوه من كرم * ياسيدي يارسول الله خذ بيدي
فالعبد ضيف وضيف الله لم يضم * ياسيدي يارسول الله خذ بيدي
يامن لقاصده أمن من النقم * ياسيدي يارسول الله خذ بيدي
فبحرجودك مورد لكل ظم * ياسيد الرسل يامن ضيف ساحته
يبيت في الأمن في خير وفي نعم * ياأكرم الخلق من حاف ومنتعل
ياأفضل الناس في ذات وفي شيم * يا أشرف الأنبياء يامن شفاعته
عمت على الخلق في الوجدان والعدم * ياصفوة الله يامولى مكارمه
عمت على الخلق من طفل إلى هرم * ياصاحب الحوض يابحر فضائله
وأنت أدري بما في القلب من ألم * إنني فقير إلى عفو ورحمة
وأنت أهل الرضا والجود والكرم * وقد أتيتك أرجو منك مكرمة
عرفت حالي وإن لم احكه بضم * والحال يغني عن الشكوى إليك وقد
أودى به الكسر مما نال من جُرم * فاشفع لعبدك واجبر كسره فلقد
نزيلكم في أمان غير منهمزم * يا أحمد يا أبا بكر ويا عمر
سعيًا على الرأس لاسعيًا على القدم * فقد سعيت إلى أبواب حجرتكم
من سادة هم بحار الجود والكرم * أتى من أمّ القرى يرجو القرى كرمًا
في زورة واعتراف وافر القسم * فإن قبلتم فإنني مفلح بكم
في باب أفضلهم من أصغر الخدم * يامن أجل ملوك الأرض قاطبة
يغن بها عن جميع الخلق كلهم * فهل عسى نظرة منكم لزائركم
طبن وغبن عن الخسران والندم * محمد وضجيعاه الذين بهم

يارب يارب يامولاي عبدك في * باب الرجى يرتجى أمن من النقم
فجد عليه بما يرجوه من كرم * فقد توسل في الدنيا بحقهم
ثم الصلاة وتسليم الإله على * هذا النبي رفيع القدر والشيم⁽⁴⁶⁾

وأكد الشيخ سيدي محمد بن المختار بأن الإمام المغيلي وسيدي عمر عادا إلى بلاد السلطان أسكيا بعد موسم الحج، ووجدا فيها تطورات خطيرة قاما بمواجهتها إلى أن وافت المنية الإمام المغيلي. وقد أورد فيما يلي مضمون وصيته الأخيرة:

«وما احتضر [أي الإمام المغيلي] رحمه الله جمع من ثمَّ من الناس فقال لهم: من يريد مني بركة أو نفعا فليطلبهما من سيدي عمر الشيخ، فإنه احتوى على جميع ما عندي فأكله كما يأكل الإنسان التمرة، ويلقي بالنواة. وأوصي سيد عمر الشيخ أن يتولى غسله وتجهيزه. فلما فعل ما أوصاه به رجع إلى أهله، فاستن بسنته في الدعوة إلى الله تعالى وإرشاد الضال، وتعليم الجاهل، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإقامة المواسم والحيطة على الضعفاء والمساكين وزجر الطغاة والظلمة والأخذ على أيديهم. وكان يأمر بنيه بذلك ويحضهم عليه ويستعملهم فيه. فلما كان آخر عمره، وقام بنوه بمصالح العامة، تجرد للعبادة حتى مات وهو على رأس جبل من جبال سوس»⁽⁴⁷⁾.

4. استمرارية التراث الصوفي للإمام المغيلي.

وبعد مرور أكثر من قرنين من وفاة سيد أعمار، الابن الروحي لمحمد بن عبد الكريم بن محمد المغيلي ورائد القادرية الكنتية في الصحراء وبلاد السودان، ظهر وجهٌ كنتي بارز يعتز بانتمائه إلى التراث الروحي للإمام المغيلي،

⁽⁴⁶⁾ السملاي عباس بن إبراهيم، الإعلام بمن حل بفاس وأغمات من الأعلام، الرباط:

المطبعة الملكية، 1999، ج 5، ط 2، ص 110-111.

⁽⁴⁷⁾ الشيخ سيدي محمد بن المختار، المصدر السابق، ص 62-63.

اسمه شيخ سيد المختر الكنتي الذي اعتبره بول مارتي (Paul Marty) شخصا صالحا وعالما علامة، وسياسيا قام بأكثر الأدوار أهمية في حياة البلاد الصحراوية من عام 1760م إلى 1811م. وأكد مارتي بأن الوثائق المكتوبة والروايات الشفوية اتفقت على ذلك، ويّين أن النجاح الذي حققه في دعوته كان باهرا، وانتشرت بفضلها الطريقة القادرية في موريتانيا والبلاد الصحراوية وبلاد السودان، وخاصة السنغال، وغينيا، والمناطق العليا في ساحل العاج. وقد أسلمت بسببها قطاعات عريضة من شعوب هذه البلدان وانخرطوا في سلك القادرية الكنتية⁽⁴⁸⁾.

وللشيخ سيدي المختر فضلٌ كبير على سعة انتشار الإشعاع الروحي والفكري لزوايا مدرسة التصوف الجزائرية في الأوساط المغاربية، وفي عدة مناطق غرب إفريقيا. وقد عبر عن هذه الحقيقة أعلامٌ وزعماءٌ من أقطار إفريقيا جنوب الصحراء المختلفة، من أبرزهم سلطان سكوتو عثمان دان فوديو الذي أشاد بذكرها في الأبيات التالية:

بَلِّغْ تحيتي إلى المختر * سراجُنَا في هذه الأمصار
 وقل له لِيَدْعُ بالخيرات * في هذه الدنيا وفي الممات
 وفي حلول القبر والقيام * بَلِّغْه يا شريف بالإسلام
 يا ربّ زد لشيخنا المختر * كرامة التوفيق في الأخيار
 وانصره يا رب على الأعداء * وأعطه بأحسن الجزاء⁽⁴⁹⁾

1.4. حيوية التراث الروحي والعلمي للإمام المغيلي وقوة تأثيره.

قدّم العلامة آدم عبد الله الإلوري وصفا دقيقا لسعة انتشار التراث الروحي والعلمي للإمام المغيلي وقوة إشعاعه، في النص التالي: «ولقد تأثر

⁽⁴⁸⁾ op. cit. p. 27-62. ، Les Kounta de l'Est ، Paul Marty

⁽⁴⁹⁾ فودي محمد بلو بن عثمان، إنفاق الميسور في تاريخ بلاد تكرر، تحقيق الشاذلي بهيجة، الرباط: منشورات معهد الدراسات الإفريقية، 1996، ص 323

بالمغيلي جميعُ العلماء الذين اجتمعوا به، أو الذين أخذوا عنه العلوم، أو أخذوا عن تلاميذه، حتى امتازوا عند علمائنا "بمعاصري المغيلي"، وامتاز عصرهم "بعصر المغيلي". « ولقد احتفظوا برسائله وفتاواه ومؤلفاته، وحفظوها في صدورهم، وخبزوها في مكاتبهم، حتى توارثوها خلفهم عن سلفهم».⁽⁵⁰⁾ ومن ناحية أخرى تحدث العلامة عما سمّاه بعصر المغيلي الذي يبيّن بأنه يبدأ من القرن التاسع حتى القرن الحادي عشر الهجريين. وأوضح بأن علماء نيجيريا هم الذين نسبوا العصر المذكور إلى الشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي التلمساني الذي "استوطن مدينة كانووكاشنة وتصدّر للتدريس بها مدة طويلة وأخذ عنه أكابر علمائها؛ لأنه هو العالم العربي الذي سجّل التاريخُ آثاره في هذه البلاد، زار هذه البلاد من تلقاء نفسه أو بدعوة من أمرائها وعلمائها، وكلا الأمرين جائز ومحمّل؛ فقد استفادت البلادُ منه كثيرا، وآثاره كثيرة في ميادين عديدة، واضحة ملموسة بكل صغير وكبير في الحكم والسياسة والعلم والأدب».⁽⁵¹⁾ وفيما يتعلق بآثار الإمام المغيلي بولاية كانو بدولة نيجيريا، يُراجع كتابُ د. جعفري: "المخطوطات الجزائرية وأعلامها في المكتبات الإفريقية" ⁽⁵²⁾

⁽⁵⁰⁾ الإلوري آدم عبد الله، الإمام المغيلي وآثاره في الحكومة الإسلامية في القرون الوسطى في نيجيريا، القاهرة: مكتبة وهبة، 2012، ص 34.

⁽⁵¹⁾ الإلوري آدم عبد الله، مصباح الدراسات الأدبية في الديار النيجيرية، القاهرة: مكتبة وهي، 2012، ص 32.

⁽⁵²⁾ أحمد أبا الصافي جعفري، المخطوطات الجزائرية وأعلامها في المكتبات الإفريقية، الجزائر: منشورات وزارة الشؤون الدينية والأوقاف، 2015، ص 392-393. انظر أيضا: ص 149-151.

الخاتمة.

قمنا بدراسة معطيات إسهام الإمام المغيلي في النهوض بمدرسة التصوف الجزائرية وتحليلها، وقد سَلَطْنَا أضواءً كاشفة على أصول هذه المدرسة العريقة التي يُعتبر التراثُ العلمي والروحي للإمام الثعالبي أَوْلى أُسُسها وأصْفى مواردها. سَعَيْنَا إلى التَّعمق في استقصاء حقائق التجربة الصوفية الخاصة بالإمام الثعالبي وَوَجَدْنَا أنها تجربة تُحْمَل في طيَّاتها آثارُ علماء متصوفة مرموقين، أمثال الإمام الغزالي، الإمام المحاسبي والإمام القرطبي، وأن الإمام الثعالبي نجح في بناء تيار صوفي ينتهج منهج أهل السنة والجماعة، ويتمسك بقيم الوسطية والاعتدال، وأنه تمكن من نقل تجربته الناجحة في هذا المضمار إلى طلابه الذين كان الإمام المغيلي من أبرزهم وأقربهم إليه. وقد طَوَّر الإمامُ المغيلي أساليب التكوين والعمل التي كانت سائدة في التراث الروحي للإمام الثعالبي، ووضع له قواعدَ وآلياتِ استعملها بشكل فعال، واستطاع بفضل ذلك أن يجني نتائج طيبة، ومكاسب ممتازة، في المجال النظري والتطبيقي. سَعَيْنَا جاهدا لأجل سبر أغوارِ وقْعِهِما وتأثيرِهِما، وقمنا بالبحث والتنقيب في مؤلفاته، وفي كتب التراجم والتاريخ، التي تتوفر فيها معلوماتٌ قيمة في هذا النطاق. وقد توصلنا إلى نتائج تؤكد بأن إسهام الإمام المغيلي في النهوض بمدرسة التصوف الجزائرية يتميز بجودة وأصالة، وعمق، على الرغم من العقبات الكثيرة التي واجهها في سبيل ذلك، وتدل النتائج أيضا على أن الإشعاع الروحي والفكري لزوايا هذه المدرسة ما زال مستمرا، ويتمثل بصورة خاصة في البصمات التي تركها في الطريقة القادرية الكنتية المنتشرة في الفضاء المغربي وفي ربوع غرب إفريقيا.

وأخيرا، نُقدِّم للحكومة الجزائرية شكرنا وتقديرنا على المبادرة الطيبة التي اتخذتها لتنظيم هذا المؤتمر الدولي الهام الذي سيساهم بدون شك في إحياء وتقوية الروابط والشائج التاريخية المتنوعة التي تربطها بأقطار

إفريقيا بصفة عامة وبدول غرب إفريقيا بشكل خاص. ونرجو ونأمل أن يتكرر عقد مؤتمرات مماثلة وأن يتم نشر بحوثه على نطاق واسع في المكتبات ومراكز الدراسة والبحث العلمي.

قائمة المصادر والمراجع باللغة العربية

1. أحمد القاضي، لقط الفرائد، موسوعة أعلام المغرب، تنسيق وتحقيق محمد حجي، بيروت: دار الغرب الإسلامي، ج2، 1980.
2. أحمد أبا الصافي جعفري، من تاريخ توات أبحاث في التراث، الجزائر: منشورات الحضارة، 2011.
3. أحمد أبا الصافي جعفري، المخطوطات الجزائرية وأعلامها في المكتبات الإفريقية، الجزائر: منشورات وزارة الشؤون الدينية والأوقاف، 2015.
4. البرتليالولاتي أبو عبد الله الطالب، فتح الشكور في معرفة أعيان علماء التكرور، تحقيق الكتاني محمد إبراهيم وحجي محمد، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1981.
5. الإلوري آدم عبد الله، الإمام المغيلي وآثاره في الحكومة الإسلامية في القرون الوسطى في نيجيريا، القاهرة: مكتبة وهبة.
6. الإلوري آدم عبد الله، مصباح الدراسات الأدبية في الديار النيجيرية، القاهرة: مكتبة وهبي، 2012.
7. الحفناوي أبو القاسم محمد، تعريف الخلف برجال السلف، الجزائر: مطبعة فونتانة الشرقية، 1906.
8. الكنتي سيد محمد الخليفة بن الشيخ سيد المختار الوفي، الرسالة الغلاوية، تحقيق حماه الله ولد السالم، الرباط: منشورات معهد الدراسات الإفريقية، 2003.
9. السملالي عباس بن إبراهيم، الإعلام بمن حل بفاس وأغمات من الأعلام، الرباط: المطبعة الملكية، 1999.

10. مخلوف محمد بن محمد، شجرة النور الزكية، القاهرة: المطبعة السلفية، 1349هـ.

11. فودي محمد بلو بن عثمان، إنفاق الميسور في تاريخ بلاد تکرور، تحقيق الشاذلي بهيجة، الرباط: منشورات معهد الدراسات الإفريقية، 1996.

12. مجموعة من المؤلفين، مادة عُقبة بن نافع في المنجد في اللغة والأعلام، بيروت: دار المشرق، 1994.

مجلات علمية

1. د. إدريس خويأ/فاطمة برماتي، الشيخ سيدي محمد بن عبد الكريم المغيلي - من المهدي إلى اللحد-مجلة الذاكرة، المجلد 4، رقم العدد 2، مخبر التراث اللغوي والأدبي في الجنوب الشرقي الجزائري، كلية الآداب واللغات، جامعة قاصدي مرباح ورقلة، 2016، ص 13.

2. د. عصام طوالي الثعالبي، د. دهاش الصادق، د. صباح بعارسية، د. حبيب بريك الله، مجلة "معايير"، مجلة دولية محكمة تصدر عن اللجنة الوطنية الجزائرية للتربية والعلم والثقافة بمشاركة كرسي اليونسكو الأمير عبد القادر لحقوق الإنسان وثقافة السلام لجامعة الجزائر-عدد خاص: الشيخ عبد الرحمن الثعالبي والإشعاع الثقافي لمدينة الجزائر، 1، المجلد 3، العدد 1، جامعة الجزائر 1، 1999.

المخطوطات

1. "الطرائف والتلائد من كرامات الشيخة الوالدة والشيخ الوالد نسخة المخطوط موجود في المكتبة الوطنية الفرنسية، باريس: المخطوط رقم ARABE 5334، وعدد ورقاتها: 156.

2. ابن عسکر، دوحة الناشر، المكتبة الوطنية الفرنسية، باريس: المخطوط رقم R. C. 8301

3. المغيلي محمد عبد الكريم، مخطوط "عمل اليوم والليله"، موجود في المكتبة الوطنية الفرنسية ضمن مجموعة من مخطوطات الشيخ عمر الفوتي المنهوبة من سيغو، باريس: المخطوط رقم (, ARABE 5673, Volume de 314 feuilles), 4 novembre 1901)، الخط، صحراوي واضح، ويتألف من أربع ورقات.

4. التنبكي بابا أحمد، المحتاج لمعرفة ما ليس في الديباج، من مخطوطات الأزهر، الجزء 12، القاهرة: رقم 893، رواق المغاربة، الأزهر.

قائمة المصادر والمراجع باللغة الفرنسية

- 1-1-Cuoq Joseph. Histoire de l'islamisation de l'Afrique de l'Ouest, Librairie orientaliste Paul Geuthner, Paris, 1984.
- 2-2-J. O. Hunwick .Encyclopédie de l'Islam ،Maisonneuve & Larose ، Paris ،1979 ،T.V.
- 3-3-Paul Marty ،Les Kounta de l'Est ،in Revue du Monde Musulman ، tome 37 ،Ernest Leroux ،Paris ،1918-1919.

مواقع انترنت

1. -<https://archive.org/details/al-auloum.al-fakhira>
2. -www.gallica.bnf.fr

مدرسة التصوف التجانية | جزائرية وامتدادها في السودان

أ.د. محمد قاسم مختار بدوي أستاذ اللسانيات

قسم اللغة العربية، كلية الآداب، جامعة كردفان الأبيض، جمهورية السودان

المستخلص:

تتطرق هذه الورقة البحثية للطريقة التجانية وامتدادها في جمهورية السودان، وتهدف إلى معرفة دخول التصوف إلى السودان ثم التطرق للوشائج المغاربية السودانية ومئاتها مما مهد لانتشار التجانية في السودان، وأسباب انتشارها ووضعها في السودان اليوم. وقد اتبع الباحث المنهج التاريخي لاستعراض حياة مؤسس الطريقة التجانية، والمنهج الوصفي، لقراءة عوامل انتشار الطريقة واقعها البارز اليوم.

وقد توصل الباحث إلى أن التصوف عرف طريقه على السودان عبر ثلاث مراحل قبل أن يجد هذه الانتشار الواسع، وأن هناك وشائج دينية مغاربية متينة تمثلت في القراءات القرآنية والمذهب المالكي والطرق الصوفية بمشاربها المختلفة. كما توصل إلى أن الطريقة التجانية انتشرت في السودان لعدة عوامل بينها تلقى بالقبول من علية القوم، وزيارات شيوخ التجانية واستقرار بعض العلماء من التجانية بالسودان إضافة لهجرات الجماعات الكبيرة من جنوب الصحراء، وإن الطريقة التجانية تهيأت لها عدة أسباب جعلتنا نميل إلى اعتبارها الطريقة الصوفية الأوسع انتشاراً وأكثر أتباعاً في السودان. الكلمات المفتاحية: الطريقة، التجانية، الصوفية، السودان.

Algerian Tijaniyya Sufi School and Its Extension in Sudan

Abstract:

This paper deals with the Tijaniyya religious order and its extension in Sudan, it aims at knowing the entry of Sufism into Sudan, the roots of Maghreb-Sudanese religious ties which paved the way for the spread of the Tijaniyya in Sudan and the reasons for its spread, beside its situation in Sudan today. The article follows the historical method to review the life of the founder, and the descriptive method to discuss the factors that lead to the spread of Tijaniyya, its situation in Sudan today.

The conclusion required by the data is: Sufism knew its way to Sudan through three stages before it found this wide spread, and there are strong Maghreb-Sudanese religious ties represented in the Qur'anic variant readings, the Maliki doctrine, Sufi orders with their various paths. It also concluded that the Tijaniyya method spread in Sudan for several factors such as its acceptance by highly ranked persons, the visits of the *Shuyukh* and the settlement of some scholars in Sudan, in addition to the migrations of large groups from the south of the Sahara. There are several reasons that made us tend to consider Tijaniyya as the most widespread and the most followed Sufi order in Sudan.

Keywords:

Sufi Order, Tijaniyya, Sufism, Sudan

المقدمة:

تشكل الطرق الصوفية حضوراً واسعاً في كثير من بلاد العالم الإسلامي اليوم، ويتوزع جمهور المتصوفة على هذه الطرق التي تتفاوت في مساحات انتشارها تمهداً وانحساراً، ويتباين عدد أتباعها كثرةً وقلةً.

والطريقة التجانية واحدة من هذه الطرق التي نالت حظها من الانتشار حتى صار لها القُدْحُ المعلى في الدول الإفريقية جنوب الصحراء فامتدت من المحيط غرباً للبحر الأحمر شرقاً.

يتطرق هذه البحث للطريقة التجانية في جمهورية السودان، ويهدف إلى معرفة دخول التصوف إلى السودان ثم التطرق للوشائج المغربية السودانية ومثانتها مما مهد لانتشار الطريقة التجانية في السودان وأسباب انتشار الطريقة التجانية وأسانيد شيوخ التجانية التي تلقوا عبرها هذه الطريقة ودلالة هذه الأسانيد ووضع الطريقة التجانية اليوم في السودان. ويفترض الباحث أن هناك عوامل تهيأت لها للطريقة التجانية جعلت منها ما نميل إلى ترجح كونها الطريقة الأكثر انتشاراً وأكثر أتباعاً.

وقد اتبع الباحث المنهج التاريخي لاستعراض حياة مؤسس الطريقة التجانية، والمنهج الوصفي الذي يعتمد التحليل من أدواته، لقراءة عوامل انتشار الطريقة وسبر غور أسانيدها ودلالة هذه الأسانيد إلى واقعها البارز اليوم.

أولاً: المؤسس:

ولد أبو العباس أحمد بن محمد بن المختار التجاني 1737م، بقرية عين ماضي الجزائرية مقر أسلافه. حفظ القرآن حفظاً جيداً وهو ابن سبع سنوات برواية الإمام ورش لقراءة الإمام نافع بن أبي نعيم على يد المقرئ محمد بن حمو التجاني الماضوي الذي تتلمذ بدوره في حفظ القرآن وقراءته

على شيخه عيسى بوعكاز الماضوي التجاني. وكان رجلاً صالحاً مشهوراً بالولاية.

وبعد حفظ القرآن اشتغل أحمد التجاني بطلب العلوم الأصولية والفرعية والأدبية. واستمر في طلب العلم ببلاده حتى بلغ مرتبة أهله للتدريس والإفتاء قبل أن يرحل رحلته الأولى إلى فاس. ما لبث وهو في عين ماضي أن مال إلى الزهد والانعزال والتأمل والتعبد وقيام الليل حتى إذا بلغ زوجه والده. وصار يدعو إلى الله ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر.

أفتى ودرّس وعمره لم يتجاوز 16 ربيعاً بعد، فقد والديه إثر توفّيهما بسبب تفشي وباء الطاعون عام 1166 هجرية في المنطقة فخلفه سكان بلدة عين ماضي لوالده في رئاسة الزاوية رغم صغر سنه الذي كان يبلغ آنذاك ستة عشرة سنة. ومارس تدريس القرآن والسنة وعلوم إسلامية أخرى لمدة خمس سنوات

"تدرج الشيخ أحمد التجاني في سلوك طرق التصوف فأخذ الطريقة الشاذلية الجزولية من الشيخ الطيب الوزاني بوزان، ثم الطريقة القادرية، ثم الطريقة الناصرية وأخذ طريق أحمد الحبيب السلجماسي، ثم أخذ عن العباس أحمد الطواش"⁽¹⁾. "ثم كانت بوادر تأسيس الطريقة التجانية في 1782م. بمقر أسلافه بعين ماضي"⁽²⁾.

ثم ما لبث أن انتقل إثر مضايقة الحكام الأتراك له، انتقل إلى فاس 1798م⁽³⁾. حيث أكرم سلطانها وفادته وقربه وأجزل له العطاء فطاب له بها

(1) زيزاح سعيدة، الطريقة التجانية النشأة والتطور، مجلة معهد العلوم الاجتماعية العدد 9، المسيلة، جامعة المسيلة، نوفمبر 2014م. ص 73

(2) عبد الحفيظ حبيبي، الطريقة التجانية في الجزائر وموقف السلطة العثمانية منها خلال المصادر المحلية، أفاق فكرية، العدد الرابع، سيدي بلعباس، جامعة الجلاي ليايس، 2018م. ص 43.

(3) المرجع السابق، ص 43.

المقام، وكثر أتباعه ومريده وأخذ في نشر طريقته التي لاقت روجاً. إلى أن وافته المنية في 1815م⁽⁴⁾.

ثانياً: دخول التصوف إلى السودان:

لعل من الصعوبة بمكان تحديد تاريخ دقيق لدخول التصوف إلى السودان؛ ذلك أن الظواهر الاجتماعية عامة تنساب في باديء أمرها انسياً ريثما تجد القبول، وتصادف هوى في نفوس المتلقين، ومن ثم تنتشر على يد فئة، أو جماعة تقوم بشأنها وتلتف حولها.

يؤكد هذا الذي أرتأيناه بشأن التصوف، ما ذهب إليه الدكتور أبو سليم⁽⁵⁾: "أن الحركة الصوفية مرت خلال مسيرتها المتطورة في السودان بثلاث مراحل:

1- المرحلة الأولى:

لا تتوفر معلومات دقيقة عنها لانقطاع الأخبار، وهذا بالتأكيد لا يعني أن السودانيون لم يشهدوا في هذه الفترة حركة صوفية، بل لقد مارسوا الحياة الصوفية كاملة بما فيها الانتساب على الطرق والاشتغال بمذهب أهل الباطن في الحياة.

2- المرحلة الثانية:

أخذت فيها الطرق تظهر وتنمو وتتشعب وتأخذ اتجاهات جديدة على نحو ما نجد في الطريقة الشاذلية التي "اهتمت بالجوانب العلمية لأن مؤسسها كان عالماً"⁽⁶⁾.

⁽⁴⁾ زيزاح سعيدة، مرجع سابق، ص 75.

⁽⁵⁾ محمد إبراهيم أبو سليم، دور العلماء في نشر الإسلام في السودان، دار الجيل بيروت 1992م، ص 35.

3- المرحلة الثالثة:

وهي التي ظهرت نتيجة لمؤثرات الحجاز القوية في أواخر القرن السابع عشر وقد كانت الطرق التي ظهرت في هذه الفترة ذات اتجاه تجديدي مثل السمانية والختمية والإسماعيلية. واهتمت هذه الطرق اهتماماً كبيراً بالدعوة ونشر تعاليمهم ومبادئهم.

ولعل هذا التقسيم المرحلي يفسر اختلاف الباحثين حول دخول التصوف، ويفسر أيضاً تضارب الآراء بشأن أول من عني بنشر التصوف والتفاف المريدون حوله.

وتكاد آراء كثير من الباحثين تجمع على «أن دخول التصوف على السودان في مرحلته الثالثة كان في القرن الرابع الهجري علي يد تاج الدين الهباري الذي أدخل الطريقة القادرية⁽⁷⁾ وكان ذلك في أول النصف الثاني من القرن العاشر الهجري على أيام الشيخ عجيب المانجلك⁽⁸⁾».

ثالثاً: الوشائج الدينية المغاربية السودانية:

يحسن بنا قبل التطرق لهذه الوشائج أن نوضح مقصودنا بكلمة المغاربية، ونعني بها المغرب الكبير بدوله كلها المغرب والجزائر وتونس وليبيا، يضاف إلى ذلك الأندلس خلال الحقبة الإسلامية حتى 1492م.

هذا النطاق على اتساعه جغرافياً، وامتداده تاريخياً نلاحظ أنه يكاد يمثل لوحة واحدة، وإن تعددت ألوانها، وتباينت مساحة هذه الألوان، اللهم إلا من شاردة هنا تارة، وواردة هناك تارة أخرى.

(6) Islam in the Sudan, J Spencer Tringham, 2nd Edition, 1965, Frank Cass & Co Limited, Oxford university press, p238

(7) أحمد محمد طاهر عمر، جماعة أنصار السنة المحمدية ودورها في نشر عقيدة السلف، عرض ونقد، رسالة دكتوراه، غير منشورة، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، 1422 هـ ص 119.

(8) محمد ود ضيف الله الفضلي، طبقات الأولياء والصالحين والشعراء والعلماء في السودان، 1930م. مكتبة المقتطف والمقطم، القاهرة، 1930م. ص 42.

تستقي الثقافة السودانية جذورها من عدة موارد متباينة، وتمت بوشائج قري لكثير من بلاد العالم الإسلامي شرقاً وغرباً، وقد ترسخت آثار هذه الموارد والوشائج في الثقافة السودانية الماثلة اليوم، وتبدو جلية للمتبصر في كنه الحياة العامة بملامحها المختلفة، فمن أثر مشرقي خالص حيناً، وإلى أثر مغربي محض حيناً آخر.

تتجسد من بين هذه الوشائج المختلفة الوشائج المغاربية التي تبدو في العديد من المظاهر الدينية التي يأتي من بينها أبرزها:

1- القراءات القرآنية:

تنتشر في السودان اليوم ثلاث روايات قرآنية لقراءات مختلفة هي: رواية ورش لقراءة نافع المدني، ورواية الدوري لقراءة أبي عمرو بن العلاء البصري، وهاتان الروايتان هما الأكثر انتشاراً لجمهور الخلاوي (المحاضر والمدارس القرآنية، إضافة لرواية حفص لقراءة عاصم ابن أبي النجود هي الرواية الأحدث دخولاً للسودان وقد نشرها الأتراك إبان العهد التركي (1821-1885م)، وربما ساعد على انتشار هذه الرواية والقراءة والعمل بها في المدارس الحكومية أنها تزامنت مع الطباعة الحديثة التي دخلت المشرق وافدة مع الحملة الفرنسية لمصر 1802م.

وإذا استثنينا رواية حفص لقراءة عاصم نلاحظ أن هذا الاشتراك في هذه الوشائج المغاربية جد وثيق إذ تنتشر رواية ورش عن نافع في المغرب الكبير بكل دوله وأقاليمه، بينما يقل الأخذ بها في المشرق.

2- المذهب المالكي:

إنه لمن نافلة القول الإشارة إلى المذهب الفقهي السائد في السودان هو المذهب المالكي، وهذا بدوره يكشف عن الأثر المغاربي في الثقافة السودانية، فقد سبق وانتشر هذه المذهب في الأندلس على يد يحيى بن يحيى الليثي (769-

848م). وتلامذته من بعده، وبعد زوال الدولة الأندلسية انتشر هذه المذهب بالمغرب الكبير وظل مدار العمل والفتيا به، في بلاد المغرب إلى يومنا هذا.

ويبدو أن قيام الدولة السنارية (1504- 1820م.) في السودان والصبغة الإسلامية التي ميزتها أثر أفول دويلات الأندلس، إضافة إلى المكانة التي تبوأها العلماء في الدولة السنارية⁽⁹⁾ قد شكلت كل هذه الأشياء عوامل جذب لهجرات بعض المغاربة، " فقد وفد إلى السودان أمثال حسن ود حسونة من الجزيرة الخضراء، والشيخ التلمساني المغربي، والشيخ عبد الكافي المغربي، والشيخ دفع الله بن مقبل وود شوشاي واللبودي"⁽¹⁰⁾.

ولا شك أن اجتياز العلماء من بلاد المغرب لأداء فريضة الحج قد ساعد على انتشار هذه المذهب إضافة للهجرات التي تدفقت على السودان من جنوب الصحراء، وغيرها كل هذا قد ساعد على انتشار هذا المذهب.

كما كان للشيخ محمد بن عمر التونسي دوره الرائد في نشر المذهب المالكي في سلطنة دارفور حيث تتلمذ عليه جماعة صار إشار إليهم بالبنان في فقه المالكية أمثال الشيخ محمد طه والشيخ بدوي عووضة⁽¹¹⁾.

3- الطريقة الشاذلية:

أبو الحسن علي بن عبد الله (1196- 1281م.) من بلدة شاذلة بتونس، أدخلها الشريف حمد أبو دنانة 1445م. قبل سقوط مملكة علوة المسيحية

⁽⁹⁾ عبد الجليل عبد الله صالح، الترابي والصوفية في السودان إختلاف منهجين، دار الرواي، الخرطوم، السودان، ط 1، 2019م. ص 162.

⁽¹⁰⁾ الطاهر محمد علي البشير، الأدب الصوفي السوداني، الدار السودانية، الخرطوم، السودان، ط 1، 1970م، ص 78.

⁽¹¹⁾ محمد بن عمر التونسي، تشحيد الأذهان بسيرة بلاد العرب والسودان، تحقيق خليل محمود عساكر ومصطفى محمد مسعد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 2007، ص 128.

التي كانت تسير على السودان⁽¹²⁾. وكان قد هاجر إلى السودان من المغرب بعد أن أقترن بابنة محمد بن سليمان الجزولي (ت 1465م) أحد أبرز دعاة الشاذلية ومؤلف دلائل الخيرات⁽¹³⁾.

4- الطريقة الإدريسية:

وتعود للسيد أحمد بن إدريس الفاسي (1749- 1837م) وتسمى بالأحمدية الإدريسية، وقد انتشرت طريقته في السودان على يد تلميذه محمد عثمان الميرغني الكبير، ثم انتقل بعض أحفاد أحمد بن إدريس الفاسي واستقروا بالسودان فكان أن ازداد نفوذ الطريقة الشاذلية على أيديهم⁽¹⁴⁾ (ود ضيف الله 1930م، ص 57)

5- الطريقة القادرية:

على الرغم من أن الطريقة القادرية التي تنسب إلى لشيخ عبد القادر الجيلاني (1077- 1166م) طريقة مشرقية صرفة، وأنها ارتبطت في دخولها للسودان بأحد تلامذة عبد القادر الجيلاني ألا وهو تاج الدين البهاري في حوالي أول النصف الثاني من القرن العاشر الهجري على أيام الشيخ عجيب المناجلك (1504- 1514م)⁽¹⁵⁾، ألا أنها بعد انتقالها إلى المغرب على يد محمد بن عبد الكريم المغيلي (1425- 1504م) الذي كان الرئيس الأعلى للقادرية في الغرب الإفريقي ونشرها في في بطون كنته⁽¹⁶⁾.

وسرعان ما امتدت القادرية للسودان في عهود تالية في فترات ازدهرها على يد المختار الكنتي الفهري (1727-1811م)، فأصبحت صلة الطريقة القادرية بالمغرب أوثق من صلتها بالمشرق.

⁽¹²⁾ 1965, p233 Trimmingham

⁽¹³⁾ 1965, p234 Trimmingham

⁽¹⁴⁾ محمد ود ضيف الله الفضلي 1930م، ص 57

⁽¹⁵⁾ محمد ود ضيف الله الفضلي 1930م، ص 48

⁽¹⁶⁾ بول مارثي ب ت، كنتة الشريقيون، ترجمة محمد محمود ولد ودادي، مطبعة زيد بن ثابت، دمشق، ط 1، بدون تاريخ، ص 32.

6- السلفية السودانية:

بدأت الحركة السلفية في السودان في نحو 1917م على يد الشيخ عبد الرحمن أبو حجر (1870-1940م) من مستغانم بالجزائر. «حيث هاجر إلى السودان، وأقام حلقات للدروس انتظم فيها طائفة من المشائخ والأساتذة منهم الشيخ يوسف أبو، وهو شيخ الطريقة التيجانية ومدير معهد النهود الديني، وقاضي النهود الشيخ عبد الرحمن أبو دقن وأحمد حسون الموظف بالبريد⁽¹⁷⁾». وسرعان ما أخذ تلامذته فيما بعد في نشر السلفية في السودان فذاع صيتها وانضوى تحت رايته الأفراد والجماعات.

رابعاً: دخول الطريقة التيجانية للسودان:

تعد التيجانية من أكثر الطرق الإفريقية نشاطاً، وكانت واحدة من أكثر عوامل انتشار الإسلام في إفريقيا⁽¹⁸⁾. ويبدو أن موقع السودان الجغرافي واستقلاله عن إغارة الفرنجة التي مهدت في عهد لاحق للغزو الأوربي وهو ما كان عليه الحال في دول حوض البحر الأبيض، ثم وجود بعض الممالك الإسلامية فيه مثل مملكتي الفور والدولة السنارية اللتين كانتا تتنازعتان السيادة على معظم السودان ثم خضوعه للحكم التركي (1821 – 1885م). قد شجع على اجتياز المغاربة لهذا الطريق في سبيل أداء الحج.

إضافة إلى أن الهجرات من بلاد المغرب تمر جنوب الصحراء بدويلات إسلامية مثل مملكة كانم حول بحيرة تشاد وسلطنة وداي شرق جمهورية تشاد وإمارات الهوسا الصغيرة في النيجر ونيجيريا ناهيك عن بلاط تمبكتو في جمهورية مالي، كل هذه العوامل جعلت صلة المغرب الكبير بالسودان بوصفه معبراً لأداء الحج والمناسك؛ أقوى من صلته بدول حوض البحر الأبيض.

⁽¹⁷⁾ أحمد محمد طاهر عمر، جماعة أنصار السنة المحمدية ودورها في نشر عقيدة السلف، عرض ونقد، رسالة دكتوراه، غير منشورة، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، 1422 هـ ص 118.

⁽¹⁸⁾ 1965, p 245Trimingham

نلاحظ أنّ أول من حمل الطريقة التجانية للسودان هو الشيخ سعيد بن محمد الأمين المغربي الفاسي الشهير بمولود فال، وتلقاها منه بالقبول الشيخ محمد إدريس ود دوليب في 1847م. ثم تضافرت العديد من الرحلات لشيخو التجانية على السودان عابرين لأداء فريضة الحج فأخذ الناس عنهم الطريقة.

كما ساعد استقرار بعض علماء بلاد شنقيط الذين هاجروا للسودان في نشر الطريقة في بقاع واسعة من السودان، ناهيك عن هجرة جماعات الفلان والهوسا والبرنو والبرقو وغيرهم من التجانيين ممن قدموا للسودان وطاب لهم به المقام فاستوطنونه وأخذوا في نشر الفقه المالكي وقراءة ورش وقالون ومع ذلك الطريقة التجانية.

خامساً: عوامل انتشار الطريقة التجانية في السودان:

1- اعتناقها من قبل عليّة القوم:

لعل من أبرز عوامل انتشار الطريقة التجانية بالسودان تلقّيها بالقبول من عليّة القوم من الفقهاء والعلماء الذين ضربوا بحظ وافر من العلم الشرعي. يأتي في مقدمة هؤلاء الشيخ محمد ود دوليب الذي تخرج من الأزهر الشريف وأسس أكبر معهد ديني في السودان لا يزال يرفد العلماء بالعلماء والحفظة⁽¹⁹⁾، والشيخ حجاز مدثر ومن زعماء العشائر الناظر إبراهيم موسى مادبو زعيم الرزيقات، والناظر العبيد عكام زعيم الشنابلة وغيرهما من شيخو القبائل.

2- زيارات شيخو الطريقة:

شكلت زيارات كثير من شيخو التجانية للسودان أثراً بالغاً في نشر الإسلام بصورة عامة، والطريقة التجانية بصورة خاصة، كما مثلت رافداً

⁽¹⁹⁾ الفاتح النور، التجانية والمستقبل، دار كردفان للطباعة والنشر، الأبيض، السودان، ط 1، 1997م. ص 227.

قوياً لتمتين الأواصر بين التجانية في البلاد المختلفة، ناهيك عن ربطهم بمشيخة الطريقة ومقر رئاستها وزواياها المنتشرة في كثير من البلدان. يأتي من أبرز هذه الزيارات الآتية:

أ- الشيخ عمر الفتوي:

زار السودان من فوتا جالون في طريقه للحج، وأخذ الطريقة التجانية على يد الشيخ محمد الغالي في الحجاز 1827م. في المدينة المنورة وكانت أهم نتيجة للقاء عمر بمحمد الغالي تعيين عمر خليفةً المؤسس في السودان الغربي وإعطاءه الإجازة، وتكررت زيارته لمعظم مدن السودان في ذهابه وإيابه من الحج وجدد العهد على يديه الكثير من المريدين.

ب- الشيخ ابن عمر:

يعد الشيخ ابن عمر حفيد الشيخ أحمد التجاني من أكثر شيوخ التجانية الذين عنوا بالزيارات لجميع الاقطار الإفريقية لنشر الدعوة الإسلامية وتمتين الأواصر التجانية فقد زار كثيراً من البلاد الأفريقية جنوب الصحراء الكبرى. ومن بين الدول التي زارها السودان وخصه بثلاث زيارات آخرها في 1950م. "حيث زار فيها أغلب مدن السودان وقراه في زيارة استغرقت ثلاثة أشهر 1950م."⁽²⁰⁾

ت- الشيخ سيدي بن سالم:

من أحفاد الشيخ أحمد التجاني وشقيق الشيخ ابن عمر، كانت أولى زيارته للسودان في 1973م. طاف فيها بكل أقاليم السودان متفقداً أحوال التجانية ومتواصلاً مع شيوخ الطرق الصوفية. ثم تكررت زيارته للسودان وكان آخرها في 1992م.

⁽²⁰⁾ الفاتح النور، التجانية والمستقبل، ص 170.

ث - الشيخ الحافظ التيجاني:

إمام التجانية بمصر، زرا السودان كثيراً لتمتين الأواصر بأئمة التجانية خاصة والصوفية عامة فقد حرص على لقاء شيوخ الختمية وغيرهم. كانت أول زيارة له في 1935 م⁽²¹⁾. ثم توالى زيارته لملاقات العديد من شيوخ التجانية.

ج - الشيخ إبراهيم نياس الكولخي:

شيخ مشائخ التجانية في السنغال، وعضو رابطة العالم الإسلامي، وعضو هيئة البحوث الإسلامية، زار العديد من بلاد العالم الإسلامي، ودعته الحكومة السودانية لزيارتها لاستمالة التجانية في إلى جانبها، واحتفت به الحكومة وألتقى بمريديه دون أن يوجههم لاتباع الحكومة أو غير ذلك⁽²²⁾.

3- استقرار بعض العلماء من التجانية:

هجرة طائفة من علماء بلاد شينقط من الذين سلكوا الطريقة ببلادهم ثم هاجروا بها على المشرق وطاب لهم المقام بالسودان، فأخذوا في نشر الطريقة وسط طلابهم ومريديهم من هؤلاء شيخ الداه الشنقيطي والشريف أحمد حماه الله والشريف الزبال والشريف محمد السالك والشريف أحمد عبد المنعم⁽²³⁾.

لم يقتصر الأمر على هؤلاء العلماء من بلاد شنقيط فحسب، بل هناك طائفة أخرى من العلماء ممن أثروا سوح العلم الشرعي والمعرفة الدينية منهم: العالم عبد الباقي أبو بمدينة الأبيض، والشيخ كرسي بالنهود، والشيخ الضيف بلقاوة، والإمام موسى إبراهيم بالخرطوم بحري وهؤلاء وغيرهم ممن استقروا بالسودان.⁽²⁴⁾

⁽²¹⁾ المرجع السابق، ص 185.

⁽²²⁾ الفاتح النور سبق ذكره، ص 210.

⁽²³⁾ المرجع السابق، ص 176.

⁽²⁴⁾ المرجع السابق ص 187.

4- هجرات جماعات التيجانية جنوب الصحراء:

تضافرت عوامل عدة أدت إلى هجرة كثير من من أتباع الطريقة التيجانية إلى السودان، فكان أن نشروا الطريقة التيجانية في مناطق استقرارهم الجديدة، معظم هذه الهجرات من دول غرب ووسط إفريقيا ولعل من أبرز هؤلاء:

أ- هجرات طائفة كبيرة من الشناقيط الذين من موريتانيا الحالية واستقرارهم بالسودان ومن أبرز هؤلاء الشريف الزبال 1840م، الشريف أحمد حماه الله 1928م، الشيخ الداو والشيخ محمد السالك ومحمود سنموي بن محمد فادع الشنقيطي⁽²⁵⁾.

ب- هجرة جماعة القاويرو من مناطق قاو في مالي الذين استقروا في البرداب بجنوب كردفان وهاجرت مجموعة منهم إلى الحجيرات بالقرب من مدينة سنار في النيل الأزرق.

ت- هجرة جماعة الفلان بزعامة أمير رتو من خلافة سكتو واستقرارهم بالقرب من خزان سنار⁽²⁶⁾.

سادساً: أسانيد مشايخ الطريقة التيجانية:

حرص علماء الإسلام والعربية على الإعتناء بالسند والأسانيد في شتى ضروب التلقي والأخذ، فقد بدأ ذلك من عهد مبكر في تلقي القرآن الكريم ورواية الحديث التي اشتهرت فيها هذه الأسانيد مثل السلسلة الذهبية، ومثل روايات الموطأ المختلفة، وغير ذلك في شتى ضروب الأخذ والتلقي. فلا غرو أن ينتقل هذا النهج إلى تلقى سائر العلوم الإسلامية والعربية ومن بينها التصوف.

⁽²⁵⁾ المرجع السابق ص 210.

⁽²⁶⁾ عبد الله عبد الرازق إبراهيم، أضواء على الطرق الصوفية في إفريقيا، مكتبة مدبولي، القاهرة. 1989، ص 23.

وأسانيد الطريقة التجانية في السودان متنوعة، ومتعددة المشارب، ومتفاوتة في تاريخها ومدى قصرها أو طولها من الشيخ أحمد التجاني مؤسس الطريقة، غير انها كلها متصلة به عن طريق تلامذته. تلقانا في أسانيد الطريقة التجانية بالسودان عدة أسانيد منها:

1- سعيد بن محمد الأمين المغربي الفاسي الشهير بمولود فال عن الشيخ عمر بن سعيد الفوتي عن الشيخ محمد الغالي المغربي الفاسي عن الشيخ أحمد التجاني 1847م.

أول أسانيد الطريقة التيجانية بالسودان مطلقاً، وأول من أخذ به محمد بن إدريس الشهير بمحمد ود دوليب. فلا غرابة أن يوصى الشيخ ابن عمر لما وزار مركز خرسى: (لمعلومية جميع المقدمين والمريدين بالقطر السوداني أن الشيخ جعفر الدردير محمد الخليفة ود دوليب في المكانة الخاصة لدينا لما له ولأسلافه من الأخذ ببيد المسلمين وإرشادهم إلى طريق الله عز وجل فأعرفوا له مكانته فمن أحبه فقد أحبنا ومن أطاعه فقد أطاعنا فهو منا وإلينا)⁽²⁷⁾.

2- الشيخ عمر بن سعيد الفوتي:

وممن أخذ عنه الشيخ سعد الدين الفلاتي وعلى يديه انتشرت الطريقة التجانية بوادي بشارة غرب النيل. ومنه أخذ نجله مبشر بن الحاج عمر وأحفاده الذين هاجروا إلى السودان واستقروا به.

3- الشيخ محمد الغالي عن الشيخ أحمد التجاني.

ومن أخذ به الشيخ الشريف عبد المنعم أحمد الذي هاجر إلى السودان واستقر به حتى مماته. والشريف السائح المعمر محمد أحمد بن محمد الحسن كلاهما أخذنا من الشيخ محمد الغالي بالحجاز.

⁽²⁷⁾ ابن عمر عمر عبيد الله، دور الطريقة التجانية في التواصل الاجتماعي في إفريقيا، دراسات إفريقية، العدد 37، الخرطوم، جامعة إفريقيا العالمية، 2007، ص 127.

4- الشيخ ابن عمر عن الشيخ محمد الكبير عن الشيخ محمد البشير
عن الشيخ محمد الحبيب عن الشيخ أحمد التجاني:

من أبرز من أخذ عنه من مشائخ التجانية الشيخ محمد طه التجاني،
وجدد عليه العهد الكثير من شيوخ التجانية من أبرزهم الشيخ العالم عبد
الباقي أبو.

5- الشيخ الدرديري الخليفة ود دويلب:

من أبرز من أخذ عنه من مشائخ التجانية الشيخ الحافظ التجاني
المصري، والشيخ حامد شهاب الدين.

6- الشيخ الشريف محمد بن المختار عن الشيخ محمد السقاف عن
الشيخ أحمد التجاني:

ممن أخذ به الشيخ حسين بن عمر.

تبرز هذه الأسانيد للناظر حقائق ودلائل عدة من أهمها:

1- سرعة انتقال الطريقة التجانية من المغرب على السودان؛ إذ أنه لم
تمض أكثر من خمسة عقود من انتقالها لفاش إلا وقد وجدت طريقها
للسودان على يد الشيخ مولود فال. هذه المدة تعتبر قصيرة إلى حدٍ بعيدٍ
باعتبار ظروف الزمان ما يعتره من بدائية وسائل التنقل وما يدور على
امتداد جنوب الصحراء من نزاعات هددت كبرى حواضر جنوب
الصحراء⁽²⁸⁾. يضاف إلى ذلك تباعد الأمكنة من فاش على مشارف المحيط
الأطلسي غرباً إلى السودان على تخوم البحر الأحمر شرقاً.

2- تتفاوت سلاسل هذه الأسانيد في طولها وقصرها انتهاء إلى مؤسس
الطريقة التجانية.

(28) بول مارثي، سبق ذكره، ص 87.

3- بعض هذه الأسانيد سلكت بها الطريقة التجانية خارج السودان ثم نزحوا واستقروا بالسودان ويغلب على هذه الأسانيد قصر سلسلتها.

4- لعبت الهجرات وتدفق الأفراد والجماعات خاصة من غرب ووسط إفريقيا دوراً كبيراً في ازدياد عدد أتباع الطريقة التجانية.

سابعاً: التجانية في السودان اليوم:

لا تحفل السجلات الرسمية، ولا تأبه دوائر الإحصاء في بعض الدول وخاصة النامية منها بالطوائف الدينية والانتماءات المذهبية كثيراً، وذلك لضيق ذات اليد في الصرف على تتبع هذه النحل والملل إحصائياً، وربما لتفادي إزكاء روح التعقيدات المذهبية بين تيارات دينية ومذهبية قد تكون متنافسة على غرار ما بين الصوفية والسلفية وغير ذلك.

غير أن الناظر لانتشار هذه الطرق من خلال أماكن انتشارها والكثافة السكانية لهذه الأماكن في السودان؛ يكاد أن يصل إلى نتائج شبه يقينية عن انتشار هذه الطريقة أو تلك في البلد بصورة عامة وانحسارها أو تمددها وغير ذلك.

اشتهر ساعد الطريقة الصوفية التجانية في السودان لتوفر الكثير من العوامل التي هيأت لها الانتشار منها:

1- عامل الجوار مع وسط وغرب إفريقيا حيث المكانة التي لا تنازع للطريقة التجانية⁽²⁹⁾ وتموضعها في صدارة الطرق الصوفية عدد أتباع، وكثرة منشآت، وضخامة زوايا، وانتشار مساجد.

2- الهجرة من وسط وغرب إفريقيا جنوب الصحراء تتجه دائماً من الغرب إلى الشرق ولا جدال في أن نفوذ التجانية هو الأكبر في جنوب

⁽²⁹⁾ عبد الجليل عبد الله صالح، الترابي والصوفية في السودان اختلاف منهجين، ص

الصحراء الكبرى؛ فالتالي تدعم هذه الهجرات ازدياد انتشار الطريقة التجانية.

3- الكثافة السكانية العالية لمناطق انتشار وهيمنة الطريقة التجانية في غرب السودان ومناطق جنوب الجزيرة.

4- الانتشار العالمي للطريقة التجانية مقارنة بغيرها من الطرق الصوفية السودانية الخالصة مثل الإسماعلية والميرغنية والمجدوبية يضي عليها قدر كبير من الأهمية.

مما سبق نستطيع القول إنّ الطريقة التجانية تكاد تكون اليوم أكبر الطرق الصوفية في جمهورية السودان، عدد أتباع، وكثرة زوايا، وضخامة منشآت.

الخاتمة:

توصل الباحث إلى أن التصوف عرف طريقه على السودان عبر ثلاث مراحل قبل أن يجد هذه الانتشار الواسع في آخر هذه المراحل، وأن هناك وشائج دينية مغربية متينة تمثلت في القراءات القرآنية والمذهب المالكي والطرق الصوفية بمشاربها المختلفة ناهيك عن السلفية السودانية التي عرفها السودان عن طريق الشيخ عبد الرحمن أبو حجر المستغانمي وتلامذته من بعده. كما توصل إلى أن الطريقة التجانية انتشرت في السودان لعدة عوامل ساعدت على ذلك من بينها تلقيها بالقبول من عليّة القوم، وزيارات شيوخ التجانية، واستقرار بعض العلماء من التجانية بالسودان، إضافة لهجرات الجمعات الكبيرة من جنوب الصحراء، كما توصل إلى من خلال دراسة الأسانيد أن الطريقة وصلت إلى السودان في وقت وجيز بمعايير ذلك الزمان، وإن هذه الأسانيد تدل على هجرات كثير من شيوخ التجانية إلى السودان من وسط وغرب إفريقيا واستقرارهم به.

المصادر والمراجع:

1. ابن عمر عمر عبید الله، دور الطريقة التجانية في التواصل الاجتماعي في إفريقيا، دراسات إفريقية، العدد 37، الخرطوم، جامعة إفريقيا العالمية، 2007
2. أحمد محمد طاهر عمر، جماعة أنصار السنة المحمدية ودورها في نشر عقيدة السلف، عرض ونقد، 1422 هـ.
3. بول مارثي ب ت، كنتة الشرفيون، ترجمة محمد محمود ولد ودادي، مطبعة زيد بن ثابت، دمشق، ط 1، بدون تاريخ.
4. زيزاح سعيدة، الطريقة التجانية النشأة والتطور، مجلة معهد العلوم الاجتماعية العدد 9 نوفمبر 2014م.
5. الطاهر محمد علي البشير، الأدب الصوفي السوداني، الدار السودانية، الخرطوم، السودان، ط 1، 1970م.
6. عبد الجليل عبد الله صالح، الترابي والصوفية في السودان إختلاف منهجين، دار الرواوي، الخرطوم، السودان، ط 1، 2019م.
7. عبد الحفيظ حيمي 2018م. الطريقة التجانية في الجزائر وموقف السلطة العثمانية منها خلال المصادر المحلية، آفاق فكرية، العدد الرابع، أعمال الملتقى الدولي لتاريخ الجزائر الديني من خلال الكتابات المحلية والأجنبية.
8. عبد الله عبد الرازق إبراهيم، أضواء على الطرق الصوفية في إفريقيا، مكتبة مدبولي، القاهرة 1989م.
9. الفاتح النور، التجانية والمستقبل، دار كردفان للطباعة والنشر، الأبيض، السودان، ط 1، 1997م.
10. محمد إبراهيم أبو سليم، دور العلماء في نشر الإسلام في السودان، دار الجيل بيروت 1992م.
11. محمد بن عمر التونسي، تشييد الأذهان بسيرة بلاد العرب والسودان، تحقيق خليل محمود عساكر ومصطفى محمد مسعد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 2007م.
12. محمد ود ضيف الله الفضلي، طبقات الأولياء والصالحين والشعراء والعلماء في السودان، 1930م. مكتبة المقتطف والمقطم، القاهرة
13. Islam in the Sudan, J Spencer Tringham, 2nd Edition, 1965, Frank Cass & Co Limited, Oxford university press.

الطريقة القادرية في إمارة إلورن، ودور الشيخ أحمد الرفاعي إندرا صلاتي في نشرها وتطويرها

محمد ناصر الدين أبوبكر صلاتي

(شيخ الحلقة القادرية الصلاتية)

الملخص:

إنّ هذه الرسالة عبارة عن إمارة إلورن التي أسست بالدولة الإسلامية ونشأة الطريقة القادرية فيها وبداية هذه الإمارة كانت على أيدي الأسرة الفلانية وغيرهم من القبائل الذين جاءوا إليها من أماكن شتى لنشر الدعوة الإسلامية إلى جميع أنحاء بلاد أوروبا والدول المجاورة بها في حوالي القرن الثامن عشر الميلادي (1800) وفي وقتئذ نشأت الطريقة القادرية في الإمارة، ومنها انتشرت على أيدي هؤلاء الرجال المعلمين إلى حيث سار نشر الإسلام باختلاف سلاسل وانتساب هؤلاء الرجال إلى الطريقة ومنهم من يقرأ أوراده منفردا ومنهم من يجمع الأصدقاء والعائلة لقراءة الأحزاب والأوراد في قعر غرفته ومن بينهم أبرز الله واحدا من هؤلاء الرجال لنشر هذه الطريقة المباركة ببنائه المساجد في معظم الأماكن التي نزل فيها وتقرأ فيها أحزاب وأوراد هذه الطريقة القدسية وتوفد الناس إليها بسبب دعوته والكرامات التي أجزاها الله على يده المباركة وذلك هو الشيخ أحمد الرفاعي إندرا صلاتي الذي يمثل الشيخ عبد القادر الجيلاني في أحواله وحركاته (رحمه الله تعالى رحمة واسعة وأدخله فسيح جنته آمين).

Qadiriyya Order in the Emirate of Ilorin and the Role of Shaykh Rufai Nda Salati in Its Spread and Development

Abstract

This document is an expression about Ilorin Emirate and development of Qadiriyyah brotherhood therein. This emirate was established in line with Islamic governance and was mainly founded by Fulani family and other tribes, with which they migrated from various places to Ilorin with the aim of spreading Islam within Ilorin Emirate and Yoruba land in general around the eighteenth century. As at that time the mysticism doctrine of Shaykh Abdulqadir Jaelany, Qadiriyyah Order arises and started prevailing in Ilorin Emirate, then to other places in Yoruba land. From there it was elaborately spread to everywhere the spread of Islam proceeded by the Islamic scholars of the Emirate, although there was differences in the chains of these scholars on Qadiriyyah Order acceptance. Among these men there are some who recite the supplications of Qadiriyyah movement solely, while others recite theirs in congregation by gathering their families and friends in the middle-set of their houses.

Amidst these men, Allah manifested a man who developed the Qadiriyyah Order in Ilorin Emirate and outside the Emirate; particularly in Yoruba land. He came up with various innovations towards its development by building masjids in almost every places he lands in which the supplications of Qadiriyyah Order are recited there. Numerous people flocked into Qadiriyyah Order through his propagation and miraculous deeds that Allah made on his blessed hands and that is Shaykh Ahmad Rufai Nda Salati who seems alike with Shaykh Abdulqadir Jaelany in his affairs and activities.

Keywords:

Imām al-Maghīlī, Ahmad Rufai Nda Salati, Qadiriyyah

الحمد لله الذي جعل الاطمئنان للذاكرين، وأوفر الجزاء للشاكرين، وجعل البشارة بالغفران والرحمة للصابرين، وأشهد أن لا إله إلا الله ولي الصالحين، وأشهد أن سيدنا وحبينا محمداً عبده ورسوله سيد الأنبياء وإمام المرسلين. اللهم صل وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه وكل من تبعهم بإحسان إلى يوم يرث الله الأرض وما عليها، وهو خير الوارثين.

أما بعد/

فالموضوع الذي سأتكلم حوله في هذا اللقاء والتجمع هو «الطريقة القادرية في إمارة إالورن ودور الشيخ أحمد الرفاعي إندا صلاتي -رحمه الله تعالى- في نشرها وتطويرها». وقبل الخوض في غمار الموضوع أيها الحضور الكرام سوف أتكلم بإيجاز عن ماهية هذه الطريقة قديما وحديثا.

إنّ الطريقة القادرية هي أقدم الطرق الصوفية نشأة، ومنها تفرعت معظم الطرق الأخرى أمثال الشاذلية، والرفاعية، والبدوية الدسوقية، والنقشبندية، وحتى التجانية التي تنسب إلى أبي العباس الشيخ أحمد التجاني (رضي الله عنهم أجمعين) لأنه قل أن نجد من لم يأخذ قبساً أو قسطاً من أوراد الشيخ عبد القادر الجيلاني أو أن ينتسب إلى أحد رجال طريقتة، وهذا تحقيق لما قال الشيخ بنفسه:

ولا عالم إلا بعلمي عالم * ولا سالك إلا بفرضي وسنتي

أما مدينة إالورن فهي بوابة شمال نيجيريا وجنوبها، لأنها تقع في الحدود بين الشمال والجنوب، تأسست فيها الإمارة الإسلامية في بداية القرن التسعة عشر الميلادي على أبناء الشيخ عالم بن جنت الملقب بـ"شيحو عالم" عالم رباني وداعية صوفي قدم المنطقة من بلاد هوسا، وكان معاصرا للشيخ عثمان بن فودي، المجاهد الأكبر في غرب إفريقيا. وقد شاءت إرادة

الله أن ينتشر الإسلام وتعاليمه وأنشطته في المنطقة بمنتهى السرعة، حتى تحولت خلال نصف قرن أقل إلى قبلة العلم والعلماء في كافة جنوب نيجيريا وما جاورها من الدول.

من المعلوم أن الطريقة القادرية كانت معروفة لدى علماء إورن منذ نشأة الإمارة الإسلامية فيها، ولم نكد نجد واحداً بينهم إلا وله ورد من الأوراد القادرية يلازمه كل يوم وليلة، لأنهم كانوا يعتبرون الأوراد الواردة في مخطوطات الكتب الصوفية القادرية، أمثال الفيوضات الربانية، والسفينة القادرية، والفتح الرباني وغيرها من مواد العقيدة والأخلاق والتربية الروحية التي تدرس في معظم مدارسهم، وقد جعلوها لزاما لطلبة العلم في ذلك الوقت لأنها ضمن برنامج تعليم العلوم العربية والإسلامية، غير أنهم لم يهتدوا إلى إنشاء الزوايا التي يذكرون فيها الأوراد جمعاً.

ومن المعلوم أيضاً أن هناك اختلافات بين هؤلاء العلماء في نوع الأوراد التي يستخدمونها، فمنهم من اتخذ الأوراد الفودوية المعروفة بورد أهل البيت (نسبة إلى الشيخ عثمان بن فودي)، ومنهم من انتسب إلى الأوراد الحسبيلية المعروفة بالأوراد الكنتية للشيخ محمد المختار الكنتي، ومن انتسب إلى آخرين من متقدمي الطريقة الخيرية في الأوراد والأحزاب. ومعنى ذلك أن أورادهم غير متحدة، بل تختلف باختلاف الرجال والشيوخ، لأن الأوراد القادرية كثيرة ومتنوعة فهي بحر عميق لا يدرك غورها ولا يحيط بها أحد، لأن الله سبحانه وتعالى فتح على رجالها ومنح لهم خاصية من الأوراد القدسية التي منها تفرعت أوراد الطريقة القادرية.

وفي أوائل القرن العشرين الميلادي قام رجال من إورن بزيارات مختلفة إلى بلاد هوسا لحاجات مختلفة، لا سيما مدينة كنو، وكانت زيارتهم إليها إما للتجارة أو لطلب مزيد من العلوم العربية والإسلامية، ولما رجع هؤلاء الرجال كانوا قد تأثروا بما شهدوا في رحلاتهم وجولاتهم، فبدأوا ينشؤون الحلقات في

ديارهم ويجتمع الناس فيها للذكر وتلاوة الأوراد والأحزاب القادرية جمعاً، لكنهم أيضاً لم يعتنوا بنشرها، ولم يفرضوا على أحد من أتباعهم الجلوس معهم للمشاركة. وإذا مات مقدّم الحلقة أو منشؤها فكثيراً ما لا يجدون من يخلفه في المكان، فقد كانوا يجلسون لهذه الأوراد على غرار ما وجدوه عند رجال الصوفية في بلاد هوسا. وبعد برهة من الزمن الوقت وجدنا بين هؤلاء الرجال من بعثه الله لنشر هذه الطريقة الغراء في جميع أنحاء بلاد يوربا وما جاورها من الدول خاصة دولة بنين "Republic of Benin" وغانا (30)(Ghana).

وخلاصة القول إنّ أوائل رجال الصوفية في الطريقة القادرية في إمارة إلورن كانوا على ثلاثة أصناف؛ هي:

الصنف الأول: هم الذين اعتبروا الطريقة القادرية جزءاً من الدين الإسلامي لا يتجزأ، حتى جعلوا الكتب التي تحتوي على المعلومات الخاصة بالطريقة مقررة في دهاليزهم.

الصنف الثاني: هم رجالات الطريقة الذين أنشأوا الزوايا والحلقات التي يجتمع فيها الناس للذكر بالأحزاب والأوراد القادرية، ولكنهم لم يهتموا بنشر الطريقة إلى شتى الأماكن.

الصنف الثالث: هم الذين قاموا بنشرها من مدينة إلورن إلى جميع أنحاء البلاد المجاورة.

وقد انفرد الشيخ صلّاتي بهذا الدور البارز المرموق بمساعدة مريديه من مدينة إلورن وتأييد من الله تعالى، حيث إن الله سبحانه وتعالى أجرى على يده الشريفة كرامات عديدة لم نجد له مثيلاً في هذه المنطقة حتى اليوم، وقد نال الشيخ بذلك قبولاً منقطع النظير لدى معظم علماء بلاد

(30) - ناصر الدين أبوبكر صلّاتي، الطريقة القادرية في بلاد يوربا "مخطوطة".

يوربا، فلا يدخل بلدة في المنطقة إلا أن غرس الله فيها هذه الطريقة المباركة على يده الشريفة.

حلقات القادرية في إمارة إلورن قبل قيام الشيخ صلاتي لنشرها.

من الجدير بالذكر أن في إلورن زوايا يجتمع الناس فيها للأوراد والأحزاب القادرية، وقد قلت سابقا إن مدينة إلورن عند قيام الإمارة الإسلامية فيها لم تكن تعرف أية طريقة صوفية سوى القادرية، وأن رجالا من هذه المدينة ارتحلوا إلى شمال نيجيريا لا سيّما مدينة كنو للزيادة في العلوم العربية والإسلامية وعادوا بما استجدّ في عصرهم في الطريقة القادرية، وأنشأوا حلقات في ديارهم أو قعر غرفاتهم. يجتمعون فيها مع أصدقائهم للذكر وقراءة الأحزاب.

ومن أوائل الزوايا المشهورة في إلورن ما يلي:

الأولى: زاوية الشّيخ محمّد الأوّل في حارة هَيْرُوبُو "Erubu" الذي انتسبت أوراده إلى الشّيخ محمّد المختار الكنتي، ومنها اقتبس الشيخ صلاتي نور التصوف وإنشاء الزاوية لأوّل مرّة، وأوراده هي المعروفة بالقادرية الكنتية.

الثانية: حلقة الذّكر للشيخ عبد القادر أحد كبار الأئمة بإمارة إلورن، ومن الأسرة الملوية الذين يأتون في المرتبة الثانية بين أئمة المدينة. ولا تزال الإمامة الملوية موروثه ومتداولة في الأسرة حتى اليوم، وللشيخ عبد القادر مريدون كثيرون من جميع أنحاء المدينة، وفي الخبر أنه لما قصد زيارة بيت الله الحرام لأداء فريضة الحج استأذن أمير إلورن في ذلك الوقت الأمير عبد القادر قائلا: «إني أقصد حج بيت الله الحرام، وسوف تكون نهايتي في مكة المكرمة». ولما سئل عن ذلك قال: «هذا ما أريده من الله تعالى بأن يكون قبوري في مكة المكرمة أو بجوار النبي الأعظم صلّى الله عليه وسلّم» - ثمّ ذهب

بجميع أفراد أسرته وتوفاه الله في المدينة المنورة بعد سبع سنوات قضائها،
ودفن فيها عام 1946م، وعادت الأسرة إلى إلورن بعده.⁽³¹⁾

الثالثة: حلقة الذّكر في بيت إدّومي "Idomi" حارة أغاكا "Agaka"
للشيخ محمّد ألو "Alao" النفاوي، وكان من الذين يجتمعون مع الشّيخ عبد
القادر المذكور، ولمّا ارتحل الأخير إلى الحرمين الشريفين اتفق مريدوه
جميعاً على أن ينتقلوا إلى منزل الشّيخ محمّد ألو لاستمرار قراءة الأوراد كل
يوم الجمعة، مباشرة بعد صلاة الجمعة، ودواماً على ذلك إلى أن توفي
الشّيخ سنة 1970م.

الرّابعة: الحلقة في دار أيليري "Elere" حارة سكامّا التي يرأسها الشّيخ
صلاح الدّين مع أخيه الكبير الشّيخ محمد أمين الله أيليري، وقد نال الشّيخ
صلاح الدين من الشّيخ ألو إجازة إنشاء حلقة خاصة في منزله، لبعده داره
عن أغاكا.⁽³²⁾

الخامسة: حلقة الشّيخ سلمان أكي "Ake" بدار باكيني «Baakini»
بمنطقة أوماد «Omoda» والشّيخ سلمان هذا عالم كبير واعظ نحري نال
قبول عامة الناس من معاصريه، وكان تلميذاً للعلامة الفهامة، فريد عصره
الشّيخ محمد الجامع عبد القادر الملقب بـ«تاج الأدب» الإلوري الذي كان
من المشهورين بالطريقة القادرية. وللشيخ سلمان هذا حلقة للقادرية وله
أتباع كثيرون من التلاميذ والمريدين، وكان الشّيخ صلاتي من الذين
يجالسونه في ذلك الوقت لقراءة الأحزاب القادرية.

⁽³¹⁾ المقابلة الشخصية مع الإمام الملوي حالياً الشّيخ عبد الله بن عبد الحميد بن عبد
القادر الملوي.

⁽³²⁾ المقابلة الشخصية مع الشّيخ صلاح الدين نفسه عن زاوية -إدومي- ودار أيليري.

ومن الأسف الشديد أننا لم نجد لهؤلاء الرجال من يخلفهم بعد وفاتهم، أو من ينشر الطريقة القادرية باسمهم إلى مختلف الأماكن في حياتهم وبعد مماتهم (رحمهم الله جميعا رحمة واسعة ورضي عنهم).

من هو الشيخ أحمد الرفاعي إندا صلاتي

قبل الشروع في الترجمة عن هذا الشيخ الجليل العظيم الشأن، أقتبس من كلام للغوث الأعظم الشيخ عبد القادر الجيلاني (قدّس الله سره) لنعرف من هو الشيخ صلاتي بذاتيته المباركة.

قال الشيخ عبد القادر الجيلاني: قدّس الله سره:

لي في كل أرض خيل لا تسبق، ولي في كل جيش سلطان لا يخالف، ولي في كلّ منصب خليفة لا يعزل، وعزة ربي وجلاله إنّ يدي على كل مرید كالسما على الأرض، إن لم يكن مریدی جيّداً وأناجيّد.⁽³³⁾

الشيخ أحمد الرفاعي إندا صلاتي هو العالم الفقيه العارف بالله تعالى، القطب الربّاني، والغوث الصمداني، والولي الرحماني، والكبريت الأحمر وحيد عصره، وإمام الصوفيين في زمانه، بل هو مرآة الأولياء في المكيال والمكياس، نظير الشيخ عبد القادر الجيلاني بكل الأحوال، حتى يطلق عليه «خليفة الجيلاني» في جميع ديار نيجيريا وما جاورها، وهو نفاوي أصلا ونسبا، مالكي مذهباً، قادري طريقة ومشرباً، إلوري مولدًا، وفي بعض الزاوية عنه أنه انتهى نسبه إلى آل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم الحسني، وكان أجداده مع الوفود العرب الذين حملوا لواء الدعوة الإسلامية من بلاد

⁽³³⁾ نور الدين أبي الحسن علي يوسف اللحبي الشطنوني، بهجة الأسرار ومعدن الأنوار في بعض مناقب القطب الرباني محيي الدين أبي محمد عبد القادر (بيروت- لبنان: دار الكتب العلمية، ١٤٢٣هـ-٢٠٠٢م)، ص 252

٥- خليل الله محمد عثمان يودوفو، الكبريت الأحمر الشيخ أحمد الرفاعي إندا صلاتي ١٨٩٥-١٩٦٦هـ (إلورن: نيجيريا، مطبعة الهدى، ١٤١٧هـ-١٩٩٦م)، ص 4

العرب إلى غرب أفريقيا، ونزلوا في تمبكتو بدولة مالي ومنها إلى بدّ «BIDDA» ثم إلى مدينة إلورن.

أثبت التاريخ أنه رأى نور الحياة بحجرة والديه الصالحين في أواخر عهد الأمير عبد السلام الثاني المعروف بـ (ماما) الذي تولى عرش الإمارة الإسلامية في إلورن بين 1896-1914م. وقد أنجب الوالدان أنّ الله سمى لهما ولدًا صالحا يكون له شأن كبير وأثر عظيم في نشر الدعوة الإسلامية في البلد وخارجها، وأنه سيكون ذائع الصيت والكرامة بين أهل زمانه.

بدأ الشيخ صلّاتي تعلمه عند جدّه من جهة الأم الشيخ خليل الله بودوفو «Gbodofu» النفاوي، تحت رعاية خاله الشيخ محمّد القاسم بودوفو، وعندهما حصل على مبادئ العلوم العربية والإسلامية والأدب، ثم على علوم التّربية الرّوحية الظّاهرية والباطنية. وبعد ذلك أخذ بعض العلوم العلوم الدّينية واللغوية عند الشّيخ شعيب أوروبو «Erubu» الإلوري، وانتهت هذه الرحلة العلمية والتّربية الرّوحية إلى الشيخ أمين الله سارومي اليورباوي نسبا، الذي كان في عصره أعلم النّاس باللّغة العربيّة. ولكلّ من هؤلاء المعلّمين مكانة عالية مرموقة في التّقوى والزهد والتّقرب إلى الله تعالى، كما كان للشيخ صلّاتي نفسه نجما لامعا بين أقرانه والزملاء. في أوقات التحصيل العلمي⁽³⁴⁾.

وبعد رسوخ قدم الشّيخ صلّاتي في العلوم العربيّة والإسلامية أخذ يتربى تربية روحية لدى العلماء على منهج الشيخ عبد القادر الجيلاني، وله من عند مشايخه سلاسل مختلفة بالنسبة لرجال القادرية، حيث كان جده من جهة الأم الشيخ خليل الله بودوفو، وخاله الشّيخ محمّد القاسم ينتسبان إلى ورد أهل البيت المعروف بورد الفوديوية لذلك المجدد الكبير الشّيخ عثمان بن فودي، وله أيضا سلسلة القادرية الكنتية التي أخذها من الشيخ زبير

"أوروبو" ولا يزال الشيخ صلّاتي شغوفاً هذه الطريقة المباركة فالتحق بالشيخ محمّد أبكتي الفندي بكنو، وعنده تعاهد بعهد القادرية العروسية، وأخيراً التحق بحضرة الشيخ محمّد الناصر كَبْرَى بكنو الذي جمع بين العروسية والسمانية، ومن كل من هؤلاء المشايخ أخذ الشيخ صلّاتي قَبَسًا وَقِسْطًا لوضع أوراده في زاويته المنيرة، بالإضافة إلى ما فتح الله عليه من الأوراد الأخرى التي لم تعرف عند سابقيه (رحمه الله تعالى).⁽³⁵⁾

وللشيخ صلّاتي رجال حوله من مدينة إلورن وخارجها، خاصة بلاد يوربا، الذين يمثلونه في كل مكان لرفع راية الإسلام والطريقة بعد الفتح وتمكين المسلمين فيها لتكون الأوراد القادرية مستمرة فيها. ولا يزال الشيخ يتجول بين المدن والقرى بالدعوة إلى الإسلام وطريقة الشيخ عبد القادر الجيلاني، وقد تبعه عدد كبير من العلماء والكبار المتصوفين في عصره، وسلكوا مسلكه، ومن بين هؤلاء الشيخ محمّد بن إبراهيم بن محمد الصالح مَيْماسا النفاوي الإلوري، والشيخ محمد ثَنَبُو أُوغَانِيَجَا، والشيخ محمد بوصيري أُونِيمَاغُو، والشيخ إبراهيم المقدم سَكَمَا، وغيرهم من الرّجال الأخيار الأبرار في الإمارة.

وكذلك نجد حول الشيخ رجالا نجباء الذين حصل لهم النضوج في العلوم الدينية في جميع أنحاء بلاد يوربا، منهم من تلمذ على يده الشريفة، ومنهم من استسلم لسيادته وانقاد لمنهجه الدّعوي حيث تمسكوا بحبل سعادته (وهو حبل الله) وصاروا أعيانا مفضلين في الدّين الحنيف ببركة الشيخ. وإن دل هذا على شيء فإنما يدل دلالة واضحة على الكرامة وعلوّ القدر اللذين وهب الله لشيخ الطريقة، سيّد السّادات المحققين، الشّيخ أحمد الرّفاعي إندا صلّاتي، لأنّ مزيد فيض الأزهار من عظمة الينبوع، وعلو قدر الأتباع من شرف المتبوع طبقاً لقول الشاعر:

⁽³⁵⁾ ناصر الدين أبوبكر صلّاتي، دقائق الصفات في بعض كرامات الشيخ أحمد الرفاعي إندا صلّاتي، إلورن: نيجيريا، مطبعة الهدى، ١٤٢٩هـ-٢٠٠٨م)، ص 54

تلك آثارنا تدل علينا * فانظروا بعدنا إلى الآثار

من إنجازات الشيخ صلاتي بين دعاة الإسلام ومميزاته بين رجال الطريقة القادرية.

للشيخ صلاتي إنجازات كبيرة في حقل الدعوة إلى الإسلام ونشر الطريقة القادرية الغراء مما يميّزه بين أقرانه من الدعاة إلى الإسلام في إمارة إلورن خاصة، وفي ديار نيجيريا عامة، ومن تلكم الإنجازات ما يلي:

أولاً: دخول عدد كبير من كفار بلاد يوربا الإسلام إثر دعوة الشيخ لهم؛ ويذكر أن ذلك ليس أمراً هيئاً، بل كان بجهد كبير نصر الله فيه عباده، فقد وقعت معارك طاحنة بينه وبين عبدة الأصنام والوثنيين في مختلف البلاد، مثل واقعة أبيأوكوتا «Abeokuta» بولاية أوغن، واشتباك إبادن بولاية أويو «Oyo State» وأكبر الاشتباكات هي التي كانت بين الشيخ وبعض الملوك في بلاد يوربا الذين تسلّحوا بأنواع منوعة من السحر والشعوذة، واتخذوا السحرة أعواناً، مثلهم مثل فرعون اللعين، وقد نصر الله عبده وأعزّ جنده، فأسلم عدد كبير المباركين.

ثانياً: اهتمامه الكبير ببناء المساجد في كلّ واد نزل فيه وقيامه بتجديد مساجد أخرى، على نفقته الخاصة. ومن المساجد التي بناها الشيخ في مدن بلاد يوربا وقراها ما يلي:

1- مسجد بمدينة إلبو بولاية أوشن (Ilobu, Osun State)

2- مسجد بحارة باغورا بولاية أوغن (Gbagura, Ogun State)

3- مسجدان في مدينة إلورن؛ المسجد الجامع بساحة دار الإمام الغمّبري بإلورن، ومسجد آخر بساحة منزله، وفيه أول الزوايا التي بُنيت في جميع أنحاء الإمارة، بل وفي جميع بلاد يوربا عامة.

وللشيخ مساجد أخرى في ولاية أويو (Oyo State) منها:

4- مسجد الإمام أولايوؤلا أباجي إسيين (Agbaji Iseyin, Oyo State)

5- مسجد حارة أبوكوجو، إبادن ولاية أويو (Ibadan, Oyo State)

6- مسجد إدي أوما بجوار أوجا بإبادن (Idi Omo Oja Area) (Ibadan,

Oyo State)

7- مسجد بلوغن إيكنليأيي إبادن (Balogun Ibikunle Ayeye

Ibadan)

8- مسجد أوجا بإبادن: قام الشيخ صلاتي بتجديد هذا المسجد عندما

فجرت الريح سقف المسجد.

وله مسجدان في ولاية لاغوس، هما:

9- مسجد شارع بخاري ألوهنشوغو، بموشن ولاية لاغوس (Bukhari

Olohunshogo Mushin, Lagos State.)

10- مسجد برقم 97 شارع يابا القديم

No 97, Old Yaba Road, Ebute Meta, Lagos State.

وله المسجدان كذلك في جمهورية غانا، هما:

11- مسجد في مدينة كُماسي (Kumasi, Ghana)،

ثالثا: ومن إنجازات الشيخ تدريب رجالات الصوفية وتربيتهم روحيا،

وبعثهم إلى شتى المدن، والقرى في بلاد يوربا شيوخا ومقدمين في الزوايا

صوفية.

رابعا: ومنها أن شيوخ المتصوفة في بلاد يوربا قاطبة خضعوا لولايته،

وانقادوا لأسلوب دعوته ولم نجد أحدا منهم نهض ضدّ دعوته ومنهجه

الروحي، سواء كانوا في طريقتة أم في الطرق الأخرى.

خامسا: قيامه بإخماد نار الفتن وتوحيد صفوف العلماء والمسلمين في كل البلاد مما نشبت الفتنة بين العلماء، ووقع الخلاف والخصومة بين المسلمين في أمور الدين.

العلاقة بين الشيخ صلاتي ومشايخ القادرية بشمال نيجيريا

اتّصل الشَّيخ صلاتي بمشايخ الطريقة في شمال نيجيريا لما بلغه من قوة الحركة القادرية وأحوال القادريين في مدينة كنو، على خلاف ما كانوا عليه في مدينة إلورن، فكان شديد الحرص على الاقتباس من الأنوار الربانية لمشايخ الطريقة في مدينة كنو ونشرها في إلورن خاصة، وجميع أنحاء بلاد يوربا عامة. وقد اتّصل بشيخين جليلين من مشايخ الطريقة القادرية في كنو، هما:

الأول: الشيخ سعد حَبَّ سِيدِ الفندي والشيخ محمد الناصر كبرى الصنهاجي، حيث حصل على الأوراد القادرية العروسية عند أولهما، وبعد مدة من الزمن عاد إلى كنو واتّصل بالشيخ محمد الناصر كبرى حصل على بقية المعلومات للقادرية العروسية والسّمانية، ولدى عودته إلى إلورن اصطحب معه ثلاثة رجال ساعدوه على تدريب أبنائه ومريديه على ضرب البندير، والذكر بالأنفاس، وإنشاد القصائد للطريقة، وهؤلاء الرجال هم الحاج عبّأ سيد Uban sidi، والشيخ شعيب الفندي والشيخ محمّد الثّاني المعروف بالأنفاس.

مكانة الشيخ إندا صلاتي بين رجال العلم والصوفية في إمارة إلورن وفي نيجيريا عامة.

كما قلنا سابقا بأن إمارة إلورن مملوءة بثقافة اللغة العربية مع أن هناك الحرف والصنّاعة كان العلماء وتلاميذهم في إلورن قديما ينقسمون إلى ثلاثة أنواع من حيث القيام بالمهمة العلمية والدينية المناطة بهم. فمنهم تخصص في التدريس في الكتاب والدهاليز، ومنهم من تخصص في الدعوة إلى

الله بالوعظ والإرشاد، والطائفة الثالثة لزموا العبادة والحلقات الصوفية ومن النادر القليل أن تجد بينهم من يجمع بين الثلاثة. أما الشيخ أحمد الرفاعي إندا صلاتي فقد جمع بينها، فكان مدرّسًا في دهليزه، وواعظًا كبيرًا مشهورًا في الإمارة وبلاد يوربا عامة؛ يدخل على عبدة الأصنام والكفار في بلدانهم ويلقنهم أفضل ما جاء به النبيّ الأعظم صلى الله عليه وسلّم، وأيده الله بكرامات كثيرة في هذا المجال. وأما في مجال التصوف فإن الشيخ صلاتي كان قطبًا منفردًا في عصره، حيث لم نجد أحدا من علماء عصره لم يسلم لعلوّ قدره في حقل التّقوى والزّهّد عن الدّنيا وما فيها.

ولكبار العلماء من شتى أرجاء نيجيريا شهادات على مكانته العالية المرموقة بينهم، العلامة الإلورن الشّيخ آدم عبد الله الإلوري الذي قال عنها كان راسخًا في العلوم العربية، وله النبوغ في التّصوف على الطريقة القادرية، ورزقه الله سرعة في الاستجابة والمهابة والكرامات العديدة، وله آثار منقوشة وذكر خالد في بلاد يوربا، وهو أوّل من بنى الزاوية القادرية في إمارة إلورن خاصة وفي معظم الأماكن في بلاد يوربا عامة.⁽³⁶⁾

وكان أجداده ممن نشروا القادرية في الإمارة، وممّا قال عنه الشّيخ الإلوري عنه: «إنه استحسن الضرب بالبندير في الذّكر وقد عارضه في ذلك كثير من الفقهاء كما كان الواقع بين الشّيخ عبد السّلام الأسمر وشيخه عبد الواحد الدوكالي، ولكن الشيخ صلاتي استند في ذلك على أقوال من أجاز السّماع والغناء والرقص لذكر الله تعالى.»⁽³⁷⁾

وللشيخ محمّد ميمّاس منظومة مدح بها شيخه أحمد الرفاعي إندا صلاتي، ونصّها:

⁽³⁶⁾ آدم عبد الله الإلوري، لمحات البلور في مشاهير علماء إلورن، (القاهرة: مصر، مكتبة وهبة للنشر والتوزيع ١٤٠٧هـ-١٩٨٦م)، ص. 113 :
⁽³⁷⁾ المرجع نفسه والصفحة نفسها.

- بدي شيخ بغير مري ** صلاتي لقبه جهرا
- فأما اسمه حقا ** بأحمد شيخنا اشتهرا
- طلوع شيخنا شمس ** ظهر شيخنا بُشري
- وأمر شيخنا سهل ** وعلم شيخنا يروى
- لزوم الشيخ أذكار ** لزوم من دنا البر
- غياث كل من يأتي ** إليه يطلب الخير
- إذا ما جئت مجلسه ** تجد أفاظه دررا
- وليس من يساويه ** من الأذكار كما يدري
- فسر الله يا بن أخي ** وأخذ أوراده سطر
- فسر الله يا بن أخي ** إلى شيخي تكن قمرا
- فسر الله يا بن أخي ** إلى شيخي تجد نصرا
- فسر الله يا بن أخي ** إلى شيخي تكن بحرا
- فسر الله يا بن أخي ** تجد كنزا بغير فرى
- وإن ابغضت أو حسدت ** الشيخ لم تكن بشرا
- نحمد من له قدر ** مرید کسرننا جبرا
- واسلكننا طريق الحـ ** يـل شيخ كل من مكرا
- صلاة الله على طه ** محمد من به نصر⁽³⁸⁾

(38) الشيخ محمد ميماسا النفاوي "مخطوطة"، ص 7

وللشيخ عبد الوهاب الشعراني السُّبِّي النفاوي كذلك منظومة في مدحه، ومطلعها:

ألف إندا صلاتي أبي ** حازن الأسرار والرتب
يارفاعي المجد يا شمس ** الأولياء طاهر النسب
إنّه ألف بمفرده ** قطب الأقطاب ذو الحسب
سيف عوته لمنصرم ** يهلك الأعداء ذوى الغضب

وقد عثرنا على بعض المنظومات التي مدح بها بعض العلماء في شمال نيجيريا، الشيخ صلاتي لما وجدوا فيه من المواهب القدسية التي انفرد بها بين أقرانه في عصره، ومن بين هؤلاء المشايخ في الطريقة القادرية بمدينة كنو الشيخ موسى الفندي الذي مدحه بقصيدة منها:

أ- ألف صلاتي شيخنا ** شيخ الطريقة العالیه
نور الهدى شمس الضحى ** مصباح فى ظلماتیه
في الهيبة والبهجة ** مثل الملوك العالیه
قد صار بين الأمة ** كالبدر يوم تمامیه
في أى وقت دائما ** بالكلمات التوحيدیه
هو واحد في وقته ** ياذا الخليفة العالیه⁽³⁹⁾

وللشيخ حسن أحمد بودفي المشهور بـ"سيبي القادري" قصيدة في مدح الشيخ صلاتي، والقصيدة طويلة نأخذ منها ما يلي:

تناجيني السماء تزهو افتخارًا ** بكثرة كوكب فيها قرارًا
وقالت لا أرى ضوء يساوى ** ضياء كواكبي ليلا نهارًا
وقالت من ضياء ترون الشمس ** يعيش بها الورى عيشا يسار
ومن افقى بدا لكم الهلال ** لمعرفة الشهر به انتظار

⁽³⁹⁾ المرجع نفسه، ص 8

وقالت من مفاخرتي نجوم ** منوعه تفيد لكم مراراً
 أحل مّي العجائب لم يصفه ** لسان الواصفين بها اعتبار
 مباشرة أنادى ياسماء ** دعى فخر الجهالة اعتذار
 وقلت إن في ذي الأرض ضوء ** ولا ضوء يساويه اختبار
 وقالت لي السما أرنيه عينا ** الذي تزهو به دوما افتخارا
 وقلت إنه ألف صلاتي ** فريد الدهر من أزكى جوار
 خليفة شيخنا الجيلي عمومًا ** شهير الصيت من هجر الشاراً

والحق يقال إننا لم نجد أحدا من المشائخ المشهورين في الطريقة القادرية فيطول نيجيريا وعرضها من هو أكثر مدحاً لهذه الطريقة المباركة من الشيخ أحمد الرفاعي إندا صلاتي (قدس الله سره) لأنه نظير الشيخ عبد القادر الجيلاني، فهو يقول بلسانه والناس شاهدون أنه كذلك:

وإن كل شيء راجع لأصوله ** وخلق صلاتي خلق شيخ الطريقة والتحقق في ذلك ما شهد الناس له أنه لا يطلب شيئاً أو يدعو الله في شيء إلا أن يكون له ذلك الشيء في الحال، ولذلك لقبه الناس بـ"الشيخ يوماً لا يومين"، أي لا تتأخر استجابته ليومين بل تحقق في يوم واحد.

موجز كلام عن كرامات للشيخ إندا صلاتي.

الناس عادة مفتونون بخوارق العادة التي هي كرامة في حق وليمن الأولياء أكرمه الله بها ليثبت كونه ولياً، كما تطمئن قلوب أصحاب الرسل الكرام بنيل المعجزة التي هي واجبة فيحققهم (عليهم السلام). والكرامة تحصل للأولياء أحياناً بكثرة مجاهدة النفس، وأحياناً أخرى تكون بمنحة من المولى العظيم دون المجاهدة. وللكرامة والمعجزة شروط أهمها:

أ- كون صاحبها مسلماً مؤمناً بالله وبرسالة رسول الله.

ب- أن تكون مقرونة بالتحدي من قبل أعداء الله مشعلين نار الفتن في دين الله.

ج- أن تقع وفق دعوة المتحدى بها.⁽⁴⁰⁾

هذا، وقد أجرى الله سبحانه وتعالى كرامات عديدة على يدي الشيخ أحمد الرفاعي إندا صلاتي، حيث إنه توجه بدعوته إلى الله إلى بلدان الوثنيين، وخاض معهم في عرينهم معارك طاحنة كتب الله له وأنصاره في كلها، فأعزاه الإسلام وأذل الشرك والمشركين فدخلوا الإسلام أفواجا، ولا يسع لي المجال بذكر كل هذه الكرامات، بل سأكتفي بذكر نبذة يسيرة منها كما يلي:

1- ظهور الأسد أمامه عند دخوله على أحد الملوك في بلاد يوربا لدعوته إلى الإسلام.

2- تحويله معبد أصنام في مدينة أبنياً وكوتا مسجداً.

3- تكفيف أبصار سارقين كانوا قد دخلوا دار أحد مريديه، وقد كشف الله له ذلك وهو في بيته فدعا الله عليهم فاستجاب الله له، فقبض على السارقين.

4- حضور الجن الأبرار في حضرته الشريفة

5- مكالمة الميت في القبر والناس حوله يسمعون.

6- مكالمته الكلب النائم بجوار مسجد في مدينة إلورن والناس حاضرون.

7- نُطق رجل أصم أبكم بدعوة الشيخ صلاتي له في الحال.

⁽⁴⁰⁾ ناصر الدين أبوبكر صلاتي، المرجع السابق، ص 37

8- إحياء مريده الذي اغتاله الأعداء في قتال مريير معهم عندما يدعوهم إلى الإسلام.

9- أمره القطار بأن لا يتحرك وقد كان على أهبة التحرك، فتعطل حتى وصل الشيخ المحطة وركب فتحرك.

10- في مكة المكرمة في موسم الحج من دون السفر إلى السعودية.
مقابلة الناس معه:

وهناك كرامات عديدة حققها الله سبحانه وتعالى على يد الشيخ، قد لا يصدق الناس بعضها، فقد كان الشيخ حقا من أكثر أولياء عصره كرامة، ولذلك يشبهه الناس بالشيخ عبد القادر الجيلاني، وقد تدفق أهل بلاد يوربا إلى الطريقة القادرية أفواجا، حتى كان يتنافسون في العدد مع أتباع القادرية في شمال نيجيريا؛ وكل ذلك بجهود هذا الشيخ الرباني القطب الصمداني الشيخ أحمد الرفاعي إندا صلاتي) رحمه الله تعالى رحمة واسعة. (ذلك فضل الله يعطيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم.

المصادر والمراجع

1. الألواري عبد الله، آدم، الإسلام في نيجيريا والشيخ عثمان بن فوديو الفلاني المجاهد الإسلامي الكبير بغرب أفريقيا والجد الأعلى الشهيد أحمد بللو (لاغوس-نيجيريا: مكتبة دار النور، ١٤٤١هـ-٢٠٢٠م)
2. الألواري عبد الله، آدم، لمحات البلور في مشاهير علماء إلورن (القاهرة: مصر، مكتبة وهبة للنشر والتوزيع ١٤٠٧هـ-١٩٨٦م)
3. القادري السيد محمد سعيد، الحاج إسماعيل، الفيوضات الربانية في المآثر والأوراد القادرية (إسكندرية-مصر : مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، ١٤٤٢هـ./٢٠٠٠م)
4. اللحمي الشطنوني يوسف، نور الدين أبي الحسن علي، بهجة الأسرار ومعدن الأنوار في بعض مناقب القطب الرباني محيي الدين أبي محمد عبد القادر (بيروت-لبنان: دار الكتب العلمية، ١٤٢٣هـ-٢٠٢٠م)
5. بودوفو، محمّد عثمان خليل الله الكبريت الأحمر الشيخ أحمد الرفاعي إندا صلاتي ١٨٩٥-١٩٦٦هـ (إلورن: نيجيريا، مطبعة الهدى، ١٤١٧هـ-١٩٩٦م)
6. ميماسا إبراهيم، الشيخ محمد المجموعة الثلاثة في الرثاء والمدح مخطوطة
7. صلاتي أبوبكر، محمد ناصر الدين دقائق الصفات في بعض كرامات الشيخ أحمد الرفاعي إندا صلاتي (إلورن: نيجيريا، مطبعة الهدى، ١٤٢٩هـ-٢٠٠٨م)
8. صلاتي أبوبكر، محمّد ناصر الدين، الطريقة القادرية في بلاد يوروبا مخطوطة
9. المقابلة الشخصية التي أجراها الباحث مع الإمام الأكبر لحارة الملوي في إمارة إلورن، الشيخ عبد الله عبد الحميد الملوي
10. المقابلة الشخصية التي أجراها الباحث مع الشيخ صلاح الدين بدار إدومي

“idomi”

الإمام المغيلي ودوره في النهضة العلمية والسياسية بمدينة كنو

إعداد: الفاتح قريب الله قسم اللغات

الجامعة الوطنية المفتوحة بنيجيريا

ملخص البحث:

يتناول هذا المقال الحديث عن مساهمة الإمام المغيلي الدعوية في مدينة كنو الواقعة اليوم بجمهورية نيجيريا الفدرالية، في مطلع القرن العاشر الهجري، وذلك من خلال رسائله التي دونها لأmir كنو محمد رمفا وغيرها من المصادر، حيث عرّف بشخصيته ومناقبه وأثاره العلمية ورحلاته الدعوية الإصلاحية، كما ذكرنا مؤسساته العلمية وقيامه فيها بالتدريس والإفتاء وتزكية النفوس على منهج الطريقة القادرية، وإسهاماته في النهضة العلمية والسياسة الشرعية وتطوير الحياة الاجتماعية.

Imām al-Maghīlī and His Contribution to the Scientific and Political Progress in Kano

Abstract

The paper exposes the contribution of Imām Muḥammad b. ‘Abdul Karīm al-Maghīlī in the city of Kano, located today in the Federal Republic of Nigeria, at the beginning of the 10th century AH, through his letters to the Emir of Kano Muhammad Rumfa and other sources. He was known for his personality, virtues and scientific effects and reformist advocacy journeys. As mentioned, his institutions and his teaching, issuing fatwas and spiritual education under the Qadiriyyah order. He was also known by his contributions to the scientific renaissance, legal policy and the development of social life.

Keywords:

Imām al-Maghīlī, Muhammad Rumfa, Kano, Legal Policy

بسم الله الرحمن الرحيم،

والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله وعلى آله ومن والاه.

المقدمة:

لقد دخل عدد كبير من الدعاة من شمال أفريقيا إلى بلاد هوسا أو ما يُعرف الآن بشمال نيجيريا وبالأخص مدينتي كشنه وكنو؛ وقاموا بمجهودات عظيمة في سبيل الدعوة إلى الله تعالى ونشر الثقافة الإسلامية منذ فجر الإسلام، إلا أنه انطمست آثارهم بمرور الأيام ولعدم الاهتمام بتقييدها، فلم نكن -نحن النيجيريين - نعرف حتى أسماءهم، ولا أهلهم وذوهم في الجزائر أو المغرب أو تونس ولا إسهامات خلفائهم ونوابهم على الدعوة في تلك الديار!

وفي مقدمتهم: الإمام يحيى بن عبد الله الكامل بن الحسن بن علي بن أبي طالب؛ والذي دخل هذه البلاد في أواخر القرن الثاني الهجري وانفرد بالسلطنة الكبرى في برنو، وتوفي في مدينة جندوت الواقعة حالياً في ولاية زمفرا بشمال نيجيريا، ثم ازدحمت عليها وفود المشائخ الأكارم أمثال: الشيخ محمود البغدادي، والإمام محمد بن عبد الكريم المغيلي وجلال الدين السيوطي وسيدي عبد الرحمن زيتي وسيدي أحمد (ميكروغو) المصري، وسيدي السلطان المصري الشافعي، وسيدي الشيخ محمد زهره البرزوري الفغيفي التونسي، وسيدي محمد (ميكرامي) التونسي، وسيدي عبد الكريم (مبدأوا) التونسي، وسيدي عبد السلام (ولي ميتاسه) التونسي.. وكلهم ما عدا الأربعة الأولى مدفونون في مدينة كنو.⁽¹⁾

⁽¹⁾ انظر: الشيخ محمد الناصر بن المختار كبر، العينان النضاختان، (مخطوط)،

والهدف من هذا الموضوع هو: التنويه والإشادة ببعض المجهودات الإصلاحية التي قام بها أحد هؤلاء الأعلام في مدينة كنو في مطلع القرن العاشر الهجري؛ وهو الإمام محمد بن عبد الكريم المغيلي التلمساني، والذي يعدّ بحق من أكبر الدعاة المصلحين الذين نشروا في هذه البلاد خيرا عظيما، وتركوا فيها آثارا علمية واجتماعية وسياسية لا تزال إلى اليوم في ازدياد وازدهار، بل ما سجّل التاريخ النيجيري أثرا لعالم عربي مغربي أو مشرقي في غرب أفريقيا عموما وفي نيجيريا خصوصا مثل ما خلّده لهذا الإمام الجليل.

وللبحث فيه قسمت الموضوع إلى ثلاثة مباحث وخاتمة؛ تناول المبحث الأول التعريف بشخصية الإمام المغيلي ومناقبه وآثاره العلمية ورحلاته الدعوية الإصلاحية، وأما المبحث الثاني فقد تحدّث عن دوره في النهضة العلمية بمدينة كنو؛ من خلال ذكر مؤسساته العلمية وقيامه فيها بالتدريس والإفتاء وتزكية النفوس على منهج طريقته القادرية، حيث تطرّق المبحث الثالث إلى مساهماته في السياسة الشرعية وتطوير الحياة الاجتماعية، وانتهى البحث بخاتمة تضمنت أهم نتائجه وتوصياته.

هذا، وقد أُلّف في شخصية المغيلي ومساهماته الدعوية في بلاد السودان كثير من علماء نيجيريا وغيرها، كما أدرج باحثون آخرون عن تاريخ نيجيريا أو بلاد هوس الحديث عنه في مقالاتهم وأوراقهم البحثية اسفدت منهم قدر الإمكان.

وتجدد بي الإشارة إلى أنني قدمت هذا البحث في ملتقى الجزائر الدولي «الإمام محمد بن عبد الكريم المغيلي (ت909هـ) الحوكمة واستقرار المجتمعات الإفريقية ووحدتها»، والذي أقيم بالجزائر العاصمة، بتاريخ: 19/18 جمادى الأولى 1444هـ الموافق 13/12 ديسمبر 2022م.

والله تعالى أسأل أن يجزيه الجزاء الأوفى، ويتقبل منا وينفعنا به، إنه على ذلك قدير وبالإجابة جدير، وصلى الله وسلم وبارك على المبعوث رحمة للعالمين، وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

الفاتح قريب الله الناصر الكبرى

المبحث الأول

التعريف بالإمام محمد بن عبد الكريم المغيلي

1- شخصيته ومناقبه:

■ اسمه ونسبه:

هو محمد بن عبد الكريم بن محمد بن عمر بن مخلوف بن علي بن لحسن بن يحيى بن علي بن استادور بن أحمد بن عبد القوي بن العباس بن عطية بن مناد بن السري بن قيس بن غالب بن أبي بكر بن أبي بكر (مرتين) بن عبد الله بن إدريس بن إدريس بن عبد الله الكامل بن الحسن المثنى بن الحسن السبط ابن فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم⁽²⁾. ويكنى بأبي عبد الله، ويلقب بمحي الدين أو الإمام أو شيخ الإسلام المغيلي⁽³⁾ (بضم الميم) أو شمس الدين⁽⁴⁾.

■ مولده ونشأته العلمية: ولد الإمام المغيلي في مدينة مغيلة التابعة لبلدية ودائرة مغيلة ولاية تيارت حاليا بالقرب من تلمسان؛ واختلف

⁽²⁾ سالم بن الشيخ عبد القادر المغيلي، خلاصة قولي ودليلي في الرد على الطاعن في نسل ونسب الشيخ سيدي محمد المغيلي، (الجزائر: دار الكتاب العربي، ط1، 2018م) ص55-56.

⁽³⁾ نسبة لمغيلة قبيلة من البربر.

⁽⁴⁾ انظر: إدريس بن خويا (الأستاذ الدكتور) وفاطمة برماتي (دكتورة)، الإمام محمد بن عبد الكريم المغيلي وجهوده اللغوية، (الجزائر: دار الكتاب العربي، ط1، 2022م)، ص17.

الباحثون في تحديد تاريخ ميلاده، والمرجّح أنه ولد سنة 831هـ الموافق لسنة 1427م⁽⁵⁾.

ونشأ في بيت علم وتصوّف وجهاد، بين عائلة تخرّج منها العديد من العلماء أمثال قاضي مازونة الشيخ موسى بن يحيى المازوني وغيره، وأجاد عدّة فنون مختلفة في وقت مبكر، وقد ساعده على التحصيل ذكائه المفرط ونيته الصالحة وأخلاقه الفاضلة، واطلعه على أغلب علوم عصره، فأصبح متمكناً في العلوم الشرعية، وبحراً في علوم العربية من نحو صرف وبلاغة وعروض، ومتضلّعاً في علم الفرائض والموارِيث، ومتفوقاً في فهم السياسة الشرعية والعقيدة الإسلامية، وقاد الذهن في علم المنطق⁽⁶⁾، وتربى على يد بعض علماء تلمسان وبجاية والجزائر وتوات؛ منهم:

1. والده الشيخ عبد الكريم بن محمد: وهو من المشتهرين بالعلم والصلاح والورع والتقوى، حفظ على يده القرآن الكريم، وأخذ عنه مبادئ العربية، كما قرأ عليه أيضاً الموطأ وكتاب ابن الحاجب وغيرها⁽⁷⁾.
2. الشيخ محمد بن أحمد المغيلي المعروف بالجلاب (ت875هـ): أخذ عنه التفسير والقراءات، كما أخذ عنه أمهات كتب الفقه المالكي⁽⁸⁾.
3. الشيخ الإمام سعيد المقرئ: أخذ عنه علم الحديث الشريف.

⁽⁵⁾ انظر: مبروك مقدم (دكتور)، الإمام محمد بن عبد الكريم المغيلي ودوره في تأسيس الإمارة الإسلامية بأفريقيا الغربية، (وهران-الجزائر: دار الغرب للنشر والتوزيع، ط1، 2006م)، ص27.

⁽⁶⁾ الإمام محمد بن عبد الكريم المغيلي وجهوده اللغوية، ص23.

⁽⁷⁾ نفس المرجع، ص19.

⁽⁸⁾ انظر: الحمدي أحمد (الدكتور)، الفقيه المصلح محمد بن عبد الكريم المغيلي الإطار المعرفي والتعامل مع المكانية، (الجزائر: مكتبة الرشاد، ط1، 1433هـ - 2012م)، ص24.

4. الشيخ أبو عيسى عبد الرحمن بن محمد بن أحمد التلمساني (ت825هـ): وهو عالم بالتفسير حافظ محدث من أكابر فقهاء المالكية⁽⁹⁾.
5. الشيخ أبو زكريا يحيى بن يدير بن عتيق التدلسي (ت877هـ): أخذ عنه علم التريفة وقرأ عليه الصحيحين وكتب السنن وموطأ الإمام مالك وأمّهات كتب الفقه المالكي⁽¹⁰⁾.
6. الشيخ أبو علي الحسن بن مخلوف بن مسعود المشهور بأبركان (ت875هـ)، الإمام العالم الولي الصالح صاحب الكرامات، ويقال: أنّ الإمام المغيلي جاء لتواتر بإذن شيخه هذا، لتعليم أهلها السنن والفرائض⁽¹¹⁾.
7. الشيخ أبي العباس الوغليسي.
8. الشيخ أبو الفضل محمد بن إبراهيم بن عبد الرحمن التلمساني (ت845هـ).
9. الشيخ موسى بن يحيى بن عيسى المازوني (مؤلف كتاب الرقائق في تدريب الناشئين من القضاة وأهل الوثائق)⁽¹²⁾.
10. الشيخ منصور بن علي بن عثمان الزواوي (ت846هـ): أحد كبار علماء وفقهاء بجاية، أخذ عنه الإمام عند حلوله ببجاية، كما أخذ عنه أيضا الشيخ يحيى السراج والإمام الشاطبي⁽¹³⁾.
11. الشيخ أحمد بن إبراهيم البجائي (ت850هـ): اشتهر بالتفسير والفقه، درس في زاويته الفقه وعلوم التفسير والتصوف لمدة أربع سنوات.

⁽⁹⁾ انظر: نيل الإبتهاج، ص171.

⁽¹⁰⁾ انظر: الإمام محمد بن عبد الكريم المغيلي وجهوده اللغوية، ص21.

⁽¹¹⁾ نفس المرجع، ص26، نقلا عن النبذة في تاريخ تواتر وأعلامها، ص100، (الهامش)

⁽¹²⁾ انظر: مقدم مبروك: مدونة فقه التشريع لبناء الإمارة، ج1، دار القدس العربي،

وهران 2011. ص36. وانظر أيضا: مبروك مقدم (دكتور): حياة وأعمال الإمام محمد

بن عبد الكريم المغيلي التلمساني، ص25.

⁽¹³⁾ انظر: الإمام محمد بن عبد الكريم المغيلي وجهوده اللغوية، ص25.

12. الشيخ أبو زيد عبد الرحمن الثعالبي (785-875هـ): العارف والمفسر الفقيه الصوفي المتكلم علامة الجزائر في زمنه، صاحب التصانيف المفيدة؛ منها: الجواهر الحسان في تفسير القرآن. التحق المغيلي بمدرسته وتلمذ عليه أربع سنوات؛ درس خلالها: السيرة وعلوم الفقه والنحو وعلوم التصوف، ولقنه قواعد الطريقة القادرية⁽¹⁴⁾ وقد أعجب بتلميذه وبفطنته وذكاءه حتى قيل أنه زوج ابنته زينب؛ اعترافاً منه بعلمه وفقهه، فزادت المصاهرة بينهما وأصر المودّة والقرابة⁽¹⁵⁾، ويمكن القول بأن كل ما قام به المغيلي من الدعوة الإصلاحية يرجع إلى نصائح هذا الشيخ؛ وذلك حينما أمره بنقل أربعة مسائل معه لقصور توات ودول الساحل الإفريقي؛ وهي: الانتقال لقصور توات لأن بها شرذمة يهودية عاثت فساداً بالأرض والعرض، أهلكت الحرث والنسل، وقد توغلت في كل دواليب الحياة الاجتماعية والاقتصادية والهيدرولوجية، باتخاذ الربا كمظهر تبادلي بينها وبين ضعاف العقول وهذا ما يخالف أمر الله تعالى وما جاء في القرآن والسنة النبوية. والعمل على نقل الإسلام وتعاليمه السمحة لأفريقيا الغربية. ونشر الطريقة القادرية بالقصور التواتية، فكانت أول طريقة صوفية تدخل أقاليم توات، ومنها انتقل أوراها لأفريقيا السمراء. ونصرة من لا ناصر له إلا الله⁽¹⁶⁾.

■ ثناء العلماء عليه:

1. الشيخ العلامة أبو عبد الله محمد بن يوسف السنوسي (ت 895هـ) وهو كبير علماء تلمسان في وقته، يرأس الإمام المغيلي بكتاب مطوّل ويعترف له بالفضل حيث يقول: «من عبىد الله محمد بن يوسف السنوسي إلى الأخ

⁽¹⁴⁾ نظر: الفقيه المصلح محمد بن عبد الكريم النمغلي الإطار المعرفي والتعامل مع المكانية، ص 27.

⁽¹⁵⁾ انظر: الدكتور عبد العلي الودغيري، ملامح من التأثير المغربي في الحركة الإصلاحية في النيجر، مجلة التاريخ العربي، ص 87.

⁽¹⁶⁾ انظر: حياة وأعمال الإمام محمد بن عبد الكريم المغيلي التلمساني، ص 24.

الحبيب القائم بما اندرس في فاسد الزمان من فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، التي القيام بها لا سيما في هذا الوقت علم على الاتسام بالذكرورة العلمية والغيرة الإسلامية، وعمارة القلب بالإيمان السيد أبي عبد الله بن عبد الكريم المغيلي حفظ الله حياته وبارك في دينه وديناه وختم لنا وله ولسائر المسلمين بالسعادة والمغفرة بلا محنة يوم نلقاه»⁽¹⁷⁾.

2. الإمام الحافظ جلال الدين السيوطي (ت911هـ): في رسالة أرسل بها إليه، يصفه ب"الشيخ الإمام العالم العلامة المحقق المدقق، الأمر بالمعروف الناهي عن المنكر، تاج الدين أبي الفضل محمد بن عبد الكريم التلمساني - أدام الله لي وله التوفيق وأذاقني وإيَّاه حلاوة التحقيق"⁽¹⁸⁾. ويعترف بمكانته في العلم خلال رده على رسالة الإمام المغيلي التي وصلته في المناظرة المشهورة بينهما حيث قال السيوطي في مطلع قصيدته:

عجيب لنظم ما سمعت بمثله أتاني عن حبرٍ أقرَّ بنبله
ثم قال في ختامها أيضا:

سلام على هذا الإمام فكم له لدي ثناء واعتراف بفضله⁽¹⁹⁾

3. الشيخ محمد بن مخلوف وصفه بـ«خاتمة الأئمة المحققين والعلماء العاملين مع البراعة والتفنن في العلوم والصلاح والدين المتين»⁽²⁰⁾.

⁽¹⁷⁾ انظر: أحمد بابا التنبكتي، بتقديم الدكتور عبد الحميد عبد الله الهرامة، نيل الإبتهاج بتطريز الديباج، (طرابلس - الجماهيرية العربية الليبية: دار الكاتب، ط2، 2000م)، ص576.

⁽¹⁸⁾ كتاب «مرّ النسيم إلى ابن عبد الكريم» بتحقيق عبد الرحمن حمادو الكتبي.

⁽¹⁹⁾ انظر: نيل الإبتهاج، ص579.

⁽²⁰⁾ انظر: الشيخ محمد بن مخلوف، شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، (بيروت: دار الفكر، ط1) ص274.

4. العلامة أحمد باب التنبكتي (ت1036هـ) وصفه بـ«خاتمة المحققين الإمام العالم العلامة الفهامة القدوة الصالح السني، أحد الأذكياء ممن له بسطة في الفهم والتقدم، متمكن المحبة في السنة وبغض أعداء الدين...»⁽²¹⁾.

5. الشيخ ابن مريم: وصفه في بستانه بأنه: "القدوة الصالح الحبر، أحد أذكياء العالم وأفراد العلماء الذين أوتوا بسطة في العلم والتقدم... كان رحمه الله مقداما على الأمور، جسورا، جريء القلب، فصيح اللسان، محبا في السنة، جدلية نظارا محققا"⁽²²⁾.

6. الحافظ أبو راس الناصري: يصفه بـ"العلامة ذو الورع والدين، شيخ الطلبة المغربين ابن عبد الكريم المغيلي. لقد كان موصوفا بالنجدة والبأس، رفيع القدر، عظيم الشأن عند الناس... وكان كثير الجهاد بثغور المغرب لما ضَعَفَ الإسلامُ بسواحلِه"⁽²³⁾.

7. محمد بن عسكر الشفشاوي (ت986هـ): يصفه بـ"الشيخ الفقيه الصدر الأوحد، أبو عبد الله محمد بن عبد الكريم المغيلي كان من أكابر العلماء وأفاضل الأتقياء، وكان شديد الشكيمة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر"⁽²⁴⁾.

⁽²¹⁾ انظر: أحمد بابا التنبكتي، كفاية المحتاج لمعرفة من ليس في الديباج، (القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية، 1425هـ/2004م، ج 02)، ص 576.

⁽²²⁾ انظر: ابن مريم، البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، (الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية) ص255.

⁽²³⁾ محمد بن أحمد أبو راس الناصري، تقديم وتحقيق: محمد غالم، عجائب الأسفار ولطائف الأخبار، (وهران-الجزائر: مركز البحث في الأنثروبولوجية الاجتماعية والثقافية، 2008م)، ص2، 49 و87.

⁽²⁴⁾ انظر: محمد بن عسكر الشفشاوي، تحقيق: محمد حجي، دوحة الناشر لمحاسن من كان بالمغرب من مشائخ القرن العاشر (الرباط-المغرب: دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر، ط2، 1397هـ - 1977م)، ص130.

■ وفاته: توفي - رحمه الله تعالى - في أول العشرة الثانية (909هـ) الموافق (1504م) ببلاد توات، وعقبه هنالك الآن في غاية التعظيم عند أهل تلك الناحية"⁽²⁵⁾.

2- من آثاره:

■ مؤلفاته: أَلَف الإمام كتباً عديدة في مختلف الفنون الإسلامية والعربية؛ كالتفسير والحديث والفقه والتصوف والبلاغة والأدب والسياسة الشرعية وغيرها، والتي تعدّ إضافة حقيقية للمكتبة الإسلامية؛ لأنها - كما يصفها الكتبجي - مؤلفات عملية بالدرجة الأولى، ليس القصد منها العلم للعمل، بل لتحقيق العمل وهذا واضح جلي لمن يطالع ببليوغرافيا مؤلفاته وأثرها في الأجيال التي جاءت بعده⁽²⁶⁾. وقد قام الدكتور مبروك مقدم بحصر حوالي (72) منها وأماكن وجودها⁽²⁷⁾.

■ بعض من أخذ عنه:

1. الشيخ عمر بن أحمد البكائي بن الشيخ محمد الكنتي بن علي، ولد عام 865هـ، درس في صغره على يد والده، ثم ارتحل إلى بلد المغرب ومصر والشام وأدّى فريضة الحج، ثم عاد إلى بلاد التكرور، والتقى خلال هذه الأسفار بالإمام المغيلي، فلزمه وتبعه في جميع رحلاته الدعوية، ورحلته إلى الحج وعودته إلى توات، وأخذ عنه علوم الحديث والفقه والعربية والسياسة الشرعية والمنطق والفرائض وغيرها، ولم يفارقه حتى وفاته، ولما شعر

⁽²⁵⁾ المرجع السابق، ص34.

⁽²⁶⁾ انظر: الأستاذ الدكتور عبد الرحمن حمادو الكتبجي المغيلي محدّثاً على خطى الحافظ السيوطي، ص111.

⁽²⁷⁾ انظر: مقدم مبروك، الإمام محمد بن عبد الكريم المغيلي التلمساني من خلال المصادر والوثائق التاريخية، (الجزائر: مؤسسة الكتاب، 2003م) ص:76. وانظر أيضاً: مقدم مبروك، حياة وأعمال الإمام محمد بن عبد الكريم المغيلي التلمساني، ص39-45.

المغيلي بقرب وفاته جمع تلاميذه وابنه عبد الله وأوصاهم ودعا لهم وأخبرهم أنّ أجله قد دنا وأن خليفته ووارثه في المشيخة هو تلميذه عمر الشيخ، وأعطاه عكازه وقلنسوته وسجاده وسبحته، ووصى ابنه عبد الله بخدمته والأخذ عنه⁽²⁸⁾، فانتهت إليه رئاسة الطريقة القادرية في بلاد التكرور⁽²⁹⁾.

2. الشيخ العاقب بن عبد الله الأنصمي (ت950هـ): وهو من أهل أهدس، درس في بداية حياته وتفقه على يد الشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي بمسجد الكرامة في أهدس، وأخذ عنه علم التوحيد والمنطق واللغة العربية⁽³⁰⁾.

3. الشيخ إبراهيم بن الشيخ عبد الجبار الفجيجي: درس على أبيه وكبار علماء فجيج، ثم على الشيخ ابن غازي بفاس، ثم الإمام السنوسي بتلمسان، ورحل إلى المشرق أكثر من مرة للحج فأخذ عن السيوطي، واشتغل بالقضاء والتدريس في مسقط رأسه، وفي طريقه إلى السودان الغربي مرّ بتوات، فصادف بها ثورة المغيلي على اليهود، فتحرّكت مشاعره الدينية وشاطر المغيلي في رأيه⁽³¹⁾.

4. الشيخ عثمان بن محمد بن عمر الفلاني: لزمه مدة عشر سنوات كاملة، وهو صاحب كتاب «الفتح الرباني في ذكر أخبار الشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي التلمساني»⁽³²⁾.

⁽²⁸⁾ انظر: عبد الباقي مفتاح، أضواء على الشيخ عبد القادر الجيلاني وانتشار طريقته، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط1، 2000م)، ص373.

⁽²⁹⁾ حاج أحمد نور الدين، المنهج الدعوي للإمام المغيلي من خلال الرسائل التي بعثها للملوك (ماجستير في الشريعة)، جامعة الحاج لخضر- باتنة، الجمهورية الجزائرية، فرع دعوة وإعلام، ص40.

⁽³⁰⁾ نفس المرجع، ص42.

⁽³¹⁾ أحمد الحمدي، محمد بن عبد الكريم المغيلي رائد الحركة الفكرية بتوات (ماجستير في التاريخ والحضارة الإسلامية)، جامعة وهران، 1999م، ص41.

⁽³²⁾ حاج أحمد نورالدين: المنهج الدعوي للإمام المغيلي، ص32.

5. الشيخ محمد بن عبد الجبار الفجيجي: عالم متصوف، له إمام كبير بعلوم الحديث ورواياته، وأسس في بلده زاوية وبيتا للفقراء ومريدي التصوف ينفق عليهم، وله العديد من القصائد في مدح الرسول صلى الله عليه وسلم، التقى مع المغيلي في فاس فلزمه طوال وجوده فيها، وأخذ عنه التصوف وعلوم الحديث والفقه والعقيدة والمنطق، ثم رجع إلى بلده واستقر فيها، ويدرس مختلف علوم الشريعة، خاصة علم الحديث، الذي كان له فيه سند عال⁽³³⁾.

6. الشيخ محمد بن أحمد بن أبي محمد التازختي: المشهور ب(أيد) أحمد، لقي بالإمام المغيلي في تكدة ولزمه مدة من الزمن، والتقى في رحلته إلى الشرق بشيخ الإسلام زكريا الأنصاري والقلقشندي وابن أبي شريف وعبد الحق السنباطي والشمس اللقاني والناصر أخاه، وأخذ عنهم وتصاحب مع أحمد بن عبد الحق السنباطي، حتى تميز في فنونه، وصار في أعداد المحدثين، وأجازه من أهل مكة أبو البركات النويري وابن عمه عبد القادر وعلي بن ناصر الحجازي وأبو الطيب البستي وغيرهم، واجتهد حتى صار من محصلي العلماء ثم قفل للسودان فنزل بلدة (كشنة) فأكرمه صاحبها غاية، وولاه قضاءها، وتوفي بها في حدود (936هـ) عن نيف وستين سنة، له تقارير وطرر على مختصر خليل وغيره⁽³⁴⁾.

7. الشيخ محمد بن محمود أقيت بن عمر الصنهاجي (1463-1548م)، وهو الجد الأعلى لأحمد بابا التنبكتي، وقد زار مدينة كنو في القرن (16م).

8. الشيخ مخلوف البلبالي: الذي كان بينه وبين العاقب نزاع طويل في المسائل العلمية.

9. الشيخ النجيب بن محمد شمس الدين التكدراوي.

10. الشيخ محمد بن أحمد التادلي.

⁽³³⁾ أحمد الحمدي: محمد بن عبد الكريم المغيلي رائد الحركة الفكرية بتوات، ص 40.

⁽³⁴⁾ انظر: نيل الإبهاج بتطريز الديباج، لأحمد باب التنبكتي، ص 587.

■ ذريته وخلفاؤه في الجزائر:

تزوج الإمام من السيدة زينب بنت شيخه العلامة عبد الرحمن الثعالبي في مدينة الجزائر أثناء إقامته عنده سنة 875هـ - 1474م، ثم انتقل بها إلى تلمسان ثم إلى توات، حيث عاشت هناك وتوفيت بأولاد سعيد (تيميمون) وقبرها معروف هناك إلى اليوم⁽³⁵⁾، وهي أم أبنائه الثلاثة:

1. سيدي علي: ولد وتوفي بأولاد سعيد، ودفن قرب قبر أمه على الجهة اليسرى من القبر.

2. سيدي محمد عبد الجبار: ولد بأولاد سعيد، وقد خلف والده عند انتقاله لأفريقيا بواسطة المبايعة والشورى بين الناس على قصور توات كلها بحسب الرسالة التي أرسل بها لتوليه الولاية الاستخلافية بجمع من السكان بقصر أولاد يعقوب "بالرحيبة" بتمنطيط، وذلك سنة 883هـ/1478م⁽³⁶⁾، واغتاله اليهود وغلّثفهم، حينما أوهموه بوجود جيوش تريد الاستيلاء على قصور توات، وبما أنك خليفة لأبيك فأخرج لمقاتلتهم فتصدى لهم وحيدا فالتفوا حوله واغتالوه، وكان هذا هو السبب الرئيس في مغادرة الإمام محمد بن عبد الكريم المغيلي مدينة إمارة غاو مملكة سنغاي.

3. سيدي عبد الله: الذي يكنى به وهو الابن الذي عاش بعد المغيلي، ولد بأولاد سعيد، يرجع له كل آل المغيلي بقصور توات⁽³⁷⁾.

■ ذريته وخلفائه في مدينة كنو:

تزوج الإمام في مدينة كنو أثناء إقامته بها، وخلف ثلاثة أولاد أيضا، وهم: سيد أحمد: والذي انتقل إلى قرية تسمى سَمّاوا بمدينة كنو واستقر

⁽³⁵⁾ انظر: الإمام محمد بن عبد الكريم المغيلي وجهوده اللغوية، ص23.

⁽³⁶⁾ مقدم مبروك، رسالة لكل مسلم ومسلمة، (الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية، الطبعة الثالثة، 2016م)، ص27.

⁽³⁷⁾ انظر: مبروك مقدم (دكتور): حياة وأعمال الإمام محمد بن عبد الكريم المغيلي التلمساني، ص27.

بها⁽³⁸⁾، وعيسى ومحمد الملقب بسيد (الأبيض)⁽³⁹⁾؛ واللذان قاما بعد رحيل والدهم بنشر مشروعه الدعوي والإصلاحي والمشاركة في مجلس أمير كنو والقيام بالتدريس والتربية الروحية في بيته وزاويته.

اشتهرت الأسرة المغيلية في مدينة كنو باسم الشرفاء، كما تحوّل اسم منزله وزاويته إلى حيّ (الشرفاء)، والذي يدل على توقير أهل المدينة وتعظيمهم لهم، وقد تكاثرت هذه الأسرة وانتشرت في مختلف مدن نيجيريا وخارجها، إلا أنّ مركز رئاسة الأسرة لم يزل في مكانه إلى اليوم، حيث كانوا في بادئ الأمر ينتخبون من بينهم زعيما يخلف سلفه، ويلقبونه ب(ال خليفة)، ثم ابتدلوا اللقب وأبدلوه ب(سيد فري) أي سيد الأبيض أو أمير الشرفاء، ثم في عام (1999م)، عادوا إلى اللقب الأول (ال خليفة) لما حدث بينهم وبين القصر الملكي من الخلاف في تعيين الخليفة في ذلك الوقت⁽⁴⁰⁾.

وعلى الرغم من عدم اهتمام الأسرة بتدوين تواريخ رجالها ووفياتهم ومساهماتهم وغير ذلك، ما أدى إلى فقد أسماء العديد منهم، فقد قام أحدهم - في مطلع القرن التاسع عشر الميلادي - بترتيب أسماء خلفاءها، وهم على النحو التالي:

- الملقَّبون بالخليفة: محمد بن محمد بن عبد الكريم المغيلي: ويلقب ب(سيد الأبيض)، عيسى بن محمد بن عبد الكريم المغيلي، إبراهيم بن محمد بن محمد بن عبد الكريم المغيلي، محمد بن إبراهيم بن محمد بن محمد بن عبد الكريم المغيلي، ويلقب ب(الحناتري).

⁽³⁸⁾ مقابلة شفوية مع الشريك قذافي بشير (وهو من أحفاد الإمام المغيلي بمدينة كنو)، بتاريخ: 23 أكتوبر 2022م.

⁽³⁹⁾ انظر: قذافي شريف بشير، النثر الفني في مجموعة المغيلي وأثره في الأدب العربي النيجيري (ماجستير)، جامعة الجزيرة، السودان، 1435هـ - 2015م، ص 31.

⁽⁴⁰⁾ المرجع السابق، ص 31.

- الملقَّبون بـ(سيد قَري) أو أمير الشرفاء: موسى بن محمد، آدم بن محمد، محمد أمالي، قَمبُوا بن آدم، حجن بن موسى، يوسف بن موسى، زكريا بن آدم، بلقاسم بن يوسف، عيسى بن محمد، محمد الأول بن زكريا.

- الملقَّبون بالخليفة (ثانياً):عبد الملك بن زكريا (1993م -2003م)، عباس بن آدم (2003م إلى اليوم)⁽⁴¹⁾.

3. رحلاته الدعوية:

سبقت الإشارة إلى أن الإمام المغيلي لما أراد مغادرة شيخه الثعالبي أوصاه بنقل أربعة مسائل معه لقصور توات ودول الساحل الإفريقي؛ وهي: إصلاح ما فسده اليهود في أراضي توات، ونقل التعاليم الإسلامية السمحة لأفريقيا الغربية، ونشر الطريقة القادرية، ونصرة من لا ناصر له إلا الله. فانطلق بهذه المسائل نحو تلمسان للتدريس إلا أنه لم يطب له المقام هناك؛ فقد كان يردد دائماً⁽⁴²⁾:

تلمسان أرض لا تليق بحالنا * ولكن لطف الله نسال في القضا
وكيف يحب المرء أرضا يسوسها * يهود وفجار ومن ليس يرتضى
فاتجه نحو بلاد توات ليبدأ بها هذا المشروع، فوجدها مهملّة، قد ضعف وضعها الديني والاقتصادي والاجتماعي لا يخدم مصالح السكان، وإنما يخدم فئة خاصة من اليهود، كما ذكر له شيخه، فتدخل وكسر شوكتهم وألزمهم أحكام أهل الذمة التي قررها الشارع الحكيم، وألّف في ذلك رسالة سماها «مصباح الأرواح في أصول الفلاح» ذكر فيها ما يجب على المسلمين من اجتناب الكفار، وما يلزم أهل الذمة من الجزية والصغار، وما عليه أكثر يهود هذا الزمان من التعدي والطغيان، والتمرد على الأحكام

⁽⁴¹⁾ المرجع السابق، ص31-32.

⁽⁴²⁾ محمد بن عبد الكريم المغيلي، تحقيق رابع بونار، مصباح الأرواح في أصول الفلاح، ص148.

الشرعية بتولية أرباب الشوكة وخدمة السلطان⁽⁴³⁾، وبعد هذه الأحداث تمت تولية الإمام المغيلي على جميع أقاليم توات بالولاية الشرعية، ثم قام باستخلاف ابنه محمد المعروف بعبد الجبار⁽⁴⁴⁾ في حوالي عام 883هـ-1478م، واتجه نحو السودان الغربي لأجل إتمام مشروعه الإصلاحية؛ فدخل بلاد: أهر وبلاد تكدة، ثم دخل مدينتي كنو وكشنا واجتمع بملكهما، ثم رحل لبلاد التكرور، فدخل بلدة: كاغو، واجتمع بسلطانها أسكيا محمد الحاج، وألف له كتاباً أجابه فيه عن مسائل، وأثناء إقامته هناك بلغه مقتل ولده عبد الجبار بتوات من جهة اليهود عام 899هـ-1493م، فرحل إلى البقاع المقدسة وأدى فريضة الحج وزار الروضة الشريفة حيث ألقى ميميته في مدحه صلى الله عليه وسلم، وعند مروره بمصر التقى بالإمام جلال الدين السيوطي، ثم عاد لتوات عام 902هـ - 1496م، حيث شنّ حرباً أخرى على اليهود لكنه لم يحرز نصراً يذكر بسبب اشتداد شوكتهم، حيث وجدوا المساعدة عند قبيلة أولاد علي بن موسى وزعيمها عمر بن عبد الرحمن، فعاد إلى وادي البرامكة حيث توجد زاويته وظل بها حتى توفي عام 909هـ⁽⁴⁵⁾.

المبحث الثاني

دور الإمام المغيلي في النهضة العلمية بمدينة كنو.

1. تأسيس مراكز العلم (المساجد والمدارس):

حصل الإمام المغيلي في مدينة كنو على مرتبة عالية وشهرة كبيرة، خصوصاً بعدما التقى بأمرها محمد رمفا والذي أظهر إعجابه بشخصيته

⁽⁴³⁾ انظر: بوعزيز يحي، تاريخ إفريقيا الغربية الإسلامية من مطلع القرن السادس عشر إلى مطلع القرن العشرين (الجزائر: دار البصائر للنشر والتوزيع، 2009م)، ص 66.

⁽⁴⁴⁾ انظر: مبروك مقدم (دكتور)، الشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي وأثره الإصلاحية بإمارات وممالك إفريقيا الغربية خلال القرن الثامن والتاسع والعاشر للهجرة (الجزائر: دار الغرب للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، 2002م، ج1)، ص 151-152.

⁽⁴⁵⁾ الفقيه المصلح محمد بن عبد الكريم المغيلي، ص 30، 46.

ووفور علمه، فقرّبه إليه، واتخذهُ مستشاراً دينياً وسياسياً خاصاً له، ثم ولّاه القضاء والإفتاء، فمكث فيها أعواماً يقَدِّمُ مجهودات كبيرة، ويسعى في إصلاح أمور المسلمين وأحوالهم الدينية والثقافية⁽⁴⁶⁾.

وأول ما قام به بعد دخوله مدينة كَنُو هو تأسيس المساجد والمدارس، والتي أصبحت منابع الإشعاع الثقافي والمعرفي، ومراكز إخماد البدع والعبادات الوثنية المتبقية في قلوب الناس؛ نذكر منها:

■ مسجد في منطقة تسمى (فانيسو) Fanisau – وهو مسجد جامع كبير لم يزل موجوداً إلى الآن، ويُذكر أنّ هذه المنطقة اشتهرت بكل أنواع الفساد والمعاصي، بل هي مجمع لقطاع الطريق واللصوص في ذلك الوقت، فقام فيهم أمراً بالمعروف ونهاياً عن المنكر، وأصلح الله تعالى به قلوب العباد، حتى قال قولته المشهورة لدى المؤرخين: (لقد فنى السوء بفانيسو).

■ قام هو والشيخ عبد الرحمن بن محمد الزيتي⁽⁴⁷⁾ بقطع شجرة الأرديب التي يتصنّم بها بعض الناس في مكان بين يَنْدُويَ Yan doya ومدابو Madabo، وسوق كرمي Kurmi، فخرج من بطنها عجائب شيطانية وصوت قويّ أثناء سقوطها، فبنيا مكانها مسجداً جامعاً⁽⁴⁸⁾.

⁽⁴⁶⁾ انظر: أحمد جعفري (الأستاذ الدكتور)، حوار الإمام محمد بن عبد الكريم المغيلي (909هـ) مع ملوك وأمراء غرب إفريقيا وأثره في حركة الفتح الإسلامي لإفريقيا، ص 52.

⁽⁴⁷⁾ هو – كما وصفه كاتب «ورقة مكتوبة في أصل النوغريين»: «..الشيخ الفقيه العالم العلامة التقي الصالح البالغ في العلم درجة القدوة وهو المسمى باسم البركة عبد الرحمن بن محمد بن إبراهيم بن محمد قَيْمَ النوغري، وأمّه خديجة بنت مريم النوغرية..» دخل مدينة كَنُو بعد ثلاثة أيام من دخول المغيلي إليها [مخطوطة بعنوان «الورقة المكتوبة في أصل النوغريين» بدون اسم المؤلف، كتبها: إبراهيم بن محمد بن إدريس بن حسين، في رأس دولة أمير كَنُو محمد كُنَّ ابن محمد زالك، عام (1061هـ)، موجودة بمكتبة الشيخ مالم كبر، دار القادرية كبر، كَنُو-نيجيريا، ص 13.

⁽⁴⁸⁾ انظر: المصدر السابق، ص 13-14.

■ زاوية الشيخ المغيلي؛ كما عُرفت اليوم: وهي عبارة عن مسجد كان يقوم فيه بنشاطاته العلمية والدعوية بناه بجانب بيته بعد انتقاله إلى وسط المدينة، بحيّه المعروف (شَرِيفِي) أي حيّ الشرفاء⁽⁴⁹⁾، ولم تزل قائمة بدورها العلمي والتربوي وإدارة شؤون الأسرة المغيلية – على يد خلفائه - إلى اليوم.

2. التدريس والإفتاء:

باشر الإمام المغيلي التعليم والتدريس والوعظ والإرشاد إبان دخوله مدينة كنو، ولكونه فقيها متضلعا يكون علم الفقه من أبرز ما يهتم به في التدريس، وقد كان لفتاواه أثر كبير في النهضة العلمية والإصلاحية لا في مدينة كنو فحسب، بل في جميع بلاد هوسا، من عصره إلى يومنا هذا، وكان من ثقبه وفقهه للواقع أنه أثناء مكوثه في مدينة كنو درس أوضاعها دراسة مكنته من فهم خصائصها واتجاهات أهلها، فأصدر فتاوا للنوازل الواقعة في هذه البلاد بما يناسب ما شاهد وتحقق من أوضاعهم، وخير مثال على ذلك: أن فتواه في التعامل مع غير المسلمين تنصب على مقتضى الأحوال، حرّم – بشدة - التعامل مع اليهود في توات؛ ولكنه أباح التعامل مع المجوس في مدينة كنو شريطة أن يمتنعوا من إظهار الشرك وأكل الحرام وشرب الخمر أمام المسلمين⁽⁵⁰⁾.

وقصده جمع غفير من طلبة العلم من داخل مدينة كنو وخارجها؛ للاعتراف من معينه الصافي، بل أخذ عنه الكثير من أكابر علمائها⁽⁵¹⁾،

⁽⁴⁹⁾ نسبة إليه، لأنه يعتبر جدّ الشرفاء في المدينة.

⁽⁵⁰⁾ انظر: أحمد مرتضى، الإمام المغيلي وإسهامه في بناء الحضارة الإسلامية في بلاد الهوسا، بحث مقدم في الملتقى الدولي الثالث حول عقبة بن نافع، (الجزائر: 2014م)، ص13

⁽⁵¹⁾ انظر: آدم عبد الله الإلوري، الإسلام في نيجيريا، (القاهرة: دار الكتاب المصري، الطبعة الأولى، 1435هـ - 2014م)، ص126. وانظر أيضا: شيخ عثمان كبر (الدكتور)، الشعر الصوفي في نيجيريا، (القاهرة: النهار للطباعة والنشر، الطبعة الأولى، 2004م)، ص89.

والذين أصبحوا - بعده - هم المرجعية لأهالي بلاد هوسا قاطبة، كما ذكر بعض المؤرخين أنه ترك حوالي ثلاثمائة (300) عالم متضلع في مدينة كنو وضواحيها قبل مغادرته، الأمر الذي أنتج أرضية خصبة للإنتاج العلمي والثقافي في بلاد هوس عامة فيما بعد⁽⁵²⁾، والذين تخرج على أيديهم شيوخ أعلام مثل: الشيخ البكري (تلميذ النجيب التكداوي)، والشيخ محمد الكشناوي (الذي رحل إلى مصر وتوفي بها، وقد ذكره الجبرتي في تاريخه)، والشيخ أحمد باب التنبكتي، والشيخ عبد الله الثقة، وغيرهم. ثم أخذ من هؤلاء آخرون، منهم: الشيخ أبوبكر الباكوم، والشيخ الطاهر بن إبراهيم الفلاتي المشهور بفيرم، والشيخ محمد الوالي بن سليمان، وغيرهم. وبلي هؤلاء كل من: الشيخ محمد بن الصباغ الكشناوي وتلميذه الشيخ محمد بن مسنه الكشناوي (1595-1667م)، والشيخ عمر بن محمد الكبوي والشيخ محمد بن مودي (صاحب كتاب صرف العنان)، والشيخ محمد بن عبد الرحمن البرناوي والشيخ جبريل بن عمر (أستاذ الشيخ عثمان بن فودي)⁽⁵³⁾.

فآثاره الأدبية والسياسية والصوفية واضحة ملموسة لكل صغير وكبير إلى اليوم، حتى نسب إليه أحد المؤرخين النيجيريين وهو العلامة آدم الإلوري - رحمه الله تعالى - في تحديده العصور الأدبية في نيجيريا - عصرا مستقلا تحت عنوان (عصر المغيلي)؛ والذي يبدأ من القرن التاسع حتى القرن الحادي عشر الهجري، ويأتي بعده العصر الفلاني (نسبة إلى الشيخ عثمان بن فودي) فالعصر الإنجليزي⁽⁵⁴⁾، كما اعتبر باحث آخر رسائله التي كتبها لأمير كنو في السياسة الشرعية اللبنة الأولى للكتابة النثرية في بلاد هوسا⁽⁵⁵⁾.

⁽⁵²⁾ انظر: أحمد مرتضى: الإمام المغيلي وإسهامه في بناء الحضارة الإسلامية في بلاد الهوسا، ص13.

⁽⁵³⁾ انظر: آدم عبد الله الإلوري: مصباح الدراسات الأدبية في الديار النيجيرية، ص18-19.

⁽⁵⁴⁾ نفس المصدر، ص15.

⁽⁵⁵⁾ انظر: كبير آدم تدن نفاوا، النثر العربي النيجيري صورته وخصائصه عبر العصور، (نيجيريا: دار الأمة، الطبعة الأولى، 2011م - 1432هـ)، ص33.

3. نشر الطريقة القادرية⁽⁵⁶⁾:

أسس زاويته الأولى بعدما حلّ بتوات في قصر بوعلي عام 885هـ- 1480م، وبدأ بها نشاطه التعليمي، وسرعان ما جمعت هذه الزاوية بين المهمة التعليمية والمهمة الحربية، حيث كانت قاعدة لانطلاق جيشه لضرب قواعد اليهود بتوات؛ كتازولت وتاخيفت وتاسفاوت وتمنطيط وغيرها، فكان لها نفوذ كبير على مناطق التكرور والسودان الغربي، وعمل مريدي هذه الزاوية على تنمية أملاكها ونشر أفكارها وتعاليمها، من الدعوة إلى الأخوة الإسلامية وإقامة نظام إسلامي لبناء مجتمع متّحد تحكمه مبادئ الشريعة، فكان هو الرئيس الأعلى للطريقة القادرية في زمانه ببلاد التكرور والصحراء الكبرى⁽⁵⁷⁾.

واتفق المؤرخون النيجيريون على أن الإمام المغيلي هو أول من نشر الطريقة القادرية في مدينة كنو، ورعى تلاميذه على منهجها والتزام أوراها، ثم جاء بعده الشيخ العلامة عبد الله الثقة، الذي عاش بين (1019هـ- 1610م)، وهو أخذ الورد القادري من فزان، وقيل: إنه أخذ من تلاميذ الشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي، وقد زار كنو وكشنا في القرن (10هـ- 15م)، وله يد طولى في نشر الطريقة القادرية في بلاد هوس⁽⁵⁸⁾، ثم جاء الشيخ عثمان بن فودي (ت1232هـ)⁽⁵⁹⁾ والذي جعلها الطريقة الرسمية في

⁽⁵⁶⁾ الطريقة عند الصوفية: رابطة روحية تتخذ التعبد والتنسك وسيلة لإصلاح النفس والمجتمع، وتقوم بالرياضة التي تسمو بها النفس إلى درجة الاتصال الروحي بالملا الأعلى؛ فيصير كل ما عدا الله تعالى باطلا حقيرا في أعينهم. والطريقة القادرية: رابطة روحية أسسها الشيخ عبد القادر الجيلاني (ت561هـ)، ومركزها الأصلي في بغداد، ولكنها منتشرة في مختلف البقاع بالعالم [انظر: آدم عبد الله الإلوري: الإسلام في نيجيريا، ص63].

⁽⁵⁷⁾ انظر: الحمدي أحمد (الدكتور)، الفقيه المصلح محمد بن عبد الكريم المغيلي الإطار المعرفي والتعامل مع المكانية، ص30، 62-63.

⁽⁵⁸⁾ انظر: شيخ عثمان كبر (الدكتور): الشعر الصوفي في نيجيريا، ص88-89.

⁽⁵⁹⁾ انظر: آدم عبد الله الإلوري: الإسلام في نيجيريا، ص63.

دولته، كما كانت جماعته تسمى بـ(الجماعة القادرية)، وقد كان يفخر بحصوله على سند في أوراها يتصل بالإمام المغيلي، في كتابه «تعليم الإخوان» حيث قال: "وَنريد أن تختتم هذا الكتاب بذكر سندن المتصل إليه (الإمام المغيلي) رضي الله تعالى عنه الذي جاءنا من سيدي محمد بن المختار بن أحمد بن أبي بكر الكنتي الأموي وهو سند ورد السلسلة القادرية، أجازني به الشيخ العالم نوح، وهو عن شيخه سيدي محمد المختار المذكور... عن شيخه سيدي محمد بن عبد الكريم المغيلي رضي الله تعالى عنه وقدر اتصالنا به اتصال الحي والبرزخ.." (60).

ثم في مطلع القرن (18م - 12هـ)، اشتدت عناية أهل مدينة كنو بإحياء آثار القادرية، وأول من نشرها هناك الشيخ عمر بن المختار التنبكتي المشهور بـ(العالم كبر)؛ وهو الجد الأعلى للأسرة الكبرى (ت1250هـ)، ثم الشيخ يحيى الصرصري الطرابلسي، ثم الشيخ محمد محمود المغربي، ثم الشيخ سعد الغدامسي البليبي الفندي (وهو أول من بنى الزاوية القادرية في مدينة كنو)، ثم الشيخ أبوبكر الفندي الكنوي ثم الشيخ آدم العطار نمعجي الفلكي، ثم الشيخ محمد الناصر بن المختار الكبرى، والذي انتهت إليه الرئاسة القادرية في ديار نيجيريا⁽⁶¹⁾، وبعد وفاته عام (1996م) خلفه ابنه الشيخ قريب الله الكبرى.

المبحث الثالث: دور الإمام المغيلي في النهضة السياسية بمدينة كنو.

النظام السياسي في مدينة كنو قبل مجيء الإمام المغيلي:

تُعتبر مدينة كنو أشهر بلاد هوسا وأوسعها وأرقاها وأكبرها وأغناها، ويرجع تأسيسها إلى القرن (10م)، وكانت تقع على طريق القوافل المجتازين

(60) الشيخ عثمان بن فودي، تعليم الإخوان بالأمور التي كَفَرنا بها ملوك السودان،

(مخطوط، جامعة بايرو 24 Box، كنو- نيجيريا)، ص 18-19.

(61) انظر: آدم عبد الله الإلوري: الإسلام في نيجيريا، ص 64.

من المغرب إلى المشرق⁽⁶²⁾، وعلى الرغم من ذلك كله لم يكن لأمرائها نظام معتمد مدوّن يستنبرون به في شئون الملك سوى اجتهادات وتقاليد يرثها الخلف عن السلف، والذي أدى إلى أن يعيش بعض الناس تحت وطأة الظلم والجهل والعبودية المطلقة، وأما الممالك والإمارات فليس بينها في ذلك الوقت سوى حروب طاحنة؛ حيث تحارب مدينة كنو بلدة كشنا، وتحارب هذه الأخيرة بلدة زكرك وهكذا⁽⁶³⁾؛ لأن هذه الحروب كانت الوسيلة الرئيسة لإنماء دخل المملكة، والانتصارُ في الحرب معناه الحصول على الغنائم الكثيرة والمختلفة؛ أهمها السبايا من الرجال والنساء والصبيان، والمملكة التي هي أكثر غنى أكثر تعرضاً لهذه الحروب، وهذا الذي يفسر لنا سر كثرة الغارات التي شنت على مدينة كنو⁽⁶⁴⁾، ولم تقف هذه الحروب نهائياً إلا بعد عصر المغيلي بحوالي ثلاث قرون، على يد الشيخ عثمان بن فودي الذي وحد جميع ممالك بلاد هوسا تحت دولة إسلامية واحدة.

دور المغيلي في النهضة السياسية والاجتماعية في مدينة كنو:

المقصود بالسياسة هنا: ما يمارسه صاحب الولاية من اجتهاد في تدبير شؤون الدولة الداخلية والخارجية، بما فيه مصلحة للأمة، وفقاً لنصوص الشريعة الإسلامية وأصولها العامة، وما يتخذ من وسائل لتنفيذ أحكام الشريعة وتحقيق مقاصدها في الخلق⁽⁶⁵⁾.

⁽⁶²⁾ انظر: آدم عبد الله الإلوري، الإمام المغيلي وأثاره في الحكومة الإسلامية في القرون الوسطى في نيجيريا، ص 41.

⁽⁶³⁾ انظر: أحمد مرتضى: الإمام المغيلي وإسهامه في بناء الحضارة الإسلامية في بلاد الهوسا، ص 15.

⁽⁶⁴⁾ انظر: علي أبوبكر (الدكتور)، الثقافة العربية في نيجيريا، بيروت: مؤسسة عبد الحفيظ البساط، الطبعة الأولى، 1972م، ص 66.

⁽⁶⁵⁾ انظر: محمد الصالح ضيف، مقاصد السياسة الشرعية عند الشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي (دكتوراه)، جامعة أحمد درارية، أدرار، 2017، ص 86.

فالأمير محمد رنفا - رحمه الله تعالى - انتهز فرصة وجود الإمام المغيلي معه بأن طلب منه ما يستعين به في الإدارة على النظام الإسلامي⁽⁶⁶⁾؛ خصوصاً في تلك الفترة التي يمكن وصفها - بالنسبة لإمارة كنو- بالانتقالية من الوثنية إلى الإسلام من ناحية، وأزهى العصور الكنوية من ناحية أخرى، فكتب له رسالتان في ذلك؛ والتان كانتا بمثابة دستور كامل يُحكم به المدينة؛ الأولى بعنوان: «وصية المغيلي إلى محمد بن يعقوب»، والثانية بعنوان: «تاج الدين فيما يجب على الملوك والسلاطين» والواضح في محتوى هاتين الرسالتين أنه يتّجه إلى جانبيين؛ جانب يخص الأمير وآخر خاص بمملكته، وفيما يلي ملخص ما جاء في الرسالة الثانية⁽⁶⁷⁾:

1- نظام خاص بشؤون الأمير: هو أنه يجب على الأمير أن يكون: حسنُ النية، حسنُ الهيئة، حذراً في السفر والحضر...

2- نظام خاص بشؤون المملكة: أن يكون في حضرة الأمير (داخل قصره) خدام وعقلاء يشيرون، وأمناء وكتاب ورسَل وحُساس وحفظة وعُساس وعلماء ثقات يرشدون، وأئمة فضل وعدول يشهدون، ومحتسبون يكشفون ويصلحون، وأرباب شرطة وشفعاء وقضاة ثقات ورجال معظّمون لوجه الله، وعمال يجبون حق الله، ووزراء لا يخشون إلى الله، وغير ذلك. ومن ذلك أيضاً: الكشف عن الأمور بحسب المقدور، والعدل في الأحكام، وجباية الأموال من حيث أباح الله تعالى له، وألا يصرفه إلا في المصارف التي شرعها الله تعالى.

وأما الرسالة الأولى: التي بعنوان: «وصية المغيلي إلى محمد بن يعقوب فيما يجوز للحكام في ردع الناس عن الحرام» فقد تضمنت الأحكام القانونية

⁽⁶⁶⁾ انظر: أحمد مرتضى: الإمام المغيلي وإسهامه في بناء الحضارة الإسلامية في بلاد الهوسا، ص12.

⁽⁶⁷⁾ اعتمدت هنا على النسخة التي حققها وترجمها إلى اللغة الفرنسية: آدم كارامي، ونشرتها: منظمة حماية وتقويم المخطوطات للدفاع عن التراث الإسلامي، بماكو - مالي، 2020م، ص19-43.

لقواعد التجريم والعقاب، وذلك على غرار مدونات التشريع الجنائي التي تعرفها النظم العقابية في عصرنا، حيث تحدّث فيها عن: أنواع العقوبات التعزيرية كالحبس والضرب والنفي وغيرها، ثم تناول بعض الجرائم الحدية والتعزيرية التي يلزم التدخل بشأنها كالشرك وكشف العورة وشرب الخمر وأكل الميتة والدم وغير ذلك..⁽⁶⁸⁾

أ- الدور الاجتماعي:

لم يكتف الإمام المغيلي بتقديم الرسائل (الدستور) للأمر فحسب، بل وقف معه لتنزيل الوصايا المذكورة فيها على أرض الواقع، الأمر الذي غيّر - سريعا - وجهة نظر الكنويين، ورفع من شأن المدينة ومكّنها من التقدم في الجانب الديني والمادي والثقافي، وتندشّق الناس عبر الحرية، وعاشوا في فسحة لم تحتجب عنهم الأمراء، واطمأنوا في تصوّفاتهم من غير خوف قهر سلطان ولا تعنت أمير، ونهض الناس للعمل واكتساب ما يحقق لهم العيشة الحميدة⁽⁶⁹⁾.

كما نتج من هذه المجهودات المغيلية: وحدة الأمة وتآلفها خصوصا بين مدينتي كنو وكشنا، حيث أوقفت لحدّ ما التناحرات والحروب الطاحنة التي بينهما، فعاد روح التعاون والمحبة، ولا أدلّ على ذلك مما ثبت أنه لما سمع أهل كنو بقدوم الشيخ المغيلي من كشنا خرجوا مع أميرهم وتجمعوا لقبوله من خارج سور المدينة⁽⁷⁰⁾. ومما يذكر في ذلك:

1. نصب قاضي القضاة وإمام صلاة الجمعة: حيث اختار لهذين المنصبين رجلين من أهالي المدينة؛ لكفاءتهما، فنصب الشيخ أحمد للإمامة والشيخ عبد الله للقضاء، بعد التحقق من علمهما وأمانتهما⁽⁷¹⁾.

⁽⁶⁸⁾ انظر: حاج أحمد عبد الله (دكتور)، الجهود الإصلاحية للإمام المغيلي ببلاد الهوسا خلال القرن التاسع الهجري، ص 44.

⁽⁶⁹⁾ انظر: أحمد مرتضى: الإمام المغيلي وإسهامه في بناء الحضارة الإسلامية في بلاد الهوسا، ص 15.

⁽⁷⁰⁾ نفس المرجع والصفحة نفسها.

⁽⁷¹⁾ نفس المرجع ص 13.

2. نصب المحاكم وتولية القضاة، وتوطيد أركان القضاء، وكان يشرف عليه بنفسه، ويحضر المحكمة التي يتولاها الأمير في قصره، ولم يزل أحفاد المغيلي لهم مجلس خاص فيها إلى اليوم⁽⁷²⁾.

3. حضّ الأمير على إقامة صلاة العيد جمعا.

4. حضّ الأمير على احتجاج نساءه، وبالاستقرار في بيوتهن وعدم التجوال بغير حاجة ماسة، فسرعان ما تأسى به في ذلك الشعب، وبقيت عادة مستمرة إلى اليوم⁽⁷³⁾.

5. توسيع وتغيير مكان القصر الملكي، حيث نُقل من داخل البلد (قرب أكمة دالا) إلى مكانه الحالي.

الخاتمة:

في نهاية هذه الدراسة نخلص إلى النتائج التالية:

1. للإمام المغيلي في بلاد هوسا مجهودات كبيرة في مجال التعليم والدعوة الإسلامية، كما له أيادي بيضاء في إصلاح أمور المسلمين وأحوالهم الدينية والثقافية، وكانت لفتاواه أثر كبير في النهضة العلمية والإصلاحية لا في مدينة كنو فحسب، بل في جميع بلاد هوسا، من عصره إلى يومنا هذا؛ حتى قال أحد المؤرخين في نيجيريا: إنه لم يُخلد التاريخ أثراً لعالم عربي مغربي أو مشرقي، مثل ما خلّده للإمام المغيلي في غرب أفريقيا عموماً، وفي نيجيريا خصوصاً.

2. بالإضافة إلى بناء مراكز العلم والمعرفة، قد تخرج على أيديه حوالي ثلاثمائة (300) عالم متضلع في مدينة كنو وضواحيها قبل مغادرته، الأمر الذي أنتج أرضية خصبة للإنتاج العلمي والثقافي في بلاد هوس عامة فيما

⁽⁷²⁾ نفس المرجع والصفحة نفسها.

⁽⁷³⁾ نفس المرجع، ص 14.

بعد، والذين تخرج على أيديهم شيوخ أعلام، أصبحوا هم المرجعية لأهالي بلاد هوسا قاطبة.

3. الإمام المغيلي هو أول من نشر الطريقة القادرية في مدينة كنو، ثم جاء بعده الشيخ العلامة عبد الله الثقة، الذي عاش بين (1019هـ-1610م)، ثم جاء الشيخ عثمان بن فودي والذي جعلها الطريقة الرسمية في دولته، كما كانت جماعته تسمى بـ(الجماعة القادرية).

4. على الرغم من ازدهار مدينة كنو من الناحية الاقتصادية في ذلك الوقت إلا أنه لم يكن لأمرائها نظام معتمد مدوّن يستنيرون به في شئون الملك، فكان أول من وضع لهم دستوراً على النظام الإسلامي؛ بطلب من أميرها محمد رمفا، ولم يزل أثره ملموساً - إلى اليوم - في إمارة كنو، بل حتى في دستور دولة نيجيريا.

والله تعالى أسأل القبول والنفع، وأن يجزي الإمام المغيلي عن الإسلام والمسلمين خيراً، وأن يعم بالخير والأمن والاستقرار بلادنا، إنه على ذلك قدير وبالإجابة جدير، وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى آله والحمد لله رب العالمين.

قائمة المصادر والمراجع:

1. ابن مريم، البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان.
2. أبو بكر إسماعيل ميغا (دكتور)، الحركة العلمية والثقافية والإصلاحية في السودان الغربي.
3. أحمد الحمدي، محمد بن عبد الكريم المغيلي رائد الحركة الفكرية بتوات (ماجستير في التاريخ والحضارة الإسلامية).
4. أحمد باب التنبكتي، نيل الإبتهاج بتطريز الديباج.
5. أحمد بابا التنبكتي، كفاية المحتاج لمعرفة من ليس في الديباج.
6. أحمد جعفري (الأستاذ الدكتور)، حوار الإمام محمد بن عبد الكريم المغيليمع ملوك وأمراء غرب إفريقيا وأثره في حركة الفتح الإسلامي لإفريقيا.
7. أحمد مرتضى، الإمام المغيلي وإسهامه في بناء الحضارة الإسلامية في بلاد الهوسا.
8. إدريس بن خويا (الأستاذ الدكتور) وفاطمة برماتي (دكتورة)، الإمام محمد بن عبد الكريم المغيلي وجهوده اللغوية.
9. آدم عبد الله الإلوري: مصباح الدراسات الأدبية في الديار النيجيرية.
10. آدم عبد الله الإلوري، الإسلام في نيجيريا.
11. آدم عبد الله الإلوري، الإمام المغيلي وآثاره في الحكومة الإسلامية في القرون الوسطى في نيجيريا.
12. الأستاذ الدكتور عبد الرحمن حمادو الكتبجي المغيلي محدثًا على خطي الحافظ السيوطي.
13. بدون اسم المؤلف، الورقة المكتوبة في أصل الونغيرين.
14. بوعزيز يحي، تاريخ إفريقيا الغربية الإسلامية من مطلع القرن السادس عشر إلى مطلع القرن العشرين.
15. حاج أحمد عبد الله (دكتور)، الجهود الإصلاحية للإمام المغيلي ببلاد الهوسا خلال القرن التاسع الهجري
16. حاج أحمد نور الدين، المنهج الدعوي للإمام المغيلي من خلال الرسائل التي بعثها للملوك (ماجستير في الشريعة).
17. الحمدي أحمد (الدكتور)، الفقيه المصلح محمد بن عبد الكريم النغيلي الإطار المعرفي والتعامل مع المكانية.
18. عبد العلي الودغيري (الدكتور)، ملامح من التأثير المغربي في الحركة الإصلاحية في النيجر.

19. سالم بن الشيخ عبد القادر المغيلي، خلاصة قولي ودليلي في الرد على الطاعن في نسل ونسب الشيخ سيدي محمد المغيلي.
20. الشيخ عثمان بن فودي، تعليم الإخوان بالأمور التي كَفَرْنَا بِهَا ملوك السودان.
21. شيخ عثمان كبر (الدكتور)، الشعر الصوفي في نيجيريا.
22. الشيخ محمد الناصر بن المختار كبر، العينان النضاختان.
23. الشيخ محمد بن مخلوف، شجرة النور الزكية في طبقات المالكية.
24. عبد الباقي مفتاح، أضواء على الشيخ عبد القادر الجيلاني وانتشار طريقته.
25. علي أبوبكر (الدكتور)، الثقافة العربية في نيجيريا.
26. قذافي شريف بشير، النثر الفني في مجموعة المغيلي وأثره في الأدب العربي النيجيري (ماجستير).
27. كبير آدم تدن نفاوا، النثر العربي النيجيري صورته وخصائصه عبر العصور.
28. مبروك مقدم (دكتور): حياة وأعمال الإمام محمد بن عبد الكريم المغيلي التلمساني
29. مبروك مقدم (دكتور)، الإمام محمد بن عبد الكريم المغيلي ودوره في تأسيس الإمارة الإسلامية بأفريقيا الغربية.
30. مبروك مقدم (دكتور)، الشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي وأثره الإصلاحية بإمارات وممالك إفريقيا الغربية خلال القرن الثامن والتاسع والعاشر للهجرة.
31. مبروك مقدم، مدونة فقه التشريع لبناء الإمارة.
32. مبروك مقدم، الإمام محمد بن عبد الكريم المغيلي التلمساني من خلال المصادر والوثائق التاريخية
33. مبروك مقدم، رسالة لكل مسلم ومسلمة.
34. محمد الصالح ضيف، مقاصد السياسة الشرعية عند الشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي.
35. محمد بن أحمد أبو راس الناصري، عجائب الأسفار ولطائف الأخبار.
36. محمد بن عبد الكريم المغيلي، تحقيق رابع بونار، مصباح الأرواح في أصول الفلاح.
37. محمد بن عسكر الشفشراوي، دوحة الناشر لمحاسن من كان بالمغرب من مشائخ القرن العاشر.
38. مقابلة شفوية مع الشريك قذافي بشير (وهو من أحفاد الإمام المغيلي بمدينة كنو)، بتاريخ: 23 أكتوبر 2022م.

الحسبة السياسية عند الإمام المغيلي وأثرها في تفعيل قيم الحكم الرشيد بممالك أفريقيا

أ.د/ حاج أحمد عبد الله - آل المغيلي

جامعة أدرار - الجزائر

الملخص:

تشمل الحسبة في السياسة الشرعية جميع مجالات الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية والدينية، ولعل أهم تلك المجالات ما تعلق منها بالاحتساب على الحاكم؛ لأنه بصلاح الحاكم وأخذه بعناصر الحكم الرشيد، تشمل التنمية والازدهار جميع المجالات، وقد كان الإمام المغيلي من رواد الحسبة السياسية خلال القرن التاسع الهجري، حيث مارس الاحتساب على عدد كبير من ذوي الجاه والسلطان، وذلك نتيجة لتعدّد المدن التي نزل بها داعياً ومصلحاً، خاصة ما تعلق منها بدول إفريقيا جنوب الصحراء، حيث أدى اتصاله بالحكام هناك لتفعيل قيم الحكم الرشيد بتلك البلاد.

الكلمات المفتاحية:

المغيلي، الحسبة السياسية، الحكم الرشيد، الهوسا، سنغاي، ممالك أفريقيا.

The Political *Hisba* of Imām al-Maghīlī and Its Impact on Activating the Values of Good Governance in the Kingdoms of West Africa

Abstract

Political *hisba*, an Arabic word meaning, 'commanding good and forbidding evil' in legitimate politics include all areas of political, economic, social, cultural, and religious life. One of the most important of these areas is related to the accountability of the ruler. The development and prosperity of all areas are encompassed by the righteousness of the ruler and his adherence to the elements of just rule. Imām al-Maghīlī was one of the pioneers of political *hisba* during the 9th century AH. He practiced accountability on a large number of wealthy and powerful people, especially in the cities he visited as a preacher and reformer, particularly in sub-Saharan African states and kingdoms. His contacts with the rulers there helped to activate the values of just rule in those lands.

Keywords:

Imām al-Maghīlī, Political *Hisba*, Good Governance, Hausa, Songhay, Kingdoms of West Africa

المقدمة:

لقد قدّم العلماء والمصلحون على مر التاريخ الإسلامي جهوداً وتضحيات كبيرة في الاحتساب على المنكرات الظاهرة بالمجتمع الإسلامي؛ لأجل إصلاح أوضاع الناس وفق ما تقتضيه أحكام الشريعة الإسلامية، فمنهم من وفقه الله في تحقيق تلك الغاية الشريفة، ومنهم من هلك دون ذلك حسبة لله وابتغاء مرضاته، ومن أبرز أولئك الأعلام المصلحين نجد شخصية الإمام المغيلي التي ظهرت إبان القرن التاسع الهجري.

كما تتعدّد مجالات الاحتساب في السياسة الشرعية، إذ تشمل جميع الشؤون السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية والدينية، ولعلّ أهم تلك المجالات ما تعلّق منها بالاحتساب على الحاكم، فهو مجال ينفر منه العديد من الدعاة والمصلحين، لما يتضمنه من التدخل في شؤون الحكم، وهو ما يُشكّل خطراً على المحتسب، خاصة إذا كان الحاكم مستبداً في ممارسة السلطة، ولعلّ الإمام المغيلي يعدّ أبرز شخصية باشرت هذا النوع من الاحتساب خلال القرن التاسع الهجري الخامس عشر الميلادي، حيث مارس الاحتساب على عدد كبير من ذوي الجاه والسلطان، وذلك نتيجة لتعدّد الأقاليم التي نزل بها داعياً ومصلحاً، فكيف باشر الإمام المغيلي الاحتساب على الحكّام بممالك أفريقيا؟ وما هو أثر ذلك الاحتساب في تفعيل قيم الحكم الراشد؟

ولدراسة هذا الموضوع اتبعنا الخطة الآتية:

المطلب الأول: التعريف بالمفاهيم الأساسية.

الفرع الأول: مفهوم الحسبة السياسية وأهميتها وشروط المنكر الموجب للحسبة.

الفرع الثاني: تعريف الحكم الراشد.

الفرع الثالث: التعريف بممالك أفريقيا.

المطلب الثاني: احتساب الإمام المغيلي على حكام أفريقيا وعلاقته بالحكم الراشد.

الفرع الأول: احتساب الإمام المغيلي على حاكم كانوا.

الفرع الثاني: احتساب الإمام المغيلي على حاكم سنغاي.

الفرع الثالث: أثر احتساب المغيلي في تفعيل قيم الحكم الراشد.

المطلب الأول: التعريف بالمفاهيم الأساسية.

يتضمن عنوان الدراسة مجموعة من المصطلحات التي تندرج في مجالات مختلفة، حيث جمع بين الجانب الفقهي والقانوني والتاريخي، وهو ما يدفعنا بداية لتحديد مفهوم الحسبة السياسية في الفقه الإسلامي (الفرع الأول)، ثم التعرّض لمدلول الحكم الراشد عند رجال القانون (الفرع الثاني)، لننتقل بعدها للتعريف بممالك غرب أفريقيا (الفرع الثالث) التي تأثرت بالاحتساب الذي باشره الإمام المغيلي.

الفرع الأول: مفهوم الحسبة السياسية.

تُطلق الحسبة في اللغة على عدّة معان، حيث يعدُّ الإنكار هو المعنى الأقرب للمدلول الاصطلاحي في السياسة الشرعية، فنقول احتسب فلانٌ على فلانٍ، أي أنكر عليه قبيح عمله⁽¹⁾.

ويُعرّف الماوردي الحسبة في الاصطلاح الشرعي بأنّها: « أمر بالمعروف إذا ظهر تركه، ونهي عن المنكر إذا ظهر فعله »⁽²⁾، وهو تعريف شامل لجميع

⁽¹⁾ ابن منظور، لسان العرب، (بيروت: دار صادر، ط1، 1990م)، 15 مج، مج1، ص 317.

مجالات الحسبة، سواءً صدرت من جهة رسمية أو من غيرها، فإذا صدر الاحتساب من جهة رسمية، فهو ما يُعرف في التراث الفقهي بالمحتسب الوالي، وإذا صدر الاحتساب من جهة أخرى غير رسمية، فهو ما يُعرف في التراث الفقهي بالمحتسب المتطوع.

وتتم الحسبة على الحاكم بالاحتساب على من يتولى السلطة أو يتولى حصة منها أياً كانت وسيلة توليتها، فهي تشمل جميع هيئات السلطة التنفيذية في الدولة، وعلى رأسها الخليفة أو الرئيس ونوابه أو الحكومة، أي هم جميع رجال الحكم الذين يملكون سلطة اتخاذ القرار، سواءً كانوا يمثلون هيئات إدارية مركزية أو محلية⁽³⁾، فمتى كان المحتسب عليه هم رجال الدولة، نكون أمام ما يُعرف بالحسبة السياسية، حتى وإن لم يكن موضوعها سياسياً⁽⁴⁾، بل يمتد هذا النوع من الاحتساب ليشمل رجال السلطة التشريعية والقضائية، وإنما يتم التركيز على رجال السلطة التنفيذية؛ لأن أكثر الظلم والفساد والتعسف في استعمال السلطة يصدر عنهم.

وعليه؛ يمكن تعريف الحسبة السياسية بأنها: «تبصير الحاكم أو نائبه بالمعروف إذا ظهر تركه، وبالمُنكر إذا ظهر فعله، ممّا يندرج في ولايته واختصاصه».

ولما كان موضوع الدّراسة يتعلّق بالاحتساب الصادر من جهة غير رسمية باتجاه جهة رسمية، فإنّ دراستنا تتعلّق بعمل المحتسب المتطوع

(2) الماوردى، الأحكام السلطانية والولايات الدينية، (بيروت: المكتبة العصرية، 2001م)، ص 260.

(3) فريد عبد الخالق، الحسبة في الإسلام على ذوي الجاه والسلطان، (مصر: دار الشروق، ط1، 2011م) ص 162.

(4) محمد بن شاعر الشريف، الحسبة السياسية والفكرية، (القاهرة: المركز العربي للدراسات الإنسانية، 2011م)، ص 93.

وليس بعمل المحتسب الوالي، حيث مارس الإمام المغيلي الاحتساب من موقعه كداعية ومصلح على بعض حكام دول المغرب الإسلامي وممالك غرب أفريقيا بغرض الإصلاح، ويعني ذلك أن قيام أو صدور الاحتساب من جهة رسمية باتجاه جهة رسمية مثل ما يقوم به المحتسب الوالي اتجاه الوزير أو الأمير أو القاضي أو والي المظالم لا يمنع من تدخل المحتسب المتطوع من الاحتساب في الشأن السياسي.

كما لم يقتصر الإمام المغيلي في عصره على الاحتساب في الشأن السياسي فحسب، بل مارس الاحتساب على الرعية وأهل الذمة والعلماء وذوي الجاه والسلطان، حيث شهد للإمام المغيلي بالحسبة في الدين علماء عصره وجميع من ترجم له؛ ومن تلك الشهادات نجد:

1- شهادة الإمام محمد بن يوسف السنوسي: جاء في جوابه للإمام المغيلي عن مسألة إحداث اليهود لكنيسة ببلاد توات ما نصه: «من عبىد الله تعالى محمد بن يوسف السنوسي غفر الله تعالى له ولوالديه بلا محنة، إلى الأخ في الله الحبيب في ذات الله تعالى القائم بما اندرس في فاسد الزمان من فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر التي القيام بها لا سيما في هذا الوقت علم على الاتساع بالذكرورة العلمية، والغيرة الإسلامية، وعمارة القلب بالإيمان السيد أبي عبد الله محمد بن عبد الكريم المغيلي...»⁽⁵⁾.

2- شهادة محمد بن عسكر الحسني: وصف الإمام المغيلي بأنه: «... الشيخ الفقيه الصدر الأوحى أبو عبد الله محمد بن عبد الكريم المغيلي، كان

⁽⁵⁾ الوثنريسي، المعيار المعرب عن فتاوى علماء إفريقية والأندلس والمغرب، خرّجه جماعة من الفقهاء بإشراف الدكتور محمد حجي، (بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1990م)، 13 ج، 2 ج، ص 252.

من أكابر العلماء، وأفاضل الأتقياء، وكان شديد الشكيمة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر...»⁽⁶⁾.

3- وقال عنه ابن مريم: «سيدي محمد بن عبد الكريم المغيلي التلمساني خاتمة المحققين الإمام العالم العلامة المحقق الفهامة، القدوة، الصالح السني الحبر، أحد أذكى العالم، وأفراد العلماء، الذين أوتوا بسطة في العلم والتقدم، والحسبة في الدين، المشهور بمحبة رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وبغض أعدائه...»⁽⁷⁾.

وهناك العديد من صور الاحتساب التي يقوم بها المحتسب في الشأن السياسي؛ منها⁽⁸⁾:

1- جانب الأمر بالمعروف: تنبيه الحاكم أو السلطان على حُسن تنظيم أجهزة الدولة، ومتابعة نشاطها بما يضمن تحقيق مصالح المسلمين الدينية والدينيوية، وتولية المناصب لأهل العلم والأهلية والصالح، وتقريب البطانة الصالحة، وتعيين الوالي إن كانت هناك بلاد مهملة، وإقامة العدل، وضبط الإنفاق العام من بيت المال في المصارف المشروعة....

2- جانب النهي عن المنكر: تنبيه الحاكم أو السلطان للانحرافات أو المخالفات الحاصلة في بعض أجهزة الدولة بغية القضاء عليها، ومراجعة التشريع المخالف لأحكام الشريعة الإسلامية، والنهي عن تعطيل حقوق الرعية، وتغيير الولاية لإصرارهم على الظلم والتعسف في استعمال السلطة، والنهي عن توقيع المعاهدات الجائرة....

⁽⁶⁾ ابن عسكر، دوحة الناشر لمحاسن من كان بالمغرب من مشايخ القرن العاشر، تحقيق محمد حجي، (المغرب - الرباط): مطبوعات دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر، ط2، 1977م)، ص130.

⁽⁷⁾ ابن مريم، البستان في ذكر العلماء والأولياء بتلمسان، (الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية، 1986م)، ص253-255.

⁽⁸⁾ محمد بن شاكر الشريف، مرجع سابق، ص93-94.

وقد ذكر العلماء بأن للمحتسب في نهيه عن المنكر وإزالته، أن يقوم بإعمال عدّة وسائل تمكّنه من تغييره، وميزوا في ذلك بين الوسائل التي يمكن المحتسب الوالي من إعمالها دون المحتسب المتطوّع، ثم أن الناس كلهم سواسية أمام المحتسب، إذا صدر من أحدهم ما تجري فيه الحسبة، ولا يُستثنى من ذلك إلا حالات ثلاث، وهي⁽⁹⁾:

1- الوالدان: إذا صدر من الوالدين ما يجري فيه الاحتساب، فعلى الابن المحتسب على والده أو أمه أن يتوقف في الاحتساب عند وسيلة بيان الحكم الشرعي، وذلك مُراعاة للنصوص الخاصة بالإحسان إلى الوالدين، وعدم الإساءة إليهما.

2- الزوج: حكم الزوجة المحتسبة مع زوجها كحكم الولد مع والديه، وذلك مُراعاة للنصوص التي تحثّ الزوجة على إكرام زوجها.

3. الحاكم: إذا صدر من الحاكم ما يجري فيه الاحتساب، فإنه ليس للرعية أو المحتسب المتطوّع مع الحاكم أو السلطان غير التعريف، والنصح، والإرشاد، ولا يُتعدّاه إلى غيرها من المراتب الأخرى كدفع المنكر بالتهديد، والتعنيف، وإشهار السلاح، وكل ما فيه استعمال القوة عموماً، بالنظر لما يترتب عن ذلك في الغالب من منكر أكبر من المنكر الذي فعله الحاكم.

ولمّا كانت الحسبة على الحاكم تندرج ضمن حالات الاستثناء التي ذكرها الفقهاء، فإن الإمام المغيلي التزم بالوسائل المعتبرة والمشروعة في ممارسته للحسبة السياسية على بعض حكام دول المغرب الإسلامي وممالك غرب أفريقيا جنوب الصحراء في نهاية القرن التاسع الهجري، بغرض إصلاح النظم الإدارية والتشريعية والثقافية والاقتصادية والاجتماعية، وذلك لتحقيق مقاصد الشريعة الإسلامية بما يخدم مصالح الناس الدينية والدنيوية.

⁽⁹⁾ أحمد الكردي، بحوث وفتاوى فقهية معاصرة، (بيروت: دار البشائر الإسلامية، ط1، 1999م)، ص323.

الفرع الثاني: تعريف الحكم الراشد.

يعدّ مفهوم الحكم الراشد من بين المفاهيم الحديثة نسبياً، والتي برزت بصورة واضحة على الساحة السياسية والاقتصادية مع بداية الثمانينات من العقد المنصرم، وهذا لا يعني أنها فكرة جديدة، بل ترجع جذورها الفلسفية إلى أبعد من ذلك بكثير، لكن ظهرت وتبلورت في الفترة الأخيرة؛ باعتبارها تتضمن أحكاماً وقواعد خاصة، يمكن الاعتماد عليها في تنظيم وترشيد نشاط أجهزة الدولة بما يُحقّق الاستقرار والتنمية⁽¹⁰⁾، لذا يرى البعض بأن مفهوم الحكم الراشد جديد-قديم، فهو يحمل في طياته مفاهيم قديمة امتزجت مع عناصر حديثة فرضها التغير والتطور للأنظمة⁽¹¹⁾.

وقد أسهمت العديد من الأسباب في ظهور وتبلور مفهوم الحكم الراشد أو الرشيد، تتعلق في الغالب الأعم منها بقضية أساسية، وهي كيفية الاستفادة من الموارد العامة، فقد لوحظ على مدار عقود التنمية المتعاقبة منذ الستينيات حتى أواخر الثمانينيات من القرن العشرين أن تحقيق التنمية يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالحكم الراشد، حيث أهدرت الكثير من جهود التنمية بلا عائد بسبب سوء السياسات، كما ضاعت الكثير من الموارد بسبب الفساد، والذي أدّى لحرمان الدول النامية من فرص حقيقية للتنمية، ويعني ذلك أن إرساء دعائم الحكم الراشد، يؤدّي إلى استخدام أفضل للموارد المتاحة، وبالتالي تحقيق عائد أكبر⁽¹²⁾.

⁽¹⁰⁾ مجدوب خيرة، "سبل إرساء مبادئ الحكم الراشد المحلي لتحقيق أهداف التنمية المستدامة"، مجلة أبحاث كمية ونوعية في العلوم الاقتصادية والإدارية، العدد 01، (الجزائر: جامعة غرداية، 2019م) المجلد 01، ص 86.

⁽¹¹⁾ مصطفى زغيشي، «دور الحكم الراشد في تجسيد العدالة الانتقالية»، رسالة دكتوراه LMD، غير منشورة، كلية الحقوق والعلوم السياسية، جامعة باتنة 1 الحاج لخضر- الجزائر، 2019م، ص 72.

⁽¹²⁾ سامح فوزي، «الحكم الرشيد»، في: الموسوعة السياسية للشباب 19، (مصر: نهضة مصر، 2007م)، ص 34.

ولقد عرّف البنك العالمي سنة 1992م الحكم الراشد بأنه: «الطريقة التي يمارس بها السلطة؛ لأجل تسيير الموارد الاقتصادية والاجتماعية لأي بلد بغية التنمية»⁽¹³⁾.

كما يُعرّف الحكم الراشد بأنه: «مجموعة القواعد الطموحة الموجهة لإعانة ومساعدة المسيرين للالتزام بالتسيير الشفاف في إطار هدف المساءلة على أساس قاعدة واضحة المعالم»⁽¹⁴⁾.

وبالرغم من اختلاف تعريف الحكم الراشد من باحث لآخر، بحسب ما تُملّيه توجهاتهم واهتماماتهم بالشأن السياسي أو الاقتصادي، لكنها تتفق جميعاً بأن الحكم الراشد، يستهدف تحقيق رفاهية واستقرار وأمن الأفراد في المجتمع⁽¹⁵⁾.

ويتضح من التعريفين السابقين بأن ممارسة الحكم الراشد ليست صفة مرتبطة برأس السلطة فحسب، بل تشمل كل من يمارس السلطة في الشأن السياسي أو الاقتصادي أو الاجتماعي أو غيرها من المسائل التي تتعلق بنشاط الدولة، بحيث يقوم هؤلاء في تسييرهم للشأن العام بمراعاة مجموعة من القواعد، تؤدي بهم في الغالب للتحقيق الأمثل للتنمية في جميع تلك المجالات.

والظاهر أن الحكم الراشد يرتبط عكسياً بالفساد، فإذا غاب الحكم الراشد ارتفع معدّل الفساد، وإذا حلّ الحكم الراشد انخفض مستوى الفساد، وهو ما يجعل الفساد دائماً يشكل حجر عثرة لقيام الحكم الراشد

⁽¹³⁾ بوجدة الياسين، «واقع ومتطلبات الحكم الراشد في الوطن العربي»، المجلة الجزائرية للدراسات السوسولوجية، ص258.

⁽¹⁴⁾ خلوف عقيلة، " الحكم الراشد ودوره في تفعيل المشاركة المجتمعية في إدارة الميزانية العامة للدولة"، مجلة الاقتصاد الجديد، العدد 16، 2017م، المجلد 01، ص197.

⁽¹⁵⁾ مجدوب خيرة، مرجع سابق، ص 89.

في مختلف المجالات؛ لأن الفساد يؤدي لسوء استخدام الموقع الوظيفي من أجل تحقيق مكاسب شخصية⁽¹⁶⁾.

وإذا كان هناك من يختصر مدلول الحكم الراشد في مكافحة الفساد، وأن القضاء على ظاهرة الفساد، تؤدي آلياً لتحقيق أو قيام الحكم الراشد، فإن هناك فريقاً آخر من الباحثين يعتبر هذا غير صحيح؛ لأن القضاء على الرشوة والمحسوبية وغيرها من صور الفساد لا يصاحبها بالضرورة فعالية سياسية أو اقتصادية أو اجتماعية، وبالتالي فإن الحكم الراشد بهذا المعنى لا يتحقق؛ لذا تعتبر مكافحة الفساد أحد عناصر أو شروط تحقيق الحكم الراشد، بالإضافة إلى تحقيق العناصر أو الشروط الأخرى كاحترام حقوق الإنسان، وإقامة دولة القانون، والفعالية الاقتصادية...⁽¹⁷⁾.

الفرع الثالث: التعريف بممالك أفريقيا.

لما تمكن الإمام المغيلي من إتمام حركته الإصلاحية ببلاد توات، وتولى أمرها بالولاية الشرعية قام باستخلاف ولده الأمير محمد على إمارة توات⁽¹⁸⁾، ثم اتجه نحو حواضر إمارات وممالك أفريقيا جنوب الصحراء؛ لأجل نشر العلم والدعوة والإصلاح، حيث نزل بالعديد من المدن هناك واتصل بحكامها للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وقد ذكر الشيخ أحمد بابا التنبكتي مسار رحلة الإمام المغيلي بالسودان الغربي بعد خروجه من بلاد توات فقال: «ثم دخل بلاد أهر، ودخل بلاد تكدة

⁽¹⁶⁾ سامح فوزي، مرجع سابق، ص 42-43.

⁽¹⁷⁾ أبرداشة فريد، «الحكم الرشيد في الجزائر في ظل الحزب الواحد والتعددية الحزبية»، رسالة دكتوراه، غير منشورة، كلية العلوم السياسية والعلاقات الدولية، جامعة الجزائر 3 - الجزائر، 2014م، ص 31.

⁽¹⁸⁾ ننظر دراستنا حول: «الإمارة المغيلية بتوات -التأسيس والسقوط- 899/882 هـ»، مجلة الحوار الفكري، العدد 16(الجزائر): مخبر الدراسات الإفريقية بجامعة أدرار، 2018م)، السنة الثالثة عشر.

واجتمع بصاحبها، وأقرأ أهلها وانتفعوا به، ثم دخل بلاد كنو وكشن من بلاد السودان، واجتمع بصاحب كنو، واستفاد عليه وكتب رسالة في أمور السلطنة يحضه على اتباع الشرع وأمر بالمعروف ونهى عن المنكر، وقرر لهم أحكام الشرع وقواعده.

ثم رحل لبلاد التكرور، فوصل إلى بلدة كاغو، واجتمع بسلطانها ساسكي محمد الحاج، وجرى على طريقته من الأمر بالمعروف، وألف له تأليفاً أجابه فيه عن مسائل، وبلغه هناك قتل ولده بتوات من جهة اليهود...»⁽¹⁹⁾.

ورغم تعدد الحواضر التي نزل بها الإمام المغيلي بالسودان الغربي حسبما ورد في النص المذكور، لكن جهوده الإصلاحية ظهرت بشكل أبرز في حواضر بلاد الهوسا ومملكة سنغاي، بالنظر لما وصل إلينا من الكتب والوصايا التي تتضمن جملة من النصائح التي تقدم بها للحكام هناك، وهو ما يدفعنا للتعريف بالوضع السياسي والديني لبلاد الهوسا ومملكة سنغاي قبل نزول الإمام المغيلي بهما.

1- التعريف ببلاد الهوسا: تعدد بلاد الهوسا جزءاً من غرب إفريقيا التي كانت تُعرف سابقاً بالسودان الغربي، حيث تشمل حالياً مناطق واسعة من دول النيجر ونيجيريا وتشاد ومالي، إذ تمتد مساحتها من جبل الهواء بجمهورية النيجر شمالاً إلى منطقة حوس بلاتو وسط نيجيريا جنوباً، ومن بحيرة تشاد شرقاً إلى مدينة جني بجمهورية مالي غرباً⁽²⁰⁾.

⁽¹⁹⁾ أحمد بابا التنبكتي، نيل الابتهاج بتطريز الديباج، عناية وتقديم: عبد الحميد عبد الله الهرامة، ط2، (ليبيا - طرابلس - منشورات دار الكتاب)، ص 577.

⁽²⁰⁾ بوبكي سكينه، "الحركة العلمية بالهوسا في السودان الغربي خلال القرن 19م"، ماجستير في التاريخ والحضارة الإسلامية، غير منشورة، كلية العلوم الإنسانية والحضارة الإسلامية، جامعة وهران- الجزائر، 2009م، ص 2.

وأكدت ذلك بعض الموسوعات التاريخية التي أشارت بأن بلاد الهوسا في ذلك الزمن، تشمل ما يُعرف الآن بشمال دولة نيجيريا، وجزءًا من جمهورية النيجر، حيث كانت تقع في العصور الوسطى بالمنطقة المحصورة بين سلطنتي مالي وصنغي غربًا، وسلطنة البرنو شرقًا، وتحدها من الشمال بلاد أهير والصحراء الكبرى، ومن الجنوب ما يُعرف الآن بجنوب دولة نيجيريا. والهوسا مصطلح يُطلق على الذين يتكلمون بلغة الهوسا، ولذلك فليس هناك جنس يُتسمّى بهذا الاسم؛ إذ إنّ الهوسويين لا ينحدرون من دم واحد؛ بل جاء أغلبهم نتيجة امتزاج حدث بين جماعات قَبَلِيَّة وعِرْقِيَّة كثيرة، أهمها: السودانيُّون أهل البلاد الأصليُّون، والطوارق من البربر، والفولانيُّون وغيرهم⁽²¹⁾. فشعب الهوسا عبارة عن مزيج، نتيجة هجرات البربر والعرب من شمال إفريقيا نحو الجنوب، فاختلطت هذه الهجرات بالعناصر الزنجية بإقليم بلاد الهوسا⁽²²⁾.

كما أن المتكلمين بلغة الهوسا لم يعيشوا تحت حكم دولة واحدة، بل كَوْنُوا سبع إمارات صغيرة، تُعرف باسم إمارات أو ممالك الهوسا؛ وهي: كانو، وكاتسينا، وزاريا، وجوبير -غوبر-، ودورا، ورانو، وزمفرة، حيث كانت كلُّ إمارة من هذه الإمارات مستقلة عن الأخرى، وكانت الحروب تندلع فيما بينها في فترات كثيرة؛ نتيجة لأطماع حكامها في فرض سيطرتهم على الآخر⁽²³⁾.

أما بالنسبة للوضع الديني فإن المصادر التاريخية تشير بأن الإسلام قد دخل بلاد الهوسا قبل القرن الخامس عشر الميلادي، وكان الملوك والحكام

(21) مجموعة من المؤلفين: «الموسوعة الموجزة في التاريخ الإسلامي»، نقلًا عن: موسوعة سفير للتاريخ الإسلامي، نقلها وأعدّها للشاملة أبو سعيد المصري، الكتاب مرقم آليا، 16 ج، ج 14، ص 205. الموسوعة متاحة في الشبكة العنكبوتية بالمكتبة الإلكترونية الشاملة عبر الرابط (<https://al-maktaba.org/book/32136>) تاريخ الزيارة: أكتوبر 2022م.

(22) بوبكي سكيينة، مرجع سابق، ص 06-08.

(23) مجموعة من المؤلفين، مرجع نفسه، ج 14، ص 205.

في طليعة الذين اعتنقوه وتبعهم المجتمع بأسره، حيث يعدّ تجار قبيلة الوانغرا (الماندنغو) الذين أتوا من مالي بزعامة الفقيه عبد الرحمان زيتي هم الذين نقلوا الدين الإسلامي إلى جزء كبير من بلاد الهوسا⁽²⁴⁾، وبذلك لم ينتشر الإسلام ببلاد الهوسا إرغاماً ورهبةً بل طوعاً ورغبةً.

ويؤكد ذلك ما قاله الشيخ أحمد بابا التنبكتي في جوابه عن جانب من سؤال يسأل فيه صاحبه عن كيفية إسلام أهل السودان: «... أنهم أسلموا بلا استيلاء أحد عليهم كأهل كنوا، وكشن، وبرنوا، وسغي. ما سمعنا قط أن أحداً استولى عليهم قبل إسلامهم، ومنهم من هم قدماء في الإسلام كأهل برنوا وسغي»⁽²⁵⁾.

كما تجدر الإشارة بأن المصادر التاريخية لم تحدّد السنة التي دخل فيها الإمام المغيلي لإمارة كانو أحد ممالك الهوسا إلا أنه ثبت بأنه اتجه إليها من بلاد تكدة، حيث كان يحكم إمارة كانو في تلك المرحلة الأمير محمد بن يعقوب رنفا (حكم ما بين 867-904هـ / 1463-1499م)، الذي أعجب بالمغيلي فقربه منه، واتخذته مستشاراً له، ثم ولاه القضاء والإفتاء بكانو في الفترة التي قضاها ببلادته⁽²⁶⁾، وهو ما دفع بالمغيلي للاستقرار مدة طويلة بمدينة كانو، حيث تزوج هناك وخلف ثلاثة أبناء؛ وهم: أحمد، وعيسى، والسيد الأبيض، وأحفادهم باقون إلى اليوم بالمدينة⁽²⁷⁾.

⁽²⁴⁾ عثمان برايما باري، جذور الحضارة الإسلامية في الغرب الإفريقي، ط1، (القاهرة: دار الأمين، 2000م)، ص 90.

⁽²⁵⁾ أحمد بابا التنبكتي، معراج الصعود – أجوبة أحمد بابا حول الاسترقاق-، تحقيق وترجمة فاطمة الحراق وجون هانويك، (الرباط: منشورات معهد الدراسات الإفريقية، 2000م)، ص 53-54.

⁽²⁶⁾ محمد بن عبد الكريم المغيلي، تاج الدين فيما يجب على الملوك والسلطين ويلييه وصيته لسلطان كانو بنيجيريا، دراسة وتحقيق الدكتور مبارك جعفري، ط1، (الجزائر: دار الكتاب العربي، 2019م)، ص 33.

⁽²⁷⁾ ميروك مقدم، الشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي وأثره الإصلاحية بإمارات وممالك إفريقيا الغربية خلال القرن الثامن والتاسع والعاشر للهجرة، ط1، (الجزائر: دار الغرب للنشر والتوزيع، 2002م)، ج1، ص 112 و 249.

وعليه؛ فإنه بالرغم من تعدد المدن التي نزل بها الإمام المغيلي بالسودان الغربي إلا أن استقراره ببعض مدن إمارات الهوسا كان أكثر من غيرها، حيث يقول آدم عبد الله الإلوري: « لقد سجل كل من كتب عن المغيلي أنه قضى معظم حياته في بلاد السودان، مثل: تكدة، وأقدس، وكاشنه، وكانو، وتدل بقاء آثاره الخالدة في نيجيريا إلى اليوم على أن مكوثه في كانو وكاشنه أكثر وأدوم من مكوثه في غيرها»⁽²⁸⁾.

2- التعريف ببلاد سنغاي: تقع مملكة سنغاي بناحية بلاد الداھومي وفتتا العليا إلى جهات بوسا بشمال نيجيريا، وكانت عاصمتها مدينة غاو بالقرب من مدينة زوغوا الحاضرة⁽²⁹⁾، حيث قامت مملكة سنغاي في منطقة وسط نهر النيجر بغرب إفريقيا في القرن السابع الميلادي، وكان أول ملك اعتنق الدين الإسلامي يسمى « ضياء كوسوي»، وذلك سنة 1009م⁽³⁰⁾، ثم أخذت البلاد تتسع في عهد «سني علي» (868-897هـ) الذي كون جيشاً كبيراً منظماً مكنه من الاستيلاء على مدن كثيرة كـ «تمبكت» و«جني» و«كاتسينا» و«جوبير» وغيرها، ثم بعد ذلك مات في ظروف غامضة⁽³¹⁾.

وكان محمد بن أبي بكر التوري المعروف بـ «أسكيا محمد» عابداً ورعاً تقياً استوطن «سنغاي»، وكان وزيراً للملك «سني علي» الذي استبد برأيه في سياسة مملكته، فصبر معه أسكيا محمد وداراه، وأصلح كثيراً من مظالمه للرعية إلى أن مات، فأجمع علماء تنبكتو وجني وغيرها رأيهم على أن يتولى هذا الوزير العادل أمر مملكة سنغاي، حيث توزر لمدة ثلاثين سنة، فكان

⁽²⁸⁾ آدم عبد الله الإلوري، الإمام المغيلي وأثاره في الحكومة الإسلامية في القرون الوسطى في نيجيريا، ط1، (القاهرة: مكتبة وهبة، 2012م)، ص 16-17.

⁽²⁹⁾ آدم عبد الله الإلوري، الإسلام في نيجيريا والشيخ عثمان بن فودي الفلاني، ط1، (القاهرة - دار الكتاب المصري، بيروت - دار الكتاب اللبناني، 2014م)، ص 37.

⁽³⁰⁾ عثمان برايما بارى، المرجع السابق، ص 44.

⁽³¹⁾ مجموعة من المؤلفين، المرجع السابق، ج 9، ص 31-32.

على علم بآلام البلاد وآمالها، واشتهر عند الناس بالصلاح والتقوى، فكان جديراً بتسلم الإمارة والملك، وكانت توليته سنة 1494م⁽³²⁾.

وقد اهتم أسكيا محمد بتنظيم شؤون البلاد من الناحية الإدارية، واستخدم طائفة من الموظفين الأكفاء، كما نظم الجيش واستفاد من الخبرات السابقة، واتخذت إصلاحاته مظهراً إسلامياً واضحاً نتيجة عاملين أساسيين؛ هما⁽³³⁾:

1- قيامه بالحج إلى بيت الله الحرام في مكة عام 900هـ، واهتمامه بالشؤون الدينية، حتى أصبحت "تمبكت" في عهده مركزاً للثقافة الإسلامية في غرب إفريقيا.

2- حركة الفتوحات التي قام بها بغرض نشر الإسلام بين الوثنيين من جيرانه «الماندنجو» و«الفلواني» في الغرب، و«الطوارق» في الشمال، وقبائل «الموسى» الزنجية في الجنوب، و«الهوسا» في الشرق، حتى خضعت جميع هذه المدن للملك الأسكيا محمد عام 919هـ - 1513م.

ولما تولى الأسكيا محمد الملك نزل الإمام المغيلي ضيفاً على سنغاي، ولقي من التوري حفاوة بالغة، ثم استفتاه في بعض المسائل المتعلقة بأوضاع مملكته، فأجابه الإمام المغيلي عنها وفق أحكام الشريعة الإسلامية⁽³⁴⁾، حيث حققها مبروك مقدم تحت عنوان: «أجوبة الشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي للأمير الحاج محمد بن أبي بكر أسكيا الكبير»⁽³⁵⁾.

⁽³²⁾ آدم عبد الله الإلوري، الإسلام في نيجيريا، المرجع السابق، ص 39.

⁽³³⁾ مجموعة من المؤلفين، المرجع السابق، ج 9، ص 32-33.

⁽³⁴⁾ آدم عبد الله الإلوري، الإسلام في نيجيريا، المرجع السابق، ص 39-40.

⁽³⁵⁾ أجوبة الشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي للأمير الحاج محمد بن أبي بكر أسكيا الكبير، دراسة وتحقيق الأستاذ مبروك مقدم، ط1، (الجزائر: دار الغرب للنشر والتوزيع، 2002م)، ج2.

المطلب الثاني: احتساب الإمام المغيلي على حكام أفريقيا وعلاقته بالحكم الراشد.

إذا كانت الحسبة على الحاكم تتم بالاحتساب على من يتولى السلطة أو يتولى حصة منها، فإنه إذا صدر من الحاكم ما يجري فيه الاحتساب، فإنه ليس للمحتسب مع الحاكم أو السلطان غير التعريف، والنصح، والإرشاد، ولا يتعداه إلى غيرها من الوسائل أو المراتب الأخرى في الاحتساب كما ذكر الفقهاء؛ بالنظر لما يترتب على ذلك في الغالب من منكر أكبر.

وقد تمسك الإمام المغيلي بالوسائل المعتبرة والمشروعة في ممارسته للحسبة السياسية على بعض حكام غرب أفريقيا جنوب الصحراء، بغرض إصلاح النظم الإدارية والتشريعية والثقافية والاقتصادية والاجتماعية، وهو نفس ما تهدف لتحقيقه قيم الحكم الراشد، وهو ما يدفعنا في البداية إلى التعرض لاحتساب الإمام المغيلي على حاكم (الفرع الأول)، ثم لاحتساب الإمام المغيلي على حاكم سنغاي (الفرع الثاني)، لنتناول في الأخير أثر وصايا ونصائح الإمام المغيلي لأولئك الحكام في تفعيل قيم الحكم الراشد (الفرع الثالث).

الفرع الأول: احتساب الإمام المغيلي على حاكم كانو.

يعدّ الإمام المغيلي من أبرز العلماء الذين يرجع إليهم الفضل في نشر الإسلام والثقافة الإسلاميّة في بلاد الهوسا، وخاصة في إمارة كانو وإمارة كاتسينا، حيث نشر فيهما عقيدة الإسلام الصحيحة⁽³⁶⁾، وهو ما يؤكد كلام محمد سعيد القشاط الذي قال: «إن المغيلي لم يشارك فقهاء عصره في التقيد بالعلوم الشرعية، بل على العكس من ذلك كان منطقيا وسياسيا محنكا ثائرا ومحاربا أحيانا، يبحث عن التغيير، إليه يعود الفضل في إخضاع

⁽³⁶⁾ مجموعة من المؤلفين، المرجع السابق، ج 14، ص 207.

المعرفة الإسلامية في تلك المناطق للنقاش. اقترنت كل خطوة خطاها ببلاد السودان بحلقة درس أو خطبة وعظ أو بناء مدرسة ومسجد»⁽³⁷⁾.

وعليه؛ فإنه رغم دخول الإسلام لدول غرب أفريقيا قبل نزول الإمام المغيلي بها، لكن تميزت الحياة الثقافية عند نزوله ببلاد الهوسا بانتشار الجهل، ومحدودية الثقافة الشرعية، حيث أسهمت جهوده في تعميم نشر الإسلام والثقافة الإسلامية، وكذا محاربة العادات الفاسدة، وهو ما دفع بشكل كبير في التمكين لتعاليم الدين الإسلامي بتلك البلاد.

ومما يؤكد ذلك ما جاء في وصية الإمام المغيلي لسلطان كانو بنيجيريا، حيث جاء فيها ما نصه: «وامنع جميع أهل بلادك عن جميع أنواع الشرك، وكشف العورة، وشرب الخمر، وأكل الميتة والدم، وغير ذلك من المحرمات. وامنع كفار بلادك من أن يظهروا ذلك كله بين المسلمين في الأسواق والمنازل وغيرها من المحلات، فلو لم يتركوا إظهار شرك أو شرب خمر... لكان ذلك ذريعة لأن يفعل مثل فعلهم ضعفت العقول من العامة والنسوان والصبيان، لاسيما والغالب على أهل تلك البلاد الجهل والهوى...»⁽³⁸⁾.

كما لم تقتصر جهوده الإصلاحية على عامة الناس بل اتصل بحكام تلك البلاد، ونصحهم بتطبيق أحكام السياسة الشرعية في مسائل الحكم وكل ما يتصل بإدارة أو تسيير الشأن العام، حيث قال إسماعيل ميقا: «... وهو من أوائل من دفع العلماء والحكام في السودان وخاصة في كانو إلى الرجوع إلى كتاب الله وسنة رسوله ص...، وقام بدور عظيم في السودان لا يدانيه دور قام به عالم مغربي، فقد ترك أثراً إسلامياً بارزاً في جميع ممالك السودان الغربي. وقام بتصحيح مفاهيم كثيرة مغلوطة في أذهان العامة والسلطين»⁽³⁹⁾.

⁽³⁷⁾ محمد سعيد القشاط، أعلام من الصحراء، ص 180. نقلا عن: المغيلي، تاج الدين، المصدر السابق، تحقيق مبارك جعفري، ص 42.

⁽³⁸⁾ المغيلي، تاج الدين، المصدر السابق، ص 118.

⁽³⁹⁾ أبو بكر إسماعيل ميقا، الحركة العلمية والثقافية والإصلاحية في السودان الغربي من 400هـ إلى 1100هـ، ط1، (السعودية-الرياض: مكتبة التوبة، 1997م)، ص 170.

ومما ساعد وسهّل على الإمام المغيلي دوره الكبير في الإصلاح الاجتماعي هو ما قام به السلطان محمد بن يعقوب رنفا حاكم كانو حين قرّبه إليه، واتخذة مستشاراً له، ثم ولّاه القضاء والإفتاء في الفترة التي قضاها ببلاد⁽⁴⁰⁾.

ويتضح مظهر الحسبة السياسية للإمام المغيلي لدى حاكم إمارة كانو محمد بن يعقوب رنفا ببلاد الهوسا عندما صنّف له كتاب: «تاج الدين فيما يجب على الملوك والسلاطين»، حيث يتعلّق موضوعه بتنظيم الإمارة، وما تقتضيه شؤون السلطنة في السياسة الشرعية، كما كتب له وصية مختصرة «فيما يجوز للحكام في ردع الناس عن الحرام».

الفرع الثاني: احتساب الإمام المغيلي على حاكم سنغاي.

لما انتقل الإمام المغيلي للسودان الغربي برسم الدعوة والاحتساب، اتصل هناك بعدة حكام بغرب أفريقيا، كاتصاله بحاكم تكدة وحاكم أقدز ثم حاكم كانو وحاكم كاشنة من بلاد الهوسا، ليحطّ الرحال بعدها لدى حاكم مملكة سنغاي؛ لأجل أن يقدّم لهم النصيحة ويساعدتهم في تسيير شؤون الدولة والرعية بما يحقّق أحكام الشريعة ومقاصدها.

وقد حدّد الدكتور إسماعيل ميّقا خلفيات انتقال المغيلي للسودان الغربي، حيث قال: «لما دب اليأس في نفس المغيلي من إصلاح الأوضاع في بلاده، فضّل أن يهاجر إلى بلاد السودان بعد أن سبر غور طبائع أمراء وسلاطين السودان، فوجد أن فطرهم أسلم من فطر أمراء المغرب، وأن استعدادهم لتقبل الدعوة ونصائحه في الإصلاح أقوى من استعداد أمراء بلاده، فتوجه إليهم ينشر مبادئه وأفكاره الإصلاحية، ويفتي الأمراء هناك بما يتماشى مع منهج الإسلام الصحيح وتصوره لنظام الدولة الإسلامية»⁽⁴¹⁾.

⁽⁴⁰⁾ أبو بكر إسماعيل ميّقا، المرجع نفسه، ص 120.

⁽⁴¹⁾ أبو إسماعيل بكر ميّقا، المرجع نفسه، ص 118.

ويقصد في النص بأمرء المغرب حاكم الدولة الزيانية بتلمسان والمرينية بفاس، حيث خرج المغيلي من عند هذا الأخير غاضباً بعد رفضه الاستجابة لمطلبه المتعلق بنصرة الدين في مسألة يهود توات.

ويتضح مظهر الحسبة السياسية للإمام المغيلي لدى حاكم مملكة سنغاي محمد بن أبي بكر أسكيا الكبير عندما أجابه عن بعض الأسئلة التي وجهها إليه، والتي عُرفت بـ: «أجوبة الشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي للأمير محمد بن أبي بكر أسكيا»، إذ يتعلق موضوعها بالشأن السياسي والديني والاقتصادي والاجتماعي لمملكة سنغاي، والمواقف الفقهية للإمام المغيلي من القضايا التي أثارها تلك الأسئلة.

وعليه؛ لم تكن رحلة الإمام المغيلي لغرب أفريقيا تقتصر على الدعوة والوعظ والتدريس؛ بل ظلّ ينشد الأمير الصالح في مختلف حواضر السودان الغربي، لعلّه يجد من يوافق بغيته في تطلعه لإصلاح أوضاع المسلمين في الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية.

الفرع الثالث: أثر احتساب الإمام المغيلي في تفعيل قيم الحكم الراشد.

قام الإمام المغيلي بممارسة الحسبة السياسية عندما اتصل بحاكم إمارة كانو، ثم انتقل بعدها لمملكة السنغاي، ليمارس نفس الدور مع حاكمها الأسقيا محمد، حيث أثرت تلك الوصايا والنصائح بأولئك الحكام، خاصة وأنهم اعتمدوا الكتب والرسائل التي تضمنت نصائحه ووصاياه كوثائق رسمية عرفت طريقها للتنفيذ، وبالتالي أثّرت في تفعيل قيم الحكم الراشد بتلك البلاد.

وإذا كان الحكم الراشد يتضمن مجموعة من القيم أو العناصر الأساسية اللازمة لقيام الحكم الراشد، كسيادة القانون، وتحقيق العدل، والمساواة، والاستجابة لاحتياجات الناس، ومكافحة الفساد، واحترام حقوق

الإنسان، والمساءلة، والمشاركة الفعالة، والشفافية...، فإن كتب ورسائل الإمام المغيلي التي تضمنت نصائحه ووصاياها لملوك السودان الغربي، تعكس الكثير من المفاهيم المتعلقة بتلك العناصر، ولعلّ من أهم عناصر الحكم الراشد التي ركز عليها الإمام المغيلي في نصائحه ووصاياها للحكام؛ نجد:

1- سيادة القانون: جاء في وصية الإمام المغيلي لحاكم إمارة كانو محمد بن يعقوب رنفا، يحثّه فيها على ضرورة خضوع الجميع لأحكام القانون الإسلامي بقوله: «وامنع جميع أهل بلادك عن جميع أنواع الشرك، وكشف العورة، وشرب الخمر، وأكل الميتة والدم، وغير ذلك من المحرمات. وامنع كفار بلادك من أن يظهروا ذلك كله بين المسلمين في الأسواق والمنازل وغيرها من المحلات، فلو لم يتركوا إظهار شرك، أو شرب خمر، أو فطر في شهر رمضان، أو زنا، أو غير ذلك من المنكرات وأنواع ضلالهم، لكان ذلك ذريعة لأن يفعل مثل فعلهم ضعفت العقول من العامة والنسوان والصبيان، لاسيما والغالب على أهل تلك البلاد الجهل والهوى...»⁽⁴²⁾.

كما طلب الإمام المغيلي من حاكم مملكة سنغاي محمد بن أبي بكر أسكيا، تعيين المحتسب لردع المجرمين الخارجين عن القانون، فقال: «ومن أعظم المنكرات ما ذكرتم من اختلاط الرجال بالنساء وكشف العورات. فواجب على أمير المؤمنين أن يجتهد في منع ذلك كله ما استطاع، وأن يجعل أمناء يحتسبون على ذلك ليلاً ونهاراً سرّاً وجهراً، وليس ذلك من باب التجسس على المسلمين. إنما ذلك من حسن الرعي وردع المجرمين لا سيما إذا شاع الفساد في البلاد كما في تمبكت وجن ونحوهما»⁽⁴³⁾.

2- تحقيق العدل: تُعدّ مسألة تحقيق العدل من أهم القيم التي ركز الإمام المغيلي في دعوة الحكام للعمل بها، حيث عقد بخصوصها باباً كاملاً في

⁽⁴²⁾ المغيلي، تاج الدين، المصدر السابق، ص 118.

⁽⁴³⁾ أجوبة الشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي للأمير الحاج محمد أسقيا الكبير، المصدر السابق، تحقيق مبروك مقدم، ج 2، ص 163.

كتابه تاج الدين تحت عنوان: « فيما يجب على الحكام من العدل في الأحكام»، حيث قال: « فالعدل: أن يوفِّي كلَّ ذي حقِّ حقه من نفسه وغيره...⁽⁴⁴⁾، ولمَّا كان تحقيق ذلك يتوقف على تعيين أمراء مشهود لهم بالأهلية والصلاح (تقديم الكفاءات)، فإن الإمام المغيلي نصح ونبه حاكم كانوفيا بما يجب على الأمير من الكشف في الأمور: «أن يحتفظ على عماله في جميع أعماله، ويتدبّر أقوالهم، ويختبر أحوالهم، ويحصي قبل الولاية أموالهم، ويتفقد في كل حين أعمالهم، فكل من ظهر منه تقصيرٌ زجره، وكل من خشي منه ظلماً عزله، وكل من تكررت فيه الشكوى من غير بيان أبدله إن وجد بدله...»⁽⁴⁵⁾.

كما أوصى الإمام المغيلي حاكم سنغاي محمد بن أبي بكر أسكيا، بتعيين الأصلاح بالنسبة لمن يقوم بجمع الزكاة، فقال: «إن الإمام العادل أن ينصّب عاملاً أو عمالاً لجمع زكاة الحرث والماشية، وصرّفها في مصارفها التي ذكرها الله تعالى من الأصناف الثمانية باجتهاده على ما يراه الأصلاح بعد استشارة أهل المعرفة والأمانة»⁽⁴⁶⁾.

3- المساواة: تُعتبر المساواة بين الخصوم في عمل القضاء من أهم ما تقتضيه العدالة، حيث يقوم القاضي بالنظر والفصل في القضايا دون اعتبار للجنس أو العرق أو الدين، وهو ما جاء في وصية الإمام المغيلي لحاكم إمارة كانوا بقوله: «واعلم أن الناس في حكم الله ورسوله سواء، فلا تُخرج من ذلك عالماً ولا شريفاً ولا أميراً، وأقم حق الله على جميع عباد الله بالتقوى لا بالهوى، ومن عارضك في شيء من ذلك فعاقبه بما فيه ردع له ومثله...»⁽⁴⁷⁾.

⁽⁴⁴⁾ المغيلي، تاج الدين، المصدر السابق، ص 92.

⁽⁴⁵⁾ المغيلي، المصدر نفسه، ص 86.

⁽⁴⁶⁾ أجوبة الشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي للأمير الحاج محمد أسكيا الكبير،

المصدر السابق، تحقيق مبروك مقدم، ج2، ص 141.

⁽⁴⁷⁾ المغيلي، تاج الدين، المصدر السابق، ص 121.

4- الاستجابة لاحتياجات الناس: جاء في وصية الإمام المغيلي لحاكم إمارة كانو، يحثه فيها على الاستجابة لاحتياجات الناس، والتفاني في خدمتهم بما يُحقّق مصالحهم ما نصّه: "... فليكن طمعك كله من الله، وخوفك كله من الله، وهمّك كلّ في مصالح خلق الله، فما ولاك عليهم لتكون سيدهم ومولاهم، وإنما ولاك عليهم لتصلح لهم دينهم ودنياهم..."⁽⁴⁸⁾، بل أكّد هذا المعنى في خاتمة كل باب من كتاب تاج الدين فيما يجب على المملوك والسلطين بقوله: "رأس كل بلية احتجاب السلطان عن الرعية"، وهو نصّ جامع يندرج تحته كل ما يتعلّق باحترام حقوق الإنسان، والمساءلة، والمشاركة الفعالة، والشفافية، والتي تُعتبر من أهم عناصر الحكم الراشد.

5- مكافحة الفساد: بالنظر لأهمية عنصر مكافحة الفساد في تحقيق الحكم الراشد، فإن هناك من يختصر مدلول الحكم الراشد في مكافحة الفساد، وأن القضاء على ظاهرة الفساد، تؤدّي ألياً لتحقيق أو قيام الحكم الراشد، لكن هناك فريق آخر من الباحثين يعتبر هذا غير صحيح؛ لأن القضاء على الرشوة والمحسوبية وغيرها من صور الفساد لا يصاحبها بالضرورة فعالية سياسية أو اقتصادية أو اجتماعية، وبالتالي فإن الحكم الراشد بهذا المعنى لا يتحقق؛ لذا تعتبر مكافحة الفساد أحد أهم عناصر أو شروط تحقيق الحكم الراشد، بالإضافة إلى تحقيق شروط أخرى كاحترام حقوق الإنسان، وإقامة دولة القانون، والفعالية الاقتصادية...⁽⁴⁹⁾.

قال الإمام المغيلي في وصيته لحاكم إمارة كانو، يحثه فيها على قمع الفساد: "فاعلم أعاننا الله وإياك على رعاية ودائعه، وحفظ ما أو دعنا من شرائعه، أنه لا بد من ردع المفاسد الدينية والدنيوية بالمقامع الشرعية على حسب الطاقة البشرية، ولا يجوز أن يترك مُفسد على فساده مع إمكان ردعه عنه..."⁽⁵⁰⁾.

⁽⁴⁸⁾ المغيلي، المصدر نفسه، ص 71-72.

⁽⁴⁹⁾ أبرداشة فريد، المرجع السابق، ص 31.

⁽⁵⁰⁾ المغيلي، تاج الدين، المصدر السابق، ص 117.

وأما بالنسبة لحاكم سنغاي محمد بن أبي بكر أسكيا، فقد أوصاه الإمام المغيلي بإقالة كل أمير من أمراء مملكته ثبتت فيه تهمة الظلم أو الفساد، وتعيين بدله الأمير الصالح العادل، فقال: «بلاد لهم أمير من هؤلاء الأمراء الذين وصفت، يأخذ المكس بالظلم والفساد وعدم الإصلاح، فإن استطعت أن تزيل ظلمه عن المسلمين من غير مضرة عليهم حتى تقيم فيهم أميراً عادلاً فافعل...»⁽⁵¹⁾، كما نصحه بضبط المكاييل والموازين فقال: «ولابدّ من عرض الموازين والمكاييل على التعيير في كل حين، فمن ظهرت عليه الخيانة في شيء من الوزن والكيل فعاقبوه، وأخرجوه من أسواق المسلمين»⁽⁵²⁾.

وعليه؛ فإن نصائح ووصايا الإمام المغيلي لحكام السودان الغربي أدت لتفعيل قيم الحكم الراشد، حيث أثرت بشكل جلي في النظم الإدارية والتشريعية والقضائية لتلك الدول، بل أثرت في الحياة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية، خاصة وأن الحكام قد نفذوا تلك النصائح والوصايا، وقد شهد لهذا التحوّل العديد من الأعلام والمؤرخين هناك؛ ومن تلك الشهادات؛ نجد:

1- قال الشيخ آدم الإلوري: «ولم يُخلد التاريخ أثراً لعالم عربي، غربي أو شرقي، مثل ما خلّده للإمام المغيلي في غرب أفريقيا عموماً، وفي نيجيريا خصوصاً»⁽⁵³⁾.

2- قال الشيخ أبو بكر إسماعيل ميقا: "... ولما انتقل إلى كانو وجد تقبلاً لأرائه الإصلاحية، فباشر الإصلاح على طريقته، فاكتسب مكانة عظيمة في السودان، وذاع صيته كأحد المصلحين اللامعين في دنيا الإسلام

⁽⁵¹⁾ أجوبة الشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي للأمير الحاج محمد أسقيا الكبير، المصدر السابق، تحقيق مبروك مقدم، ج2، ص 135.

⁽⁵²⁾ أجوبة الشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي للأمير الحاج محمد أسقيا الكبير، المصدر السابق، تحقيق مبروك مقدم، ج2، ص 159.

⁽⁵³⁾ آدم الإلوري، الإمام المغيلي، المرجع السابق، ص 33.

والدعوة والإصلاح. وهو من أوائل من دفع العلماء والحكام في السودان وخاصة في كانوا إلى الرجوع إلى كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، وأخضع المعارف الإسلامية في السودان لمحك النقاش والأخذ والرد والعتاء...، وقام بدور عظيم في السودان لا يدانيه دور قام به عالم مغربي، فقد ترك أثراً إسلامياً بارزاً في جميع الممالك الإسلامية في بلاد السودان الغربي⁽⁵⁴⁾.

3- قال الشيخ الأمين محمد عوض الله: «... ونستطيع أن نؤكد من النصوص السابقة، أن الدور الذي قام به العالم الجليل المغيلي لا يدانيه أي دور قام به عالم مغربي في السودان الغربي. فقد ترك أثراً إسلامياً كبيراً، وقام بتصحيح مفاهيم كثيرة كانت مغلوطة في أذهان العامة والسلطين⁽⁵⁵⁾».

ومن خلال ما سبق؛ يتضح أثر الاحتساب الذي قام به الإمام المغيلي في الإصلاح السياسي والديني والتشريعي والاجتماعي بدول غرب أفريقيا، خاصة وأنه قد تولى مناصب سامية بتلك الدول، مما سهّل عليه تحقيق مُرادِه في التمكين لأحكام الشريعة الإسلامية على مستوى السلطة والرعية، وبالتالي تحقيق قيم الحكم الراشد، وهو ما كان يتطلع إليه ويهدف إلى تحقيقه من خلال اتصاله بالحكام. كما أن رحلة الإمام المغيلي لغرب أفريقيا لم تقتصر على الدعوة والوعظ والتدريس فحسب، بل كانت رحلة دعوية وعلمية وإصلاحية في آن واحد.

⁽⁵⁴⁾ أبو بكر إسماعيل ميكا، المرجع السابق، ص 169-170.

⁽⁵⁵⁾ الأمين محمد عوض الله، العلاقات بين المغرب الأقصى والسودان الغربي في عهد السلطنتين الإسلاميتين مالي وسنغاي، (السعودية - جدة: 1970م)، ص 192. منقول.

خاتمة:

وفي نهاية هذه الدراسة نخلص للنتائج التالية:

1- تتم الحسبة على الحاكم بالاحتساب على من يتولى السلطة أو يتولى شيئاً منها، سواءً كانت تشريعية أو تنفيذية أو قضائية، فمتى كان المحتسب عليه هم رجال الدولة وخاصة رجال السلطة التنفيذية، نكون أمام ما يُعرف بالحسبة السياسية؛ لأن أكثر الظلم والفساد والتعسف في استعمال السلطة يصدر عن الجهاز التنفيذي.

2- تعرّف الحسبة السياسية بأنها: « تبصير الحاكم أو نائبه بالمعروف إذا ظهر تركه، وبالمنكر إذا ظهر فعله، ممّا يندرج في ولايته واختصاصه "، وقد مارسها الإمام المغيلي في إطار الضوابط الشرعية التي يلزم مراعاتها في الحسبة على الحكام، بغرض إصلاح النظم الإدارية والتشريعية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية.

3- يقوم الحكم الراشد إذا قام الحكام في تسييرهم للشأن العام بمراعاة مجموعة من الشروط أو القواعد، التي تؤدي بهم في الغالب للتحقيق الأمثل للتنمية في جميع المجالات، ومن أهم عناصر أو شروط تحقيق الحكم الراشد هي مكافحة الفساد، بالإضافة لاحترام حقوق الإنسان، وإقامة دولة القانون، والشفافية، والمساواة، وتحقيق العدل....

4- تشمل بلاد الهوسا حالياً مناطق واسعة من دول النيجر ونيجيريا وتشاد ومالي، ولا ينحدر شعب الهوسا من دم واحد، بل هو مصطلح يُطلق على الشعوب التي تتكلم بلغة الهوسا، كما أن هاته الشعوب لم تجتمع تحت حكم دولة واحدة، بل عاشت تحت إمارات متعدّدة، حيث نزل المغيلي بالعديد من حواضرها، لكن إقامته في إمارة كانو لدى حاكمها كانت لمُدّة أطول.

وتشمل مملكة سنغاي حالياً مناطق واسعة من دولة مالي ونيجيريا وما جاورها من الجهات، ولما تولى الحكم محمد بن أبي بكر أسكيا إستفاد من خبرته السابقة كوزير، واهتم بتنظيم شؤون البلاد من الناحية الإدارية، حيث استخدم موظفين أكفاء، وقام بتنظيم الجيش، كما اتخذت إصلاحاته مظهراً إسلامياً في مختلف الجوانب، وذلك بعد اتصاله بالإمام المغيلي.

5- دخل الإسلام لدول غرب أفريقيا قبل نزول الإمام المغيلي بها، لكن تميزت الحياة الثقافية عند نزوله عموماً بانتشار الجهل، ومحدودية الثقافة الشرعية، حيث أسهمت جهوده في تعميم نشر الإسلام والثقافة الإسلامية، وكذا محاربة العادات الفاسدة، وهو ما دفع بشكل كبير في التمكين لتعاليم الدين الإسلامي بتلك البلاد.

كما لم تكن رحلة الإمام المغيلي لغرب أفريقيا تقتصر على الدعوة والوعظ والتدريس فحسب، بل كانت رحلة دعوية وعلمية وإصلاحية في آن واحد؛ حيث ظلّ ينشد الأمير الصالح في مختلف حواضر السودان الغربي، لعلّه يجد من يوافق بغيته في تطلّعه لإصلاح أوضاع المسلمين في الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية.

6- يتجلى مظهر الحسبة السياسية للإمام المغيلي لدى حاكم إمارة كانو محمد بن يعقوب رنفا عندما صنّف له كتاب: « تاج الدين فيما يجب على الملوك والسلطين »، يحثّه فيه على تنظيم شؤون الإمارة، وما تقتضيه السلطنة وفق قواعد السياسة الشرعية، كما كتب له وصية مختصرة " فيما يجوز للحكام في ردع الناس عن الحرام "، للعمل بها في مكافحة الجريمة.

ويتضح مظهر الحسبة السياسية للإمام المغيلي لدى حاكم مملكة سنغاي محمد بن أبي بكر أسكيا الكبير عندما أجابه عن بعض الأسئلة التي وجهها إليه، والتي عُرفت ب: « أجوبة الشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي

للأمير محمد بن أبي بكر أسكيا"، إذ يتعلق موضوعها بالشأن السياسي والديني والاقتصادي والاجتماعي لمملكة سنغاي، والمواقف الفقهية للإمام المغيلي من القضايا التي أثارها تلك الأسئلة.

7- أدت نصائح ووصايا الإمام المغيلي لحكام السودان الغربي لتفعيل قيم الحكم الراشد، حيث أثرت بشكل جلي في إصلاح النظم الإدارية والتشريعية والقضائية لتلك الدول، ومن خلال ذلك أثرت عموماً في الحياة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية، خاصة وأن الحكام قد نفذوا تلك النصائح والوصايا، وقد شهد لذلك التحول العديد من الأعلام والمؤرخين هناك، وهو ما كان الإمام المغيلي يتطلع إليه ويهدف إلى تحقيقه من خلال اتصاله بالحكام.

وفي الأخير نحمد الله عز وجل على توفيقنا لإنهاء هذا البحث، كما نستغفره عن كل ما يكون قد صدر منا من خطأ أو تقصير، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلّم.

قائمة المصادر والمراجع:

1. أبرداشة فريد، "الحكم الرشيد في الجزائر في ظل الحزب الواحد والتعددية الحزبية"، رسالة دكتوراه، غير منشورة، كلية العلوم السياسية والعلاقات الدولية، جامعة الجزائر 3 - الجزائر، 2014م.
2. الإلوري، آدم عبد الله، الإسلام في نيجيريا والشيخ عثمان بن فودي الفلاني، ط1، (القاهرة - دار الكتاب المصري، بيروت - دار الكتاب اللبناني، 2014م).
3. الإلوري، آدم عبد الله، الإمام المغيلي وأثاره في الحكومة الإسلامية في القرون الوسطى في نيجيريا، ط1، (القاهرة: مكتبة وهبة، 2012م).
4. الأمين محمد عوض الله، العلاقات بين المغرب الأقصى والسودان الغربي في عهد السلطنتين الإسلاميتين مالي وسنغاي، (السعودية - جدة: 1970م).

5. أبو بكر إسماعيل ميقا، الحركة العلمية والثقافية والإصلاحية في السودان الغربي من 400هـ إلى 1100 هـ، ط1، (السعودية-الرياض: مكتبة التوبة، 1997م).
6. بوبكي سكيينة، "الحركة العلمية بالهوسا في السودان الغربي خلال القرن 19م"، ماجستير في التاريخ والحضارة الإسلامية، غير منشورة، كلية العلوم الإنسانية والحضارة الإسلامية، جامعة وهران- الجزائر، 2009م.
7. بوجدرية الياسين، "واقع ومتطلبات الحكم الراشد في الوطن العربي"، المجلة الجزائرية للدراسات السوسيوولوجية.
8. التنبكتي، أحمد بابا، معراج الصعود - أجوبة أحمد بابا حول الاسترقاق-، تحقيق وترجمة فاطمة الحراق وجون هانويك، (الرباط: منشورات معهد الدراسات الإفريقية، 2000م).
9. التنبكتي، أحمد بابا، نيل الابتهاج بتطريز الديباج، عناية وتقديم: عبد الحميد عبد الله الهرامة، ط2، (ليبيا - طرابلس- منشورات دار الكتاب).
10. حاج أحمد عبد الله، "الإمارة المغيلية بتوات - التأسيس والسقوط- 899/882 هـ"، مجلة الحوار الفكري، العدد 16، (الجزائر: مخبر الدراسات الإفريقية بجامعة أدرار، 2018م)، السنة الثالثة عشر.
11. خلوف عقيلة، "الحكم الراشد ودوره في تفعيل المشاركة المجتمعية في إدارة الميزانية العامة للدولة"، مجلة الاقتصاد الجديد، العدد 16، 2017م، المجلد 01.
12. سامح فوزي، "الحكم الرشيد"، في: الموسوعة السياسية للشباب 19، (مصر: نهضة مصر، 2007م).
13. الشفشاوني، محمد بن عسكر الحسني، دوحة الناشر لمحاسن من كان بالمغرب من مشايخ القرن العاشر، تحقيق محمد حجي، (المغرب - الرباط:- مطبوعات دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر، ط2، 1977م).
14. عبد الخالق، فريد، الحسبة في الإسلام على ذوي الجاه والسلطان، (مصر: دار الشروق، ط1، 2011م).
15. عثمان برايما باري، جذور الحضارة الإسلامية في الغرب الإفريقي، ط1، (القاهرة: دار الأمين، 2000م).

16. القشاط، محمد سعيد، أعلام من الصحراء، ط1، دار الملتقى للطباعة والنشر، بيروت-لبنان، 1997م.
17. الكردي، أحمد الحجي، بحوث وفتاوى فقهية معاصرة، (بيروت: دار البشائر الإسلامية، ط1، 1999م).
18. الماوردى، الأحكام السلطانية والولايات الدينية، (بيروت: المكتبة العصرية، 2001م).
19. مبروك مقدم، الشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي وأثره الإصلاحي بإمارات وممالك إفريقيا الغربية خلال القرن الثامن والتاسع والعاشر للهجرة، ط1، (الجزائر: دار الغرب للنشر والتوزيع، 2002م)، ج1.
20. مجدوب خيرة، "سبل إرساء مبادئ الحكم الراشد المحلي لتحقيق أهداف التنمية المستدامة"، مجلة أبحاث كمية ونوعية في العلوم الاقتصادية والإدارية، العدد 01، (الجزائر: جامعة غرداية، 2019م) المجلد 01.
21. مجموعة من المؤلفين: «الموسوعة الموجزة في التاريخ الإسلامي»، نقلا عن: موسوعة سفير للتاريخ الإسلامي، نقلها وأعدتها للشاملة أبو سعيد المصري، الكتاب مرقم آليا، 16 ج، ج 14، ص 205. الموسوعة متاحة في الشبكة العنكبوتية بالمكتبة الإلكترونية الشاملة عبر الرابط (<https://al-maktaba.org/book/32136>). تاريخ الزيارة: أكتوبر 2022م.
22. محمد بن شاكر الشريف، الحسبة السياسية والفكرية، (القاهرة: المركز العربي للدراسات الإنسانية، 2011م).
23. ابن مريم، البستان في ذكر العلماء والأولياء بتلمسان، (الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية، 1986م).
24. مصطفى زغيثي، "دور الحكم الراشد في تجسيد العدالة الانتقالية"، رسالة دكتوراه LMD، غير منشورة، كلية الحقوق والعلوم السياسية، جامعة باتنة 1 الحاج لخضر- الجزائر، 2019م.
25. المغيلي، محمد بن عبد الكريم، تاج الدين فيما يجب على الملوك والسلطين وويله وصيته لسلطان كانو بنيجيريا، دراسة وتحقيق الدكتور مبارك جعفري، ط1، (الجزائر: دار الكتاب العربي، 2019م).

26. المغيلي، محمد بن عبد الكريم، أجوبة الشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي
للأمير الحاج محمد بن أبي بكر أسقيا الكبير، دراسة وتحقيق الأستاذ مبروك
مقدم، ط1، (الجزائر: دار الغرب للنشر والتوزيع، 2002م)، ج2.
27. ابن منظور، لسان العرب، (بيروت: دار صادر، ط1، 1990م)، 15 مج، مج1.
28. الونشريسي، المعيار المعرب عن فتاوى علماء إفريقية والأندلس والمغرب،
خرّجه جماعة من الفقهاء بإشراف الدكتور محمد حجي، (بيروت: دار الغرب
الإسلامي، 1990م)، 13 ج، ج2.

الرشادة الاقتصادية وأثرها في ترسيخ الحكم الرشيد على ضوء رسائل الإمام المغيلي ملوك غرب أفريقيا

عبد الرحمن بعثمان

أستاذ التعليم العالي تخصص تاريخ وحضارة إسلامية

الجامعة الإفريقية أحمد دراية أدرار

الملخص:

طرح الإمام المغيلي مشروع إصلاح شامل لكل المجالات السياسية والاجتماعية والاقتصادية، حيث ضمّن رسائله ملوك غرب أفريقيا تصورَه الدقيق لسبل ترسيخ الحكم الرشيد، ولأن الاقتصاد هو عصب الحياة، فإن الإمام المغيلي أولى للرشادة الاقتصادية أهمية بالغة في قوام المشروع الإصلاحي، من خلال دعوته إلى تأطير الأسواق بالفقهاء المحتسبين وإصلاح الجبايات الشرعية ومراقبة سبل صرفها من أجل تحقيق الرفاه المجتمعي المفضي إلى الاستقرار السياسي

الكلمات المفتاحية:

الاقتصاد. الحكم الرشيد. الأسواق، الضرائب. الأسكيا، غرب أفريقيا.

Economic Governance and its Impact on Consolidating Righteous Rule: In Light of Imām al-Maghīlī 's Treaties to the Kings of West Africa"

Abstract

Imām al-Maghīlī proposed a comprehensive reform project that encompasses all political, social, and economic aspects. In his treaties to the Kings of West Africa, he presented a precise vision for ways to consolidate righteous rule. Since the economy is the backbone of life, al-Maghīlī attached great importance to economic governance in the reform project. He called for the involvement of pious scholars in regulating markets, reforming legitimate taxes, and monitoring their expenditures in order to achieve societal welfare that leads to political stability.

Keywords:

Economy, Righteous Rule, Markets, Taxes, West Africa.

المقدمة

كان للترشيد الاقتصادي أهمية بالغة في المشروع الإصلاحى للإمام محمد بن عبد الكرىم المغىلى، حيث كان يرى أن إصلاح دنيا الناس من صلاح دينهم، لذا فإننا نجده يركز فى المناطق التى نشط فيها على ضرورة إصلاح أحوال الناس الاقتصادية، ورأى أن هذا الإصلاح لا يتأتى إلا من خلال إصلاح الراعى الذى يعد أحد اللبناى الأساسية لتوطيد دعائم الحكم الراشد، حيث سعى إلى الاتصال بالحكام ونصحهم أينما حل وارتحل. وإن كان الإصلاح الاقتصادى جزءاً أساسياً فى حركة الإمام المغىلى الإصلاحية، فهذا لا ينفى إن المشروع الإصلاحى كان متكاملًا يشمل جميع المجالات التى رصد فيها النقص المفضى إلى ضرورة رد الأمور إلى نصابها بما يوافق الشرع والواقع.

01- التعريف بالإمام محمد بن عبد الكرىم المغىلى

مولد الإمام ونشأته:

هو أبو عبد الله محمد بن عبد الكرىم، ينتسب إلى قبيلة مغيلة بأحواز تلمسان، يرجع نسبه إلى الحسن بن فاطمة الزهراء بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم، فهو محمد بن عمر بن مخلوف بن علي بن حسين بن يحيى بن علي بن محمد بن أحمد بن عبد القوي بن العباس بن عطية بن مناد بن السرى بن قيس بن غالب بن أبي بكر بن أبي بكر بن عبد الله بن إدريس ابن عبد الكامل بن الحسن المثنى السبى ابن فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم⁽¹⁾.

أما عن مولده، فقد اختلف فى ذلك، فنجد فى كتاب الشجرة الجامعة الكبرى أنساب سكان توات للشيخ الزجلاوى أنه قد ولد عام 790هـ-

⁽¹⁾ سالم بن عبد القادر المغىلى .. خلاصة قولى ودلىلى فى الرد على الطاعن فى نسل ونسب الشيخ سيد محمد المغىلى، (الجزائر: دار الكتاب العربى 2018) ص55

1388م⁽²⁾ لكن هذا التاريخ يبقى بعيدا عن الصحة لأن الإمام قاتل اليهود عام 902هـ-1496م وهناك عمره قد تجاوز المائة، بينما مبروك مقدم يرى أن تاريخ الإمام المغيلي هو 831هـ-1427م، وبالرغم من أن المصادر قد اختلفت حول تاريخ ولادته إلا أنها تتفق على أن وفاته كانت سنة 909هـ-1503⁽³⁾

نشأته:

نشأ الإمام المغيلي في عائلة مشهورة بالعلم والتقوى والتصوف، غير أن ما تقدمه المصادر عن أسرته من تفاصيل يعد ضئيلا جدا، إذ لم تشر إطلاقا إلى اسم والديه وأشقائه وأقربائه غير أن شهرة عائلته جاءت من شهرة ونبوغ عدد من أفراد العائلة منهم: الشيخ بن يحيى بن عيسى المغيلي المازوني ومحمد بن أحمد بن عيسى المغيلي الشهير بالجلاب.

بدأ دراسته بتلمسان فحفظ القرآن الكريم على يد الشيخ محمد بن عيسى المغيلي وأخذ عنه مبادئ علم الفقه وأمّهات الكتب الفقهية للمذهب المالكي كالرسالة، ومختصر خليل. عكف بعدها على دراسة العلوم العربية الإسلامية اللغوية والدينية والعقلية وحتى النقلية⁽⁴⁾، غادر مدينة تلمسان باتجاه مدينة بجاية والتي كانت آنذاك مركزا ثقافيا يعج به الطلاب الوافدين إليها من كل جهة، وتعتبر رحلته إليها أول رحلة في طلب العلم واكتساب المعرفة، اشتهر بذكائه المفرط بين أقرانه، وعلو همته، وتوقد ذاكرته، وكلها أشياء أساسية تساعد على التحصيل وبعد جولته المعرفية الأولى بين مدن

(2) عائشة بوشقيف . الدور الفكري لمحمد بن عبد الكريم المغيلي في إقليم توات والسودان الغربي . (رسالة ماجستير) جامعة تلمسان 2011

(3) ابن عسكر محمد الحسني، الشفشاوني، . دوحة الناشر لمحاسن من كان في المغرب من مشايخ القرن العاشر، (بيروت: دار الغرب. 1977)، ص 130

(4) مبروك مقدم، الإمام محمد بن عبد الكريم المغيلي ودوره في تأسيس إمارات إسلامية خلال القرن التاسع للهجرة الخامس عشر للميلاد، (الجزائر : دار الغرب للنشر والتوزيع 2002)، ص

تلمسان وعلماؤها اتصل بالشيخ عبد الرحمن الثعالبي⁽⁵⁾، حيث أخذ عنه علم الحديث والتفسير والقرآن وعلم التصوف، ولما رأى الإمام الثعالبي في شخص المغيلي الذكاء والفطنة والشجاعة قربه إليه، وزوجه ابنته زينب، وأعطاه أورد الطريقة القادرية وأمره بنشرها في الأماكن التي يذهب إليها وأوصاه عند رحيله بدعوة منه له " أن لا يعاشر أهل السفاهة، وأن لا يستوطن مكان إهانة"⁽⁶⁾

عاد إلى تلمسان لأجل استكمال الطلب، وخلال انشغاله بالتدريس في تلمسان لاحظ التعفن السياسي الذي يسود عرش بني زيان، وخروج الأمراء الزيانيين عن الجادة، وانغماسهم في الملذات واستسلامهم للأجانب من اليهود والأسبان، فأنف العيش هناك وتاقت نفسه للهجرة أين يكون في مقدوره القيام بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر⁽⁷⁾، فقصد أرض توات وكان ذلك سنة 870هـ-1465م، فأخذ بها عن الشيخ يحيى بن يدير ما كان ينقصه في الفقه، كما أخذ عن مشايخ آخرين فانتفع بمادة ثرية من العلوم كالتفسير والحديث والفقه والأصول والعلوم اللغوية⁽⁸⁾

شيوخه وتلاميذه:

شيوخه:

- الشيخ محمد بن أحمد بن محمد بن عيسى المغيلي المشهور بالجلاب : هو عالم فقيه في المذهب المالكي، تخرج على يديه ثلة من علماء تلمسان

⁽⁵⁾ محمد بن عبد الرحمن السخاوي.. الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، (بيروت: مكتبة الحديثة 1992)، ص 152

⁽⁶⁾ مقدم، المرجع السابق، ص42

⁽⁷⁾ يحيى بوعزيز، تاريخ إفريقيا الغربية الإسلامية من مطلع القرن السادس عشر إلى مطلع القرن العشرين، (الجزائر: دار البصائر، 2009)، ص 70

⁽⁸⁾ التنيكتي، نيل الابتهاج، ص 477.

وفقهاؤها منهم: أحمد الونشريسي والإمام السنوسي، وللجلاب العديد من الفتاوى في المازونية والمعياري⁽⁹⁾ قال فيه الونشريسي: "الشيخ الصالح المحصل الحافظ أبو عبد الله" وهي صفات يقل اجتماعها في شيخ إلا إذا كان ورعا تقيا، درس عليه المغيلي القرآن ومبادئ العلوم الشرعية.

-الشيخ عبد الرحمان بن محمد بن مخلوف الثعالبي:(875هـ-1471م)، ولد بناحية وادي يسر، رحل إلى بجاية وتفقه على يد الفقيه الزاهد عبد الرحمان الونشريسي إلى أن أصبح مفسرا كبيرا تاركا أكثر من سبعين تأليفا أكثرها في القرآن الكريم وعلومه والفقه وكان متصوفا زاهدا ورعا له العديد من الكتب في فن التصوف منها: "الأنوار المضيئة بين الشريعة والحقيقة"، كتاب "الدر الفائق في الأذكار والدعوات" وهو من كبار مفسري زمانه حيث يشهد له كتابه "جواهر الحسان في تفسير القرآن"⁽¹⁰⁾.

-الشيخ يحيى بن يدير بن عتيق التدلسي: من كبار فقهاء المالكية في زمانه، درس بتلمسان على يد الشيخ أحمد بن زاغو المغراوي، هاجر إلى توات (845هـ - 1441م) وتولى بها قضاء الجماعة التواتية أخذ عنه العديد من العلماء من بينهم: الإمام المغيلي، عبد الله العصنوني، عرف بالعلم والصلاح والاستقامة، توفي بتمنطيط ودفن بمقبرة أولاد علي بن موسى. يقول أحمد بابا التنبكتي في مختصر نيل الابتهاج: (توفي بتوات ووجدته بخط تلميذه ابن عبد الكريم المغيلي) وللشيخ يحيى بن يدير العديد من الفتاوى في النوازل التواتية تدل على سعة اطلاعه ومنهجه القويم في الفتاوى⁽¹¹⁾ واللغة العربية والثقافة الإسلامية بالغرب الإفريقي. الرباط: منشورات كلية العلوم الإنسانية.

⁽⁹⁾ محمد بن عبد الكريم المغيلي، تاج الدين فيما يجب على الملوك والسلطين،

(الجزائر: دار الكتاب 2020)

⁽¹⁰⁾ مقدم، المرجع السابق، ص 48.

⁽¹¹⁾ التنبكتي، المصدر السابق، ص 637.

تلاميذه

-الشيخ عمر بن أحمد البكاي بن محمد الكنتي بن علي (865هـ-1460م): درس في صغره على يد والده، ثم رحل إلى بلاد المغرب ومنها إلى مصر ومر ببلاد الشام وأدى فريضة الحج ثم عاد إلى بلاد التكرور، وهناك التقى الإمام المغيلي فلازمه وتبعه في جميع رحلاته الداعية لنشر الإسلام الصحيح، فأدى فريضة الحج مرة أخرى برفقته وعاد معه إلى توات وأخذ عنه علوم الحديث والفقه والمنطق، تأثر الشيخ عمر بشخصية المغيلي ولم يفارقه حتى وفاته، يعتبر الوارث الأول لعلم الإمام المغيلي.

-الشيخ محمد بن عبد الجبار الفيحجي : عالم متصوف له إمام كبير بعلوم الحديث وروايته، كانت دراسته الأولى على يد والده عبد الجبار وغيره من علماء المنطقة، أسس زاوية في بلاده، كما بنى بيتا للفقراء ومريدي التصوف ينفق عليهم، اشتهر بقصائده في مدح رسول الله صلى الله عليه وسلم⁽¹²⁾، التقى مع المغيلي في فاس حيث لازمه طوال وجوده بها، وأخذ عنه التصوف وعلوم الحديث والعقيدة والمنطق ثم رجع إلى بلاده ليستقر بها ويدرس مختلف العلوم الشرعية.

-الشيخ العاقب بن عبد الله الانصمي المسوفي: من أهل أقدر، درس في بداية حياته وتفقه على يد الشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي، أخذ عنه علم التوحيد والمنطق وكان ملازما للشيخ المغيلي طوال تواجده بممالك السودان الغربي.

-الشيخ محمد بن أبي أحمد بن محمد التازختي : كان كثير الترحال من أجل العلم، فدرس في بداية طلبه للعلم على يد الشيخ أحمد بن عمر، ثم رحل إلى تكده أين التقى بالإمام المغيلي فحضر دروسه وأخذ عنه الكثير من

(12) ابن مريم، المصدر السابق، ص 227.

العلوم والمتمثلة في الفقه والمنطق والعقيدة ثم سافر إلى المشرق للحج وأخذ علم الحديث حتى صار من أكبر المحدثين وبعد أخذه للعديد من العلوم من علماء المشرق، رجع واستقر بالسودان الغربي بمنطقة كشنه وتولى القضاء بها، وصفه أحمد بابا بالفهم والإدراك فقال : (شيخنا فقيها عالما علامة محققا فهامة محدثا متفننا رحاله شهيرا محصلا نافذا جيد الخط والفهم، حسن الإدراك وكثير النزاع)⁽¹³⁾

آثار الإمام المغيلي الفكرية:

ترك الشيخ المغيلي من وراءه العديد من التلاميذ في غرب افريقيا، لايزالون يدينون له بالولاء الفكري والأدبي يعترفون له بفضلته على المجتمعات السودانية، كتب عنه الكثيرون، عن شخصيته الاجتماعية والثقافية، أمثال: أحمد بابا التنبكتي، ابن مريم المليتي، الزركلي، بروكلمان زبايدية، المقري، اليفرني، الذين اعتبروه من كبار المصلحين ببلاد السودان الغربي ولا تزال جوانب كثيرة من حياة المغيلي في حاجة للبحث والتدقيق والتمحيص⁽¹⁴⁾

لقد خلف الشيخ المغيلي إنتاجا فكريا غزيرا، فهو في نظر مترجميه.. صاحب التأليف المفيدة والتصانيف العديدة من أهمها:

1. هدية المرشدين ونصيحة المهتمدين.
2. شرح البيان في علم التبيان.
3. تأليف فيما يجب على المسلمين من اجتناب الكفار عما يلزم أهل الذمة في الجزية والصغار وهو المسعى بمصباح الأرواح.
4. تأليف فيما يجب على الملوك.

⁽¹³⁾ التنبكتي، المصدر السابق، 587.

⁽¹⁴⁾ بوعزيز، المرجع السابق، ص 77.

5. شرح منح الوهاب في رد الفكر إلى الصواب.
6. رسالة في الخلافة.
7. إلهام الأنجال أحكام الآجال.
8. البدر المنير في علوم التفسير.
9. شرح مختصر خليل سماه مغني النبل اختصر فيه جدا وصل فيه للقسم بين الزوجات
10. شرح الجمل في المنطق ومقدمة فيه.
11. تنبيه الغافلين عن منكر الملبسين بدعوى مقامات العارفين.
12. ثلاثة شروح على منظومة منح الوهاب.
13. مفتاح النظر في علم الحديث فيه أبحاث مع النووي في تقريبه.
14. مختصر تلخيص المفتاح وشرحه.
15. تأليف في المنهيات

فهرسة مروياته وعدة قصائد كالميمية على وزن البردة.

وحسب ما ورد في البستان لابن مريم:

1. تفسير سورة الفاتحة في ورقة واحدة.
2. إيضاح السبيل في بيوع آجال خليل.
3. كتاب الفتح المبين.
4. أسئلة الأسقيا وأجوبة المغيلي⁽¹⁵⁾

02- أوليات الشيخ المغيلي مع الإصلاح الاقتصادي

بدأ الشيخ المغيلي المناداة بإصلاح الأوضاع الاقتصادية في مسقط رأسه تلمسان التي كانت تعاني من سيطرة اليهود على عصب التجارة واحتكار الأسواق، وهو ما أساء السلطات الحاكمة وقتذاك فعملت على مضايقته

⁽¹⁵⁾ بوغزير، المرجع السابق، ص 77.

هو وزميله الفقيه الونشريسي مما أدى بالأول إلى الهجرة إلى توات فيما هاجر الثاني إلى فاس.

دخل الإمام المغيلي تواتا من ناحية قورارة، واستقر ببلد أولاد سعيد، هناك حاول بدء مشروعه الإصلاحي فانتصب للتعليم وتفقيه الناس في أمر دينهم، وانتبه أيضا إلى ضرورة الإصلاح الاقتصادي، فكان أول من نادى بإنشاء السوق ونصب فيه كرسيًا للحسبة، ورأى أن وجود سوق نظامي يعمل وفق الشرع تحت رقابة المحتسب، ضروري لتنظيم المبادلات التجارية، التي كانت تتعرض لتجاوزات اليهود وكبار التجار غير أننا لا نملك معطيات موثقة على فترة استقرار الإمام المغيلي في أولاد سعيد إلا ما نستشفه من الروايات الشفوية التي تتطلب قدرا كبيرا من الحذر في التناول، خاصة فيما يتعلق باستقرار الإمام في منطقة أولاد سعيد واحتمالية لقائه بولي قورارة سيدي موسى ولمسعود وعلاقة مشروعهما الإصلاحي الاقتصادي في المنطقة من حيث التوافق والتناقض، كما أن تأسيس الإمام للسوق لقي دعما كبيرا من سكان المنطقة وهو ما تبينه الآثار المادية خاصة الكرسي الذي نصب له في قلب السوق والمائل للعيان حتى الآن، إضافة إلى أضرحة أبنائه وزوجته السيدة زينب الثعالبية⁽¹⁶⁾.

كان الغرض الأساسي من إنشاء السوق هو كسر الاحتكار، خاصة وأن بعض العناصر اليهودية المتحكمة في السيولة الناتجة عن تجارة الذهب وسباكته، كانت تمكنهم من تلقي الركبان وشراء كل سلعهم قبل دخولها إلى البلدة وبالتالي السيطرة على التجارة والتحكم في رقاب الناس، باعتبارهم الوسطاء الأساسيين في العلاقة بين صاحب السلعة ومستهلكها، في حين أن السكان المحليين المغلوبين على أمرهم والمتمنين الزراعة المعاشية لا يبيعون منتجاتهم إلا بالسعر الذي يحدده المحتكر⁽¹⁷⁾.

⁽¹⁶⁾ بليل، المرجع السابق، ص 65

⁽¹⁷⁾ نفسه، 58.

وبفهم الفقيه رأى الإمام المغيلي أن هذا النوع من الاحتكار لا يجوز شرعا باعتبار أن ما يسبقه يدخل في تلقي الركبان وهو من المعاملات المحرمة شرعا، فألزم كل التجار بدخول السوق ونصب المحتسبين لمراقبة المعاملات التجارية وأصبح بإمكان كل منتج دخول السوق وإنجاز المعاملات التجارية بدون وسيط، وقد أدى هذا إلى ازدهار التجارة وتحسن المستوى المعيشي للسكان.

03- جوانب من الإصلاحات الاقتصادية للإمام المغيلي من خلال رسائله للموك إفريقيا

أ – المغيلي في كانو

وصل المغيلي إلى إمارة كانو والتقى بحاكمها محمد بن يعقوب الذي كان يتربع على العرش في الفترة الزمنية (867هـ- 904هـ، 1493م- 1499م)⁽¹⁸⁾

توطن المغيلي بكانو وبني بها مدرسته المعروفة باسمه " الشيخ المغيلي " ذاع صيته وقصدته الطلبة من جهات مختلفة من جنوب إفريقيا وغيرها من الأقطار السودانية وتخرج على يده العديد من المشايخ ويعود الفضل لسلطان كانو الذي لا يكاد يقدم على أمر من أموره الدينية والدينية إلا ويستأذن الإمام ويعمل برأيه.

استفاد حاكم كانو من الإمام المغيلي حيث اتخذه مستشارا له وولاه القضاء والإفتاء في الفترة التي قضاها في البلاد، واعتمد الإمام المغيلي في نصح الأمراء وإرشادهم على الرسائل الموجزة التي تحوي بيانا شافيا وتصورا واضحا للمفاهيم الإسلامية التي يجب أن يلتزم بها الحكام والمحكومون⁽¹⁹⁾.

(18) أبو بكر إسماعيل ميغا .. دعوة الإمام المغيلي العلمية والإصلاحية في السودان الغربي أواخر القرن التاسع والعاشر الهجري وأثرها في الرعاة والرعية . مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود (1992)

(19) محمد فرقاني.. رسالة المغيلي إلى سلطان كانو (فيما يجب على الأمير والإمارة). الجزائر : منشورات نوميديا . (2014)

ب - المغيلي في السنغاي :

انتقل المغيلي إلى إمبراطورية السنغاي الإسلامية فوصل إلى عاصمتها غاو، والتقى بحاكمها الحاج محمد أسكيا الذي اتخذ المغيلي مستشارا له ووجه له أسئلة عديدة هامة، وطرح الأمير المشاكل الاجتماعية والسياسية الدينية التي كانت تواجهه في بلاده، فأجاب المغيلي بأجوبة هامة في رسالة أوضح له فيها الفتاوى الإسلامية، حيث إن المغيلي كان على علم تام بأحوال السودان الغربي ومطلعا عليها، بالإضافة إلى أن هذه الأجوبة كانت تتصف بالشمولية والتفصيل، فقد تناول فيها الجوانب العقائدية والدينية والأحوال الاجتماعية والسياسية في بلاد السودان ولم يترك شيئا يعرفه إلا وتطرق له بالتوضيح والتفصيل⁽²⁰⁾ (ميغا، 1999، صفحة 133)

قام الشيخ المغيلي بمجهودات جبارة في توجيه حاكم السنغاي إلى أحكام الشريعة، وطبع المملكة بطابع إسلامي صحيح، وان تطبيق ما جاء به المغيلي في دعوته الإصلاحية من مسائل الإمارة والأخلاق والآداب أدى إلى تغيير ملموس في حياة الناس في مملكة السنغاي.

ثانيا: رسائله للأميري كانو والسنغاي:

1 - رسالة المغيلي للأمير «كانو»:

يقول أحمد بابا التنبكتي «ثم دخل بلاد كنو وكشن من بلاد السودان واجتمع بصاحب كنو واستفاد عليه وكتب رسالة في أمور السلطنة يحضه على اتباع الشرع وأمر بالمعروف ونهي عن المنكر، وقرر لهم أحكام الشرع وقواعده»⁽²¹⁾ (التنبكتي، 2022، صفحة 577). تحتوي الرسالة على أبواب عاج فيها شؤون الحكم وقسمها على النحو التالي:

⁽²⁰⁾ ميغا، المرجع السابق، ص 133.

⁽²¹⁾ التنبكتي، المصدر السابق، ص 755

إحسان النية للإمارة : بين المغيلي أن الإمارة ابتلاء من الله، فموقعها كان بين الهوى والتقوى، والواجب على كل من تولاها إخلاص النية بالاستعانة بالله والتوكل عليه، وهذا ما ذكره المغيلي لسلطان كانوا بقوله: «إن الله سبحانه وتعالى ما ولاك عليهم لتكون سيدهم ومولاهم، وإنما ولاك عليهم لتصلح دينهم ودنياهم⁽²²⁾، الإمامة أمانة ومسؤولية فيجب على كل حاكم أن يحسن القيام بها ويؤديها على أحسن وجه».

إحسان الهيئة: يقول المغيلي بشأن الإمارة «مقموعة للنفس الأمارة بالسوء، فعلى كل أمير أن يتردى برداء الهيئة، في الحضور والغيبة»⁽²³⁾. ويوصي المغيلي الأمير بالوفاء بالعهد لأن هذا الفعل يزيد من هيبة صاحبه ويجعله كبيرا في نظر الخلق، قال المغيلي: «إياك أن تقصر خطوتك عن مقالك فتذهب هيبتك من قلوب رعيتك وعمالك»، كما يجب على الأمير أن يتصف بالتواضع لأن التكبر مذموم ويحدث السخط لذلك وجب على السلطان الميل إلى العفو والصفح، أما بشأن الخلقة قال المغيلي: «فلا يجب على الأمير أن يشغل نفسه بشهوات الدنيا من لبس الثياب الفاخرة، واللباس المطلوب هو اللباس الذي يحفظ الجسد من الحر والبرد والساتر للعورة»⁽²⁴⁾.

ترتيب المملكة: بين المغيلي أن الملك يحتاج في ترتيب مملكته إلى مجموعته من الحكماء والعقلاء لاستشارتهم وقت الحاجة، كما أوصى بوضع أشخاص أمناء على بيت المال يخافون الله فالمملكة تحتاج في نظر المغيلي إلى : خدام بالحضرة يتصرفون، وعقلاء يسيرون، وأمناء يقبضون ويصرفون، وكتاب وحساب يحرصون ويحفظون⁽²⁵⁾؛ لأن السلطان عاجز على تولي أمور المملكة وتدبر جميع شؤونها.

(22) أحمد حمدان العلمي، استنصاح السودان، ص 89.

(23) العلمي، المرجع نفسه، ص 99.

(24) نفسه، ص 99.

(25) مقدم، المرجع السابق، ص 95.

يجب على الملك مراقبة الكتاب والأمناء؛ فمنهم من يخطئ ومنهم من يصيب، وتتم هذه المراقبة من طرف عمال الشرطة كما يقول المغيلي : «رسل وحساس وحفظة وعساس وأرباب شرطة يزجرون (26)» (بوشقيف ، 2011، صفحة 17) ونظرا لقيمة الوزراء في الحكم جعلها المغيلي من أهم الوظائف في نظام الحكم، بشرط أن يكون الوزير ممن يخشى الله، ومن مهامه تكوين جيش قوي وتدريب الرجال على الأسلحة والإقدام.

الكشف عن الأمور: إن تتبع الأمير لأحوال الأمناء الذين تولوا مناصب قبل توليتهم والكشف عن حال الأمور دليل على صلاحه، خاصة أموال بيت المال، والواجب مراقبة جميع الولاة، ومن تكررت ضده الشكاوي يتم استبداله للتقليل من الفساد، كما أشار المغيلي إلى باب المفاصد وهي قبول الأمير هدايا ولاته بحيث لا يعطي الهدية إلا لحاجة في نفسه للتقرب من الأمير ويغض الطرف عنه ويتركه يفعل ما يشاء وهذا ظلم كبير في حق الناس، قال المغيلي : «فكم قربوا من بعيد، كم بعدوا من قريب، وكم حبوا من عدو، وكم كرهوا من حبيب»⁽²⁷⁾.

العدل في الأحكام السلطانية: يجب على الأمير أن يكون عادلا مع رعيته ويعاملهم سواء سواء؛ لأن المملكة لا يمكنها الثبوت إلا بالعدل والإحسان، كما قال المغيلي «إذا ثبت أن الأمير حاد عن الطريق السوي وظلم رعيته وخيانتته للأمانة وخروجه عن تعاليم القرآن والسنة، فإن الأمة قوامة الغاية ولها حق تقويمه وعزله».

عند تطبيق الأمير لحد من حدود الله فعليه إظهار السنة عند القيام بذلك، ولا يكتفي في هذا المجال بما نصبه من القضاة والعمال لأن شكوى

⁽²⁶⁾ عائشة بوشقيف . (2011) الدور الفكري لمحمد بن عبد الكريم المغيلي في اقليم

توات والسودان الغربي . (جامعة تلمسان : رسالة ماجستير، 2011)

⁽²⁷⁾ مقدم، المرجع السابق، ص

الرعية غالبها منهم⁽²⁸⁾ ، فيجب أن يجلس كل يوم لسماع هموم الناس كما أن لجلوس الأمير أمام رعيته أثرا كبيرا في نفوسهم؛ لأنه يتمكن من الاطلاع على جميع أحوالهم.

جباية الأموال : طلب المغيلي من الأمير أن يجيء بالأموال من حيث أباح الله لذلك، وهي زكاة العين والحرث والماشية وزكاة المعدن والفطر وخمس الغنائم وأموال الجزية وما يأخذ من التجار وتركة من لا وارث لها وما أفاء الله به من أموال أهل الحرب⁽²⁹⁾.

أوصى المغيلي الأمير بالكرم لأنه يؤدي الى محبة الرعية له ويجب على كل فرد من الرعية أداء ما عليه من مال، حقا من حقوق الله ومن لم يؤد هذا الحق وجب زجره وعقابه، ومن الأموال المحرمة والتي أوصى المغيلي باجتنابها وعدم أخذها الغرامات التي يضعها بعض الأمراء على بعض أهل القرى.

2 – رسالة الإمام المغيلي لأmir السنغاي:

تتضمن الرسالة إجابة عن أسئلة الأسقيا والتي كانت تتمحور حول كيفية تسيير أمور مملكته وسميت بـ «أسئلة الأسقيا وأجوبة المغيلي» وقسمها على النحو التالي:

السلطان راع لا مالك : تحدث المغيلي عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وبين له أن السلطان في كل ملكه راع لا مالك، وبأن الملك كله لله قال المغيلي: «قد رفعتك مولاك على كثير من عباده لتصلح لهم دينهم وديناهم ولا لتكون سيدهم ومولاهم»⁽³⁰⁾.

(28) نفسه، ص

(29) نفسه، ص

(30) المغيلي، المصدر السابق، 162.

إبعاد علماء السوء عن السلطان ومصالح الناس : وعلماء السوء هم من يأكلون أموال الناس بالباطل وبأعمالهم الدنيئة يصدون عن سبيل الله وهم سبب انتشار الفساد في جميع البلاد فالجهاد فيهم وفي أنصارهم أفضل من كل جهاد⁽³¹⁾. أصل فسادهم من كونهم يقرؤون القرآن والحديث وسردهم الكثير من نصوص الكتاب، وهم بذلك يزعمون أنهم من أهل الذكر وينكرون بأنهم من أهل السوء قال سبحانه وتعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ﴾، فعالم واحد من هؤلاء العلماء أشد ضرر على الأمة من ألف شيطان وأشد الناس عذابا يوم القيامة عالم لم ينفع بعلمه⁽³²⁾.

تقريب أهل الذكر : لزم السلطان الاستماع والرجوع لأهل الذكر في كل تصرفاته التي لا يعلم حكم الله فيها، وقاعدة كل أمر في عمله هي الخير يثبت والشّر يزول حتى وإن طال أمده يتم ذلك بقيام أمراء المسلمين كما يقول المغيلي : «بحفظ الدين بأن لا يتركوا أحدا يتكلم في دين الله بتعليم ولا حكم ولا فتوى، حتى يكون من أهل العلوم والتقوى»⁽³³⁾.

وحفظ الدين لا يتم إلا بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وبه صارت أمة الإسلام خير أمة أخرجت للناس، قال تعالى : ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾⁽³⁴⁾.

وأهل الذكر هم أولئك العلماء الذين أخذوا على عاتقهم الدفاع عن دين الله بالحجة الدامغة والأدلة الواضحة، والأمير الذي يسعى من أجل

⁽³¹⁾ المغيلي، المصدر السابق، 164

⁽³²⁾ التنبكتي، المصدر السابق، ص56.

⁽³³⁾ المغيلي، المصدر السابق، 165

⁽³⁴⁾ نفسه، 164

إرضاء الله بخدمة الرعية، وهو الذي يجعل جلسائه من أهل الذكر الذين يذكرونه بالآخرة ويقللون من شأن الدنيا. وأما الذي يقرب علماء السوء فذلك مقرب أعداء الدين، ولاشك أنه ظالم لنفسه ولرعيته، ومضيع لحقوق الله والعباد قال ابن حزم: «لا شيء أضر على السلطان من كثرة المتفرعين حوله، فالحزم يشغلهم بما لا يظلمهم فيه، فإن لم يفعل، شغلوه بما يظلمونه فيه وأما مقرب أعدائه فذلك قاتل نفسه»⁽³⁵⁾.

اتخاذ المحتسب: يتصف المحتسب بصفات اللين والرفق في القول والفعل وحسن الخلق، فإن ذلك يعينه على أداء مهامه واستمالة القلوب، ويجب أن يكون المحتسب مواظبا على سنن الرسول الكريم، متعففا عما يأيدي الناس، لا يقبل الهدايا والرشاوي⁽³⁶⁾، وعلى المحتسب أن يختار من يعينه على أداء مهامه، كما يطلب من السلطان مراقبة هؤلاء العمال عند أداء مهامهم والتأكد من أنهم يقومون بها على أتم وجه، قال المغيلي: «وأن يجتهد في منع ذلك كله بما استطاع وأن يجعل أمانه، ويحتسبون ذلك ليلا ونهارا سرا وجهارا، وليس ذلك من باب التجسس على المسلمين وإنما ذلك حسن الرعي⁽³⁷⁾»، لذلك وجب على المحتسب البحث عن المنكرات والوصول إليها وإنكارها وتفحص كل الأمور الحسنة.

3. نظرة الإمام المغيلي للإصلاح الاقتصادي في ممالك غرب إفريقيا

من خلال الرسائل

تتجلى أهمية رسائل الإمام المغيلي في أنها رسمت خارطة طريق للإصلاح الاقتصادي في إفريقيا الغربية من خلال الأفكار التي طرحها لحل المشاكل

⁽³⁵⁾ بوشقيف، المرجع السابق، ص 126.

⁽³⁶⁾ حسن علي خلاف. الإدارة المحلية الإسلامية. (بيروت: الدار الجامعية).

17(1980)ص.

⁽³⁷⁾ المغيلي، المصدر السابق، ص 52.

الاقتصادية حتى أن الكثير من المصلحين والملوك الذين أعقبوا حقبة الإمام المغيلي احتفوا بها وحاولوا النسخ على منوالها ومنهم الشيخ عثمان بن فودي حاكم سكت وأحمدو لوبوا حاكم مملكة ماسينا.

رأى الإمام المغيلي أن من ضرورات الإصلاح الاقتصادي إصلاح الحاكم الذي يترتب عليه إصلاح الرعية؛ لأن الحاكم بإمكانه زجر الناس وإرغامهم على الصلاح وردعهم عن الحرام.

01- إصلاح الأسواق:

يعتبر السوق عصب الحياة الاقتصادية وأداة هامة لتنظيمها وترشيدها كما يرى الإمام، فوجود السوق أولاً، وتنظيمه ثانياً، من أهم خطوات الإصلاح الاقتصادي، وقد تضمنت الإجابة السابعة من أجوبة المغيلي على أسئلة الأسقيا «ومنهم من يطفف المكيال والميزان والنقصان ومنهم من يغش الذهب والفضة بالنحاس، ويأبي أن ينظف التبر من التراب، وينفخ في اللحم ويخلط اللبن بالماء وغير ذلك... ومنهم من إذا اشترى سلعة حازها وذهب بها قبل أن يدفع لربها ثمنها، وإذا ندم أو لم يبيعها بريح وطلب منه ربحها ثمنها قال له خذ سلعتك أو اصبر حتى نبيعها»⁽³⁸⁾.

رأى الإمام المغيلي أن التطفيف حرام في الكتاب والسنة والإجماع، ويجب على الأمير أن يجعل محتسباً في الأسواق أو أميراً توكل إليه مسؤولية حفظ الأرزاق من جشع تجار السوء، كما يجب على أمير السوق أن يضبط المكيال والموازين ويراقبها مراقبة صارمة ومعاقبة كل متعد عليها بالطرده من السوق، في حين أن يمنع على التجار ممارسة النشاط التجاري خارج السوق المؤطر وخلف أنظار المحتسبين، ورأى أن غياب الحزم في ذلك يجعل كل

⁽³⁸⁾ المغيلي، أسئلة الأسقيا، ص 08.

مطروود من السوق يؤسس سوقا موازية خارج الضوابط الشرعية ورقابة
المحتسين⁽³⁹⁾.

انتبه الإمام المغيلي إلى جزئية هامة، هي ضرورة تسديد ثمن السلعة يدا بيد وعدم تأخير الدفع إلى حين تمام البيع، حيث كان يجري العمل بأن يؤخر المشتري سداد ثمن السلعة إلى حين بيع سلعته وإن لم يتم بيع السلعة ترد إلى بائعها الأول، وهذه المعاملة بغض النظر عن مآلاتها الشرعية بحكم الاتفاق والتراضي هي عمليا تسبب كساد السلع وفقدان رؤوس الأموال حيويتها التجارية، وقد تؤدي إلى تعطل الأسواق، فممنظور الإمام كان يتجه إلى ضرورة مكافحة الفساد والآفات التي تنتشر في الأسواق مما يخل بالحقوق المالية للناس ومستوى معيشتهم وهو ما يؤثر حتما في استقرار شؤون البلاد العامة⁽⁴⁰⁾.

02- العناية ببيت المال وتمويله من الكسب الحلال :

وجاء هذا المعطى في النصيحة السابعة للإمام المغيلي لسلطان كانو، حيث رأى ضرورة تحري الحلال في جباية الأموال للخرينة العمومية للدولة (بيت المال) من خلال مصادره الشرعية كالزكاة بأنواعها والغنائم وأموال الصلح والجزى والمكوس المفروضة على التجار وتركة من لا وارث له وغيرها من المصادر التي يجب الرشادة إن في جبايتها من خلال المراقبة الصارمة للجباة ومحاسبتهم، أو في تحديد سبل صرفها التي يجيب أن تصرف في الشؤون العامة من دون بخل ولا تبذير⁽⁴¹⁾.

⁽³⁹⁾ ميغا، المرجع السابق، ص 244.

⁽⁴⁰⁾ المغيلي، المصدر السابق، ص 66.

⁽⁴¹⁾ ادم عبد الله الالوري، الاسلام في نيجيريا والشيخ عثمان بن فودي الفلاني، (بيروت: دار الكتاب، 2014)ص

أثر إصلاحات الإمام المغيلي الاقتصادية في الدويلات الناشئة في غرب افريقيا.

1. عثمان بن فودي مؤسس مملكة سكت الفلانية ببلاد الهوسا.

كان لحركة الشيخ المغيلي الإصلاحية ببلاد السودان الغربي صدى واسع وأثر بعيد على سائر إمارات تلك البلاد في ميادين عديدة واضحة وملموسة في حياة الناس السياسية والاقتصادية والاجتماعية وحتى الثقافية فقد أكسبته مكانة عظيمة في السودان وذاع صيته كأحد المصلحين اللامعين في الدعوة والإصلاح، وأصبحت كتبه مدرسة روحية تربي عليها العلماء والحكام والعامّة⁽⁴²⁾.

تأثر عثمان ابن فودي مؤسس مملكة سكت بأفكار الشيخ المغيلي تأثرا كبيرا حتى صار ينقل من كتبه كأنما ينقل عنه مشافهة، أورد في كتابه حصن الأفهام بعض فتاوى المغيلي، فنسب ابن فودي نفسه إليه كالتلميذ الذي سمع وأخذ منه بالرغم من ما بينهما من بعد العهد الذي لا يقل عن ثلاثة قرون وهذا يدل على مدى تأثيره الشديد وتعلقه بالشيخ المغيلي، كما استشهد أيضا في كتابه "تعليم الإخوان" بنيل الابتهاج وكفاية المحتاج، فيبرز الشيخ عثمان فودي عن مدى نفعه بكتب الشيخ المغيلي حين يقول: «وقفنا بحمد الله تعالى على بعض تواليفه وانتفعنا بها، منها كتاب المسائل الذي ألفه للأسقيا ومصباح الأرواح في أصول الفلاح ورسالته التي ألفها لأبي عبد الله محمد بن يعقوب سلطان كانوا وغيرها جزاه الله عنا خيرا، وجمعنا معه في علالي الجنات آمين⁽⁴³⁾».

⁽⁴²⁾ الهادي هارون، الطريقة القادرية في وسط وغرب افريقيا ودورها الحضاري من القرن 16-19 م. غرداية: قسم العلوم الانسانية، جامعة غرداية 2016)، ص 132.

⁽⁴³⁾ عبد العالي الودغيري، اللغة العربية والثقافة الاسلامية بالغرب الافريقي. الرباط: منشورات كلية العلوم الانسانية، 2010)

2. أحمدولب مؤسس مملكة ماسينا 1815.

أقام أحمدو لوبو نظاما اقتصاديا يسير وفق نصائح الإمام المغيلي بإنشاء بيت المال يتولى الصرف منه لمصالح المجتمع، كانت أهم موارده الزكاة والجزية والخراج، وغنائم الحرب والغرامات التي يدفعها من يخالف الشريعة الإسلامية والتي تراوحت ما بين خمسمائة (500) صدفه وألفي (2000) صدفه، علاوة على بعض الغرامات التي تدفعها بعض القرى والمدن التي تحاول الانشقاق والتمرد والعصيان، هذا ونظم الشيخ اقتصاديات الدولة باستخدام الرقيق الذين يحصل الوثنية بزراعة أراضي الدولة، ووزع الماشية التي يحصل عليها من الغارات على المزارعين تحت إشراف مسؤولين يتولون إصدار التعليمات لأصحاب هذه القطعان، وذلك بحثاً عن المراعي الخضراء⁽⁴⁴⁾.

بالنسبة للنظام الضريبي فإن أحمدو لوبو لم يفرض ضرائب على رجال الحرف مثلما طبق في دولة الفولاني، واكتفى بتحصيلها من الفلاحين والرعاة ومن صيادي السمك والتجار، باعتبار هذه الحرف من مصادر الثروة وعماد دخلها في البلاد، ولكنها طبقت على كل الجهات عدا الجهات التي ساندت أحمدو في بداية جهاده، وهناك أيضاً ضريبة على غير المحاربين كما كان الرقيق يدفعون ضرائب من هذا القبيل⁽⁴⁵⁾.

⁽⁴⁴⁾ محمد بوعتروس. (الحركة الإصلاحية في افريقيا جنوب الصحراء ابان القرن الثالث

عشر، (الجزائر: دار الهدى 2009) ص 210.

⁽⁴⁵⁾ هارون، المرجع السابق، ص 129.

الخاتمة :

من خلال ما سبق يمكن أن نستخلص:

- تعتبر رسائل المغيلي إلى ملوك إفريقيا وثائق ذات قيمة كبيرة في رصد أسس المشروع الإصلاحى للإمام المغيلي في إفريقيا.

- اعتنت الرسائل بكل مجالات الحياة التي تحتاج إلى إصلاح إن على المستوى السياسي أو الاجتماعي أو الاقتصادي، حيث اعتبرها الأفارقة دستوراً قاراً استفادت منه كل الدويلات والحركات الإصلاحية التي جاءت بعد الإمام المغيلي.

- حازت الرشادة الاقتصادية حيزاً هاماً في نصائح الإمام المغيلي، حيث رأى أن الإصلاح الاقتصادي هو عمود الإصلاح وأن الفقر والإفقار من دواعي عدم الاستقرار السياسي لذا نراه يدعو إلى ضرورة شرعنة المعاملات الاقتصادية داخل الأسواق وتنظيمها وإقامة المحاسبين عليها.

- مثلت إفريقيا الغربية بيئة ملائمة لإصلاحات الإمام المغيلي حيث نجح في إقرارها، وسار على نهجه الكثير من المصلحين ومؤسسي الدول مثل المصلح عثمان بن فودي والشيخ أحمدو لب.

المصادر والمراجع

المصادر

1. ابن مريم المليتي.. البستان في ذكر العلماء والأولياء بتلمسان. بيروت: دار الكتب العلمية (2014).
2. محمد الحسني ابن عسكر.. دوحة الناشر لمحاسن من كان في المغرب من مشايخ القرن العاشر.(بيروت: دار الغرب. 1977)
3. أحمد باب التنبكتي.. نيل الابتهاج بتطريز الديباج. الجزائر: كلية الدعوة الإسلامية (2022).
4. محمد بن عبد الرحمن السخاوي. (الضوء اللامع لأهالي القرن التاسع. بيروت: مكتبة الحديثة (1992).
5. محمد بن عبد الكريم المغيلي.. أسئلة الأسقيا وأجوبة المغيلي. (الجزائر: المؤسسة الوطنية للنشر. 1989)
6. محمد بن عبد الكريم المغيلي.. أسئلة الأسقيا وأجوبة المغيلي. (الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب 1989).
7. محمد بن عبد الكريم المغيلي.. تاج الدين فيما يجب على الملوك والسلطين. (الجزائر: دار الكتاب. 2020)
8. محمد بن عبد الكريم المغيلي. (بلا تاريخ). تحفة الفضلاء ببعض فضلاء العلماء، الرباط: معهد الدراسات الإفريقية.

المراجع:

1. آدم عبد الله الالوري. الإسلام في نيجيريا والشيخ عثمان بن فودي الفلاني. (بيروت: دار الكتاب (2014).
2. حسن علي خلاف. الإدارة المحلية الإسلامية. بيروت: الدار الجامعية. (1980).
3. رشيد بليل. (قصور قورارا وأولياؤها الصالحون في المأثور الشفاهي والمناقب والأخبار المحلية. (الجزائر: المركز الوطني للبحوث في عصور ما قبل التاريخ والانثربولوجيا، 2008)..

4. سالم بن عبد القادر المغيلي. (خلاصة قولي ودليلي في الرد على الطاعن في نسل ونسب الشيخ سيد محمد المغيلي. الجزائر: دار الكتاب العربي.
5. عبد العالي الودغيري. اللغة العربية والثقافة (2018). الإسلامية بالغرب الإفريقي. (الرباط: منشورات كلية العلوم الإنسانية.
6. محمد بوعتروس. (الحركة الإصلاحية في إفريقيا جنوب الصحراء ابان القرن الثالث عشر. (الجزائر: دار الهدى 2009)..
7. محمد فرقاني. (2014). رسالة المغيلي إلى سلطان كانو (فيما يجب على الأمير والإمارة. الجزائر: منشورات نوميديا.
8. مقدم مبروك. (الإمام محمد بن عبد الكريم المغيلي ودوره في تأسيس إمارات إسلامية خلال القرن التاسع للهجرة الخامس عشر للميلاد. _ (الجزائر: دار الغرب للنشر والتوزيع 2002)..
9. ميغا. الحركة العلمية والثقافية والإصلاحية في السودان الغربي. (الرياض: مكتبة التوبة. 1999).
10. يحيى بوعزيز. (تاريخ إفريقيا الغربية الإسلامية من مطلع القرن السادس عشر إلى مطلع القرن العشرين. الجزائر: دار البصائر. 2009).

المقالات:

1. حمدان أحمد العلمي. استنصاح السودان أحد فقهاء توات وتلمسان. مجلة كلية العلوم الإنسانية، (1989).
2. أبو بكر إسماعيل ميغا. دعوة الإمام المغيلي العلمية والإصلاحية في السودان الغربي أواخر القرن التاسع والعاشر الهجري وأثرها في الرعاة والرعية. (مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود 1992).

الأطاريح:

1. عائشة بوشقيف.. ا. عبد العالي الودغيري. (2010). اللغة العربية والثقافة الإسلامية بالغرب الإفريقي. الرباط: منشورات كلية العلوم الإنسانية.
2. الدور الفكري لمحمد بن عبد الكريم المغيلي في إقليم توات والسودان الغربي (تلمسان: رسالة ماجستير 2011)
3. الهادي هارون. الطريقة القادرية في وسط وغرب إفريقيا ودورها الحضاري من القرن 16-19 م. (غرداية: قسم العلوم الإنسانية، جامعة غرداية 2016).

مقاربة الإمام محمد بن عبد الكريم المغيلي في محاربة الفساد الاقتصادي في توات والسودان الغربي (ت909هـ / 1504م).

د. حامد لمن إبراهيم (جامعة غرداية).

الملخص:

تهدف هذه الدراسة إلى إبراز مقاربة الإمام محمد بن عبد الكريم المغيلي في محاربة الفساد الاقتصادي في توات والسودان الغربي، وذلك من خلال تتبع منهجه في ذلك، وتوضيح الجهود الإصلاحية له في جانبها الاقتصادي؛ بالتطرق إلى إسهاماته في تحرير السوق والتجارة من سيطرة اليهود بتوات، واهتمامه بإصلاح الفساد الاقتصادي بالسودان الغربي من خلال تقويم بعض المعاملات الاقتصادية الفاسدة التي توضحها رسائله في النصح والإرشاد لحكام ممالك غرب إفريقيا. وقد خلصت الدراسة في الأخير أن للإمام المغيلي مقاربة سديدة ومنهجاً قوياً في إصلاحاته الاقتصادية، ذات أثر إيجابي متناسب مع الواقع الاقتصادي والسياسي لكل الأماكن التي استقر بها خلال مسيرته الإصلاحية الشاملة.

الكلمات المفتاحية:

المغيلي- الفساد الاقتصادي- توات- الأسواق - إصلاح

The Approach of Imām al-Maghīlī in Fighting Against Corruption in Tuat and West Sudan (d.909 AH/1504 AD)

Abstract

This study aims to highlight the approach of Imām Abū ‘Abdullah Muḥammad b. ‘Abdul Karīm al-Maghīlī in fighting against economic corruption in Tuat and West Sudan, by tracing his methodology and clarifying his reform efforts in the economic aspect. This includes his contributions to freeing the market and trade from Jewish control in Tuat, as well as his concern with reforming economic corruption in West Sudan by evaluating some corrupt economic transactions, which he clarified in his messages advising and guiding the rulers of West African kingdoms. The study concluded that Imām al-Maghīlī had a solid approach and a strong methodology in his economic reforms, with a positive impact that was proportionate to the economic and political reality of all the places where he settled during his comprehensive reform journey.

Keywords:

Imām al-Maghīlī, Corruption, Tuat, Markets, Reform

إن من أهم الجوانب الإصلاحية في حياة الإمام محمد بن عبد الكريم المغيلي؛ اهتمامه بالواقع الاقتصادي لتوات والسودان الغربي، حيث بذل جهودا كبيرة في محاربة الفساد الاقتصادي بطرق مختلفة تبين لنا مقارنته الإصلاحية في هذا المجال، فقد كان للدسوق والمعاملات الاقتصادية في توات والسودان الغربي حضورا كبيرا في كتابات المغيلي يظهر لنا من خلالها جانبا مهما في مسيرته الإصلاحية الحضارية. وهو ما يدفعنا لدراسة هذا الجانب الاقتصادي من تاريخ الإمام المغيلي وإبراز رؤيته ومقارنته في هذا المجال. ففيم تتمثل مقارنة الإمام المغيلي في محاربة الفساد الاقتصادي في توات والسودان الغربي؟

1- التعريف بالإمام محمد بن عبد الكريم المغيلي:

ولد الإمام المغيلي ونشأ بمدينة مغيلة بتلمسان في بيت علم وشرف، وبها حفظ القرآن الكريم على يد الشيخ محمد بن أحمد بن عيسى المغيلي الشهير بالجلاب، وأخذ عليه بعض أمهات الكتب الفقهية في مذهب الإمام مالك، ثم اتصل بالشيخ عبد الرحمن الثعالبي الجزائري (ت 875هـ/ 1470م) وأخذ عنه تفسير القرآن والتصوف والقراءات، ثم سافر إلى بجاية وأخذ عن علماء جملة من علوم التفسير والحديث، وبعدها انتقل إلى توات، التي قال عنها: «حللنا بتوات فوجدناها دار علم وتقى فانتفعوا بنا وانتفعنا بهم»⁽¹⁾. وكان ذلك على الراجح سنة (856هـ/ 1452م)، وأول ما نزل به قرية أولاد سعيد في تيجورارين، ومنها انتقل إلى تمنطيط سنة (872هـ/ 1468م) وبها احتك بالشيخ يحيى بن يدير وأخذ عنه العلم⁽²⁾.

(1) أحمد بابا التنبكتي، نيل الإبتهاج بتطريز الديباج تج. علي عمر، مكتبة الثقافة، القاهرة، 2004، ج2، ص234.

(2) المغيلي محمد بن عبد الكريم، تاج الدين فيما يجب على الملوك والسلطين، وصية لسلطان كانو بنيجيريا، تج. مبارك جعفري، دار الكتاب العربي، الجزائر، 2019، ص22.

وفي تمطيط قام الإمام المغيلي بإخراج اليهود سنة (882هـ/1477م)، وتمكن بعدها من إخضاع جميع القصور التواتية ولم يبق للقبائل والمشايخ الذين عارضوه في إخراج اليهود أي سلطة، كما نقل عاصمة إقليم توات إلى بوعلي، وعند عزمه الانتقال إلى أرض السودان استخلف ابنه على قيادة توات⁽³⁾.

أما ما يتعلق بنازلة اليهود في توات فقد لخصها الشيخ محمد باي بلعالم بقوله: «وقصته في جلاء اليهود من تمطيط حين ظهر له منهم نقض العهد وخروج الذمة، وخالف في ذلك القاضي السيد عبد الله العصنوني حين ترافعا بنازلتها ومحاورتهما إلى علماء الآفاق والمغرب، فوافق رأي الأكثر ما قاله العصنوني بناء على الظاهر، ووافق أهل الظاهر والباطن الإمام السنوسي والتنسي رأي المغيلي... واستنصر المغيلي بهما وبالعناية الربانية»⁽⁴⁾.

واصل الإمام المغيلي مسيرته الإصلاحية إلى بلاد السودان؛ حيث درّس وأفتى وأصلح، والتقى بسلاطينها، غير مهتم بجمع المال أو ممارسة التجارة مع الازدهار الذي عرفته تجارة القوافل في تلك الفترة بين المغرب الأوسط وإفريقيا جنوب الصحراء⁽⁵⁾، توفي رحمه الله سنة (909هـ/1504م)، خلفا مؤلفات عدة نذكر منها: مصباح الأرواح في أصول الفلاح، مغني النبيل، شرح الجمل في المنطق... وغيرها⁽⁶⁾، كما تتلمذ على يد الإمام المغيلي عدة طلبة اشتهر منهم: محمد بن عبد الجبار الفجيحي (ت 956هـ/1549م)، وعمر بن

⁽³⁾ محمد بن عبد الكريم المغيلي، وثيقة الاستخلاف، وثيقة بيد الباحث، دت، الورقة 1.

⁽⁴⁾ محمد باي بلعالم، الرحلة العلية إلى منطقة توات، ط1، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2005، ج1، ص82.

⁽⁵⁾ مبروك مقدم، الشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي وأثره الإصلاحي بإمارات وممالك غرب إفريقيا خلال القرنين 8-9هـ، دار الغرب للنشر، الجزائر، دت، ص91.

⁽⁶⁾ أحمد الحمدي، الفقيه محمد بن عبد الكريم المغيلي الإطار المعرفي والتعامل مع المكانية، مكتبة الرشاد للطبع والنشر والتوزيع، الجزائر، 2012، ص ص 20-30. انظر أيضا: عادل نويهض، معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر، مؤسسة نويهض للثقافة، بيروت، لبنان، 1980، ص 308.

أحمد البكاي بن محمد الكنتي ولد (865هـ/1460م)، والعاقب بن عبد الله الأنصبي المسوفي (ت950هـ/1543م)، وإبراهيم بن عبد الجبار الفجيجي (ت954هـ/1574م)،⁽⁷⁾.

2-الواقع الحرفي والتجاري في توات خلال فترة الإمام المغيلي ق9هـ/15م:

عرفت توات حركة اقتصادية مزدهرة بفضل موقعها الجغرافي الهام؛ الذي يتوسط الطرق التجارية، التي تصل بلدان المغرب بمنطقة السودان الغربي، حيث تتميز مسالك توات نحو إفريقيا التجارية بشكل كبير⁽⁸⁾، بالإضافة لذلك فقد اعتمد الاقتصاد التواتي قديما بشكل كبير على النشاط الحرفي الذي يلبي الاحتياجات الضرورية للتواتيين والمساعدة على استقرارهم بالإقليم وسط الصحراء، بحيث ساهمت هذه الصناعات التقليدية في إنعاش الأنشطة الاقتصادية الأخرى؛ كالزراعة والتجارة، فازدهرت الأسواق وانتشرت عبر كامل منطقة توات، واشتهرت عديد الأسر بصناعات تقليدية معينة؛ أصبحت ضمن الموروث الحضاري، نذكر منها:

-الصناعة الطينية: لقد ساعد توفر مادة الطين الأحمر في إقليم توات، على انتشار هذه الصناعة في الإقليم ويتم تحضير الطين بعد استخراجها من الأرض، ويتم وضعها في الماء ثلاثة أيام مما يحولها إلى عجينة، تضاف له مادة (الدقون) أو (التقون) وهو عبارة عن قطع صغيرة من الطين المحروق بعد سحقه جيدا ويخلط مع الطين حتى يصبح عجينة قابلة للتشكيل، وتشكل الطين المحضرة إلى أشكال مختلفة عبارة عن أواني

⁽⁷⁾ عائشة بوشقيف، إسهامات علماء تلمسان في الحياة الفكرية بإقليمي توات والسودان الغربي 8-10هـ/14-16م، أطروحة دكتوراه في التاريخ، قسم التاريخ كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة تلمسان، الجزائر، 2017-2018م، ص 268-271.

⁽⁸⁾ أحمد الحمدي، المرجع السابق، ص37.

وأقداح، وجرار، وقِلال، فتغطى هذه الأشكال لتجف في مدة تتراوح ما بين ثلاثة أسابيع إلى الشهرين تحت الظل لتجف بتأن⁽⁹⁾.

تم عملية الحرق بحفر حفرة محاطة بأغصان قابلة للاشتعال، وتوضع الأواني قطعة بعد قطعة وتغطى بالحطب، وبعد الحرق يتم إخراجها إلى مرحلة التزيين؛ وذلك بزخرفتها برسومات مختلفة تكون على شكل خطوط أو دوائر، وفي منطقة تمنطيط يتم صبغ تلك الأواني باللون الأسود، الذي تتميز به المنطقة في صناعة الفخار⁽¹⁰⁾.

- الصناعة النسيجية: ساهمت المرأة التواتية وبقوة في تنشيط الحياة الاقتصادية في إقليم توات، وذلك بفضل عملها الدؤوب والحرفية العالية التي تفننت وأتقنت الكثير من الحرف، والصناعات أبرزها غزل ونسج الصوف والقطن، وهي حرفة أساسية تتمثل في نسج الأبسطة والأغطية والملابس كالبرانس، والجلالاب، تختلف من حيث الألوان وطريقة النسج من منطقة إلى أخرى بالإقليم، وبالرغم من نجاح صناعة الغزل والنسيج عند التواتيين، فإن بعض الصعوبات قد واجهت هذه الصناعة، ويأتي على رأس هذه الصعوبات قلة المواد الخام من الصوف والقطن، ومرجع ذلك هو قلة أعداد الحيوانات التي تُربى بالإقليم زيادة على رداءة صوفها، كما أن التواتيين لم يعطوا أهمية لزراعة القطن، لذلك كان تجار توات يلجؤون إلى شراء الصوف والقطن من القوافل التجارية القادمة من الشمال لسد هذا النقص⁽¹¹⁾.

- صناعة الحلي: صناعة الحلي من الذهب والفضة كان يحتكرها اليهود، حيث كانوا يشترون الذهب الخام من القوافل القادمة من أسواق

⁽⁹⁾ Capitaine Rio, L'artisanat a Tamantit, travaux de l'institut de recherche saharienne, TXX, université d'Alger, 1961pp137-144.

⁽¹⁰⁾ محمد الصالح حوتية، توات و الأزواد خلال القرنين 12 و 13 ه دراسة تاريخية من خلال الوثائق المحلية، ج 1، دار الكتاب العربي، الجزائر، 2007، ص 136-137.

⁽¹¹⁾ فرج محمود فرج، إقليم توات خلال القرنين 18 و 19م، ديوان المطبوعات الجامعية والمؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1977، ص 60-61.

السودان، وكانت هذه الصناعة حاضرة بقوة في أسواق المدن الكبرى كأسواق تيجورارين وتمنطيط⁽¹²⁾.

- النشاط التجاري في توات:

وصف دوماس (Daumas) أسواق توات، وقال بأنها ثلاثة أبواب رئيسية وهي: باب أولاد ابراهيم، باب تادمايت، وباب تيمقرات، إلى جانب خمسة أبواب أخرى صغيرة مزودة بسبعة أماكن تعرف بالرحبة منها رحبة أولاد ابراهيم، والمستور، ورحبة الجماعة، وهي أماكن يلتقي فيها التجار، خصصت بعض جوانبها لسلع معينة فتجد فيها سوقا للصناعة، وسوقا للسرّاجين، وسوقا للجلابيب، وسوقا لبيع السمن، وسوقا لباعة الجمال والأنعام، وسوقا لبيع التبغ، وسوقا لبيع العبيد، وهو مهم لاستقبال العبيد المجلوبين من السودان، تعرض السلع في هذه الأسواق سواء كانت محلية أو مستوردة⁽¹³⁾.

-أسواق تيجورارين: يحتل شهرة كبيرة خارج توات، فقد كثرت فيه السلع المعروضة وتنوعت من عبيد وريش النعام، والعاج، واللحوم المجففة، والجلود، بالإضافة إلى التمور على اختلاف أنواعها، والحناء والطباق، والتبغ (الشمة التواتية المشهورة)، ومن المصنوعات اليدوية تتواجد به الأبسطة (الدكّالي) والبرانس، والأغطية والقفف والسلال، وكذلك ملح الطعام والفحم النباتي والجير والجبس وغيره. وكان هذا السوق تقصده القوافل القادمة من الشمال التي تأتي من المنيعه، وغرداية، وورجلان، ومثليبي

(12) محمد الصالح حوتية ، المرجع السابق، ص 137-138.

(13) Eugene Daumas , le grand désert itinéraire d'un caravane du Sahara au pays des Nègres , Royaume de Haoussa, Paris,1848, p67.

الشعانية وسعيدة، والمشرية وعين الصفراء، والبيض لمبادلة سلعها من القهوة والسكر والشمع والصابون بسلع سوق تيجورارين⁽¹⁴⁾.

- سوق تمنطيط: تعتبر تمنطيط من أهم وأقدم القصور التجارية بتوات؛ كونها تتوسط إقليم توات، بحيث يصف لنا المؤرخ التواتي محمد الطيب بن عبد الرحيم في مخطوطه القول البسيط في أخبار تمنطيط، حركية تمنطيط التجارية بقوله: «... التمنطيط اسم لمدينة في إقليم توات، بها قاعدة اجتمع فيها العلم والإمارة والديانة والريانية، وتنصب بها الأسواق والصنائع والتجارات والبضائع وكاد أن لا يستغني عنها غني ولا زاهد، لما فيه من الدين والبركات والمنافع والحاجات، فهي مورد الركبان ومحشر العربان ورئيسة البلدان، تنصت لعرسها الجيران، وبرد بها الظمان وتربى بها التجار في الأوان، ولا ينفع ذو سلعة عرفها إلا بسعرها»⁽¹⁵⁾، وهو ما يوضح الازدهار الاقتصادي لسوق تمنطيط، وأنه كان مقصد القوافل التجارية القادمة من الشمال والجنوب.

- أسواق عين صالح: يعد مركز عين صالح بسوقه الرئيسي المتواجد بقصر العرب أو القصر الكبير؛ نقطة هامة لالتقاء القوافل التجارية العابرة للصحراء في كافة الاتجاهات، وقد كانت هذه القوافل تضع حملتها بسوق قصر العرب لبيعها أو لمقايضتها، ومنها ما يستأنف بها السير إلى أسواق أخرى، ويُعد هذا السوق منطقة عبور وكانت السلع والبضائع المعروضة متنوعة ورخيصة الأثمان في نفس الوقت، فمن أسواق السودان الغربي كان يجلب العبيد وهذه البضاعة مطلوبة في أسواق توات والأسواق الشمالية الأخرى؛ مثل ميزاب وورجلان وكذلك يجلب ريش النعام، والذهب،

⁽¹⁴⁾ فرج محمود فرج، الرجع السابق ص 64-65.

⁽¹⁵⁾ محمد الطيب بن عبد الرحيم، القول البسيط في أخبار تمنطيط، تح. فرج محمود فرج، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1977، ص 14.

ومن أسواق طرابلس وغات وغدامس تأتي القهوة والسكر من أسواق التل الجزائري تأتي السكاكين، والمرايا، وإبر الخياطة، والمجوهرات. ومن أسواق المغرب الأقصى تأتي الملابس المطرزة، والأسلحة النارية، والخيل، وهذا إضافة إلى توفر المنتجات المحلية التواتية من تمر وأبسطة تواتية⁽¹⁶⁾.

-سوق أولف: يمثل هذا السوق مركزا بين أسواق توات وتديكلت؛ كونه يقع على طريق القوافل وهو بوابة توات نحو تديكلت عن طريق قصر أقبلي، كما عرفت منطقة أولف تجارة العبور؛ التي كانت تمارسها بعض القبائل المسيطرة على المنطقة⁽¹⁷⁾.

3- جهود الإمام المغيلي في محاربة الفساد الاقتصادي بتوات:

عندما دخل المغيلي إلى توات وجدها مملوءة مشحونة باليهود، وقد عاثوا فيها فسادا، وأظهروا قببح أفعالهم، وكانت التجارة حرفتهم الأولى فتحكموا في اقتصاد البلاد وسيطروا على ميادين التجارة وهذا ما مكّهم من السيطرة السياسية والتدخل في شؤون الحكم وهو ما جعل المغيلي يعزم على إجلائهم وهدم كنائسهم⁽¹⁸⁾، وهو ما يثبته التاجر الجنوي انطونيو مالفانتي (Antonio malfante)، كشاهد عيان على سيطرت اليهود على اقتصاد توات؛ عندما زارها سنة 850هـ/1447م وأقام بها سنتين تقريبا في ضيافة أحد تجارها، وتمكن من إرسال رسالة من توات إلى جنوة، وصفاً أهمية توات التجارية، وأبلغ أن اليهود يشكلون جالية كبيرة بها ولهم نفوذ وسطوة بداخلها⁽¹⁹⁾.

⁽¹⁶⁾ فرج محمود فرج، المرجع السابق ص 67.

⁽¹⁷⁾ Déporter Victor , la question du Touat au Sahara Algérien, Gourara, Touat, Tidikelt, fontana, Alger, 1891, p41.

⁽¹⁸⁾ -عبد الحميد بكري ، النبذة في تاريخ توات وأعلامها من القرن التاسع الهجري إلى القرن الرابع عشر، دار الغرب للنشر والتوزيع، وهران الجزائر، 2007، ص 34-35.

⁽¹⁹⁾ المغيلي محمد بن عبد الكريم، تاج الدين فيما يجب على الملوك والسلاطين، المصدر السابق، ص 24.

إضافة إلى ذلك فقد وصل اليهود إلى درجة من البذخ والتباهي بالثراء يتعارض مع القواعد التي تحددها وضعية الذمة المخصصة لليهود والمسيحيين في المجتمعات الإسلامية، وأن حماية أهل الذمة مشروطة ببعض الحدود التي يرى المغيلي أن اليهود لم يراعوها وهو سبب إعلان الحرب عليهم⁽²⁰⁾، كما ساهم اليهود في تغذية الصراعات داخل إقليم توات الذي كان أشهره أحمد وسفيان؛ لأن استمرار هذا الصراع يقوي شوكتهم ويجعلهم يقفون على مسافة متساوية تجاه كل طرف بغية كسب الطرفين لتأمين تجارتهم ونشاطاتهم الاقتصادية الأخرى، لذلك لا يترددون كلما سنحت لهم الفرصة، ولو بطريقة غير مباشرة في إشعال الفتنة ليستمر الصراع أطول فترة ممكنة، وقد سيطر اليهود بشكل خاص على التجارة الخارجية للإقليم لأنها الرئة التي يتنفس بها اقتصاد توات فكان على رأس كل قافلة تجارية يهودي يقودها، مما جعلهم يتحكمون ويحتكرون صادرات وواردات تجارة القوافل التي تمر بتوات⁽²¹⁾.

ويذكر رشيد بليل في كتابه قصور قورارة وأولياؤها الصالحون أن الإمام المغيلي خاطب سكان توات وقورارة وتديكلت قائلا لهم: "إذا تبعتموني فعندي مشروع أعرضه عليكم" أجابوه ماهو؟ قال لهم: «لن يكون هناك منذ اليوم سوى ثلاثة أسواق، واحد في تميمون، وآخر في تمنطيط، والثالث في تديكلت وأن الجميع سيبيعون ويشترون في هذه الأسواق، لكن بشرط عليكم التخلي عن كلمتي محمد وسفيان ويجب أن تختفي، وأن الجميع

⁽²⁰⁾ رشيد بليل، قصور قورارا وأولياؤها الصالحون في المأثور الشفهي والمناقب والأخبار المحلية، تر. عبد الحميد بورايو، منشورات المركز الوطني للبحوث في عصور ما قبل التاريخ و علم الإنسان والتاريخ، الجزائر، 2008، ص 51.

⁽²¹⁾ -محمد قومي، دور الطائفة اليهودية بتوات خلال القرنين 9-10هـ/15-16م، رسالة ماجستير في التاريخ، قسم التاريخ، كلية العلوم الاجتماعية، جامعة وهران، الجزائر، 2013-2014م، ص ص 91-102.

يلتقي في الأسواق دون فتنة"، مما يدل على أن الإمام المغيلي يقوم على حرمان اليهود من احتكار وظيفة الوسيط التجاري بين جميع قصور توات بمقاطعاتها الثلاث، وتعميم المبادلات التجارية التي تنعش الأسواق الداخلية لتوات وإلغاء التفرقة التي كانت تنخر المجتمع التواتي في تلك الفترة⁽²²⁾، وهو مشروع إصلاحى ينم عن الرؤية الاقتصادية الثاقبة للإمام المغيلي التي تركز على محاربة الفساد الاقتصادي لليهود والتفكير في صناعة اقتصاد موازٍ ينافس احتكاراتهم، لأن الاهتمام بحرية السوق التي تخضع لقاعدة العرض والطلب بعيداً عن الاحتكار والمضاربة سبيل للازدهار الاقتصادي الذي ينعكس إيجاباً على المجتمع وذلك باستقراره سياسياً وإيجاد بيئة هادئة ملائمة للإنتاج الفكري والرقى الحضاري.

4- جهود الإمام المغيلي في محاربة الفساد الاقتصادي في السودان

الغربي:

زار الإمام المغيلي مدينة كانو ببلاد الهوسا في عهد الأمير محمد رمفا (1436-1499م)، ومكث بها فترة وعهد له منصب القضاء والإفتاء⁽²³⁾. وقد طلب منه الأمير آنذاك أن يكتب له رسالة في أمور السلطنة وشؤونها وكيفية ممارسة الحكم فكتبها له عام 1492م، فكان ذلك سبباً في نهضة المدينة وفق رؤية المغيلي الإصلاحية فكانت مركزاً ثقافياً، وتجارياً هاماً في بلاد الهوسا، فأصبحت مقصداً للقوافل التجارية، وطلبة العلم والعلماء⁽²⁴⁾.

كما حلَّ الإمام المغيلي في مملكة كاتسينا ببلاد الهوسا خلال حكم الملك محمد كوراو (849-901هـ/ 1445-1495م)، وبنى بها مسجد غوبر على طراز

⁽²²⁾ رشيد بليل، المرجع السابق، ص 57-58.

⁽²³⁾ عبد الله آدم الألوري، موجز تاريخ نيجيريا، دار مكتبة الحياة، بيروت لبنان،

1965، ص 82.

⁽²⁴⁾ نفسه، ص 82.

مساجد غاو وجني⁽²⁵⁾ ، وتقلد مهام عديدة كالّ تعليم والإفتاء، وكان ناصحاً ومرشداً في مختلف الجوانب الاقتصادية والسياسية والدينية، ويذكر الرحالة هنري بارث أن الإمام عبد الكريم المغيلي كان سبباً في دخول الحاكم محمد كوراو إلى الإسلام⁽²⁶⁾ .

- تأثر قيادة خلافة سكو توب أفكار وكتابات الإمام المغيلي:

لم يكن لدخول الإسلام في بلاد الهوسا خلال النصف الأخير من القرن الخامس عشر ميلادي أيّ بعدٍ سياسي في البداية، رغم الثقافة الكبيرة التي كان يتمتع بها علماء المنطقة، ثم أصبح الإسلام يمثل قوّة سياسية في بلاد الهوسا، أدّى إلى تغييرات حكومية، جلبت قيادات جديدة، خصوصاً في زاريا وكانو، وكاتسينا اللاتي كنّ أكثر إسلاماً في بلاد الهوسا، ومن أبرز هؤلاء الحكّام محمّد رمفا الذي دعا الشّيخ محمّد بن عبد الكريم المغيلي التلمساني لنصحها، وبفضل هؤلاء العلماء ترسخ الإسلام وزادت أهميّة بلاد الهوسا، وأصبح يمرّ عليها ركب الحجيج، وكانت لمراكز التعليم المتنامية فيها خلال القرن السادس عشر سمعة طيّبة؛ ممّا جعل بعض مدن بلاد الهوسا تبرز كعواصم إسلامية ذات شأنٍ بما فيه الكفاية لجذب العديد من الطّلاب والعلماء، زد على هذا تقليد الحجّ الذي عمل على وصل المسلمين بالعالم، كما يعتبر مصدراً لتدقّق الفكر والأفكار الإسلامية إلى بلاد الهوسا، وكان الإسلام في القرن الثامن عشر الميلادي أكثر قوّة وتمكّناً، حيث أنّ الحكّام أشهروا إسلامهم واعتمدوا على العلماء في حكمهم⁽²⁷⁾ .

⁽²⁵⁾ مهدي آدامو ، الهوسا وجيرانهم بالسودان الأوسط. ، المطبعة الكاثوليكية، لبنان، 1988، ص28.

⁽²⁶⁾ Barth Henry, Travels and Discoveries of North and Central Africa. new York, 1857, p474.

⁽²⁷⁾ عطية عومار، حركة الشيخ عثمان بن فودي الإصلاحية جذورها وتأثيراتها على غرب إفريقيا 1168-1233هـ/1804-1903م، مذكرة ماجستير في التاريخ، قسم التاريخ، كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية، جامعة غرداية، الجزائر 2016-2017، ص67.

وبذلك يعدّ الإمام محمد بن عبد الكريم المغيلي من كبار العلماء الجزائريين الذين جابوا أقطار السودان الغربي ونالوا شرف نشر العلم والمعرفة في هذه الأمصار، فانتقل عبر القرى والمدن والممالك والتقى بحكامها، وخالط علماءها، فكان ناصحا ومصلحا ومجددا، فأصبح ذائع الصيت حتى التفّ حوله طلبة العلم، وقصده العلماء والحكام يرجون التّهلّ من علمه، والاستفادة من نصحه، وجمع الله فيه خصال جمّة، فهو يملك من الشّجاعة والجرأة والمروءة والسّماحة والفضل والوقار ما يمكنه لتصرّ أمته، ونُصح إخوانه، فقد رحل من شمال الصحراء إلى جنوبها ينشر الإسلام ومختلف العلوم الدّينية والدّنيوية.

- المسائل الاقتصادية في كتابات الإمام محمد بن عبد الكريم المغيلي:

تعتبر الكتابات الإصلاحية للإمام المغيلي التلمساني نابعة من التأصيل الشرعي، واضحة المعاني، موجزة الألفاظ، قوية العبارة، مع الدقة والاختصار، وهي نتاج علمه الغزير، وفقهه المستنير من المذاهب الأخرى، كما أن فكره النير جعل منه مجدد السودان الغربي، بل أكثر من ذلك فمواقفه الاجتهادية العديدة أحدثت تكاملا في جميع المسائل التي تناولها؛ خاصة في المسائل الاقتصادية التي نذكر منها:

- مصادريه مال المسلمين:

اعتمدت بلاد السودان الغربي النظام المالي الإسلامي لإدارة مختلف الشؤون المالية، فهو نظام دقيق مستوحى من النّظم الإسلامية وفق الشريعة الإسلامية، فقد كان الإمام محمد بن عبد الكريم المغيلي التلمساني حريصا علي إرشاد الحكام في ما يخص شؤون المسلمين، وكلّ ما يتعلّق بحياتهم الدّينية والدّنيوية؛ لذلك نجده لم يغفل عن تنظيم أمورهم المالية وأرشدهم إلى توكيل هذه المهام وإدارتها إلى أمناء وعمال من ذوي الصّلاح

والتقوى⁽²⁸⁾، وعلى الأمير معرفة مصاريف هذه الأموال المفروضة على أهلها، وتعيين العمال لجبايتها وصرفها على مستحقها على حسب ما حدّده الشّرع مراعاة لمصلحة المسلمين وعمارة للأرض، ويّين بالتّفصيل كيفية صرف هذه الأموال في مصارفها التي ذكرها الله تعالى من الأصناف الثمانية، باجتهاده واستشارة أهل العلم⁽²⁹⁾، وقد تعددت مصادر بيت مال المسلمين، ومن أنواع مصادر بيت المال التي حدّدها الشّرع الزّكاة، والخمس والفيء والخراج، والجزية، والعشر، وإرث من لا وارث له، ومال جهل صاحبه، وتصرف أموال بيت مال المسلمين في مصالح عديدة ممّا يستدعي مصلحة الأمة⁽³⁰⁾، وكل هذا من أجل التصدي لكل أشكال الفساد الاقتصادي الذي يضر بيت مال المسلمين.

- جباية الأموال:

إن أساس الإصلاح والرشاد الاقتصادي التركيز على أن تكون مصادر الدخل المالي شرعية، وهو ما نص عليه الإمام المغيلي، في رسالته تاج الدين فيما يجب على الملوك والسلاطين التي بيّن فيها أسس جمع المال بالتطرق بداية إلى الكرم، وأنه دوام الملك، والبخل والتبذير خرابه، وعرف الكرم أنه بذل ما يُحتاج له عند الحاجة لمستحقه بقدر، ومن تعدى فقد تعدى وظلم، ثم أورد في أسس جمع المال الإمساك عن ما في أيدي الناس؛ لأن الطمع خراب للمملكة وزوالها، ثم عدد الأموال التي أحل الله جبايتها من زكاة، وخمس الركاز، وخمس الغنيمة، والجزية، وأموال الصلح، وتركة لا وارث لها، وما أفاء الله من أموال أهل الحرب، ثم ذكر تحريم الشريعة على الأمير

⁽²⁸⁾ المغيلي محمد بن عبد الكريم، أسئلة الأسقيا وأجوبة المغيلي، تح: عبد القادر زبادية، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1989، ص182.

⁽²⁹⁾ -محمد بن عبد الكريم المغيلي، أسئلة الأسقيا وأجوبة المغيلي، المصدر السابق،

ص183.

⁽³⁰⁾ -نفسه، ص182-183.

الظلمَ وأخذَ الرشوة والهدية، لأنها باب كل بلية، وإذا دخلت الهدية ذا سلطان خرج عنه العدل والإحسان، كما تطرق لتحريم المكس، وأخذ العشر من أرباب الأموال والتركات⁽³¹⁾.

- تنظيم الأسواق التجارية:

تعتبر التجارة موردا أساسيا للربح وجني الأموال، ولها دور فعال في تقوية اقتصاد الدولة؛ مما جعلها من بين اهتمامات الإمام المغيلي، فنجده قد حثَّ الحكام والأمراء بتنظيم أمور السوق وإصلاحها، والوقوف على ما يحتاجه الفقراء والمساكين، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر⁽³²⁾، ومن الأمور التي نبه إليها وحذّر منها ظاهرة الغش التي انتشرت في الأسواق، كما أمرهم بالوقوف عدلاً على تغيير المناكر التي تحدث فيها، كالتطفيف في المكيال والميزان، وحث على إصلاح المكايل كبارها وصغارها، وردّ السلعة لصاحبها إذا لم يجد فيها ربحاً، إلى غير ذلك من المناكر، وشدد على الحكام في زجر أهل الغشّ والخديعة أشدّ الزجر⁽³³⁾.

- المكايل والموازن:

انصب اهتمام الإمام المغيلي التلمساني في تقديم النصح والإرشاد للملوك السودان الغربي بضبط السوق من ناحية المكايل والموازن، وتنظيم شؤونها؛ لدورها في تنمية الأسواق التجارية وازدهارها، فبيّن صفة الكيل والوزن ووضح الكيفية التي تؤدي بهما، لمنع التطفيف في الميزان وهي كما يأتي:

⁽³¹⁾ محمد بن عبد الكريم المغيلي ، تاج الدين فيما يجب على الملوك والسلطين، المصدر السابق، ص ص 58-59.

⁽³²⁾ محمد بن عبد الكريم المغيلي ، أسئلة الأسقيا وأجوبة المغيلي، المصدر السابق، ص 167.

⁽³³⁾ نفسه، ص 188.

- صفة الوزن:

وطريقته هو «أن يبسط الوازن جلدأ صحيحاً ليناً أملس ويوقف الميزان فوقه حتّى يعتدل فإذا اعتدل يضع فيه التبر برفق، والصنوج، ويرفع من غير تميل ولا تسنيد ولا حيلة، ويبرم ومهزّ ثم يسكن يده ويزيد وينقص حتّى يعتدل لسان الميزان في وسط الكفة ساكناً بلا حيلة فيعطي الذي في الكفة لربه، ويجمع ما تساقط ويندره في مدة أجله»⁽³⁴⁾.

- صفة الكيل:

وطريقته تكون بـ: «أن يقعد المكيال معتدلاً ثمّ يصب فيه المكيل برفق حتى يمتلئ كاملاً من غير تذكير ولا تسنيد ولا زلزلة ولا حيلة، وإتّما يعدل المكيال في موضعه ويصبّ فيه حتّى يمتلئ بطبعه»⁽³⁵⁾.

- أهمية وظيفة المحتسب في مقاربة الإمام المغيلي الاقتصادية:

ومن النّظم الاقتصادية الهامة التي نبه عليها الإمام محمد بن عبد الكريم المغيلي وظيفة المحتسب، حيث أولى لها عناية خاصّة، وألزم على الحاكم أن يقوم بتأمير أمناء ومحتسبين، ويشترط في المحتسب أن يكون حراً عادلاً، ذا رأي وعلمٍ بالمنكرات الظاهرة، ويختصّ بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، كما يقوم على أمر السوق، ومن مهامه التي يقوم بها ما يتعلق بالبخس والتطفيف في الكيل والأوزان، أو الغشّ أو التّدليس في البيع والأثمان، وزجر المماطل في تأخير مستحقّاته من الدّيون، كما يهتم بالمحافظة على الآداب العامّة في الأسواق والطّرق كمنع اختلاط الرّجال مع النّساء في الأماكن العامّة⁽³⁶⁾.

⁽³⁴⁾ المغيلي محمد بن عبد الكريم، أسئلة الأسقيا وأجوبة المغيلي، المصدر السابق،

ص188.

⁽³⁵⁾ نفسه، ص188.

⁽³⁶⁾ نفسه، ص189.

وعلى المحتسب التحلي بصفات اللين والرفق قولاً وعملاً، يلاقي الناس بوجه حسن مع سمو الأخلاق، لأداء واجبه على أكمل وجه يستميل بها القلوب، متعطفًا عن ما في أيدي الناس، لا يقبل الهدايا، ولا يكون مرتشياً، بل يجب أن يكون المحتسب وفق هدي النبي محمد صل الله عليه وسلم⁽³⁷⁾، وعلى المحتسب أن يختار من يعينه على أداء مهامه، كما طلب من السلطان مراقبة هؤلاء العمال عند أداء مهامهم والتأكد من أنهم يقومون بها على أتم وجه⁽³⁸⁾، لذلك وجب على المحتسب البحث عن المنكرات والوصول إليها وإنكارها وتفحص كل الأمور الحسنة واستحسانها والأمر بإقامتها، وللحسبة أهمية بالغة تتمثل في ضبط أوضاع المجتمع في⁽³⁹⁾ كافة جوانبه المتعلقة بالأمور الدينية أو الاقتصادية أو غيرها من الجوانب الأخرى، كما طلب الإمام المغيلي من السلطان مراقبة هؤلاء العمل عند أداء مهامهم والتأكد من ذلك، حيث يقول: « وأن يجتهد في منع ذلك كله بما استطاع وأن يجعل أمناء، ويحتسبون ذلك ليلاً ونهاراً سر وجهاراً، وليس ذلك من باب التجسس على المسلمين وإنما ذلك من حسن الرعية، لذلك وجب على المحتسب البحث عن المنكرات والوصول إليها وإنكارها وتفحص كل الأمور الحسنة»⁽⁴⁰⁾.

- جمع الجزية وتصريفها:

يتولى الإمام أخذ الجزية ويقوم هو بصرفها أو من يقوم مقامه في عدمه وهو أعلم أهل ذلك الزمان⁽⁴¹⁾، وتصرف الجزية مصرف الفيء؛ وسيرة أئمة

⁽³⁷⁾ حلاف حسن علي، الإدارة المحلية الإسلامية، المحتسب، الدار الجامعية، بيروت، 1980، ص 17.

⁽³⁸⁾ مهند أحمد مبيضين، فتاوى المغيلي مصدراً لتاريخ مملكة سنغاي. المجلة الأردنية في الدراسات الإسلامية، مج 10، ع 3، 2014، ص 450.

⁽³⁹⁾ حلاف حسن علي، المرجع السابق، ص 52.

⁽⁴⁰⁾ محمد بن عبد الكريم المغيلي، أسئلة الأسقيا وأجوبة المغيلي، المصدر السابق، ص 189.

⁽⁴¹⁾ نفسه، ص 179.

العدل في قسم الفيء أن يبدأ الإمام بسد ما لا بد من سده من حصن وسلاح وغيره، ثم بعطايا آل النبي، ثم يعطي العلماء والمؤذنين وكل من بيده شيء من مصالح المسلمين بحسب الاجتهاد، ثم بالفقراء حسب الحاجة حتى يعمهم، ثم يعم بما بقي جميع الناس بالسوية، كما يمكن أن يرى الإمام أو من يقوم مقامه في عدمه حبس هذه الفضلة أو بعضها للنوائب، بنية صادقة ونظر صائب⁽⁴²⁾.

إن المتبّع لمنهج الإمام المغيلي الإصلاحى يجده دائما يحث الحكام على التصدي بقوة وعدم التهاون مع كل من يمد يده أو يتطاول على أرزاق الناس سواء بالملكس وقطع الطريق، أو المضاربة واحتكار السوق، والغش والتدليس في التجارة، بحيث إن ضعف سلطة الدولة في هذا الجانب مؤذن بخرابها وسقوط سلطتها السياسية؛ ما ينعكس سلبا على الرعية بانعدام سلطة قوية حاكمة قادرة على إحقاق الحق والتصدي للظلم والباطل.

- تأثير الإمام المغيلي في الجانب الاقتصادى لحركة للشيخ عثمان بن فودي الإصلاحية:

اعتمد الشيخ عثمان بن فودي على التراث الإصلاحى للإمام المغيلي؛ الذى يحمل مفهوم التّجديد في غرب إفريقيا، فقد شجّب جملةً من الممارسات الفاسدة وغير الإسلامية في منطقة غرب إفريقيا خلال القرن الخامس عشر ميلادى، حيث أدان الضّرائب غير الشّرعية وعمليات الاستيلاء على الممتلكات الخاصّة، واستهجن سلسلة الممارسات والشّعائر الوثنية، وناهض رجال الدّين المرتشين المرتزقة المنخرطين في خدمة الحكّام، ودعا إلى تطبيق الشّرعية من قبل حاكم قوى ملتزم بالإسلام. وقد سلك نهجه عثمان بن فودي، فانتقد حكام الهوسا على جملة المكوس (الضّرائب) غير الشّرعية، وعلى مُصادرة الأملاك، وعلى الرّشوة، وعلى تلقى الهدايا،

⁽⁴²⁾ نفسه، ص 189.

وعلى استبعاد المسلمين وأكل أموالهم بالباطل. كذلك وجه نقدا لاذعا إلى بعض الحكّام المهملين للرّعية⁽⁴³⁾، وكل ذلك يدخل في دائرة السياسة الاقتصادية التي انتهجها الشيخ عثمان على ضوء الحركة الإصلاحية للإمام محمد بن عبد الكريم المغيلي التلمساني الذي يعدّ بحق العالم الفقيه والسياسي التي تفرد بنصحه وإفادته من خلال كتاباته في فقه السياسة الشرعية، وعليه فقد قام بدور المجدد الذي أعطى لملوك غرب إفريقيا وأمراءها المنهج القويم من أجل نظام إسلامي راشد يحقق العدالة والتنمية بدءا بحفظ المال العام والخاص، إضافة إلى بيان الأصول الشرعية في جباية الأموال وصرفها على الوجه الصحيح.

خاتمة:

من خلال هذه الدراسة نخلص إلى أنّ السوق عند الإمام المغيلي نواة اقتصادية هامة تؤثر على مختلف الجوانب الحضارية، إذ يتبين لنا من خلال حركته الإصلاحية، أن الإصلاحات الدينية والثقافية لا بد لها من إصلاحات اقتصادية؛ تظهر لنا جليا هذه المقاربة من خلال تأسيسه لمسجد في قصر آت هارون، وسوقا في آت سعيد ونصب فيه كرسي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والنصح والإرشاد⁽⁴⁴⁾، وبذلك أدخل وظيفة المحتسب لحماية السوق من الفساد والمعاملات الاقتصادية غير الشرعية، كما يبين لنا وجود كرسي الإمام المغيلي داخل السوق؛ أن الدعوة ليست حكرا على المساجد على أهميتها في ذلك، لكن على الإمام المصلح أن يعيش واقع الرعية ليتمكن من التأثير وقيادة المجتمع نحو الصلاح والأزدهار في مختلف مناحي الحياة.

⁽⁴³⁾ لايبديسأيرا م، تاريخ المجتمعات الإسلامية، ترجمة فاضل جتكر، دار الكتاب

العربي، لبنان، 2011، ص 696-697.

⁽⁴⁴⁾ رشيد بليل، المرجع السابق، ص 56.

كما يتبيّن لنا من مقارنة الإمام المغيلي في محاربة الفساد الاقتصادي وإصلاحه في توات وغرب إفريقيا؛ أن إصلاحاته كانت تناسب الواقع، فعندما رأى في توات أن السلطة السياسية ضعيفة وتكاد تكون منعدمة، وأن اليهود قد طغى نفوذهم حتى سيطروا على أهل الحل والعقد وأصبحوا أداة لخدمة مصالح اليهود، ما انعكست فسادا اقتصاديا عانى منه المجتمع التواتي، لم يجد الإمام المغيلي طريقة أخرى للتغيير ومحاربة هذا الفساد غير إعلان الحرب على اليهود واسترجاع السلطة السياسية لتكون إمارة قوية قادرة على إحقاق الحق وكبح نفوذ اليهود في المنطقة، وهو ما دفعه إلى التمسك باجتهاده الفقهي وإرسال الرسائل إلى العلماء في مختلف الأمصار؛ الذين وجد منهم من وافق رأيه ومنهم من خالفه، فرجّح من وافقه حسب اجتهاده وتشجع على حرب اليهود إلى أن كسر شوكتهم وهدم مشروعهم الاقتصادي والسياسي في توات.

أمّا ما يتعلق بمقاربة الإمام المغيلي الإصلاحية في مختلف الجوانب الحضارية خاصة الاقتصادية منها بممالك السودان الغربي، فقد بادر بالنصح والإرشاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ومحاربة الفساد الاقتصادي والبدع والخرافات التي انتشرت في المجتمع؛ لأنه وجد السلطة السياسية قائمة وقوية، فاختر المرافقة والتوجيه، وهو ما رحب به زعماء ممالك غرب إفريقيا، فقربوا الإمام المغيلي منهم، وجعلوه مستشارا لهم؛ لما رأوه فيه من صلاح وغيره على بلاد المسلمين. كدلالة واضحة على أن للإمام المغيلي فكرا إصلاحيا شاملا قادرا على التعامل والتأقلم مع مختلف الظروف التي تواجه رسالته الحضارية، وبذلك كان منهجه الإصلاحي يتغير وفق الواقع والظروف مستمدا أصوله من القرآن والسنة أصول الشريعة الإسلامية الصالحة لكل زمان ومكان، وأن جهوده تصب في خدمة ونهضة الأمة الإسلامية جمعاء.

كما يتضح أيضا من خلال هذه الدراسة أن لعلماء الجزائر دورا حضاريا مهما في إفريقيا جنوب الصحراء، وذلك بترسيخ المبادئ الإسلامية، وإحكام السياسة الشرعية ونصح الراعي والرعية، وإعمال الحق على منهج الشريعة، وإدارة المسلمين والاهتمام بشؤونهم بحكمة بالغة، فبهؤلاء وعلى رأسهم الإمام محمد بن الكريم المغيلي استفاقت الأمة واستضاءت على نهجهم السديد الذي ينم عن فكر متقد توغل إشعاعه في العمق الإفريقي، وهذا ما أشاد به قادة خلافة سكوتو الإسلامية (1804-1903م)، أنهم انتفعوا بكتابات الإمام محمد بن عبد الكريم المغيلي، بل كانت مصدرا في تشريعات قوانينهم خاصة في الجانب المالي والاقتصادي.

المصادر والمراجع:

المصادر المخطوطة:

1. المغيلي محمد بن عبد الكريم، (دت) وثيقة الاستخلاف، وثيقة بيد الباحث.
2. المصادر المطبوعة:
3. بن عبد الرحيم محمد الطيب، (1977)، القول البسيط في أخبار تمنطيط، تح. فرج محمود فرج، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر.
4. التنبكتي، أحمد بابا، (2004)، نيل الابتهاج بتطريز الديباج تح. علي عمر، مكتبة الثقافة، القاهرة.
5. المغيلي محمد بن عبد الكريم، أسئلة الأسقيا وأجوبة المغيلي، تح: عبد القادر زبادية، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1989.
6. المغيلي محمد بن عبد الكريم، تاج الدين فيما يجب على الملوك والسلاطين، وصية لسلطان كانو بنيجيريا، تح. مبارك جعفري، دار الكتاب العربي، الجزائر، 2019.

المراجع:

1. أحمد الحمدي، الفقيه محمد بن عبد الكريم المغيلي الإطار المعرفي والتعامل مع المكانية، مكتبة الرشد للطبع والنشر والتوزيع، الجزائر، 2012.
2. آدامو مهدي، الهوسا وجيرانهم بالسودان الأوسط، المطبعة الكاثوليكية، لبنان، 1988.
3. الألوري عبد الله آدم، موجز تاريخ نيجيريا، دار مكتبة الحياة، بيروت لبنان، 1965.
4. بكري عبد الحميد، النبذة في تاريخ توات وأعلامها من القرن التاسع الهجري إلى القرن الرابع عشر، دار الغرب للنشر والتوزيع، وهران الجزائر، 2007.
5. بلعالم محمد باي، الرحلة العلية إلى منطقة توات، ط1، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2005، ج1.

6. بليل رشيد، قصور قورارا وأولياؤها الصالحون في المأثور الشفهي والمناقب والأخبار المحلية، تر. عبد الحميد بورايو، منشورات المركز الوطني للبحوث في عصور ما قبل التاريخ وعلم الإنسان والتاريخ، الجزائر، 2008.
7. بوعزيز يحي، تاريخ إفريقيا الغربية الإسلامية، دار البصائر، الجزائر، 2009.
8. حلاف حسن علي، الإدارة المحلية الإسلامية، المحاسب، الدار الجامعية، بيروت، 1980.
9. حوتية محمد الصالح، توات والأزواد خلال القرنين 12 و 13 هـ دراسة تاريخية من خلال الوثائق المحلية، ج 1، دار الكتاب العربي، الجزائر، 2007.
10. فرج محمود فرج، إقليم توات خلال القرنين 18 و 19م، ديوان المطبوعات الجامعية والمؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1977.
11. لايب سأيام، تاريخ المجتمعات الإسلامية، ترجمة فاضل جتكر، دار الكتاب العربي، لبنان، 2011.
12. الماحي عبد الرحمان عمر، الدعوة الإسلامية في إفريقيا الواقع والمستقبل، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، دت.
13. مبيضين مهنا أحمد، فتاوى المغيلي مصدرا لتاريخ مملكة سنغاي. المجلة الأردنية في الدراسات الإسلامية، مج 10، ع3، 2014.
14. نويهض عادل، معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر، مؤسسة نويهض للثقافة، بيروت، لبنان، 1980.

الأطروحات:

1. بوشقيف عائشة، إسهامات علماء تلمسان في الحياة الفكرية بإقليمي توات والسودان الغربي 8-10هـ/14-16م، أطروحة دكتوراه في التاريخ، قسم التاريخ كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة تلمسان، الجزائر، 2017-2018م.
2. عطية عومار، حركة الشيخ عثمان بن فودي الإصلاحية جذورها وتأثيراتها على غرب إفريقيا 1168-1233هـ/1804-1903م، مذكرة ماجستير في التاريخ، قسم التاريخ، كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية، جامعة غرداية، الجزائر 2016-2017.

3. قومي محمد، دور الطائفة اليهودية بتوات خلال القرنين 9-10هـ/15-16م، رسالة ماجستير في التاريخ، قسم التاريخ، كلية العلوم الاجتماعية، جامعة وهران، الجزائر، 2013-2014م

المراجع الاجنبية:

1. Barth Henry, Travels and Discoveries of North and Central Africa. New York, 1857.
2. Capitaine Rio, L'artisanat a Tamantit, travaux de l'institut de recherche saharienne, TXX, université d'Alger, 1961.
3. Déporter Victor, la question du Touat au Sahara Algérien, Gourara, Touat, Tidikelt, fontana, Alger, 1891.
4. Eugene Daumas, le grand désert itinéraire d'une caravane du Sahara au pays des Nègres, Royaume de Haoussa, Paris, 1848.

فهرس الجزء الثاني

- 7 - ديباجة الملتقى:
- 13 - الجهود الإصلاحية للإمام المغيلي من خلال رسائله
الدكتور عبد الكريم الغوط
باحث متخصص في الشريعة والقانون جامعة أحمد بن بلة 1- وهران.
- 37 - قيم السلام والعيش المشترك. مقاربات في فتاوي الإمام المغيلي ونوازله
الأستاذ الدكتور عبد القادر بخوش
رئيس قسم العقيدة والدعوة - كلية الشريعة والدراسات الإسلامية-
جامعة قطر
- 67 - وسطية الإمام المغيلي في التوحيد والسلوك.
أ.د. محمد عبد الحليم بيثي
جامعة قطر
- قيم الوسطية والاعتدال لدى الإمام المغيلي ومكتسباتها
في تحقيق الوحدة عربيا و أفريقيا وعالميا. (قيم الوسطية) 101
أ.د/ عبد المهيمن محمد الأمين
مدير ومؤسس: جامعة المغيلي الأهلية الدولية بالنيجر - نيامي
- تأثيرات الفكر السياسي والإصلاحي للإمام المغيلي
في الممالك الإسلامية بجنوب الصحراء
- 127 - خلافة سوكوتو الإسلامية في بلاد الهوسا نموذجا
الدكتور سعيد أكنبي عالي
الأمين العام للمركز النيجيري للبحوث العربية،
وأستاذ مساعد بمركز التأهيل للدراسات الجامعية
جامعة ولاية أوسن، الجمهورية النيجيرية الاتحادية

- مقومات الدولة السلطانية في الفكر السياسي
عند الإمام محمد بن عبد الكريم المغيلي. 153
بلعربي خالد
أستاذ التعليم العالي كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية
- جامعة سيدي بلعباس
- السياسة الشرعية في فكر الإمام المغيلي: قراءة في مضمون
الرسائل المرسله لسلطان كانووسنغاي. 183
الأستاذ المساعد الدكتور: محمد مرسلين محمد إسماعيل
جامعة المالديف الوطنية- جزر المالديف-
- في مقصدية السياسة الشرعية في كتابات
عبد الكريم المغيلي التلمساني- قراءة تفسيرية لبعض النماذج. 209
اسم ولقب الباحث: شعيب مقنونيف
مؤسسة الانتماء: جامعة أبي بكر بلقايد- تلمسان
- الشيخ المغيلي والطريقة القادرية. 241
للأستاذ الدكتور محمد حوتية
الجامعة الإفريقية أحمد دراية – أدرار-الجزائر
- مدرسة التصوف الجزائرية وامتداداتها في غرب الصحراء
(من سيدي علي بن سيدي يحيى إلى الشيخ سيدي أحمد البكاي). 261
الأستاذ: الباحث: أحمد ولد سيدات (الرفاعي)
الجامعة: جامعة نواكشوط. قسم التاريخ والحضارة
- التصوف في إمارة إلورن نيجيريا بين القديم والحديث. 293
الأستاذ الدكتور مشهود محمود محمد جمبا
جامعة ولاية كوارا – نيجيريا
- إسهام الإمام المغيلي في النهوض بمدرسة التصوف الجزائرية
وفي الإشعاع الروحي والفكري لزواياها
في الفضاء المغاربي وفي ربوع غرب إفريقيا. 309
د. قاسم جاخاتي
أستاذ محاضر بقسم اللغة العربية، كلية الآداب والعلوم الإنسانية
جامعة شيخ أنتا جوب بداكار السنغال

- 341مدرسة التصوف التجانية الجزائرية وامتدادها في السودان
- أ.د. محمد قاسم مختار بدوي أستاذ اللسانيات
قسم اللغة العربية، كلية الآداب، جامعة كردفان الأبيض،
جمهورية السودان
- الطَّريقة القادرية في إمارة إلورن، ودور
361 الشيخ أحمد الرفاعي إندا صلاتي في نشرها وتطويرها.
- محمد ناصر الدين أبو بكر صلاتي
(شيخ الحلقة القادرية الصلاتية)
- 381 الإمام المغيلي ودوره في النهضة العلمية والسياسية بمدينة كنو.
- إعداد: الفاتح قريب الله قسم اللغات
- الحسبة السياسية عند الإمام المغيلي وأثرها في تفعيل
409 قيم الحكم الراشد بممالك أفريقيا.
- أ.د/ حاج أحمد عبد الله - آل المغيلي
- الرشادة الاقتصادية وأثرها في ترسيخ الحكم الراشد
441 على ضوء رسائل الإمام المغيلي للملك غرب أفريقيا.
- عبد الرحمن بعثمان.
أستاذ التعليم العالي تخصص تاريخ وحضارة إسلامية.
الجامعة الإفريقية أحمد دراية أدرار.
- مقارنة الإمام محمد بن عبد الكريم المغيلي
في محاربة الفساد الاقتصادي
465 في توات والسودان الغربي (ت909هـ/1504م).
- د. حامد لمن إبراهيم (جامعة غرداية)